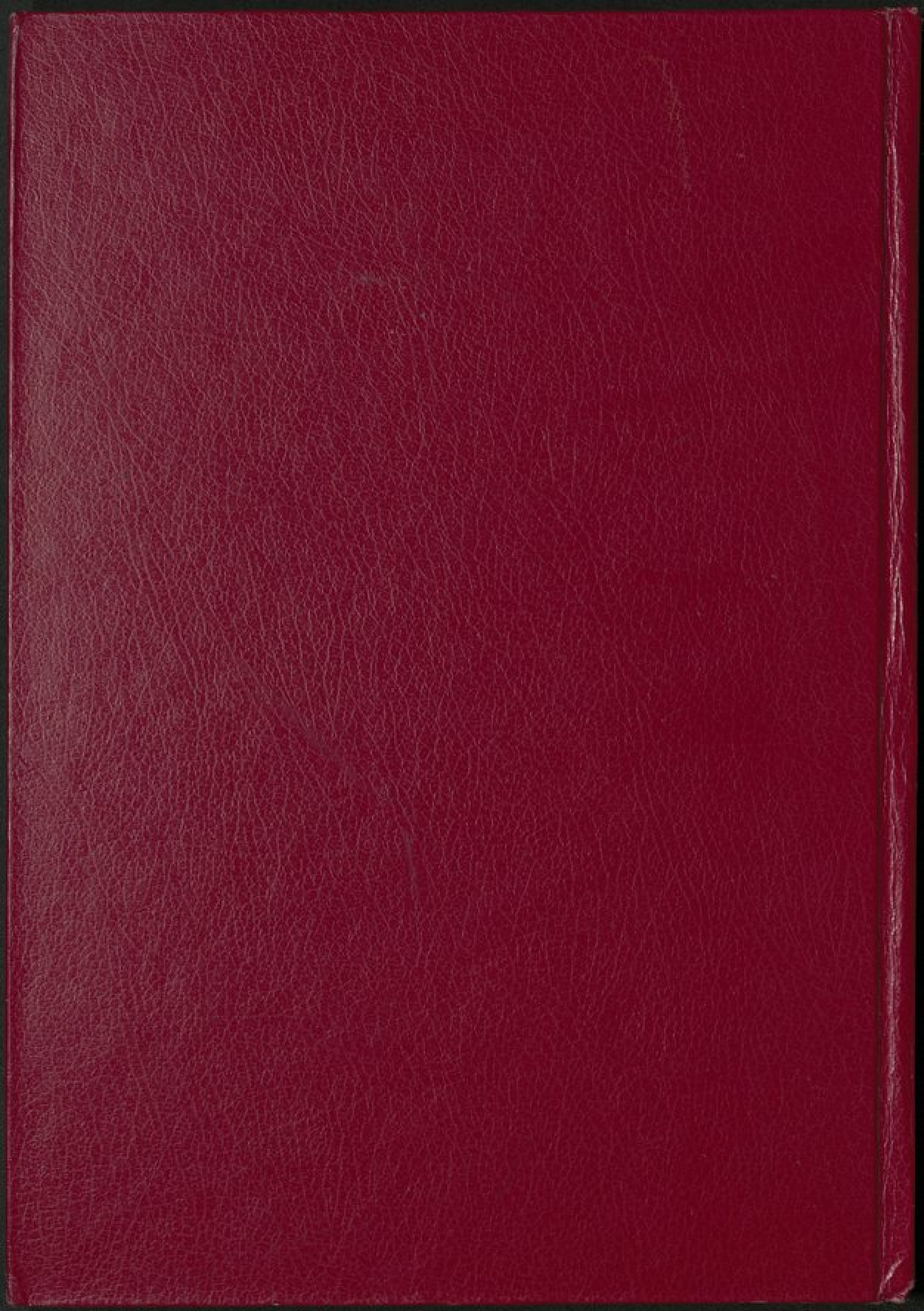
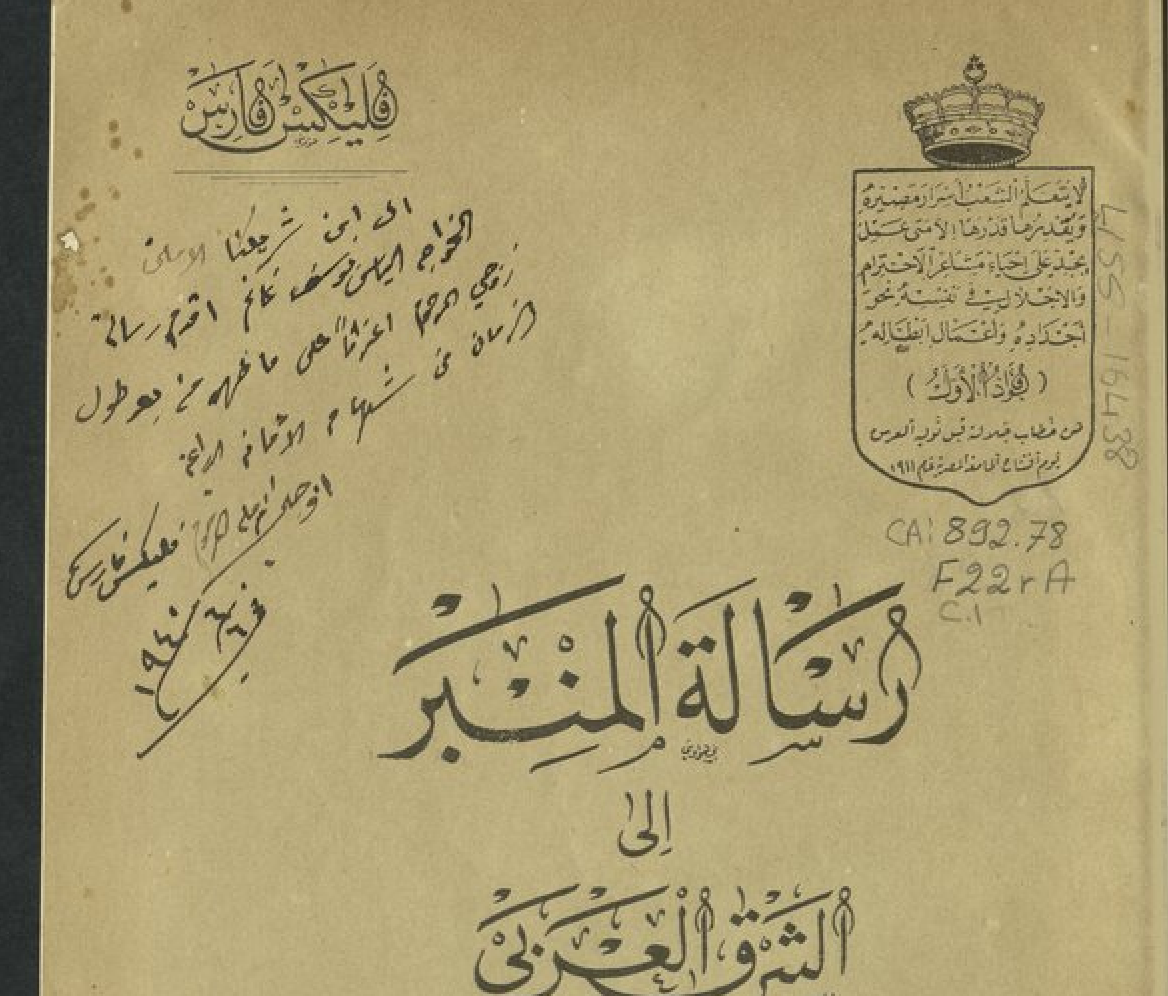



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

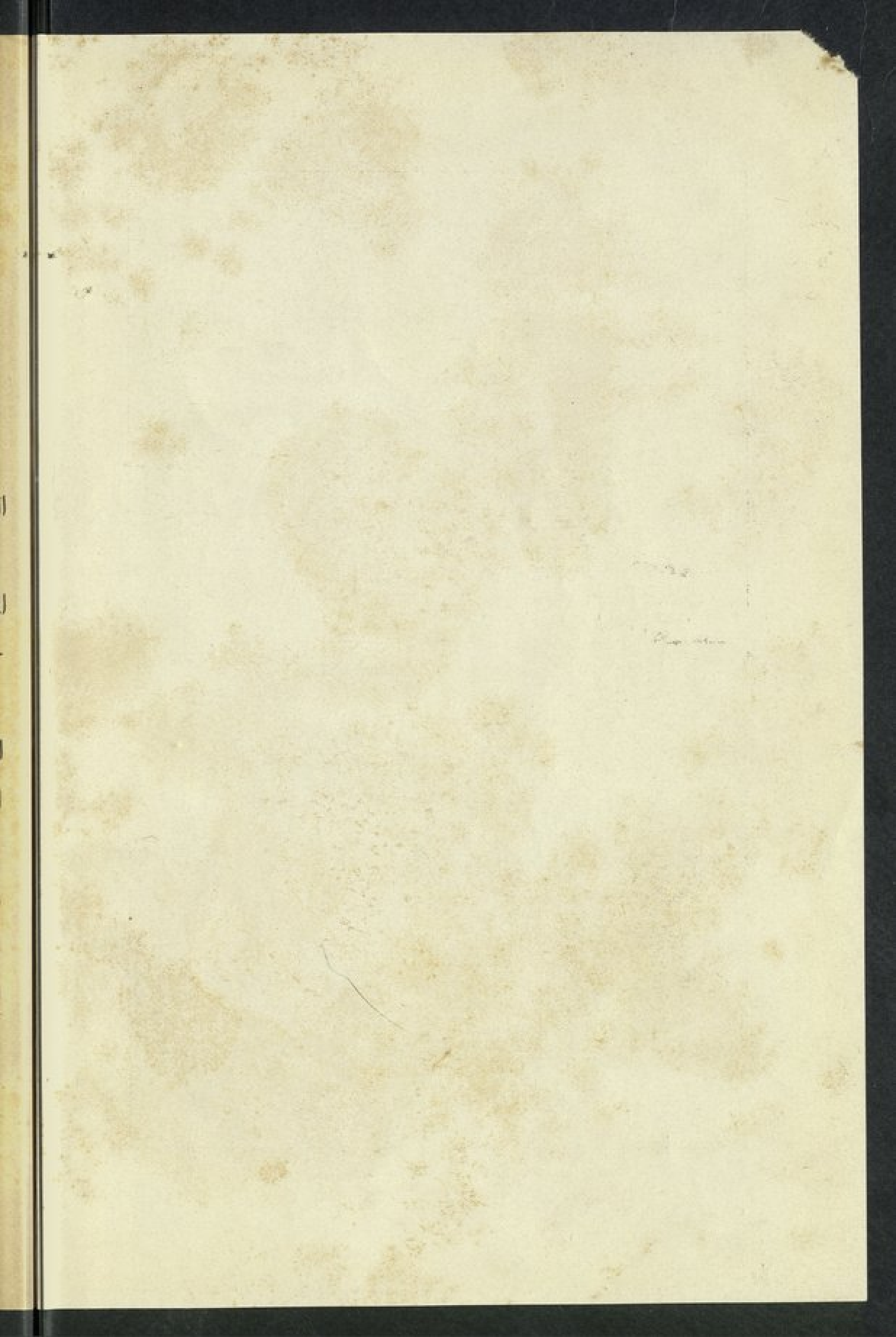


فليكس فارس

رسالة المنبر
إلى
الشرق العربي

مصر وسائر الاقطار العربية — الثقافة العربية ، فطرة الشعوب وحياتها ، فوزي المعلوف — جبران خليل جبران ، فلسفته وحياته — هاتف الخلود ، قصيدة — الهام شوقي ، قصيدة — جان الدبس ، تماثيل مجاعة لبنان وهيا كل بعلبك — الكاظمي شاعر العرب ، قصيدة — المدفن المهجور ، قصيدة — رد على كتاب الاستاذ نعيمه عن جبران — منابت الاطفال ، اصلاح الاسرة — المهود ، روءيا في السماء للاستاذ مصطفى صادق الرافعي ، مقدمة وتعليق —





اهداء الكتاب

الى المصلح الكبير الاستاذ محمود بسيوني رئيس مجلس الشيوخ المصري
والرئيس العام للرابطة العربية

أستميحك ، ياسيدي ، أن أصدّر هذه الرسالة باسمك وهي موجهة إلى الشرق العربي، وأنت عميد رابطته والمجاهد الكبير العامل على إحياء قوميّته وبعث فضائله وأمجاده

وما هذه الرسالة إلا فصول عقدتها إجابةً لرغبة بعض الادباء مما استلهمته المنبر فى محاضراتٍ ألقيتها فى هذا القطر وقد ضممت اليها مباحث وقصائد ترمي جميعها إلى هدفٍ واحد وإنْ تنوّعت مطالبها .

لقد اتجهت في ما أوردت من وصف و نقد وتحليل إلى إظهار ما في الأقطار العربيّة من مبادىء وقوى هاجعة مهيباً بالنشء إلى استنهاضها واعتمادها في معترك الحضارات الحديثة .

إني ما زلت معتقداً منذ قُدّر لي أن أعتلي المنابر أن هذه البلاد العربيّة مستودعٌ لأشرف الثقافات ومكمن لأسمى المواهب ، وان من واجب أحناد المنابر والاقلام فيها إظهار هذه القوّات لابنائها نزوعاً بهم عن الانقياد لدخيلات العادات والأخلاق التي تغلّبت عليهم بما أوجدوه من التوهّم فى أنفسهم فاستصغروها .

إنّ كلّاً من سلالات العالم تنتفض الآن لتنبّه ما يكمن في قومياتها من حوافز وهي تناوىء قوميّتنا الساميّة منزلتها منزلة تنحط عن مراتب الشعوب الآرية ، فالأقوام المنتشرة في جزيرة العرب وفلسطين وسوريا ولبنان ووادي الفرات ووادي النيل وعلى الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط وشواطىء البحر

الاحمر تدمغها حضارات الغرب والعالم الجديد بطابع التواكل والخمول في حين أن القوميّة في الشرق العربي لا تقف تجاه السلالات المنكمشة على ذاتها في العالم موقف كتلة تبني وحدتها على المميّزات الجسميّة مفتشةً على الوحدة في الانساب والعروق ، بل هي تبنيها على المميّزات الروحيّة في حوافز أصبحت فطرةً لكل سلالة قديمة توطنت هذه البلاد التي خشع عظماء العالم تحت سمائها الصافية وفوق أرضها المطهّرة بدماء الشهداء من أجل الاخاء الانساني والحق المطلق. فاذا ما افتخرت قوميّات الدنيا بالعرق ، فانما نحن نباهي بالفكرة الحيّة السماويّة التي أقامت من شماتنا أسرة واحدة كلمةُ التعارف بينها اسمُ الواحد الأحد ربّ العالمين .

لا ريب في أن هذه الأُسرة الروحيّة نزلت بها عوادي الزمان حقبة من الدهر يستطيلها الجاهلون ، ولكنّ العارفين يعلمون أنها أقصر من أن تقضي على مبادىء حضارة بقيت أربعين قرناً محوراً لتيّارات الأفكار في العالم .

***

قُضي على هذه الرسالة الاّ تنشر حتى اليوم وقد كان نصفها مطبوعاً منذ خمس سنوات ، وقد رأيت الاشارة الى ذلك ليرى المطالع وهو يقابل بين السوانح التي وردت فيها وما توالى من تطوّر على أحوال الشرق العربي وحتى على نزعات الغرب الاجتماعية خلال هذه الاعوام القليلة أنّ العقيدة التي ندين بها والتي يستلهمها مفكّرونا الناهضون مما أنزل على رسل الشرق وأنبيائه إنّما هي النور الذي سيسود العالم محرراً الانسانية من عبوديّتي القوّة والضعف ، ومرجعاً الأسرة إلى حظيرة الحق والواجب لصلاح المجتمع وتطهير الحياة .

الاسكندرية في أول سبتمبر سنة ١٩٣٦

فليكس فارس

رئيس الرابطة العربية في الاسكندرية

الأستاذ محمود بسيونى

رئيس مجلس الشيوخ المصرى وعميد الرابطة العربية

في العوالم أقطاب تمركزت القوّة فيها ، تدور حولها الأجرام منجذبة اليها ، وفي أجواء النفوس كما في أجواء المادّة ، أقطاب تمركزت فيهم العقيدة قوةً تعالت فوق كل تردد وكل حيرة ، تنجذب اليها النفوس الحائرة مستجلية باشعاعها مايكمن من تلك العقيدة فى أغوارها .

أولئك الاقطاب فى المجتمع الانساني ، وهم الزعماء السائرون فى الطليعة من كل نهضة تندفع إلى التكامل بالغرائز وأشواق النفوس ، إنّما هم المؤتمنون على رسالات يؤدونها فى الحياة لاصلاح الحياة .

من السائرين فى طليعة هؤلاء الاقطاب فى شرقنا العربيّ ، عميدُنا الاستاذ محمود بسيونى الذي دعته أخيراً روح البلاد الماثلة فى تقدير أوصياء العرش الى ترأس مجلس الشيوخ ، وقد كانت روح بلاده تدعوه فى كل زمن فيأتمر بالهامها متجرداً للدفاع عن الحق ، نزيهاً فى توليّ شؤون العباد بصيراً بتصريف الأمور ، إذ أنه يواجهها بالفكرة الثاقبة وبالنيّة السليمة ، ولكم تبزّ النوايا العقولَ فى مضمار خدمة الأمة بنصرة حقها وإزهاق باطلها .

عرفتُ العميدَ العام للرابطة العربية ، وأنا أحد أجنادها العاملين فى سبيلها منذ ربع قرن ، فكأنني رأيت فيه مجسّم العقيدة التى تغلغلت فى نفوس النابهين فى الشرق العربي فغذّتها منابرهم واقلامهم وسقاها الشهداءُ منهم بدمائهم .

الأستاذ محمود بسيوني مثال للشخصية المصرية التي تشربت من أجواء مصر مجدها القديم ومن أجواء بلاد العرب تلك العظمة المتحدرة من السماء شرائع حتى أخرجت الدنيا من طفولتها الى طور إدراكها .

إنّ الغرائز العربية الشرقية كامنة فى جميع هذه الشعوب التي وحدتها المبادىء العليا وفرقتها عوادي الزمان ، غير أنها لا تتجلى ناصعة جلية الا فى الفئة القليلة من المجاهدين الذين يحيون بروح بلادهم وأستاذنا وعميدنا محمود بسيوني يحمل هذه الروح فى نظراته الوقادة وكلماته العالية ، فاذا ما أنت جلست اليه شعرت بأن بلادك سترتبطها غرائزها ويوحدها إيمانها فتستعيد أملها المفقود ومقامها المنشود .

فلبكس فارس

كلمة العميد الكبير الاستاذ محمود بسيوني

رئيس مجلس الاعيان المصري

حضرة الأديب المفضال الأستاذ فليكس فارس ،

سُعدت بقراءة (رسالة المنبر) التي توجّهتَ بها الى الشرق العربي ، شارحاً بقلمك الفيّاض ، وتفكيرك الخصب ، وفؤادك الجيّاش بالأخلاص ، أصل الداء الذي انتاب العروبة بسبب اختلاف بنيها واتخاذهم في الحياة طرائق قدداً من التخاذل والتنابذ في الأديان ، ممّهداً للوحدة العربية وضم صفوف حفدتها بما تعجز عنه ريشة المصوّر الماهر ، ولقد كان لصدى صوتك في هذه الرسالة رنّة أعجاب فى نفسي ، وعظيم تقدير عندي ، وخاصّة تلك الأمور الأربعة التالية فأنها أجدر بالذكر وأحق بالتسجيل .

الأول — إبانتك عن ضلال مَنْ يرون فى تعدد الأديان السماويّة فى الشرق سبباً للتفرّق والتنازع بين المسيحيين والمسلمين من أبناء الشرق العربي ، وهم أبناء عمومة وخئولة ماكان لهم أن يسلمّوا زمام تفكيرهم للأهواء فيضلوا سواءَ السبيل. وما أجمل ما ذكرته في الصفحة الثامنة والعشرين من رسالة المنبر دفعاً لهذا الضلال المبين .

(إنّ الأديان فى الشرق لاتحول دون اتفاق أبنائه ، ومَنْ رأى فى الأنجيل والقرآن مايدفع الى شقاق ويؤدي الى خلاف فقد جهل حقيقة الأنجيل والقرآن..)

وقلتَ فى الصفحة الثامنة والستين :

(إنّ الثقافة الدينية مشاعٌ بين البشر كلهم فهى دعوةٌ فى صحراء التيه وعظةٌ

على جبل فلسطين وهداية في الحجاز لكل انسان أينما ولد وأيان يعيش وهذا الوحي الواحد في أصله المنزل لاصلاح الحياة في ثلاثة أزمنة مختلفة لا يتجلى للغريزة الشرقية المستنيرة بما كمن فيها من حق الا صوتاً واحداً تعالى ثلاث مرات داعياً الى المعروف ناهياً عن المنكر)

الثاني — حديثك عن المرأة ووجوب تهذيبها وتثقيفها وإعدادها إعداداً كاملاً لتكون ربة بيت جديرة بالاكبار والاجلال . وماذا تراني واجداً للتعبير بدقة عن هذا المعنى الجليل أفضل من عبارتك في الصفحة السادسة والستين بعد الميئتين من رسالة المنبر .

(أنا من أنصار تعليم المرأة وتهذيبها ، أريدها شاعرة كاتبة فيلسوفة ، اذا أمكن ، لأن العلم والشعر والرقي الأدبي ألزم للناس في بيوتهم منه في المجتمع ، ولكنني لا أريد المرأة عاملة خارج بيتها يتحكم فيها الغرباء عنها ، فأن لم تنزل الأهانة بها كأمرأة نزلت بها إهانات التقريع كمأمورة يجب عليها أن تمحو شخصيتها وتكيفها طبقاً لواجبات التنظيم) .

الثالث — إشادتك برجالات الشرق وحكمائه وأدبائه ، فهذا سبيل من الهداية واضح المحجة للناشئة الشرقية العربية ، أرجو أن يكون لهم هادياً ومرشداً في ترسم خطوات أسلافهم الذين أسسوا مجد الشرق وشيدوا حضارته حتى يستعيد هؤلاء الحفدة مكانة العروبة السامية ويستجيبوا لنداء مجدها القديم .

الرابع — إماطتك اللثام عن قصور مدارك فيئة من أبناء الشرق العربي تحاول الانسلاخ عن قوميتها والبراءة من الثقافة الشرقية العربية التي قامت على أصول من الوحي الرباني واستمدت مقوماتها من الفطرة السليمة والتنزيل الحكيم لتندمج في حضارة أجنبية مادية يحاول بعض أهلها الانسلاخ منها

والانتساب الى القومية الشرقية العربية ، وما أبدع هذا الذى نقلته فى الصفحة الرابعة والاربعين في رسالة المنبر عن الشاعر الاسباني (فيلا سبازا)

(ليس فى طاقتنا نحن الاندلسيين المعتنقين بإيمان ثابت دين المسيحية أن نجحد دين أسلافنا المسلمين ، فلئن كان الأول مستقراً فى ضمائرنا فان الثاني ما برح مستقراً فى فطرة قوميتنا المزدانة بالبدائع ، وكما إننا لو انتزعنا بعض الألوان التى موّهت بها جدرانُ كنائسنا نجد وراءها لَمَعاً مذهّبة لاسم الله الصمد محفوراً بالحروف الكوفية ، فاننا لو خدّشنا بشرتنا الأوروبية الصفراء لبرزت لنا من تحتها البشرة العربية السمراء فما قوميتنا الغربية إلاّ العرض الظاهر ، أما حقيقتنا الخالدة فهي القوميّة الشرقيّة)

وعلى الجملة ، فقد بلغت بهذا المجهود القيّم من العمل على ضمّ صفوف أبناء الشرق العربيّ وجمع كلمتهم على هدى ورشاد مكانةً تلت فى سموّها وجلالها مكانة الرسل والانبياء . ومما يزيد فى سموّ مكانتك هذه ، أنه لم يسبقك الى هذا العمل الجليل الا أفرادٌ قلائل فى مقدمتهم الزعيم الخالد الذكر المغفور له سعد زغلول فقد نادى باتحاد عناصر الأمة المصرية ، وكان له من إخلاصه لوطنه وسامي مكانته ما سهّل عليه تحقيق غايته النبيلة فاتحدت كلمة مصر ولم يبق فى ميدان وطنيتها مسلمٌ وقبطيٌ بل صار الكل مصريين دون أن يؤثّر ذلك فى الدين والعقيدة ، فمصر اليوم تجنى ماغرس هذا الزعيم العظيم ، وسيكون لدعوتك هذه ما كان لتلك ، فها هي ذي تباشيرها تلوح وضّاءة فى أفق الشرق العربيّ ولقد أخذ جسم العروبة يتأثر أبلغ التأثر كلما مسّ الألم عضواً من أعضائه ، وما خطب فلسطين ببعيد .

فاليك تهنيئتي على مجهودك العظيم ودعوتك الرشيدة الموفقة ان شاء الله تعالى ، وتمهيدك للوحدة الشرقية العربية بأمانة وأخلاص .

واني أدعو الله العلي القدير أن يمدّ في حياتك الطيّبة المباركة حتى ترى غرسك استوى على سوقه وأتى بأطيب الثمرات وأن يكثر من أمثالك العاملين المخلصين .

القاهرة فى ١٣ من شعبان سنة ١٣٥٥ هجرية

٢٩ من اكتوبر سنة ١٩٣٦ ميلادية

محمود بسيونى

كلمة فقيد الشرق المغفور له الأستاذ الكبير

العلامة محمد رشيد رضا

صاحب المنار

إنّ رسالة منبرك جديرةٌ بالنشر ، فانشرها لأنها من التمهيدات الأدبيّة للإصلاح والوحدة الانسانية الكاملة التي ستتعاون علانية على النهوض بها إذا قرب الاستعدادُ العامُ لها ، والسّلامُ عليك .

القاهرة فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

محمد رشيد رضا

كلمة الفيلسوف العربي الكبير العلامة الأستاذ
مصطفى صادق الرافعي

عزيزي الأستاذ النابغة فليكس فارس ،

قرأت كتابك (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) فما أحسن ما أبدعت وما أبدع ما أحسنت ، لكأنّ الشرق هو ألقى حكمته فى فمك وأرسل كلمته من قلمك ، ثم نصب لك منبره العالي وقال لك — قم فتكلم

لم أرك انحرفتَ عن الحقيقة ولا ملتَ عن وجه الرأي ولا نزعتَ الى تقليد ولا جنحت الى متابعة ولا غركَ اسمُ فيلسوف ولا خدعك اسمُ كاتب ، بل كنت كالسيف لا يعمل الاّ عمل حدّه القاطع ضارباً فى كل مرّة ضربته فى كلّ مرّة

وفى كتابك أنّاتٌ هي رعدقلبك الحرّ ، وفى بيانك إشراقٌ هو نور نفسك القوية ، فلا جرمَ كان ما كتبته من الكلام الروحيّ البليغ الذى يُقرأ بالعين ويُسمع فى النفس فى وقت واحد

ولقد أدركت بفطرتك السليمة وروحك الملهمة ما فى دين الفطرة من الحكمة الاسلامية البالغة وجئتَ من ذلك باشياء كأنها من نبع الوحي ، فكنت بعقلك وذكائك وإحساسك النبيل صورة أخرى لحكيم الالمان وشاعرهم (جيته) حين قال : — اذا كان هذا هو الاسلام فكلنا مسلمون .

حيّاك الله وأدام النفع بك وأمتع بأدبك والسلام

من المخلص

مصطفى صادق الرافعي

كلمة العلامة الكبير الشيخ الجليل عبد الوهاب النجار

حضرة الأستاذ الأديب والخطيب المصقع فليكس فارس

قرأت (رسالة المنبر الى الشرق العربي) فحسدتك حسداً أعيذك بكلمات الله التامات من شره . رأيتك تحلق دائماً فوق البواعث المادية وتنظر الى العواطف الهاتفة بالأمم الشرقية الحافزة الى التآلف والتعاطف المهيبة بها الى نبذ البالي العتيق من دواعي التفرق والتباين.

وهذا الذي تدعو اليه وتهتف بالاستمساك به هو الثمرة الناضجه لدين الحق الذى رضيه الله لعباده وفى سبيل تلك الثمرة الشهية أرسل موسى وعيسى ومحمداً وسائر أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ليقيموا الناس على الجادة الجامعة غير المفرقة (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوحٍ والنبيين من بعده — النساء ١٦٣) (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى إنْ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه — الشورى ١٣) .

رأيتك أيها الفاضل ، تناجي العواطف الكمينة فى أمم الشرق وعقلها الباطن الذي لا يلمّ بساحته الا كلّ حقيقة مجردة عما نسجتها حولها الأجيال الذاهبة ، وتُري الامم الشرقيه صورةَ اتحادها وتآلفها فى أبهج صورة حالية بأبدع حلية تشتهيها الأنفس وتلذها الأعين .

ولله إبداعك فى ضربك المثل لابناء الشرق المتباعدين او الذين باعدتهم أكداس الاضاليل باثنين أحدهما فى جانب من هرمٍ عاتٍ لا يمكن أن يتصل

أحدهما بالآخر ولكنهما لو علوا بنفسيهما على تلك الأكداس وارتفعا عن تلك الأضاليل وارتقيا لالتقيا عند قمّة الهرم .

ان مثَلَك هذا الساحر الأخّاذ الذى جلوت فيه الحقيقة سافرةً هو المنزع الذي ينزع اليه جلّة الواصلين من الصوفية المتحققين بها

فقد أخبرنا أستاذنا الأمام المرحوم الشيخ محمد عبده حين زار السودان أواخر سنة ١٩٠٤ واوائل ١٩٠٥ إن أحد الصوفيّة الأنجاب الواصلين (وقد ندّ اسمه عني الآن) كان يأتي اليه اليهودي والنصراني والمسلم فيأخذ على كل منهم العهد ويدلّه على الطريق التى يصل منها الى الله تعالى متى جاهد نفسه حقّ الجهاد وسار فى الطريق التى رسمها له ، فقال له قائلٌ كيف تُدخل هؤلاء المتفرّقين في الأديان والعقائد فى طريق واحد ، فقال الشيخ : لا بأس فانهم سيلتقون فى آخر الطريق حين تزول عنهم تلك الحواجز التى فرّقتهم .

إن الذي يدعو مثلي الى ما دعوت اليه سيلقى من الجامدين من الدّيانين أذى كثيراً وليسمعنَّ منهم غير ما يحب ولكن ذلك لا يعطل سيره على الجادّة ولا يحيد به عن سبيله السويّ وجديرٌ بمن كان مثلك أن يصغي الى صوت شيخ المعرّة وهو يقول .

اذا قال فيك الناسُ ما لا تَودّه فصبراً يفي ودَّ العدو اليكا
لقد كذبوا مَيناً على الله وافتروا فما بالهم لا يكذبونَ عليكا

وفقك الله وسدّد خطاك والسلام

القاهره اكتوبر سنة ١٩٣٦

عبد الوهاب النجار

تمهيد

أوجه رسالتي هذه الى الشرق العربي متوّجة بالحكمة البالغة التى نطق بها المغفور له صاحب الجلالة فؤاد الاول لتكون شعاراً لا لمصر فحسب بل لسائر الاقطار العربية التى ترى اليوم فى صاحب الجلالة فاروق الاول – موئل العروبة ومعقد أمالها لأنه ينطق بمثل هذه الحكمة وينشر روحها فى بلاده كما ينشرها سائر ملوك العرب وامراؤهم وزعماؤهم فى بلاد العرب وينشرها فى المهاجر أمراء الأقلام والمنابر بين اخوة لنا نزحوا وما هجـروا ولم تزل العروبة عَلمهم ونخوتهم اينما نزلوا

ويجدر بي فى مطلع هذا العصر الجديد الذى تحل المعاهدة المصرية البريطانية فيه العقدة الكبرى فى المسألة العربية ان أصدر هذه الرسالة بالقصيدة التى القيتها في حفلة لجنة الوفد في حديقة النزهة بالاسكندرية يوم ١٤/١٠/١٩٣٦ ، ثم الحقها بالخطاب الذى القيته فى الحفلة التى اقامتها جماعة نشر الثقافة لتكريم وفد الطلبة العراقيين فى ٣/٢/١٩٣٦ ، ولكل من القصيدة والخطاب مرماه فى هذا التمهيد

العهد الجديد

الى دولة الرئيس الزعيم مصطفى النحاس باشا

حَيِّي سعداً إنَّ ذا يومُ الوَفا ليسَ سعدٌ مُدرجاً تحت الصَفا
روحُ مِصرٍ نفَخَت فى رَوْعهِ فهوَ عيساها وأنتَ المُصطفى
كتَبتْ من وحيهِ إنجيلهَا فأتيتَ الآنَ تُملي مُصْحَفَا
يَختمُ الهدي بشرعٍ عادلٍ كنتَ فيهِ مُنصِفا مُنتَصِفَا
أكمِلَ السعيُ معَ الدُنيا فلَمْ يبقَ غيرُ السعي يُدني الهدَفا
دارتِ الأقطابُ فى أبراجِها فأدارت فَلَكا مؤتلِفا
شمسُهُ الحقُّ ولولا سُحُبٌ عكرّته في الدياجي ما صَفا
رُبَّ ما تَكرُههُ من غابرِ الدهرِ يؤتيكَ الجنانَ المُرهَفا
رُبَّ آراءٍ إذا ما انصدَعتْ كشَفتْ من كلِّ صوبٍ ما اختفى
عرفَ الشملُ بها وجهتَه وهوَ لو لَمْ ينفرطْ ما عرفا
إنَّ آراءً لِمصرَ اختلفَتْ ما بَنَتْ يوماً عليها الحلَفا
بُذلَ الجهدُ مديداً كاملاً من رآه ناقصاً ما أنصفا

إنَّما الأصـــداف فيهـــا دررٌ   فَدعِ اللاحـــي يَعِدُّ الصَدَفا
ليسَ من يبلو الوغى مُستبسلاً   كالذى يرقبُهـــا مُستكشِفا

* * *

أمّةَ المجـــدِ انهضي واستقبلي   من وراءِ العهدِ مجداً سلَفا
حيِّ فاروقاً فـــفي طلعتـــهِ   بسمةُ الأقـــدار أنّى عَطَفا
إنَّ في مَفرقهِ روحَ البَها   وبُبردَيهِ العُـــلا والشَرفا
عَشِقَ الشعبُ به امالَـــهُ   فغدا بالشعبِ صَبّاً كلِفا
كلَّمـــا حنَّ الى أُمّتـــهِ   زادتِ الامّةُ فيـــهِ شغَفا

فليكس فارس

الأحلامُ القديمة

أمام هذا الحفل يتلاقى فيه أبناءُ العراق وأبناء مصر ، أقف من أحلامنا القديمة موقف مَنْ يشهد فكرة تستحيل واقعاً محسوسا ، فيخيّل لي أن هذه الجدران الاربعة تتراجع وتتراجع حتى كأننا على منبسط فسيح لا يتصافح عليه أبناءُ مصر والعراق فحسب ، بل جميع أبناء العروبة من جميع الاقطار .

واذا نحن أصغينا الي همسات السرائر الكامنة فينا فأنها لتسمعنا تهاليل الجدود فى اللحود ومناغات الاطفال فى المهود يستقبلون من قوميتهم فجراً جديدا .

إنّ لهذه الشعوب المنتشرة فى الشرق العربيّ فطرة واحدة كوّنتها العقيدة والتقاليد والبيان ، فهى تنشد مُثُلاً عُليا للحياة تتوافق وحوافزها المستقرّة فى أساليب تفكيرها لذلك كان لزاماً على هذه الشعوب أن تتجه الى جامعة واحدة تبعث لها الحضارة الملائمة ترتاح اليها سريرتها .

لقد مرّ زمنٌ طويل على هذه الشعوب بلتها الايام فيه بالعوادي فاستنامت غرائزها حتى أصبح العربيّ يُعدّ دخيلا على أية فرقة من فرق قومه إذا تخطّى مسقط رأسه .

وكان طوراً مليئا بالشقاء والذل ، ذلك الطور الذى تخدّرت فيه السريرة في الأمة المشتته المتقاطعة إذ أصبحت كالجسم استحكم الخلل فى ضفيرة أعصابه فامتنع عليه الاحساس المشترك ، وهكذا كان كلٌّ من هذه الشعوب وقد انفرط

عقدها ينكمش على ذاته متلفعاً بأنانيته ، غير مشعر الآباء بأوصابه والآمه ، بل غير مشعر حتى بتلك الاوصاب والآلام ، اذ كانت تنزلق عن كتل الشعب المتخدر لتسقر في صدور العباقرة والناهضين حيث لجأت سريرة الأمة العربية عقيدةً تغذّي الأرواح بالآمال هازئة بكل وعيد واضطهاد .

ومَنْ عرف هذه الشعوب العربيّة كما عرفناها نحن منذ ثلاثين عاماً ، ومن تكشّفت له عللها وأدواؤها كما تكشّفت لنا ونحن نتسنّم منابرها في عهد الدستور العثماني ، ليقف اليوم مندهشاً مما فعلته الحوافز القديمة الطيّبة نبّهتها نبرات المنابر وصرير الأقلام بين عناصر كل قطر وبين جميع الأقوام في جميع الأمصار العربية .

إنّ في الأمم كما في الافراد ، ضمائر وسرائر ، فما أضمرنا من تفكيرنا في عقلنا الواعي ونحن نضع المقدّمات ونأخذ بالنتائج ، فهو الضمير يحفزنا الى التمتع يومنا منكمشين على أنفسنا في محيطنا الضيق ، وما شعرنا به بمعزلٍ عن تقديرنا والاعتبارات التي يأخذ بها تحليلنا فذلك هو سريرتنا التي تتحكّم باتجاهنا ويكمن فيها مصيرنا . وما دام ضميرنا المسيّر بأرادتنا الجزئية الناظر الى يومنا متناسياً أمسنا ومعرضاً عن غدنا يعارض سريرتنا وهي مجلي الارادة الكلية العليا فنحن لمّا نزل نقوم بالجهاد الأكبر في نفسنا متجهين نحو الحقيقة الكامنة فينا ، ولن نبلغ الفتح الذي وعد الله المجاهدين ما لم تشرق سريرتنا على ضميرنا فترينا آيات ربّنا في أنفسنا وفي الآفاق .

ها إنّ السريرة العربية تشرق على البلاد العربية بأسرها بعد إن كانت لربع قرن مضى شرارات مبددة في صدور الأفراد المضطهدين المشرّدين ، أصغت

الأمة المبددة لصوت نفسها بل لأصوات القبور تتعالى من أفواه أبطالها فسقط التقاطع الدخيل أمام الوحدة الأصيلة ، وهذا هو الشرق العربيّ يتجسم أمامنا كما رسمته أشواق مجاهدينا ودماء شهدائنا .

أفليس هذا الاجتماع هذا المساء تتعانق فيه جميع الأقطار العربيّة بين سواعد ابناء دجلة والنيل تحقيقاً للرؤى التى أحاطت بمنابر خطبائنا وثرتها حواري الخلد على قصائد شعرائنا ؟ . . أفليس هذا الاتحاد بين اخوة طال فراقهم أجيالاً المثل الأعلى الذي تتبّعه فيصل بين إرعاد القذائف وصليل السيوف أفليس الرجوع الى الثقافة العربية الشرقية الأصلية وتوحيد الأدب بلغة الجنان ما طمح اليه المليك المفدّى ابو الفاروق العامل على بعث مفاخر الجدود فى الاحفاد ؟

أن ما نرى من تضامن بين شعوبنا ، وما سمعتم من أبناء النيل في رحلتكم هذه إنما هو الدحض المبين لكلّ تفرقة يُراد دسها بين أخوان العروبة وهم متجهون الى إحياء حضارتهم وأدآبهم على ما ترتاح اليه دون سواه فطرتهم الشرقية العربية .

ما لنا ولأقلام الحدثان تمرّ منشيئة تخوماً وحدوداً تتراقص كرّاً وفرّاً بالخطوط الحمراء والزرقاء ، ما همّنا أن تمثّل جامعتنا أقواماً وأوطاناً على صفحة الغبراء اذا كان وطننا واحداً وقوميّتنا واحدة فى السرائر والقلوب ؟

أننا لا نمثل الآن مؤتمر فصل ووصل بل نمثّل سريرةً واحدة لأمة تدين بتوحيد ربّها والانسانية وتتكلم بلغة الجنان .

لقد يحسبنا الغريب عنا شعوباً متقاطعة ؛ كلٌّ منها منكمشٌ على نفسه فى

بقاعه ولكننا عندما نجتمع وتنتبه فينا سرائرنا قاضية على ما أضمرت العوادى فينا من دخائل التفريق ؛ تنبض فى صدورنا قلوب الجدود وتسمعنا افواهنا اصواتهم فى القبور .

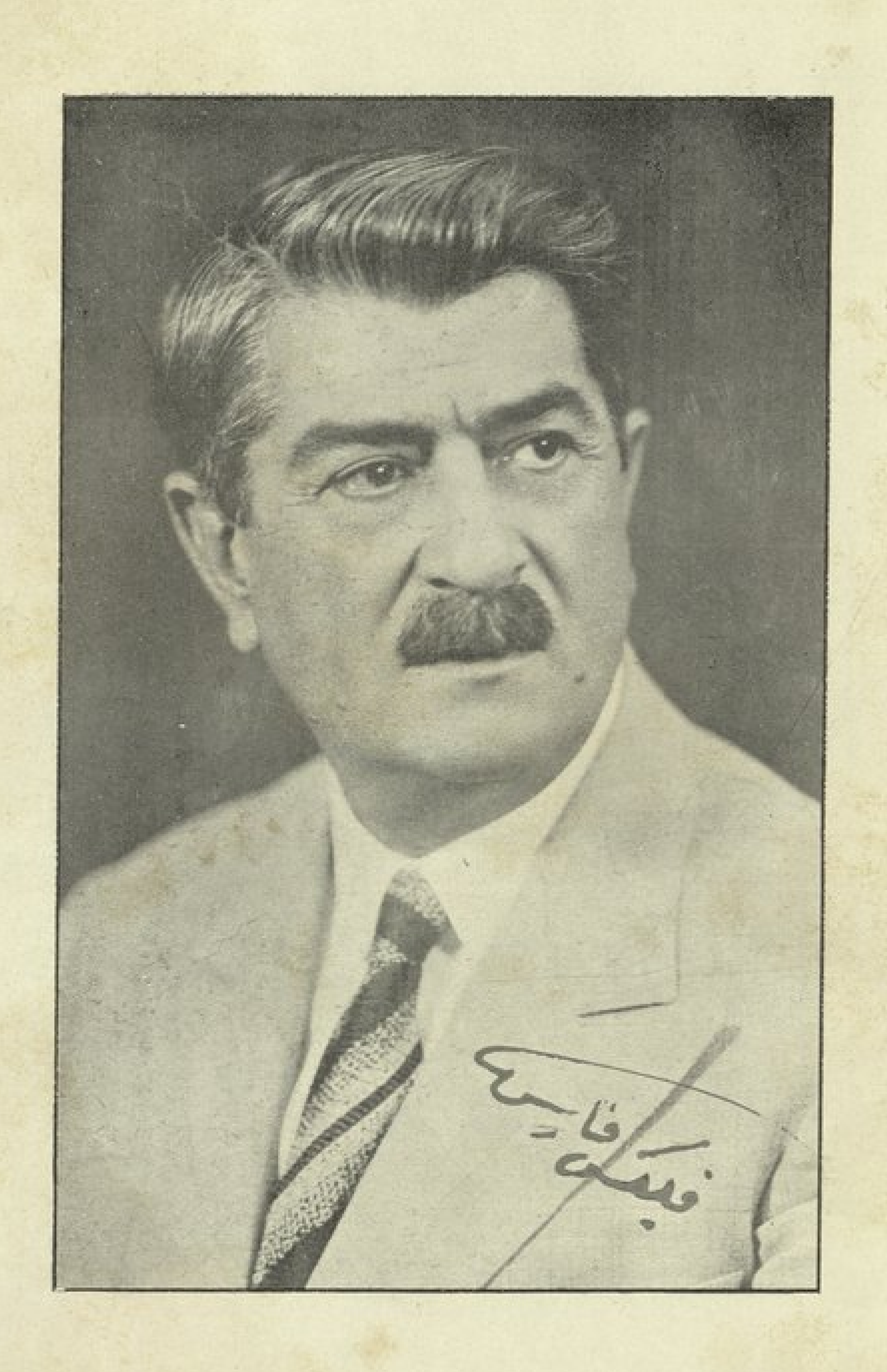
أفما شعرتم ، يا ابناء العراق ، وأنتم تحلون ارض مصر أهلا ، أنكم لقيتم على هذه الأرض جميع ما فى الأمصار من عرب ، وأحييتم بالذكر والأمل ما ورأنا وما أمامنا من أجيال .

اذا ما عدتم الى قطركم الناهض ووقفتم أمام عرش المليك غازي فقولوا له وقولوا الجميع أخواننا هنالك إنكم ما لقيتم هنا أبناء مصر فحسب بل لقيتم أبناء الأقطار العربية كلها .

الاسكندرية فى ٣ — ٢ — ٣٦

فليكس فارس




فيلكس فارس

«١»

انتم ونحن

مصر والبلاد العربية

البلدان الآهلة بالعرب على سواحل البحر المتوسط وما ورأها - نظرات في شعوب سوريا ولبنان وتاريخها القديم - روح الجماعات قبل اعلان الدستور العثماني وبعده - منشأ التفرقة بين عناصر مصر وسوريا ولبنان منذ ربع قرن - ولي الدين بك يكن - تأثير الجماعات على المنابر وسر الالهام في الخطباء - مصر والبلدان العربية من حيث الثقافة والادب والاجتماع - تفاهم المدنيتين العيسوية والمحمدية - المدنية العتيدة في قلب الدنيا

يا ابناء النيل

خطيبكم هذا المساء، أيها الاخوان، نشأة الفطرة الشرقية المحررة من كل انطباع غريب فى الفكر ومن كل استهواء دخيل فى العاطفة، ولد تحت ظلال الصنوبر والارز ودرج بين قمم لبنان واغواره، حراً طليقاً من كل ما هنالك من تعاليم مشتتة الاهداف وثقافات متباعدة المرامى، قضى الله له الاّ يستظل سقف مدرسة، فكانت اجواء الشرق مدرسته الكبرى يتلقن من اصداء آفاقها ما لم تزل تهمسه فيها اصوات القبور....

ان من يقف بينكم هذا المساء يدين بوحى الشرق المثلث فى التوراة والانجيل والقرآن والموحد فى قمة هذه الطرق المنتهية عند قاعدة عرش الله، يقف الآن كما وقف فى كل زمان مستقبلا الشرق ومستشرقاً القبلة ومن المطلعين نور وحرارة للافكار والقلوب،

لقد استلهمت طويلا على القمم، حيث تنعكس بين مغاور الصخور اصداء الشرق من جهاته الاربع، روح الشرق الهاتفة المهللة فى الجدود والهامسة الناحبة فى الاحفاد، وما كلماتي اليكم الا نبرات ذلك الالهام.

فى صيف عام ١٩٠٨ عند ما جاء الدستور العثماني مقيما المنابر على الجهة الثانية من ضفاف بحر الروم، رفعنى الاستلهام الصامت طوال عشرين سنة الى ذرى هذه المنابر فتسنمتها، لا رسول سياسة، بل رسول حرية ومساواة واخاء، وان كانت نبرات صوتى قد تغلغلت فى النفوس ابان ذلك الانقلاب وما تلاه من الحادثات، فما كان ذلك الا لصرخة فى فى من اصوات القبور تهب فوق كل سياسة تنال منها الاشخاص والايام، فما كنت بالامس ولا انا اليوم بالخطيب السياسى، انصر فئة على فئة او زعامة على زعامة، وقد اخترت لنفسى السير فى قافلة الجهاد الاكبر طلباً لانتصار النور على الظلمة فى شخصية الفرد وفى شخصية الامة لاننى

اعلم ان القوة العليا لا تغير ما بقوم ما لم يغيروا ما في انفسهم . ونحن وانتم على ضفتي هـذا البحر حيث يخفق قلب الشرق فينا لمعات الانوار وحولنا حنادس الظلام ، والمجاهدون الحقيقيون بيننا هم المنتصرون للنور على الظلمة فينا .

اما وقد اردتم ان اسامركم هذا المساء بحديث عنكم وعنا ، فانني سأرجع بكم الى عام ١٩٠٩ الى الزمن الذى أتيح لنا فيه ان نكشف عن قروحنا امام وجه الشمس لننكأ صديدها ونداويها .

اعود بكم الى ذلك العهد فاتلو رسالة كنت نشرتها فى جريدتي لسان الاتحاد عن سوريا ولبنان وفى هذه الرسالة اساس بحثنا الآن .

« ما بين آسيا الصغرى للشمال والفرات والبادية للشرق وقسم من بلاد العرب للجنوب ، والبحر المتوسط للغرب ، تتجلى سوريا ولبنان بسلسلة جبالهما باتجاه ينتهى غرباً إلى البحر المتوسط وشرقا الى شمال نهر الفرات وجنوباً الى رمال صحراء الشام ، وهذه السلسلة التى تمتد بطولها من آسيا الصغرى حتى بلاد العرب ، من طوروس القاحل الى الصحراء تعرض للناظر أغرب تجليات الطبيعة وأبهى اتساق فيها

تلك هى بلاد سوريا ولبنان وفيها بيروت ودمشق وحلب وأورشليم المدائن الأربع الواقفة كالعواصم لما حولها ، يطوق جبلاها الكبيران بسلاسلهما أثلام الاودية العميقة والسهول المستدرة منهما مياه السماء

فى تلك البلاد ما ليس فى سواها من أنواع التربة والاقاليم فهنالك سهول الحر وجبال القر وهنالك السفوح المنخفضة والقمم العالقة بأهداب السحاب ، فأرضنا منبت كل ما فى مملكة النبات من غلال وأزهار وأثمار وهى كذلك منبت كل ما تتطلب الحضارة من مراتب العقول والاجسام فإذا ما أوجدت لنا السهول رجال القناعة والجد دفعت لنا الجبال برجال العزيمة والفكر والخيال وأمدتنا الأوساط

برجال المهارة والفنون

لنا السنديان والارز ، لنا الكروم والحقول ، لنا المروج والازهار — فهنالك إذاً القوة والفائدة والجمال .

تلك هي بلاد سوريا ولبنان ، أغدقتها العناية مناعة الحياة وبهاءها ، ولكنك لا تقلب صفحة من صفحات تاريخها دون أن تجد عليها لطخة سوداء من مظالم الانسان وضلاله وأطماعه ... وقد كانت هذه البلاد أرض ميعاد لكل الشعوب دوراً فدوراً وما بلغ شعب أمنيته منها فاستقر فيها إلا ورفع صوته بالانين متألماً منفياً شقياً

ما من شعب ظهر على الارض إلا مرّ بسوريا ولبنان قبل أن يتوارى عن صفحة الوجود مبقياً على تلك الارض آثار جهاده وشقائه وما مرت بها من الانسانية قفلة إلا تركت عليها تائها شريداً فكل معسكر غازٍ لها ترك فيها بقية مستأسدة وكل حاكم فيها أبقى عليها سلالة تحلم بالتيجان وتطمح إلى العروش .

إن في أصغر الاقاليم من هذه البلاد خليطا من سلالات العبرانيين والعجم واليونان والروم وفيهم الظالم والمظلوم والمتحكمون واللاجئون ، العناصر الضاحكة والعناصر الباكية ، الأقوام التي تتعصب وتحترب والأقوام التي تتعصب وتخضع للشقاء . هنالك التركي والعربي والبدوي ، هنالك السني والجعفري والنصراني بعديد طوائفه والدرزي واليهودي واليزيدي ، مزيج غريب من المبادىء الراسخة في خلافها والمتلبسة بالتساهل تبعاً لتقلبات الزمان ..

نحن ممن لا يرون عصبية في الدين ولا قومية في المعتقد ولكن من الاديان في سوريا ولبنان ما يتلمس دعامته في القومية لا في الاعتقاد ومن أبناء هذه الاديان من ينصرون أخاهم ولو كافراً بالحق المطلق على الغريب عنهم ولو مخلصاً لربه على دين اجداده .

من الاديان ما يوجب على بعض الناس عبادة النار والشيطان ومنها ما يوجب على أتباعه احتكار الله عز وجل لحسابهم وهنالك أتباع يتحزبون لشخصية الاموات فيطرحون دين الله فى مهاوى شحناء مات القائمون بها منذ قرون ولم تزل هى حية فى القلوب

تلك هي شعوب سوريا ولبنان فى دياجر مذاهبها ، وعلى صفحة هذه البلاد الجميلة التى تتدفق العواطف القديمة حتى من قلوب أحداثها تتلمس عبثاً وحدة الثقافة والأميال للاتفاق على مصلحة ، فان ما تراه فئة من القوم نفعاً يتجلى ضرراً فادحاً لفئة أخرى وما يراه أحد العناصر شجاعة يراه الآخر تهوراً وجنوناً ،

إذا كانت بعض العصور قد أبقت لنا حب الاسفار ومهارة الاتجار عن الفينقيين واليونان فأنها قد أبقت لنا أيضاً تراث الربا والمضاربة و تطلب الكسب تحيلا لا اجتهاداً . وإذا كان عصر العرب قد أبقى لنا الشهامة والأنفة فقد مر جدودنا بعد ذلك فى أدوار أورثتنا القساوة و العنف . وإذا كانت كتبنا المنزلة قد أمرتنا بالرحمة والتساهل فقد علّمنا ما علق فى هذه الاديان السماوية من المدنيات البائدة وما دس فيها مستغلو حق الله فى خلقه كيف نتعصب عن غباوة و كيف نهدم شريعة رب العالمين باسم رب العالمين .

من هذا المزيج الغريب المتناكر يجب أن يقوم شعب واحد للوطن الواحد ، من هذه العناصر التى تمخض بها الشرق والغرب والجنوب والشمال يجب أن يخرج النبت الجديد والعنصر النير القوى الذى يترفع عن الترهات والاوهام فلا يقوم فيه من يقول لك أن ملكوت السموات مسجل باسمى ومن لا يعبد الله على طريقتى فهو ابن الهلاك ، لا يقوم فيه من يقول لك أنا صاحب البلاد وما سواى فدخيل تابع لا حق له لا ما أراه أنا حقاً . لا يقوم فيه من يقول لك لا تلعن

الشيطان لانك تهين ضميرى وتتحامل بلعنتك على قومى .

فى ذلك الزمان ، ومن يدرى متى يكون ذلك الزمان ، حينما يقدر الانسان أن يقول الحق دون أن تثور عليه كامنات التعصب والجهل ، حينما يستحيل القلم إلى منجل يقطع الزوان من بين القمح ، فيتمكن المفكر من قتل الترهات دون أن يقتل من أجلها الناس ، فى ذلك الحين يكون العليل الكبير قد قارب الشفاء .

ان الجهر بالحق حق على المجاهدين فى سبيله ولكن ما يفيد الجهر أمام جهلة لم نعلمهم كيف ينسلخون عن جهلهم أولا .

قبل أن نرمى ببذور الحكمة إلى الارض المستحجرة يجب أن نمزق بالعلم والتهذيب ما اطبقت عليه من جهل وتعصب فنفتح فى جمود تلك الارض اثلام الحياة

ومن لهذا العمل غير التعليم الوطنى الذى يخلق القوميه الوطنية بسلخه عن دين الله الواحد ما حبكت المدنيات القديمة حول مذاهبه من بدع التفريق .

ان شقاء بلادنا كامن فى سلالاتها وتعسها راسخ فى ضلال مذاهبها وقد كشف لنا الماضى مكامن قروحها وهذه سطور الدماء فى تاريخها محشر العبر لأهل الذكر إن كانوا يعقلون .

انها البلاد ملأت جوانبها أثار الجور وفظائع الأقتتال بأسم القومية وبأسم الدين ، سرح الطرف على شاطىء بحر الروم من بيروت إلى صيدا إلى يافا إلى أورشليم واتبع حدود البلاد حتى بلاد العرب فآسيا الصغرى فلا تتجاوز هذه الاماكن حتى تمتلىء أبصارك من مشاهد الخرائب والأطلال وهى نفسها سطور التاريخ الدامية راوية جهل الانسان وتمرده على أن يكون أخا الانسان .

لقد شاهدت صور أول عمارة تجارية وفتحت موانيها يد الجد فهدمتها أيدى المظالم وبنى اليونان المرافىء فألقتها حكومة الترك فى اللجج وكانت بادية الشام

جنات البلاد فى الشرق ومذخر الخلفاء فأصبحت مراتع المتشردين منذ القرن السادس عشر حتى اليوم .

ان صور وصيدا تلك الأماكن التى انبثقت منها حضارة العالمين وتجارتها لم يبق منها غير ذكر مظلم يكاد يكون الحلقة المفقودة فى سلسلة التاريخ .

تلك بعلبك وانطاكيه وحمص والرملة وكل المدن القديمة أصبحت أطلالاً يبنى البائسون أكواخهم فوق ردومها ويتيه على رمادها أبناء الفقر والشقاء .

* *
*

ذلك هو المبدأ الذى كنت أبذل الجهود لنشره بين أبناء قومى ، وما هذا المقال يبعث خطرات الفكر منذ ربع قرن إلا صدى خافت لنبرات عاليات كنت أقرع بها الاسماع من المنابر لأدعو إلى الاستعباد للحق النير تخلصاً من عبودية الضلال والأمم كالأفراد لا تشقى إلا بما منت به نفسها من علل

وما كان حالنا نحن فى جهلنا وتعصبنا وانقسامنا إلا ما رسمت فى هذا المقال وقد نصبت فيه ميزان الحق لا ممارياً ولا مستضعفاً أمام أمتي وبلادى ، وقد مرت السنون على العهد الذى تطلعنا منه إلى ما وراء الدستور العثمانى من آمال ؛ فأذا بنا تأهون عن المحجة بالتواء السبيل أمامنا لالتواء مناهج الانسانية كلها منذ نزلت بالبشرية كارثة الحرب العظمى ، وإذا كانت بلاد سوريا ولبنان قد بلغت بعض الشأو فى التغلب على أدوائها ، فأن توحيد الثقافة لم يزل فيها أمنية قد يتسنى لنا تحقيقها فى مستقبل قربه وبعده مقدوران فى الغيب المجهول .

أما أنتم ، أنتم أبناء القطر الشقيق ، وما قطرنا وقطركم إلا فلقتا قلب الشرق النابض على ضفتى هذا البحر الفاصل بين عالمين وبين مدينتين فما كنتم منذ ربع قرن إلا ما كنا نحن ، ولكن روح عباقرتكم قد تمشت فيكم بأسرع ما تمشت فى أقوامنا أرواح عباقرتها النابهين ، وانى لأعرض عليكم رسماً وضعه منكم وعنكم منذ ربع

قرن شاعركم وحكيمكم بل شاعر الشرق العربي وحكيمه ولى الدين يكن ، وأن أصدق الرسوم لخطوات الامم هى التى تخطها للأحقاب الآتيه النفوس الصافيه المجردة والاقلام التى لا تباع ولا تشرى .

عند ما حكم القضاء بأنحجاب ولى الدين عنكم بعد أن وفى قسطى عذابه بنفسه وبكم ، بعلته وبعللكم ، لم يشعر بمصاب بلاد الشرق فيه إلا الفئه النابهة التى لا يراها أبناء الزمن الحاضر وهى منتصبة كالجبار بين حلقتى المجد القديم والمجد العتيد .

وكان من هذه الفئة رهط من ادباء بيروت فاجتمعوا وقاموا بحفلة تذكار وتكريم للجندى المجاهد المستشهد فى سبيل الشرق كله ، وفى هذه الحفلة وقفت وتكلمت طويلا وانني لأورد لكم بعض ماقلت مأخوذاً عن مفكرات لم أزل محتفظاً بها من ذلك العهد .

حنت أخت مصر على فقيد مصر بل فقيد الشرق العربى بأسره ، وعددت الأقلام والمنابر خالدات مآثره ، فما عساني ان أقول بعد . أن مايقوله الأحياء عن الاموات لمحدود ومثل ولى الدين لا يرسم شخصيته قلم ولا يحدد حياته كلام خطيب ، لأن حياة ولى الدين كانت قوة معنوية وشخصيته نسمة من وراء الحجاب تحرك كل شىء فى هذا العالم ولكنها لا تتجلى شيئاً فى نظر أبناء هذا اليوم فى العالم .

يكرم الناس ولى الدين لأنه كان كاتباً شاعراً يشد أوتار القلوب على قيثارة إلهامه ويستنطقها فتشدو بأنغام السماء ويأمر الألفاظ فتنقاد لمعانيه انقياد الأمواج للعواصف الثائرة ، أما أنا فلا أمجده لبيانه ولا أعظمه لصولة قلمه وأن فى الأرض لألسنة تستنزل البيان سحراً وكان أولى بها أن يشلها الخرس وان على الطروس أقلاماً تنمق الكلام فترسله دراً يتناثر وكان أولى بهذه الأقلام أن تدوسها الاقدام .

أجل ، ليس بيان ولى الدين مايخلد ولى الدين ، بل المبدأ الحق الذى ساد هذا البيان ولم يسده سواه مدة حياته ، ذلك مبدأ الرجل الحر الذى يؤلمه من قومه ما

يؤلمون به أنفسهم ، مبدأ الشرق الذي يرى ذروة المجد مرتفعة فى الشرق وأبناء الشرق متعامون عنها يولونها ظهورهم مندفعين إلى المهاوى طالبين الانتحار .

اسمعوا ولى الدين يوجه قوارع الزجر إلى نواب الدولة العثمانية عام ١٩١٠ وقد لاحت له منهم بوادر الجهل المستحكم فى الأمة نفسها .

«ان عادات الأعصر السالفة لا تصلح لهذه العصور ، نحن لا نرضى أن نبقى على جاهليتنا فى القرن العشرين ، ان كنتم لا تريدون مؤاخاة المسيحيين أو العرب أو غيرهما ، فقولوا نحن لا نريد أن تكون الدولة العثمانية إلا للأتراك وكونوا حينئذ كمن يتصايحون هنا ـ مصر للمصريين ـ واخال هؤلاء اقل شططاً منكم لو فعلتم . »

وما اراد ولى الدين الا تكون مصر لاهلها ، ولكنه ثار فى روحه على فئة كانت تنظر شذراً الى ابناء الامم العربية الذين يرون فى مصر عاصمة آدابهم وحضارتهم فيحومون حولها بقلوبهم .

ومن أقوال ولى الدين أيضاً :ـ

« وهذا الخلاف القائم بين المسلمين والاقباط مهيع الى الدمار ، ان الطائشين لا يعبأون بذلك فليعبأ به الاقباط ، ان عبيد الاهواء لا يرثون لمصر فليرث لها الاقباط ، ان عهدهم بمصر أقدم وودهم لها اوثق »

تلك فقرة من مقال ممتع طويل تحت عنوان الشرق الادنى نشرته جريدة المقطم فى ذلك الزمان وقد اختتمه ولى الدين بقوله :ـ

« يا شرق يا مستهل النسب الآدمى ومهبط الحكم ويا منبع الفتن ، انتبه فى كل شعوبك ، لقد مرّت بك عظات بالغات » ....

« وددت ان يكون الساعة معى الرجل الحر ذو النفس الطاهرة (فليكس فارس) فننندب الشرق معاً ونرثي عزه ونبكى حريته ، هو يبكى مع رفاقه فى بيروت

وانا ابكى مع رفاقى فى مصر فهل تتلاقى نوحات ونوحات اذا انتهت الى المكان الاعلى

ما اورد هـذه الفقرة من قلم ولى الدين لاوجه الى نفسى الثنـاء ، بل لافخر برابطة الالم لآلام البلاد يشعر بها فى هذا الشرق كله كل متحرر من قيود عصور الظـلام وكل طاهر النفس لا يريد لاخوته الا ما يريده لذاتـه ، ان صوت الميت العظيم يرتفع شاهداً على اخلاصى ينيـل صوتى قوة يعـلو بها على ضفاف النيـل ممازجاً باصوات من عرفوا الحق فاناروا الآفاق المصرية بمشاعـله .

رآنى ولىّ الدين منذ ربع قرن فى طليعة العاملين على سحق التعصب والتفريق فى بلادى فوجه اليّ كلمـة منه ومن رفاقه الىّ والى رفاقى فاجبته بمقال طويل اقتطف منه الفقرة الآتية :—

« وددت لو اكون معك لنبكى ، فهل انا بعيد عنـك يا ولىّ الدين .

« هب الابعـاد فاصلة لمسارح الافكار فى اوجهـا افيصح ان نرى مصر وسوريا ولبنان حيزين ، وهما اوج واحـد لعلل واحـدة وكمالات واحدة . أليس كل سهم يصيب احدى الاختين لا يصل اليها الاّ مخضباً بدم الاخرى .

« ومن اشبه بكم منا ، يا ابناء النيل . بل أية دمعة اشبه بدمعتـك من التي اسكبها ، يا ولىّ الدين .

« هى دموع ولـكنها سم وماء حياة على قلوب وقلوب ، ولو لم يكن لهذا الانين ارعاد فى مطارح الاحقـاب المقبـلة ، لاشفقت على نفسك ونفسى واستصغرت عليهما موقف الاختين تنوحان على قبر انتثت الاشلاء بين لحوده .

« هات يدك وانبك ولـكن على عهد ، لنذرفن الدمع ولـكن على غير ما تذرفه النساء المستضعفات . كل عبرة لا تفعل فعـل يد الأم بجراح الشرق ولا تعبث عبث القذائف بالقلوب الجائرة فتلك عبرة نحن منها براء

« ليلعنك قومك وليلعنني قومي ، ان بين انانيتهم وغيريتنا مجال الخلود ، ولو لم تكن حياتنا من حياة الامم بمعناها الشامل لوقفنا الى جنبهم واخترنا معهم على التجرد المتعب حياة السكون

دعهم يهزاؤن ويقولون اننا نسبح في الغيوم ، ان من الغيوم تنقض صواعق السماء . »

مرت السنون على هذه النجوى التي تمازج بها دمعان على امتين لم تكن تتقدم احداهما الاخرى في مضمار النهوض ، ولكنكم خطوتم خطوات واسعة منذ ذلك العهد لان التجارب قد علمتكم فعرفتم ان الاخاء بين عناصركم اساس لمجدكم وتبينتم ان انفراد اقوى عناصركم في السير بالامة الى مقدراتها الاجتماعية انما هو سير الاعرج نحو الهدف البعيد او تحفز النسر الى الاعتلاء بجنح واحد ، اما نحن فقد مرت بنا العبر قاسيات ولم نزل نتلمس الطريق وراء خطواتكم مترددين متثاقلين .

نحن وانتم في قلب الشرق امة واحدة ان تناكرنا في حاضرنا شد بنا الى الاتحاد ما وراءنا من قبور وما امامنا من مهود . بل شدت بنا الغرائز في حياتنا الاجتماعية والمصلحة في حياتنا الاقتصادية ، فالقوة الجامعة اصيلة في القلب وتحت اللسان والقوة المفرّقة دخيلة من هوس مضلل وجهل فاضح معيب ، افليست لغة الجنان في كل الشرق العربي اجنحـــة ما في هذه البلاد باسرها من خطرات العواطف والافكار ، وهل الامهات تحت ظلال الارز وعلى ضفاف بردى والدجلة والفرات ينشدن فوق الاسرة غير انشاد بنات النيل لابنائه الباسمين على ابواب العهد المنتظر . .

ما الذي يكوّن وحدة الامم غير الافتخار بامجاد واحدة في التاريخ والتطلع الى عظمة آتية في ما يترك الاحياء من ذاتيتهم للاجيال المقبلة .

ان الخطباء في الامم يشعرون بشعور تلك الامم فهم مجلى لما يكمن فيها من الغرائز متنبهة أكانت ام راقدة ، فان من يقف بين الجماعات ليمدّها بشعوره مما اقتبس في

حياته الخاصة ومن تفكيره المنعزل لا يلبث ان تستولى عليه روح الجماعات التى يلامسها فان هو امدّها بعامه وارادته فانما هى تمدّه بشعورها الخفى وبما يكمن فى فطرتها السليمة وغرائزها الاصلية .

ان قدماء الخطباء فى كل أمة يستولى عليهم الاستهواء من الامة نحو فضائلها الثابتة فى الغرائز دون ان تؤثر بهم الجهالات والضلالات الطارئة عليها ، لان روح الجماعات المصغية الى بيان يخاطب عزتها ومجدها تقف بغرائزها الباطنة ساعة اصغائها على الاقل فوق نقائص افرادها ومعائب حاضرها ، فتوحى الى المتكلم على منبرها ما يرتاح اليه عقلها الباطن من المثل التى تتجه نحوها في تكاملها ، وهكذا يتاح للخطيب القديم فى أية أمة ان يقرأ فى عواطفه كل عواطف أمته المتعالية عن سفاسف افرادها وكل غرائزها الثابتة التى ستتغلب على احوال الامة فى آتي الزمان .

وانني لاجد فى نفسى ما يثبت اعتقادى بصحة هذه النظرية ،

قبل ان اعتليت منابر سوريا ولبنان ، فى الزمن الذى كنت اقيم لذاتي ثقافة مما اطالع ومما اشاهد ، كنت ارى بلادى جماعات متقاطعة يسود التعصب عليها ويحكمها ضلال الجهل وذله ، كنت ارى ابناء كل ناحية من نواحيها منكمشين على انفسهم لا يرون فى غير دائرتهم الضيقة لهم موطناً ، وكانت تتجلى لى جماعات الطوائف الدينية فرق جنود استحكم العداء بينها لا تستأنس الفرقة منها الا بمن ينصرها على اعدائها ، وهكذا خفيت عنى الغرائز الباطنة فى شعب سوريا ولبنان اذ امتنع علىّ ان انفذ الحجاب الكثيف الذى نسجته اجيال العبودية والاوهام فوق الغرائز الشرقية الكامنة ، وكانت هذه الغرائز نائمة فى الافراد المشتتين وقد منع الحكم المطلق عليهم ان يجتمعوا وان يسمعوا صوتاً الاّ فى معابدهم مقسمين شراذم وطوائف ، وليس من قوة غير روح الجماعة تتنادى لديها كامنات الغرائز للاستفاقة

والنهوض ، ودام هذا الحال مستمرا على السبيل الذى اختطته له القرون الطويلة الى ان أعلن الدستور العثمانى فشاهدت شمس سوريا ولبنان لاول مرة بعد ذرعها السماء مئات السنين على مشاهد التقاطع والعداء ابنا الملل المختلفة والعناصر المتناكرة يقفون فى سكرة الحرية هاتفين بالاتحاد والاخاء .

وكان ذلك اليوم المقدس اول عهدي بارتقاء المنبر فاعتليته مرتجفاً مذعوراً ، وقد وقف الفكر فى دماغى ، وما كان الفكر الذى انزته بالانحناء على ذاته منعزلاً ليجد كلمة واحدة يخاطب بها هذه الالوف المحتشدة وهو ناظر الى ما عهده فيها من تقاطع وعداء ، وجمت دقائق معدودة وانا اتلمس مستنداً التى يبانى عليه فاذا بى احس بتيار يتعالى الى المنبر من الوف العيون المتجهة اليه واذا بسلك خفي يمتد بينى وبين الحشد الواجم وجومى ، سرحت ابصارى على بنى قومى فاذا هم بسيماء لم اكن اعهدها فيهم من قبل ، وتراجع الزمان ورائي الى ايام المجد القديم وانهزم الزمان امامى الى أفاق مستقبل بعيد رأيته على متناول يدى ؛ وارتفع صوت الجماعات تتكلم غرائزهم فى فمى ، تكلموا فيّ وتكلمت فيهم فاصغينا جميعاً الي انين الاخوة افاقوا من سكرة اوهام تناكروا فيها واقتتلوا .

وماكنت اجاري الامة فى ضلالاتها لاقول انني استفززتها الى الهتاف لاقوالي بدغدغة اهوائها ، حملت على عيوب الجهل والتناكر فيها فصفقت لانها فى اجتماعها تكشفت ضلالاتها عن غرائزها السامية فكانت كل فئة تفتخر باطراح ما استترت به مئات السنين من اطار الاخلاق وباليات العادات والمعتقدات الكاذبة السخيفة ،

ومنذ ذلك اليوم تلمذت للمنبر استوحى منه غرائز بلادي متلقنا عنها كل فكرة صائبة وكل شجاعة ادبية لاصلاح ظواهرها السيئة بباطنها الجميل ،

ولتسديد خطاها المضللة بما لا تشعر به الا مجتمعة من المبادئ السامية الكامنة فيها .

ان روح الجماعات هي اشبه القوى بالعقل الباطن في الفرد ، فضميرها كضميره ينتبه مكذبا ما تنتهجه في حياتها المسيره بالعادة من الضلالات ، والخطيب المتصل بهذه الروح انما هو ضمير الامة تصفق له مجتمعة وتلعنه مفرقة مبددة ، فهو حبيبها في آمالها وعدوها في تمتعها بحاضرها ، لذلك كنت في كل الادوار التي مرت عليها امتي ، ككل حملة المشاعل في كل الامم ، اشد بالقلوب الى يدي المرتفعة بالنور قلوباً منتبهة الى ما كمن في غرائزها حتى اذا تفرقت هذه القلوب عادت الى الانغماس في عاداتها حاسبة ان حماستها كانت سكرة وان آمالها كانت طفرة وجنوناً ، ولكم رأيت الايدي نفسها التي انطبقت بالتصفيق لآيات التساهل والثورة على الضلال انطق بها على المنبر تمتد بنصال السعايه والبغضاء الى ظهري تطعنني مختفية في الظلام كانها تنتقم لضلالها مما نبهت فيها من حق كامن في غريزة روحها .

ولعلّ من اغرب ما شاهدت في حياة المنبر ، مشهد رئيس كبير من روساء المسيحيين يعانق رئيساً كبيراً من رؤساء المسلمين بين خطابين على مشهد من الامة المجتمعة ساعة انتباه الغرائز الطيبة ، يعود كل منهما الى محيطه متلفعاً بما تعود من عقائد دخيلات ، فيتهمني الاول بالكفر لتساهلي ويسند الاخر اليّ التزلف الكاذب لقومه

ومرت بنا السنون الطويلة مملوءة بالمصائب والعبر ، وانا الى جنب الفيئة الحية النابهة من اخواني نعمل على استخراج ما كمن من الحق في الامة لمقاتلة باطلها ، وان انا افخر امامكم هذا المساء بانني امير منبر في بلادي بين قومي فان هذا الفخر لارفع جداً من ان يتدنى الى تناول الاستكبار والاعتزاز ، ان امراء المنابر في البلاد المائلة الى الشفاء من ادوائها ليسوا هم الزعماء الذين يقودون الجماعات فتتبعهم ليأخذوا من ضعفها قوة ومن مذلتها امجادا . نحن العاملين على احياء الغرائز السامية

القتل الضلال الدخيل انما نحن اضعف الناس حولا فى قومنا ، فساعة المجد على المنابر تتبعها ساعات من الاضطهاد الذليل المستتر لانه يستحي من نفسه ان يظهر امام الشمس وان انا اجزت لنفسي ذكر عهدي الطويل بمنابر سوريا ولبنان فماذلك الا لاقول لكم ان ما اسمعتكم وما سأسمعكم اياه هذا المساء ليس هو شعور فرد وتفكير فرد بل هو شعور امة وتفكير امة وقد رائيتم كيف تستهوي روح الجماعة من يقف بيانه عليها

نحن هنالك ، لا نسمع كلمات (مصر، الهرم والنيل ووادي الملوك) الا نشعر بهزة في اعماق النفس وبعزة بعيدة الغور في اعماق غرائزنا ، واسماء اعلامكم امواتاً واحياءً لا يهتف بها هاتف في اجتماع دون ان تثمل روح ذلك المجتمع بنشوة المجد باكياً ومبتسماً .

ان شجرة النبوغ لاتعتلى فى بلادنا وبلادكم مالم تتغلغل جذورها في تربتنا وفي تربتكم ، فما انحنى فيلسوف مصري مفكراً تحت ظلال ابي الهول والاهرام الا امتدت اليه اظلال بيت المقدس وتدمر وبعلبك وما تغنى شاعر امام انسياب مياه النيل الهادئ القوي دون ان تهب على جبينه نسمة من نسمات الارز الخالد الجبار .

ونحن، هل نضجت عقولنا وقلوبنا في فجر نهضتنا الا تحت سمائكم وعلى ضفاف نيلكم؟..اي فيلسوف عندنا لا تسود افتكاره حكمة مصر القديمة واي شاعر بيننا لا يستوحي انوار الشرق المتوهجة فى افاقكم وآفاقه .

لن اعود بكم الى التاريخ منذ عهد موسى والصدّيق الى العهد الجديد ايام ابراهيم، ان اثار تلك العهود راسخة فى النفوس متجلية عند كل سانحة ، وما تتخذ الادلة على المشهود .

وان حق عليّ ان اذكر دليلا فلن اذكر الاّ ماشهدت وما سمعت ،

شهدت وقفة لسمو البرنس محمد على منذ ثلاث وعشرين سنة ، عقيب اعلان الدستور فى قاعة الطائفة المارونية فى بيروت ، بعد ان القيت لدى سموه ما لقنتني اياه روح الجماعة من اجلال للاسرة الممثلة عظمة مصر ، ولاتزال تلك الوقفة ماثلة فى الذكر تزيد ما ألهمته رسوخاً ، وما كان سمو الامير بما تجلى فى كلماته ونبراته ونظراته من عطف على ابناء بلادى الاّ ممثلا لما تضمر روح مصر لنا من ولاّء وأخاء .

وأسعدت ، فى تلك الايام بلقيا ، الخطيب الكبير المرحوم علي فهمى كامل شقيق خطيب مصر بل خطيب الشرق العربي المرحوم المبرور مصطفى كامل ، وكانت حفلة من حفلات الدستور فى مسرح زهرة سوريا في ذلك العهد فصعدت مع علي إلى المنبر لافتتح لبيانه سبيلا الى روح قومي فما نطقت باسم مصطفى كامل حتى علا هتاف واحد كأنه من فم واحد ، هتاف ساد تصدية الأكف خافقة مع القلوب وتنصت القوم الى بيان عليّ يسمعهم نبرات أخيه سيد منابر مصر ، فاذا بسوريا ولبنان تدفعان بروحهما الى بيان عليّ ، وعلي ساحر مسحور يتحول الكلام فى فمه صوراً ورسوماً ، وما كانت تلك الصور والرسوم الاّ مشاهد ما تعلنه الفطرة المجردة وما تستره الضلالات فى الامتين .

هذان الصوتان ، أحدهما يعلو من قرب العرش وثانيهما يرتفع من روح الشعب فى مصر كانا أول النبرات السامية يسمعها أبناء بلادي عند بزوغ الشفق بعد ذلك الليل الطويل الذى امتنع فيه عليها أن تسمع وأن تتكلم .

وما كان ماسمعته وما تكلمت به الاّ أصوات الغرائز الشرقية الكامنة ، والأمم كالافراد تبقى شخصيتها مجهولة منها الى أن يتسنى لها الانحناء على ذاتها

والرجوع الى كوامنها ، وإذا كان للفرد أن يدرك فطرته منفرداً متلمساً خفايا نفسه وهو ساكن صامت فليس للامم ما للفرد من قوة الادراك فى الصمت والسكون ، ان الامم التى لا منابر لها ولا خطباء تبقى روحها مشتتة فى صدور أبنائها وما تنجلي أرواح الجماعات لذاتها الا فى صحافتها وعلى أعواد منابرها.

ان بلاد لبنان وسوريا قد بدأت تعرف نفسها منذ أطلقت الكلمة السجينة فيها فانتبهت الغريزة الواحدة فى مختلف عناصرها وتلفتت كلها مجتمعة الى أرض مصر مشعرة بأن عنصرها الكريم أقنوم لاينفصل فى حياته عن حياتها

ومنذ ذلك الحين ، بدأ العراك بين جهلها ومعرفتها ، بين تساهلها وتعصبها بين حقها وباطلها . ومنذ ذلك الزمن ، الزمن الذي اشربت فيه روحي غرائز امتي شعرت بالالم المروع المقدس تجاه كل تناكر يتجلى بين عناصر بلادي وبين تلك البلاد وكل بلاد شرقية عربيه لانني اعتقدت بان ماتنطوي عليه نزعات النفوس اذا تحررت من التضليل انما هو الاتحاد لتكوين الحياة واحدة في الاداب والاجتماع لكل ابنائها على اختلاف مذاهبهم في دين اراه واحداً وعلى اختلاف مواطنهم في وطن اراه واحدا

يا ابناء القطر الشقيق ،

على أثر اعلان الدستور العثماني ، سرت ألى الاستانة ، عاصمة الشرق الكبرى في ذلك لزمان ، وأنا اعمل بين الاتحاديين بجريدتي التي كانت تصدر في بيروت وبخطبي ارفع لها في كل جهة من بلادي منبراً ، على تشديد روابط الاخاء بين العناصر التي كانت تقوم منها الكتلة العثمانية ، ودخلت يوماً المجلس النيابى العثماني فحضرت جلسة من أهم جلساته وأنا اتبع بكل قوى الفكر ما يدور من مناقشات يتوقف عليها مستقبل الدولة العثمانية ، وتوقفت الجلسة عند العصر واذا بصوت المؤذن يرتفع من مأذنة القصر بكلمات الشهادة الخالدة نبرات عربية تحملها نغمات

الحجاز كأنها نجوى الروح لخالق الروح ، اطرقت خاشعاً رافعاً نفسي الى الله ، فاذا بنزعات القلب تتجه نحو بلادي بما اثارت الفطرة فيها ، واذا بقطرات الدمع تسيل على بطء من محاجري ، فشعرت اذ ذاك ان دين ما بعد الموت يجاوره في الروح دين آخر هو دين الحياة ، وان معنى كلمة الشهادة قد رفع بنفسي الى الحق ولكن مبناها العربي قد شد بالقلب الى بلاد العرب مستنزفا الشؤون .

وما كان مثلي لو بقي منفرداً بنفسه على أعالي جبال لبنان ليتأثر تأثري ويبكي بكائي ، ولكنني كنت حياً بروح جماعات بلادي بعد ان نفذت الى أعماق شخصيتي على منابر الامة ، فما كانت تلك القطرات التي سالت من عيني وأنا أسمع أشرف وأجمل ما نطق به عربي الآ دموع تلك الامة كلها تبكي لاستماتة لغتها ونزوحها عن مواقف ادارة حياتها .

ومرت السنون حتى انقشع الغيب عما لم يتوقعه فكر من فوادح الحرب الكونية التي أخرجت دائرات الحوادث عن محورها القديم ودفعت بالشعوب كلها الى مسالك جديدة فى مقدراتها ، وكانت سنة ١٩٢١ ، فاذا الانتداب يستقر في بلاد سوريا ولبنان ، وإذا بالناهبين من الامة يعودون الى العمل على لم شعث هذه الامة وتوحيد هدفها ، ورأيت ان العدد الوفير من ابناء وطني مشتت فى المهاجر قوة أدبية ومادية تمكنها أن تكون حجر الزاوية فى البناء الجديد ، فسرت فى رحلة قصدت بها تلمس روح تلك الجماعات الشرقية فى مهاجرها وفيها مجسم حميتنا وصفوة مزايانا ، طامحاً الى القيام بقسط من واجب تشديد الروابط التى فككتها النوائب والحادثات ، بارحت بيروت ، معلقاً أبصارى على الجبال العالية تتوارى وراء الافق الازرق ، وفى القلب غصة الفراق ، غصة مثلت فيها الآم كل هؤلاء الالوف من أبناء الوطن وقد ذهبوا يضربون فى مجاهل العالمين وعلى أحداقهم هذا الرسم الاخير

يستطبعونه من رسوم آمالهم العاثرة وأحلامهم المبددة .

مخرت السفينة العباب حتى رست فى ميناء الاسكندرية فنزلت فيها أطاء لاول مرة أرض مصر التى كان مجدها ملء فؤادي وذكرها ملء فمي ، فخيل الي انني ألاقي فيها الوطن الذى بارحت ، وأقلعت السفينة بي في اليوم التالي رافعة مرساتها من تراب الشرق فوقفت معلقاً أبصاري على ذراعي الاسكندرية منبسطتين على صفحة البحر المتوسط الفاصل بين الشرق والغرب ، فرأيت فيهما اشارة الوداع من كل هذه الشعوب الناطقة بالضاد وتنبهت روح الجماعات المستولية عليّ ، فشعرت بانقطاع نياط فى القلب هو آخر سلك يشده بآخر بقعة من حدود أوطاني ، حينئذ بدأت أن أكون غريباً . . . .

وعندما حططت الرحال على أرض العالم الجديد ، ماوقفت مرة على المنبر ، أرسم بالبيان الباكي أشباح البلاد المهجورة لأبنائها النازحين ، الا انتصب الهرم فى ناظري تحت ظلال الأرز وارتفعت حولها قباب بيت المقدس وانصبت مياه دجلة والفرات وتمازجت خيالات جنات دمشق وجنائن حلب وهبت النسمات من بليل لبنان وأنفاس الصحاري . وما كنت لأرى كل هذه البلدان والمشاهد مجتمعة على مثل هذا التقارب وأنا أتنقل بعيداً عنها . لقد كنت متشربا روح الجماعات بما كمن فيها من عواطف وغرائز ولكن البعد وحده فى الغربة تمكن من أن يجمع فى البصيرة والبصر كل هذه الارض التي حفرت العوادى بينها أثلاماً .

هنالك فى البلاد السحيقة حيث تحشر شعوب الارض كلها ، وتصدع الاثير نبرات الامم ، إذا التقى ابن لبنان وابن مصر أو العراق أو الحجاز ، يشعر الغريبان باستئناس الأخ بأخيه ، ويقفان خاشعين أمام هذا السر السامى المتأصل فى ابعاد الدهور وهو يتجلى فى كل حين عاطفة فى القلب وكلمة تحت اللسان .

ماسرت معكم هذه المرحلة الطويلة ، أيها الاخوة ، إلاّ لنقف أمام ما كمن فينا مواجهين به ما يدور حولنا ، فان أنتم شعرتم مني بما أشعر منكم من صحة الغريزة والاخلاص ، تجردتم معي عن كل دخيل فى عاداتنا وأخلاقنا، فنرجع بمالنا من حق الحياة الى السبيل السوي الذى تتلمسه اروحنا وتعمينا عنه ضلالات حاضرنا .

اننا متفرقون متقاطعون على ضلال فى أدياننا ، وفي أوطاننا وفى نظم مجتمعاتنا وهذا التقاطع يحول دون تمتع كل فئة منا بالحياة على ما يلائم غرائزنا ولا معنى لحياة قوم ضلوا السبيل فى دينهم ووطنيهم ومجتمعهم .

أما ديننا في مذاهبه السماوية الثلاثة فهو واحد من حيث الايمان بالله وباليوم الاخير وما تختلف صلاة الموسوي الى ربه عن صلاة العيسوي والمحمدي وكلهم لا يرى في دينه ما يأمر بمنكر أو ينهى عن معروف.

ان الاديان في الشرق لا تحول دون اتفاق ابنائه ومن رأى في الانجيل والقرآن ما يدفع بالشقاق ويؤدي الى خلاف فقد جهل حقيقة الانجيل والقرآن وكلاهما الهام الحق المطلق يتعالى عن ان تتناوله فكرة انسانية باصلاح وتحوير ، ليولّي المسيحي وجهه شطر الشرق وليولّي المسلم وجهه شطر القبلة ، انهما لجهتان مختلفتان فى الابتداء ولكنهما ينتهيان الى وجه الله الحق والحق محور الكائنات وقطبها .

أي خلاف يمكن ان ينشأ بين ساجدين خاشعين يرتفعان بالروح الى الدائرة التى تضمحل فيها اهواء الانسان وسفاسف الحياة، بل أي موحد لله يشرك بوحدة الانسانية دون ان يصبح مشركا بالله نفسه .

ان اتباع الاديان المختلفة في مذاهبها على الارض كالواقفين عند قاعدة الهرم تتنكر الفئة الماثلة لنظر الفئة المقابلة لها على بعد المجال ومن نهض بنفسه من الفئتين

سالكا مذهبه بالاعتلاء الى الذروة لابدله أن يلتقى على نقطة موقف واحد ومن يرتقي ارتقاءه من الجهة المقابلة .

ان الارواح المتثاقلة وحدها تتناكر في دينها لانها رازحة لاتريد نفض التراب عنها فهي تنظر الى الذروة من اعماق موقفها وتظن انها بلغت الاوج الأعلى فكأنها في وهمها تريد استنزال الله الى شركها بدلا من الاعتلاء طلباً للوحدة فيه .

أبى الله ان يكون ما انزل من وحي للناس مصدرا لشقاء الناس ، ولكن الاديان لم تسلم فى تنظيمها للحياة من شوائب المدنيات التى ارادت اصلاحها ، فان تلك المدنيات لم تنقرض دون ان تترك للمجتمع ميراثا ثقيلا من ترّهاتها .

ان الانسان شديد التعلق بماضيه من حيث مذهب حياته ،فاذا هان على العقل ان ينتقل في اعتقاداته من ضلالة الى حق فان تحوير الحياة وفقا للنزعات الجديدة لمن اصعب الامور .

اذا كان موسى قد تمكن من ان يهدى الناس الى عقيدة جديدة من التوحيد دفعت بهم الى احتمال الاضطهاد ومواجهة الموت ، فان هؤلاء الناس قد أرغموا عقيدتهم في حياتهم فاقاموا فى صحراء تيههم العجل الذهبي الذي كان خياله لم يزل سائدا على غرائزهم

واذا كان عيسى قد حرر الروح من قيود الطقوس وجعل الانسان كاهنا لنفسه في هيكل حدهُ الافاق وسقفه السماء ، واذا كان قد وضع المرأة في مقام من الصيانة اعتبر فيه النظر المنحرف اليها دنسا ، فان المدنيات التى اراد اصلاحها الصقت باتباعه في حياتهم ما لا يصح معه وصف تلك الحياة بالمدنية العيسوية

واذا كان محمد قد قدس حياة الفرد بالجهاد الاكبر ودعا الى سيادة العقل على النقل وتبديل الاحكام بتبدل الازمان وحرر المرأة من ذل الجاهلية ، فان حياة

اتباعه الاجتماعية لم تزل تشوبها ضلالات المدنيات التى اراد اصلاحها فاستبقت تلك الحياة على كثير من مفسدات الجاهلية والفرس واليونان ما لا يصح معه وصف تلك الحياة بالمدنية الاسلامية

وأن يشك الشرق اليوم تبلبل أحواله الاجتماعية طالباً اصلاحها فما كان شاكياً أديانه وما يطمح مفكروه الى تناول الكتب المقدسة بنقد أو تعديل فان ما فسد فينا ليس من هذه الكتب بل مما حبكته كل فئة منا حول كتابها من بدع فى الحياة تناقض مبدأ الحياة نفسه .

أما وقد أتيت بهذا التمهيد ، فليسمح لي الاخوة الذين تخيروا الاصغاء الى أقوالي ان أواجه معهم بكل صراحة وحسن نية ما لصق بمجتمعاتنا على اختلاف أشكالها من خصائص استحكمت فى النفوس وحالت دون الاتحاد الاجتماعي المنشود

ولا بد لي قبل الدخول في لباب الموضوع من الجهر تكراراً بانني بغنى عن تناول السياسة والدين فى هذا المبحث فالمسألة التي نعرضها على الفكر الآن انما هي مسألة اجتماعية يتوقف على حلها صلاح المجتمع بكل أقسامه .

ان لكل أمه حية مدنية خاصة تتفق وغرائزها وثقافتها ، ولا ترى أثر هذه الوحدة فى الامم الراقية فحسب بل انك لتراها متجلية فى كل مجتمع طبعته السلالة والاقليم بطابع خاص فعاش مقراً قواعد أصبحت دستوراً لحياته فكفل هذا الدستور حق الكل وسعادة الكل

أما هذه الشعوب المنتشرة على ضفاف البحر المتوسط وهي نواة ما سيتكون من الثقافات فى الشرق العربي كله ، فاني أراها ولعلكم ترونها معي بابل القرن العشرين فى هيآتها ومناحيها الاجتماعية .

ليتجرد المفكر منا عما اورثه الاعتياد من المناعة وليقف ساعة فى أي محيط

يختاره لاستقرائه من هذه البلاد ، فانه لا يلبث حتى يشعر بدوار يستولي على رأسه وبغصّة تقبض على قلبه ، لا أعلم إذا كان بين سامعي من اقتحم هذه التجربة ، أما أنا فقد قمت بها مراراً على مختلف بقاع هذه البلاد العربية التي لا ترى غرائزنا الاصلية في سراها لنا وطناً ، فكنت في كل مرة انسلخ فيها عن عقلي الباطن في هذا الموقف أرى نفسي كالغريب التائه المروع .

واليكم ما رأيت وما سمعت وما ترون انتم كل يوم وتسمعون

روما القديمة بنساء نصف عاريات، ترشح الانوثة من اجسادهن، وفي نظراتهن وقاحة الرجال وعلى شفاههن ابتسامة احتقار الحياة ، الى جنبهن رجال يصعب عليك التصديق بأنهم أزواج أو أخوة أولائك النسوة ، وإذا ما تحوّل نظرك الى جهة أخرى فقد لا يذهب بك خطوات الآ تشعر بالجاهلية تئيد البنات في الاطمار بدل التراب وراء الجدران المحكمة لا ينفذ النور اليها الاّ من شبكات الحديد فكأنك من هذه المساكن امام سجون المجرمين

وإذا ما سرحت أبصارك على الطرق فانك مستعرض مدنية الفرس وبداوة العرب تمر بها مدنيات الغرب الحية والمنقرضة ، أشباحاً متناكرة كل منها يحدج الآخر بلفتات الاستغراب والاحتقار .

ومن غرائب ما شاهدت ، رجل يدلج تحت جنح الظلام من بيته المشبك بالحديد على أربع نساء تاركا وراءه عصر الجاهلية والفرس متهافتاً على المجتمعات التي يكفر بها في عقيدته متلمساً فيها ما أبقت مدنية روما البائدة من ملذات الحواس المضللة التائهة .

حسبي أن أستعيد الى احداقكم ما انطبع عليها من مشاهد وان اكشف لكم ما في قلوبكم من جراح لاستوحي من روح جماعتكم القول بان أمة هذا حالها في

عقائدها الدخيلة على غرائزها انما هى أمة شقية مضللة يسود الشقاء على رجالها من نسأيها ويثقل الويل على نسأيها من رجالها .

ان الامم لاتتكون من اجتماع رجال تتنافر منابتهم وبين مساكن فئاتهم مجال المهاوي السحيقة البعيدة الغور .

وانىّ لحامل الجاهليه فى تخلقه ان يتفق ومن ادخل مدنية قياصرة روما القديمة الى اعماق روحه ؟ . . .

ان هذا التنافر الذى ينوء علينا بالنوائب انما هو منشأ العلل كلها فى حياتنا ولو اننا نرجع الى غرائزنا المستقرة فى أعماق فطرتنا لاخجل البعض منا أن يتلمس عفاف أخته وزوجته فى تعسفه وارهاقه ، ان الخلق العربي ليأبى ان يرى صيانة المرأة وعفافها يتجليان فيها صنيعة الاكراه دون ارادتها واختيارها . ولو اننا نرجع الى غرائزنا لاخجل البعض الآخر منا أن ينزل بالمرأة من مرتبة الام المقدسة الي مرتبة الدمى الحسان اوجدت للهو والافتتان .

ان عظاء المصلحين قد قضوا على كثير من سخافات الجاهلية وعادات الفرس على ضفاف النيل ، ولكن ضلالات روما وتقاليد الغرب الحديثة التي يبكي لها عقلاء الغرب ومصلحوه لم تزل تهاجم الفئة المخدوعة بنظم الاجتماع الناسية أو المتناسية غرائزها الشرقية ومافى كتابها من روائع الطهر وآيات العفاف .

لقد رفع قاسم امين صوته فتلته اصوات عالية ذهبت بالحجاب فاين الاصوات من الجهة المقابلة تستنزل من الشمم العربي اوشحة تستر هذه الصدور والنحور وتصون متكأ الاطفال من رؤوس الغرباء تجارى الاقدام خفة وهوساً فى مراقصها؟ ذلك هو داؤكم ، وذلك هو داؤنا ، فعبثاً تدّعون وندّعى اننا أمة أوشبه أمة مادمنا العوبة بين ساعدى الافراط والتفريط ، ان الامم التى بلغت قمة المجد انما هى التى

توحدت مناحي حياتها في نظم اجتماعها ، وخير للامة ان تتمشى على سبيل ضلال واحد من ان تنتهج أجزاؤها مناهج مشعبة من السداد . . . .

ان الذين تكشفت لهم غرائزهم عما تجهله الاقوام في اندفاعها بقوة الاستمرار هم المسؤولون أمام التاريخ باعلاء القبس الهادى ، وما مصر وهي فى مقام الرأس المفكر من كل هذه البلدان الشرقية العربية المائلة الى النهوض الا المثال الاعلى الذي يستهوى شكله نزعات الاقوام التائهة ، فاذا ما تقدم المتأخرون فيها نحو القمة وعاد المتدهورون منها الي المنحدر أدراجهم من الجهة الاخرى تكوّنت على هذه الارض العظيمة الامة الجديرة بان تصبح نواة للامم النابهة المتطلعة من الجهات الاربع الي ذرى الاهرام

انتم ونحن لا يحول بيننا حائل الاّ الحائل نفسه الذي يقطع الصلة بين أجزائكم وهو نفسه يبدد أجزاءنا ، فاذا ما عدنا وعدتم الى غرائزنا المسترشدة فغدونا نحن نحن وأنتم أنتم يقف التاريخ على اعتزاز بنا وبكم .

وما أرى لكم ولنا من حياة الاّ بالاستقرار على مدنية نحن متجهون اليها بما كمن فينا شاءت عاداتنا المضللة أم ابت ، فان الرجوع الي مدنية الفرس أو التمسك بعادات الجاهلية لأمر هو العبث بعينه والاندفاع الى المدنيات الغربية انما هو سكرة من السكرات التى بداء الغرب نفسه يستفيق منها ، وما ذلك الاندفاع الموقت بمتفق وكامنات الغرائز ليسير بنا الى هدف معين نقف عنده ، فان الاخذين بهذه المدنيات من بني أقوامنا يشعرون هم انفسهم في اعماق فطرتهم بانهم قد أضاعوا شخصيتهم دون ان يتمكنوا من أن يستبدلوا بها شخصية من يسيرون وراء تقليدهم

فالراقص منا لا يقدر على تخدير غريزته الشرقية عندما يضطر للتوازن أن يرّقص أمه واخته وزوجته . . . .

والكاتب منا بلغة أجنبية يملك زمامها يشعر بانحطام جناحي الالمعية فيه، فهو

ان تخطى الاجادة لا ينال مرتبة الالمعية ،

والمدّعي الطرب على نغمات الغرب لا تنال هذه النغمات منه سوى خطرات فكره أو خفة قدميه ، أما قلبه الذي تحجر على نغمات غريزته فيبقى أبداً متجمداً على صقيع الموت

وأولائك الذين تحدروا من محيط ساد فيه ضلال الفرس القديم باستعباد المرأة ان هم انفوا مما احاط بهم فانهم لا يرجعون الى غرائزهم السليمة لاختيار الحالة الاجتماعية التي توافقهم بل يندفعون بعواطف التمرد المريضة الى الافراط المقابل ، فاذا ما شاء ابن الرجل ذي الاربع الزوجات ان يتزوج سار تواً الى اختيار الفتاة المترجلة من بنات الغرب الفتاة الغلامية التي يئن الغرب منها وأقامها صنماً لقلبه المتمرد ، وهكذا يجد الابن فى الافراط ما وجده أبوه من شقاوة وبؤس فى التفريط . . . .

وما أجد مثالا لضلال الشرق افصح بياناً من مثال هذا المتألم المتمرد يطلب السعادة فى الانتحار وينشد انقاذ نفسه فيهلكها . . . .

الفئة الناهضة الحية فى القطر المصري تعرف هذه الحقائق وتعمل على انهاض الأمة من كبوتها ، فالحالة الاجتماعية التي يجب علينا ان نستقر عليها انما هي الحالة المستمدة مباديها من غرائز الشرق ومن وحي انجيله وقرآنه .

هذه حالكم وحالنا من الوجهة الاجتماعية ، اما انتم ونحن من حيث وجودكم على ضفاف النيل ووجودنا على الضفة الثانية من البحر المتوسط وقد أصبحنا نحن بلدانا يتوهم بعض ابنائها انهم على قوميات مستقلة تتزاحم وتتنافس ، فاني لا أجد مثالا أورده عنا ينطبق علينا كلنا الا مثل الاخوة مات عنهم الاب الجامع الشمل بالنسب الشريف العريق القدم فتفرقوا على ارض ميراثه المقتسم ، وداموا أخوة يتساندون ويتناصرون حتي لعبت بينهم خطرات الحظوظ ففاضت بالخيرات أرض

بعضهم وأجدبت ارض الآخرين ، فاصبح العائر بينهم يفاخر بانتسابه الى الواثبين السابقين فى حين ان هؤلاء ينكرون انتساب المقصرين اليهم

هكذا نحن نقف صفاً طليعته مصر ووراءها لبنان ووراءه سوريا ووراءها القبائل المتوغلة فى أرض الشرق العربى الى اطراف بحر الرمال ، وقد أصبح القوي منا يرى في أخيه الضعيف إذا أمّ داره دخيلا يستنكر عطفه وولاءه .

لقد قال البعض منكم فى مصر ـ اننا أبناء الفراعنة ،وانا تاريخنا المستقل ومجدنا المتغلغل ما وراء التاريخ الحديث ،

وقال بعضنا فى لبنان ـ نحن ابناء المردة ، شعب لا ينتسب الا الى نفسه ، فما لنا ولمن يقفون وراءنا من الشعوب ،

وقال بعضنا فى سوريا ـ نحن ابناء المدنية القديمة فما لنا وللبداوة وشؤونها

ووقفت القبائل بعضها ازاء البعض الآخر يتنصل قويها من ضعيفها ومتقدمها من متأخرها ،

ان الامم التي تسكر المتقدم فيها عزّة حوالة انما تستند الى زائل متخلية عن دائم

ان الامة المتجهة الى الاعتلاء على سلم الجهاد الادبي والمادي ، لابد ان تسير أجزاؤها فئة تتقدم فئة فان مدّ المتقدم لمن وراءه يد المعونة بلغ الجميع القمة ظافرين وان ترافس الصاعدون تحتّم عليهم السقوط وكان ارفعهم مقاماً أشدهم تألماً فى انحداره

ان المشعل الاقوى توهجا في الشرق هو فى يدكم يا ابناء النيل فامدوا مشاعلنا المتضائلة فى لبنان وسوريا ليمتدّ هذا التوهج الى ما وراءنا وحولنا من شعوب

أقيموا الحضارة الانجيلية القرآنية المحررة فى الغرائز الشرقية السامية تتبع خطواتكم الامة المفرقة قبائل وشعوبا

ان فوق عرشكم الاسنى مليكا ما تجلت غرائز الشرق وعزته بقلب اكبر من

قلبه، فكونوا مجسم ما فى هذا القلب العظيم من نزعات

أيها الاخوة ، قبل ان بارحت لبنان الى ارضكم ، سمعت احد اللبنانيين يقول معتزاً ـ ان لبنان قد بلغ درجة من الرقي يجب عليه وهو عليها أن يدير ظهره نهائياً لآسيا ويتجه شطر اوروبا.

فقلت له : ـ ان الله قد أوجد لبنان مستقبلا لشمس الشرق فان هو اشاح بوجهه عنها، امتنع عليه ان يكون رأساً فى الشرق إذ يصبح ذنباً للجهة التي يستقبلها . . . .

ابى الله يا ابناء النيل ان تديروا للشرق ظهوركم وانتم الرأس الاكبر لهذا النسر الذي لوت الدهور جناحيه ولكنها لم تحطمهما.



«٢»

الثقافة الشرقية العربية

تحديد الثقافة والفطرة — مميزات الامم الشرقية العربية — الحوافز الموروثة تجاه الارادة الحرة في الفرد وفي المجموع — فيلا سبازا الشاعر الاسباني الاشهر ورائيه في الفطرة العربية — الامة المشردة ، آدابها وشعرها وتقاليدها — مثال الفطرة الشرقية العربية الشاعر الكبير المرحوم فوزي المعلوف — البلدان العربية ماضيها وحاضرها تجاه الالهام الباطن — اللغة وآثارها في التصور والعبقرية — الموسيقى العربية ما هي وما يجب ان تكون — تقمص روح المدنية في الجماعات — الثقافة العربية في ارواح العباقرة وفي طبقات الشعب — الدين والقومية — المهاجرون من البلاد العربية وموقفهم في غربتهم تجاه فطرتهم — النزعات المقدورة وحياة الامم — المدنية المنتظرة ، مطلعها وما ستكون :—

*
* *

الثقافة لغـة يشمل معناها التعليم والتهـذيب ، والذي اراه انها من حيث الوضع، وهى تعني التقويم مادةً والتطبيع معنى ، لا ترمي إلاّ الى تسديد العواطف والاميال دون أن تتنال التعليم ، مالم يقصد من التعليم التـدريب للشعور خاصة فان العـلم بنفسه انما هو نتاج الاستقراء المجرد ومركزه الفكر فالحساب والـكيمياء وعلم الهيئة وعلم طبقات الارض الخ. انما هي علوم وضعية لا علاقة للتهذيب بها فهي فوق الثقافة أو دونها ولـكنها على كل حال بمعزل عنها لان العلم مشاع لـكل الامم ولـكل الافراد يتفقون على اولياته على ما بينهم من اختلاف بعيـد في نظريات الحيـاة فى حين أن الثقـافة مستقرة في الشعورفهي « دماغ في قلب » لا قانون ولا قاعدة لها لانها راسخـة في الفطرة، والفطرة فى الفرد كما هى في الامم ميزة خاصة فى الذوق واختصاص فى فهم الحياة والتمتع بها ، فأذا كان العقل رائداً لبلوغ الحاجة فليست الفطرة إلاّ القوة المتمتعة فى الانسان بتلك الحاجة بعد بلوغه اليها . فالعقل اذاً عام والفطرة خاصة ، وكما ان لـكل فرد ثقافته التي تتجلى فطرته فيها هكذا لـكل امة ثقافتها المستقرة في فطرتها . وما الفطرة إلاّ الصفـات التي تتكون منها شخصية الانسان كالعطف والنفور والشجاعة والجبن والبخل والـكرم والأخلاص والختل . تلك الشخصية إن هى إلاّ اللوح المسطور الذي قدرت فيه على الانسان حياته ، وما ارادة الانسان إلاّ مظهر لهذه الفطرة .

اذن فالارادة سواء أكانت فى الفرد أم فى المجموع انما هى مظهر الفطرة الـكامنة ، فهل الفطرة مقدورة أم هناك حرية الاختيار .

لقد اجمع سقراط وافلاطون وارسطاطاليس من فلاسفة الاقدمين على أن الانسان مسير لما قدر له بحافز فطرته وقال ابقراط وبلوتارك أن فى مراحل الحياة

مواقف يتمكن الانسان فيها بأرادته الحرة أن يغير مجرى حياته، وقد وافق ساتارك على وجود مثل هذه المواقف ولـكنه رأى الارادة فى هذه المواقف نفسها تحوّل المجرى مضطرة لامختارة ولـكنها تؤخذ بالتوهم فتحسب انها تخلق البداية من ذاتها.

أما الفـلاسفة المتـأخرون ومنهم سبينوزا فى القرن السابع عشر وسبنسر فى الثامن عشر فقد قالوا بالجبرية ورأوا العوالم وفيها الانسان مسيرة بقوة لا امكان للاختيار فيها . و قال فلاسفـة آخرين كديكارت وريد ومان بمذهب سقراط في سيطرة الارادة المختارة على الحياة .

أما الهند وهي مهد الفلسفة القديمة فقد اعتقدت أن الحياة الحاضرة ليست إلاّ احدى المراحل المقدورة على النفس وان الارادة تعمل عملها فى مرحلة سابقة ناسجة المرحلة التي تليها شخصية مفطورة على ثقافة يكمن المقدور فيها . وقد ورد فى الاسفار الهنـدية المقدسة ان الاناء الخزفى يقسو الى درجة صلابة الفولاذ فى النار فهو ينحطم ولا يتغير منه شكله المقدر عليـه ولـكنّ اصابع الخزّاف كان يمكنها فى البدء ان تجعله على غير ما هو عليه ، لقد كانت فترة وراء الزمان سارت الارادة فيها أما الآن فلا سيد الاّ المقرر المقدور .

ورأى شوبنهور يتفق وهذه النظرية اذ يقول « اذا كان هنـاك من ارادة حرة فأنها لم ولن تتجلى الاّ ما وراء الزمان والمكان فشوبنهور يرى اعمال الانسان ناشئة عن ثقافة مكتسبة لا قبل له بتعديلها في الحياة

وقـد جاء ليبنز يوفق بين كل هـذه الآراء على ما بينها من تناقض فقـال « اننا احرار باكثر مما نظن لأن المقدور فينا لم ينشأ إلاّ منا ...... »

على أن ليبنز فى حكمه هـذا لم يأت إلاّ بجمع الدوائر كلهافى دائرة واحدة يستقر فيها الفـكر على ان الانسان مكره نفسه بنفسه وان افعاله ليست الاّ نتيجة

أمياله وان امياله ليست سوى سلسلة مرتبطة الحلقات متغلغلة فى ماضيه ، ولكن عند وصولنا إلى هذه النتيجة يقف امامنا سؤال يحار العقل فى الجواب عليه

ـ أين هو الماضي الذي يتلمّس الفلاسفة فيه انطباع الفطرة فى الانسان ؟

أماضي النفس قبل حلولها فى الجسد ؟ أم هو سن الحداثة أم هو زمن تكوّن الأجنة أم هو انطباع حياة الجدود فى جرثومة حياة الابناء ؟

ان الروحانيين يرون القضاء والقدر مرتسما فى النفس والطبيعيين يرونه ماثلا فى الامزجة الجسمية ، وهنالك من يقول بتسلسل النفس ابا عن جد ومن يقول بأن النفس مستقلة تحل حلولا فى تناسل الاجساد ، على أن هذه النظريات لم تتعد مجال الحدث والتخمين وسواء اكان المقدور منطبعاً فى الافراد والامم فى الجسوم أم فى القوة المتجلية فيها فأن الذى نراه هو أن كلمة « اريد » التي ينطق بها الانسان مجتمعاً ومنفرداً ليست مبدأ مستقلا بل هي نتيجة لمقدمات لا يمكن الرجوع اليها لتحويرها فأذا كان المنصرم من الحوادث روحية أ كانت أم جسدية قد ابقى طابعه على الارادة فلا امكان لأزالة ذلك الطابع دون الغاء علته والغاء العلة الماضية مستحيل ، لذلك يلوح لي أن الاستعداد الفطرى هو الذي يخط للانسان سبيله فى حياته لانه عند ما يريد لا يكون الا منفّذاً للمقدور فى حوافز ارادته ولكن الانسان يتوهم ان ما يريده في الحاضر انما هو ابتداء لا نتيجة . . . .

لقد توصل العلم الحديث الى تأكيد وجود قوة مستترة فى الانسان أسموها العقل الباطن وهي مستودع الفطرة والانطباعات السابقة وهي نفسها تسير الانسان متلبسة بمظهر الاختيار وما العقل الباطن كما دلت الابحاث والتجارب الاّ الحوافز التي وجدت فى الاجداد ونمت على اتجاه مقدور ايضاً زمن الطفولة.

يتراآى لنا اذا ان الانسان مأخوذ بالاستهواء تسطو عليه من ماضيه القوة

نفسها التي تسود المنَوم من ارادة المنوِم بالقوة المغناطيسية . فان المنوِم يوحى الى عقل المنوَم الباطن من شخصيته افعالا يأمره بالقيام بها فاذا ما انتبه المنوَم من نومه يهرع الي القيام بما أمر به معتقداً انه انما يفعل ذلك اجابة لحافز نشأ فى شخصيته المستقلة وبملء اختياره واذا ما انت اتيت تنتقد على المستهوَى عمله وقد يكون عاقلا يأتى عملا صبيانياً فانه يقف بوجهك مسخراً كل ما أوتي من منطق وقوة حجة لاثبات صحة ذلك العمل الصبياني وانطباقه على المعقول .

ليس ما أقصد فى محاضرة هذا المساء السير فى بحث الارادة الى أقصاه وقد لا نصل فى آخر الطـريق الى ابعد ما وصلنا اليه الآن ، ان ما نحتاج اليه فى بحثنا الثقافة الشرقية العربيـة هو ان نعلم ان فى الافراد والمجموع ميولا فطرية قوية كالحياة لانها راسخة فى الماضي الذي لا قبل لاحد بردّه وهذه الميول هى الحوافز التي تكمن فيها الفطرة ، والفطرة في الفرد كما فى المجموع انما هى اداة الشعور بالحياة فهى دماغ فى قلب كما قلت اولا فاذا ما كان الامر على هذه العقيدة فلا يبقي من ريب لدينا فى ان سعادة المرء والمجموع وشقاء كل منهما يتوقفان على ملاءَمة الحياة أو عدم ملاءَمتها لما فطرا عليه . وسواء اكان المرء مخيراً أم مسيراً في ارادته واعماله فانه على الحالين غير مخير فى ذوقه في الحياة وفى لذته والمه منها ، فكل فرد خالفت طريقة حياته ما استقر من الحوافز فى فطرته يفقد الشعور التام بتلك الحياة ويكون معرضاً للسقوط في المعترك وهكذا الامم اذا خدعت نفسها وسارت فى حياتها على ما يؤلم فطرتها فانها تفقد قوة الارتقاء بذاتها فتميت شخصيتها دون أن تتوفق الى الانبعاث فى شخصية تستعيرها من سواها .

تلك هى الفطرة او الثقافة فى الامم كلها وفى الافراد ، فالثقافة الشرقية العربية هى العقل الباطن لامم هـذا الشرق العربي وهي اللوح الذى سطرت عليه مبادىء

سقوطه واعتلائه ، وانني قبل ان اتكلم عن مميزات هذه الثقافة مما عرفته استقراء بنفسي ، ارى ان اورد ما كتبه عنها اشعر شعراء الاسبان المعاصرين وهو الشاعر فرنسيسكو فيلا سبازا المتوطن مدينة ريودي جانيرو (البرازيل)

واني اقتبس ما اورد من المقدمة التي كتبها فيلا سبازا لترجمته قصيدة (على بساط الريح) لفقيد العرب الشاعر الخالد فوزي المعلوف ، وهذه المقدمة مشبعة بالروح الشرقية العربية التي لم يزل يستلهمها الشاعر الاسباني الاكبر من ثقافته العربية الكامنة في فطرته الموروثة .

قال « ما من شعب كالشعب العربي عرف كيف يحصر مواضيعه الشعرية بدقة صارمة وايمان حار ولا غرو فما أوتي سواه ما أوتيه هو من خيال حساس مخصب وذكاء متوقد مدقق وعاطفة متعمقة مثبتة وفضلا عن ذلك فان له من لغته اقوى ظهير فهي متفوقة بتشاكل الكلم مع الاصوات والمعاني غنية بسهولة الاشتقاق ومرونة التعبير و نقاوة الصقل وكأني بها أوجدت للاحاطة بمكنونات الشعر البشري والالهي فتراها تخرج من دائرة الفن لتتحول الى دين صرف لا يتطرق اليه تطور ولا يؤثر فيه زمان او مكان

« ان الفنون العربية استنبطت للرفاهية واللذة والبحران ، يروّح بها العربي عن مشاعره المحلاّة بفضائل هي وايم الحق شعلة روحه المتوقدة وسراج ضميره الاوحد فشعره كهندسته اذ ترى ظاهر ابنيته بسيطاً عادياً وفي هذه البساطة اناقة خشنه لا تشوهها البهارج ولكنك لا تتجاوز العتبات الوضيعة والقباب الحدباء الى داخل تلك الابنية حتى تخرّ على وجهك مدهوشاً لبذخ وفخفخة لم تحلم بمثلهما ، وما من ريشة في العالم لاكبر الفنانين امكنها ان تأخذ بمثل تلك الالوان المتناسقة في الخزف المموه والفسيفساء المرصعة والنقوش الساحرة الباقية من آثار العرب وكأني

بكل مافى الطبيعة من مناظر واشكال يستشف من خلال هاتيك الخطوط البسيطة والالوان النقية وكأن الله شاء ان يجلو بها كوامن الجمال فجاءت بدائع لا يقو على استجلائها غير العيون التي تبصر في الظلمة والآذان التى تسمع في الصمت

« وللشعور العربي صلة باللباس فوق صلته بالهندسة ففيه الوان فنية تجدها فى حرير القفاطين المتوهج وفى خطوط المعاطف المتموجة وما نراه من بديع التنزيل ودقة الصقل على الفولاذ اللماع فى الخوذ الحربية والقبضات البراقة فى السيوف الحدباء

« ان التسليم بالمقدور هو اس فلسفة هذا الشعب ، وان دينه الذي هو اجلى مظاهر روحه انما هو بحق دين القانعين ، فالعربى يرقب الحياة من خلال طبعه القدري فلا يذعر ولا يدهش بل يرمقها بنظر هادىء ثابت هو وليد الحكمة .

« ومتى عمل الاسبانيون على استخراج الاثار الغنائية العربية من مدافنها فسوف يرون عصر آدابنا الذهبي على جانب من المسكنة ازاء العصور الزاهرة فى قرطبة وطليطلة واشبيلية وغرناطة حتى فى بلنسيه ومالاقا والمريه ومرسيه ، وان الشعر الرائع الذي تغنى به الشعراء الاندلسيون والاسبانيون والعرب لهو واسطة العقد وآصرة الروح بين الامم الشرقية الغربية التى تأهل بها سواحل بحر الروم ففيه يندمج خيالها فى خيال واحد وتتوحد امانيها في أمنية واحدة .

ومنذ عهد قريب استيقظت في الشرق كله رغبات عظيمة فى كل ما له علاقة بالثقافة الاسبانية وذلك يبدو لنا واضحاً فى هذا المهجر الاميركى حيث شعر الاسبانيون والعرب انهم اخوان فى شوقهم الى اوطانهم المتوارية وراء التاريخ وفي ذرف دمعة الحنين اليها فتعارفوا وتحابوا على نغم القيثار وهو أبين ما فى الشعر من لهجات

« ان للمأسوف عليه جرجي زيدان المؤرخ الروائى الكبير روايات عديدة

درس فيها باسلوبه الرائع العصور الاولى لسيطرة العرب على اسبانيا، وفى القاهرة رجعة الى ما فى شعر الاندلس من الروائع . . . . »

وقد قال هذا الشاعر المنصف فى موضع آخر ،

« يولد العرب فيخلق معهم النضوج وتواكبهم الحكمة ، وانك لتستشف فى نظرات اطفالهم العذراء روحاً قديماً تجول الخبرة فيه فلا تلبث ان تقول ما ذلك من هذا العالم بل من قوة وراء هذا العالم . »

ويلتفت دي سبازا بعد ذلك الى ما حوله من المدنيات الالية فيهتف قائلا ،

« ما هي الآثار الحديثة القيمة التى خلقتها ثقافة الغرب الروحيه ،

لقد حجب الغرب انوار المسيحية الاولى وبدّل بالادب المستحدث ما فى شعر المسيحية السامى من مؤاساة وحول فلسفتها الى احاجى ومعمّيات . . .

« ان جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمعة واحدة ولا بخلق ابتسامة واحدة ، وليس أجدر من أمم البحر المتوسط المحتفظة بالثقافة الشرقية والقائمة على اذاعتها بوضع حدّ نهائى لتدهور الغرب المشؤوم الى هوة التوحش الاقتصادى . »

ثم يتنصت هذا الشاعر الاسباني الى همس عقله الباطن فيشعر بالتمرد الخفى فيقول :—

« ليس فى طاقتنا نحن الاندلسيين المعتنقين بايمان ثابت دين المسيحية ان نجحد دين اسلافنا المسلمين ، فلئن كان الاول مستقراً فى ضمائرنا فان الثاني ما برح مستقراً فى فطرة قوميتنا المزدانة بالبدائع وكما اننا لو انتزعنا بعض الالوان التى موهت بها جدران كنائسنا نجد وراءها لمعاً مذهبة لاسم الله الصمد محفوراً بالحروف الكوفية فاننا لو خدشنا بشرتنا الاوربية الصفراء ابرز لنا من تحتها لون

بشرة العرب السمراء ، فما قوميتنا الغربية الا العرض الظاهر أما حقيقتنا الخالدة فهي القومية الشرقية . . . . »

لاقفن قليلا امام روح هـذا الشاعر الكبير الذي يرى المسيحية مستقرة في ضميره ويرى الاسلام مستقراً فى فطرته ، ولاقولن له انه بالرغم من ادراكه ان الغرب قد بدّل فلسفة المسيحية السامية بالاحاجي والمعميات لم يتمكن من ايصال الاسلام الى ضميره كما انه امتنع عليه ان يبلغ بالمسيحية الى فطرته ، فبقي النزاع مستحكماً فيه بين الفطرة والضمير لان ثقافته المسيحيـة لم تزل متـأثرة بالاحاجي والمعميات وهو مولود على ارض هى غير الارض التى ارتفع منها صوت المسيح ، ولو ان فيلا سبازا تسنّى له ان ينشق ملياً نسمات جبل الطور المشبعة بلفحات صحراء العرب، لوكان قدّر له ان يقرأ الانجيل حيث تغنت الاصداء بكلماته الخالدات كما قرأه صديقه فوزي وكما تلاه جبران والريحانى لما كان يحس باستقرار الانجيل والقرآن منفصلين الاول فيضميره والثاني فى فطرته .

واليكم الآن كلمة من هذا الشاعر ايضاً تبين ما لثقافة الاجداد من القوة في مواهب الاحفاد قال ،

« ان غونجروا وهو اكبر شعرائنا واتقاهم روحاً لم يزل مشهوراً بغموض تعابيره فى تأدية معانيه وما ذاك الا دليل علىسيادة الروح العربية في اقصى ثقافته حتى ضاقت به لغته فى استطباع ما في الشرق من المعاني والصور فانه يستنزل بلغة مبهمة ما تسمعه نفسه من الآيات الخالدات ويظهر الادب العربي فى اناشيد الاسبان فوق ظهوره فى قرائحهم الشعرية وانشيد غرناطـة شديد الشبـه بالمقام البغدادى فى بلاد العرب »

ان هذه الكلمات التي يزيد فى قيمتها تجاه الحقيقة صدورها عن اكبر شاعر

اسباني قد كتبت في معرض تحليله لشعر فوزي المعلوف ، ولسوف اورد لكم بعض الشيء عن هذا الشاعر الفذ الذي تتمثل الثقافة الشرقية العربية في كل مقطع من مقاطع اشعاره .

ولد هذا الشاعر الكبير في زحلة من اعمال لبنان ، وقد عرفته طفلا ورائيته يافعاً يدفع بقدميه على سبيل الخلود في وثبات خياله وقد كنت له الرفيق والدليل. هجر فوزي وطنه قاصداً سان باولو البرازيل في سنة ١٩١١ وهو في الثانية والعشرين من عمره فسطع نجمه في بلاد المهجر بكل انوار الثقافة العربيـة حتى خشعت لديه النفوس وتلفت اليه كبار الشعراء في تلك البلاد تلفتهم الى نور جديد من الشرق يعيد اليهم الاشعة التي تلقاها اجدادهم من مطالعه . .

مات هذا الشاعر الخالد في اول سنة ١٩٣٠ فدفن في سان باولو باحتفال لم يقم مثله لشاعر عربي ، واني لاورد الآن ما كنت كتبته عنه لتعلق حياته بصميم الموضوع الذي أبحثه ، وقد جعلت لمقالي الطويل فيه عنوانا في كتابه انين ونزوات والعنوان هو (شاعر الامة المشرّدة) . . . .

أريد ان يكون لي صفحة بين الصفحات التي تحمل الى الاجيال المقبلة اقوال معاصري فوزي ، وفوزي خالد فوقها بتموجات فكره ونزعات قلبه ، اريد ان تلتقي شخصيتي الكامنة في حياتي في شخصيته المطلقة المتجلية في موته لاقول فيها ما قالته عن نفسها الخالدة بفمه الزائل . . فتنشد قلمي صورة فوزي المنطبعة في تذكاري ويقف امامي ذلك الفتى اليافع وقدملأ انسان عينه حدقتها المنفرجة باهداب كأنها الاشعة الربداء لكوكب عينه المتألق في سواده . يقف أمامي بذلك القد المرتفع كأنه ساق زنبقة تتعالى ناهضة بتويجها الى ما فوق جازعة ان تلطخه ذرات التراب ، يقف أمامي بذلك الجبين العالي كأنه القمر متملصاً من القمم يتنازعه

جمالان من روعة الارض ومن روعة السماء .

أرى فوزي على مرتفعات المريجات الشاخصة الى جبل حرمون وقد طوق بسلاسله سهول البقاع ، اراه على ضفاف نهر الكوثر الجارى في وادي زحلة الظليل اراه بين الجنائن المرتوية من بردى الرابضة تحت عرين قاسيون ، اراه تقبّل اقدامه امواج البحر مع اقدام لبنان وقد حمل على مفرقة الابيض من الارز تاج الخلود.

اراه فارى كل هذه المواطن فيه ، وما انعكست كل هذه الامجاد وأشع كل هذا البها على شخصية اشد صفاء من شخصية فوزى، وتلك هى الشخصية المنطبعه على صفحة تذكاري كما تجلت امامى منذ خمسة عشر عاما عندما كان يسند خيالها الوثاب الى خيالى المتثاقل وهو يرتطم بالصخور على اول الطريق ..

وكان فوزي يشد على قيثارته من شعور الهات الحكمة والحب اوتارا ويسمع سوريا ولبنان اناشيد الشاعر تلاعبه نسمات الامل وتصدمه اعاصير الالام ، ابتسم للحياة وبكى لها حتى ضاقت اوطانه بما فى دماغه من فكر وبما فى قلبه من طموح فاذا برنين القيثارة يستحيل انينا واذا فى نبرات المنشد بلل الدموع ...

تلك النفس الجبارة الناشدة بوثبة من وثبات ناموس الرجعة فى الكون حياة الجدود فى استقلالهم وفى انطباق ما حولهم على نزعات ارواحهم ، تلك النفس الحساسة اللبنانية العربية ، وقد وجدت لتقود الامة الى الحق والجمال ، نشرت جناحيها الواسعين وحلقت كالنسر لتفتح فى الافاق سبيل الاعتلاء فاذا بالقفص الحديدي يشد على قوادم النسر في مطاره، واذا الحياة المنبعثة من ارفع القمم وابعدها في التاريخ تستحيل قبوراً تتعثر عليها حياة التبلبل والشذوذ فى هذه الايام

وما كان فوزى حين عرفته وسبر يأسي اقصى أمانيه الا المدنية الشرقية الحرة الراسية على ما انزلت سماء الشرق من آيات التسامح والتعاون والاخاء، وما كان

فوزي الا احدى المنائر القليلة التى ترتفع من اعماق الشرق القديم فتشع فترة من الزمن حتى تدور بها الاعاصير فترجع انوارها الى الظلمات ..

عرفته يجرح ابصاره ويخدش اسماعه كل ما يرى وما يسمع فى وطن يبصر اهله بعيون غير عيونهم ويسمعون باذان غير آذانهم ...

عرفته تثور نفسه الجبارة على كل تشوس وظلامة فى بلد توالت نكباته واستحكم فيه داء العبودية حتى رأت البشرية فى انالة شعوبه لقب القاصرين منة ونعمة فما كان الحب المضلل فى هذه الامة الحب القاضي على خلود العاطفة في قلوب بناتها وفى قلوب ابنائها ويزعزع قدسية العيال في نفوس رجالها ونسائها، ما كان هذا الحب الا صورة مشوهة للحب الصادق المعانق للحق فى قلب الشاعر اقنومين متحدين للاله المضيع فى هياكلنا ومنابت اطفالنا.

ما كانت هذه المجتمعات فى اوطاننا وقد رسا اساسها الاقتصادى على استقطار آخر نقطة من ضرعها المتحجر ورسا اساسها الادبي على طرائق واذواق تنكرها ارواحنا وتنفر منها دماؤنا الا مسخاً قبيحاً يطفر ضاحكا من المثال الاعلى الذي اقامه الشاعر فى خياله لحالة تنشدها اصوات القبور فى فمه ويوحيها حق حياة الشعوب الى قلبه :—

ما كان هذا الشعب المغلوب على أمره، المتنابذ المتناكر فى قوته المستعيض عن وحدة حياته بكلمة واحدة طبعت على جبينه يتيه بها اعجاباً امام عين الشمس، ما كان هذا الشعب المستهزىء برجاله المعرض عمن يمثلون ماضيه البعيد ليشعر بوجود فوزى وامثال فوزى اذا رفعوا صوتهم لاقامة حق وهدم باطل ..

أية قوة لكلمات الشاعر العربى اليوم اذا خرجت من فمه نوراً وناراً وهي ان صدمت القصور لا يبصر سكانها شرارها ولا يحسون بسعيرها وان حامت فوق

كواخ الشعب مرت كالشهب التائهات وميضاً لا يلوح حتى يختنق ...

على ذروة الامة عرب لغة العرب فى آذانهم صخب وضجيج ، وعند قاعدتها عرب لا تبلغ اللغة افهامهم حتى تفسد ... على القمة وطن ليس من الوطنية على شيء ، عاداته غريبة كلسانه وعواطفه مضللة كعاداته ، وفى الاودية وطن كاشجار الصنوبر طما عليها من العباب ضباب فلا تلوح لك الا كالقطيع المبدد فى آكام الثلوج

عرفت فوزى ، عرفت فرخ النسر فى الفترة التي لاحت له فيها بلاده وامته فضاء يضيق على جناحيه الوارفين فاذا يأس البلاد يقتل امانيه واصنامها تحطّم خياله .

صافحني مودعاً فقرأت انشودة الطيارة الخالدة فى عينيه وسمعت مقاطعها كلها بكلمات قليلة تهامسنا بها بين قبلتين ودمعتين ...

وطوى فرخ النسر ذراعيه على شاطئ بحر الروم والقى آخر نظرة على قمم صنين وهو المظهر الوحيد المتوّج فى البلاد ولكن بتاج الصقيع والموت ، نظرة المودع لنعش رفيع لم يزل الكفن الابيض منسدلا منذ اجيال على ما فيه من مجد مضيع وآمال عاثرة ثاوية

كل من اقتلعته اعاصير الدهر من تربة اجداده ورمت به الى الامواج كان يترك قطعة من قلبه على مرفأ بيروت ، ولو يتكلم الحجر المكسور عند سلم ذلك المرفأ لروى ما لا يرويه حجر على ابواب أى موطن باية امة ...

كل مهاجر يودع حياة ثقلت عليه يستقبل فى اماله حياة يرجوها مفرجة لكربه ، ولكن الرجال الذين تخلقهم الحياة اعمدة لابناء الوطن المنشود فهم ان بارحوه لا يتركون على ارضه قطعة من قلب بل يوسّدون ترابه حياة كاملة تفنى وشخصية سامية تنتحر ...

طوى النسر جناحيه منكراً على عينيه اختراق الظلمات بعد ان ملأهما الألم قتاما وقد تناسى ان قوادمه اقلام تتحطم فاستنبت من ثورته استكانة ومن جهده العاثر تسليما وخرت السابحة بحر الظلمات وفوزى يرى بآخر دمعة ذرفها على ارض الشرق آخر ما يجود به على شخصية فيه جارت عليه فتعمد قتلها

الشاعر اللبنانى العربي ، وهو لو ولد فى غير أمته لكان شكسبير أو لامارتين، لكان الزعيم يهيب بالشعب الى معرفة نفسه وبالوطن الى تكوين ذاته من تلك المعرفة ، ذلك الشاعر قطع بحر الظلمات كما تقطع الارواح البرزخ الفاصل بين عالمى الحياة والموت ، مات شاعراً عربياً على شاطىء لبنان حاسباً أنه سيبعث تاجراً امريكياً على شواطىء العالم الجديد . حسب فوزى أنه سيقيم سداً بين ارادته وفكره وبين شخصيته ، فاذ هو يثب وثباً ليقف بين كبار المتاجرين واذ هو يلعب بالنضار كما يتلهى العاشق البائس بخطرات الحظ على المائدة الخضراء

وما يصعب على امثال فوزي ان يقبضوا على أعنة الاتجار يسخرونه لمنفعتهم الخاصة واسهل ما تقوم به النفوس الجبارة المهيأة بالفطرة لتسديد خطوات الشعوب ان تسدد خطواتها هى في هذا الميدان القصير المجال ، ميدان العمل من اجل حياة واحدة ، ولكن صدر فوزى كان غاصاً بمهود وقبور لامة كاملة فما كان المجال الفسيح للفرد الا ليضيق بصدره ويشد على قلبه ، وما كان ذلك القلب الخافق بنبضان القلوب التي اوقفها الموت ونبضان القلوب المائلة للحياة ليعلق بالارض منفردا مجردا عن تذكاراته وآماله

ولو امكن لفوزي ان يبعث فى العالم الجديد شخصاً جديداً يندغم بما حوله من مدنيات واداب واخلاق ، لكان مشى كما تمشى سواه من شذاذ الافاق الذين تمحى شخصيتهم دون ان يستعيضوا عنها بشخصية جديدة اولئك هم اشباح الاحياء

لا يتمتعون بلذة الحياة ولـكنهم لا يشعرون بآلامها

ولـكن شخصية فوزي وقد انطبعت عليها مميزات سلالة اجتازت مراحل الاجيال وتغلغلت فى اعماقها الروح التي رفرفت على انحاء المعمور من مهبّ الـكلمات الخالده على طور سيناء وعرفات الصحراء ، تلك الشخصية المتشربة من أثير الشرق كل ما حمل من انفاس ابى العلاء وابي تمام والبحتري والفارض والمتنبي تلك الشخصية الحالمة بمجد فينيقيا وعظمات العرب ، وقد أشعّ من ثناياها نور الـكواكب الآفلة في سماء الشرق ، نور صلاح الدين وهارون الرشيد وطارق ابن زياد . تلك الشخصية، روح الشاعر المستوحى التاريخ والحكمة في افاق الخيال ، ما كان يمكنها ان تتنكر على ذاتها حقيقة ذاتها ...

ان ابناء المدنية القديمة يحملون فى اعماق شخصيتهم طابعاً خاصاً لا تسكن ارواحهم الاّ بانطباق الحياة عليه ، ولا يمكن ان يحل مقام هذا الطابع طابع آخر ينزل فى اعماق الفطرة الى مستقر الطابع القديم ، وكل ابناء الشعوب التى اكتسحتها المدنية الآلية الحديثة وصدمت اللغات والعادات الغريبة لغاتهم وعاداتهم انما هم على ارض اجدادهم وفى أية بقعة شرّدهم عليها اتغلابهم على امرهم مضللون يعاكس ظاهرهم المكتسب ما فى بواطنهم من الفطرة

لقد يظهر الشرقى مندغماً فى اية أمة كانت وتضمحل شخصيته في شخصيات من يحيطون به من الشعوب فيتألم بآلامهم ويتنعم بملذاتهم ، قد يراه من حوله مندغما فيهم ، اما هو فيبقى ابداً مشعراً من نفسه انهم لم يندغموا به

عبثا يحاول الانسان ان يهدم بحياة سنين ما كوّنته اجيال توالت على ممر القرون .

ان اولائك الذين يقلدون الاجانب فى غرائزهم يخادعون انفسم لانهم يسيرون

من احساساتهم على طرق لا تصل بهم الى مستقر شعورهم الباطن

ذلك هو ناموس الرجعة يسود الأمم جميعها على ان الشعوب العريقة فى القدم اكثر تحصناً فى شخصيتها من سواها ، ولا يتساوى الافراد من امة واحدة فى هذا الشعور فان من ابناء الامة من لا تناله غربة الفكر والعاطفة الاّ بالحرمان من لذة ادراك الذات الخفية ولكنه لا يشعر من هذا الفقدان بألم ، ومن ابناء الامة من فتحت الألمعية امامهم خفايا نفوسهم بكل ما كمن فيها من مميزات ، فهولاء هم ضحايا الاغتراب اينما كانوا حتى ولو وجدوا حيث ولدوا لأن اوطانهم قد دفنت ولم تبعث بعد .

وما كان فوزي الا احدى هذه الضحايا فى الشرق يريد من الحياة اماني تنكرها بلاده على نفسها وتنكرها الدنيا عليها ، امتنع عليه ان يستجلى نفسه فى من وما حوله فحرم من التمتع بذاته ، وليس من ألم اشد نفوذا فى قلب الالمعي من هذا الحرمان ...

فزع شاعر الجبل الاشمّ من ألمه الى اقصى المعمور فاذا ألمه يتبعه مع شخصيته نازع شخصيته حياته فتغلبت شخصيته عليه فاذا بالأمة منتصبة امامه على قدر ما فى نفسه من مرتفعات واعماق .

وانحنى الشاعر علي قيثارته يتلمس شعور الهة الحكمة والحب وقد كان يستنطقها اوتاراً ، فاذا الابراج مشوشة والاوتار مقطعة واذا وحيه صامت على انامله . ولكن ما عتم حتى بدأت الانغام تتعالى من القيثارة المصدوعة اناشيد مقاطعها نبرات لا يعلم أكانت السحب منازلها أم القبور مصاعدها

تلك انفاس لم يكن من هذه الارض مهبّها وافكار لم تكن من هذه الحياة معانيها وما كانت انغام قيثارة الوادي فى انامل شاعر الوادي الخالد سوى صدى

نوح بعيد لروح امتنع عليها ان تتكامل فى الحياة فترامت الى الضفة الثانية من عالم الموت .

وسادت انغام فوزي العالم الجديد وهبّت تملأ افاق البلاد العربيـة من وراء بحر الظلمات وكنت احد المصغين الى صوت رفيق القديم ، فجزعت اشاعر الحب والجمال ، اشاعر اللذة والآلام ينقلب شاعراً الهياً دافعا بنبرات ما اختلج بها صدر دون ان يتمزق وما اختلجت بها شفة دون ان تحترق

اية اوتار هى تلك التى شدها الشاعر على قيثارته بعد ان حطمتها فى يده الايام انها لاوتار منتزعة من شرايين قلبه ، وكل نقرة تستنطقها انامله انما هى نقطة مستنزفة من دمه .

هذه قصائد فوزي تملأ الاقطار العربية روعة فكأنها صوت موحّد الله يمتد بين خيوط الظلمات والانوار مهيبا بالقوم الي الفلاح وهو يبكيه داعيا الى الصلاح وهو يأس من ايجاده بين شعبه ...

تلك هى النزعات المكبوته في روح الشاعر تستحيل تشاؤماً في كل ما يرى على عالم المظهر وقد أدار ظهره اليه متجهاً الى عالم المصدر بعيون قلبه ، يرى فوزي الارض كلها غارقة فى ابحر الظلام لانه فتش عبثا فى اجاجها على وطنه الماثل فى فطرته

ذلك هو سرّ الأمي والتفجع في ذلك الكائن الجبار بفكره وقوته وجماله ومن كان اجدر من فوزى بحق الحياة تضع عند قدميه لذّاتها وتعلق على صدره امانيها ويتوج مفرقه ما فيها من مجد وبهاء .

فوزي !! يا شاعر الامة المشرّدة ، ومهبط وحى الشرق في الهامك ، لقد تبعتك بكل ما عهدت فى روحى من العطف عليك والاجلال لالمعيتك ، فكنت كما دوى صوت انشادك عاليا ، اتمثلك تعتلي نحو ذروة الجلجلة حتي بلغت القمه فانطلقت

بطيارة خيالك الى السحاب الاعلى . رأيتك على بساط الريح ، سابحة الافاق ، تلتفت الى الارض فتبكي وترفع رأسك الى العلياء فتبتسم ، وهذه انشودة سابحتك كلها ابتسامات ودموع وما كان احد من سامعيك ليدرك اكثر مني سر البلبل في اجفانك ووميض الرجاء على شفتيك

اتمثلك وانت مكب على طرسك في الليل تطرح الى العالم في سكرة اشعارك أجنة تمخضت شخصيتك بها في آلامها طوال السنين ، فارى في احشائك ذلك الانثلام الخفي يتسع وقد ردعت عنه سوائل المناعة كبد حرّى تمشت فيها الاماني المكبوته سموما ... واراك تهوي الى الحضيض كالنسر لا يسف ذاويا قوادمه الا في احتضاره . هكذا تهاوي كواكب الشرق بعد لمعانها اجراماً منطفيئه وكم تحت التراب منها رماد وكم فوق التراب منها رجوم ، جبابرة صمت شاخصة كابي الهول لا تنكشف للحياة ولا تسترها القبور .

هكذا يموت من تقضي عليهم ادواء أممهم لا ادواؤهم ، وهكذا مت أنت ، يا شاعر الوادي ، بلبلاً يتغنّى باناشيده لبنانياً عربياً رجعت بلابل البرازيل الحانه فوسم شعرها بشعره والتي على آدابها طابع أدبه بينما يتسقّط الكثيرون من ادعياء الادب في بلاد العرب الهام سائر الامم فيوردونه مسخاً تنكره الاذواق ويستنكر نفسه

والجمعة ادب الدنيا عليك ، وانت تتملص من هذه الارض التي حرمت فيها من وطن لبيانك ففزعت منها الى موطن الالهام الاعلى حيث تتجلي نزعاتك شخصية محررة من قيود الازمان والناس ...

* * *

الى هنا ينتهي من الصفحة التى كتبتها عن فوزي ماوصفت به الامة المشرّدة وما قلته عن شاعرها وقد كان يجب علي ان اقف عند هذا الحد من الاقتباس لولا

انى ارى فى كلمة التعزية التى الحقتها بالمقال ما يجدر تدوينه وان انحرف عن موضوعنا فى الظاهر غير انه متصل به من حيث شعورنا بفقد زعيم للنهضة بيننا وفى هذه الكلمة ايضا ما يتوق الفكر الى استجلائه فى كل زمن ومقام لتناوله موضوع الحياة والموت .

قلت ، موجها الخطاب الى عيسى افندى المعلوف العلاّمة المؤرخ وهو والد شاعر الامة المشرّدة

* * *

اين اجد الكلمات اتوسل بها اليك مواسيا يا ابا فوزى وانا المفجوع به فى وطنيتي وادبي واخائى .

ان التعزية لا تستخرج الاّ من النسيان ، ومثل فوزى لا ينساه ابعد الناس عنه فكيف يكلف نسيانه اباه وامه . . وهما الذات الموّحدة التى تحدر هو عنها .

ومن يدرى سرّ هذا التحدر ، أمن حلول هو ام من انبثاق

اين كانت تلك الروح قبل انجلائها بين شفق السرير وغسق القبر ؟

امن حياة الاباء حياة الابناء جوهرا واعراضا ؟

ايكون المولود عدماً قبل ان يولد أم هو كائن جوهراً في المصدر وجرثومته كامنة في المظهر منذ بدء الروح وبدء المادة ..؟

من هو فوزي منك يا أبا فوزي ؟

اذا كان هذا الشاعر الخالدفلذة من كبدك ، فما كانت يا تري روحه من روحك؟

من يجسر على استكناه هذه الظلمات ... ؟

من يقدر ان يعاين وجه الله ويحيا ؟

نحن فى هذه الحياة قافلة خيالات تنسحب من المعكس الى المصدر عندغروب شمس الحياة

كياننا ليس منا ووجودنا ليس فينا .

فاذا كانت حياتنا ليست لنا ، فأية حياة يمكننا ان ندّعى بحق لنا فيها .

ان المحتضر وهو يصارع آلامه لا يبكي على ابناء الحياة ولا على نفسه ، لانه يشعر بانعدام وهم التملك امام الحق وهو المالك المطلق لامالك سواه . وآخر مايعرف الانسان من هذه الدنيا ان لا شيء فيها لذاته لان ذاته ليست له .

لماذا اذن يبكي الاحياء على الراحلين ، وما هو تفجعّ الاسير على رفيق له تحطمت قيوده فافلت من اسره ؟

لماذا تتعالى اصوات الاشباح البشرية وراء النعوش ، ولماذا تنسكب دموع الحس المادي فوق اللحود ؟ ذلك لان قوة الزمان والمكان قد عوّدت الحيّ على التمتع بمن حوله وبما حوله من الزائلات فاذا ما هو بقى بعدها شعر بانسلاب شيء من حقه وانسلاخ شيء عن شخصيته .

ذلك هو سرّ تفجع الاحياء على الاموات ...

على ان هذا التفجع باستقراره على مكامن الحس من الاحياء لا يلبث حتى يغور مع كرور الايام الى الشخصية الثابتة المتعالية فوق لذات العالم وآلامه ، وهنالك تستحيل الاحزان والآلام الى اسى ساكن عميق لا حرقة فيه ولا عويل حوله ، وهنالك تبقى الشخصيات المشعة بصفاتها العليا مثالاً من الذكر الروحي لا يعتريه تغير ولا يبلغه سلوان ، اما الاموات الذين كانت حياتهم انكماشاً على ذاتهم وانكباباً على أنانيتهم فكانوا افواهاً آكلة ومعداً هاضمة فانهم يمحون حتى من ذكر اقرب الناس اليهم عند ما تجفّ الدموع ويخفت النحيب

وما يحتاج فوزي الى مرور الايام لتغور شخصيته من مستقر الالم السطحي الى أعماق النفوس ، فان ذكره متجدد في قلوب الناس حتي تفنى تلك القلوب

ان فى موت الزعيم فى روحه ومباديه رهبة اسمى من الالم وروعة اجل من الاسى ، فالعظماء كانوا قد ماتوا قبل ان يموتوا ، وسر مجدهم كامن فى انسلاخ ذاتهم عن الحياة فما كانوا فى الارض الآ اشباحا تتلفت من وراء الحجاب وترسل اصواتها من العالم الاعلى . وشاعر الوادى الخالد منذ رنّت قيثارته بانغام الخلود كان قد تعالى فوق شبيبته وفوق سحره وفوق جماله ، فهو فقيد عالم الفكر والمبادىء ، وما يرى هذا العالم بمن يفقد شباباً وشيوخاً ولا ضعفاء واقوياء ، ان الفكر فى الدنيا هو اله الافاق المحدودة أشعة من اله الكون الغير المتناهى ، وما جنود الفكر الا أجناد الحق في العالمين يسيرون فيالق متتابعة لا انقطاع بينها جيشا لجباً يلوح من أبعد ظلمات التاريخ فى كل امة منحدراً نحو القبور صاعدا من ورائها نحو سدرة المنتهى

ذلك جيش الحق علمه الواحد الجرأة والاخلاص ، وقد توّهج كوكب التضحية على صدر كل جندى فيه محترقاً بما فى ذلك الصدر متوهجاً قبس هداية الناس . ذلك الجيش يمتد عقدا منضدا على سلك من اشعة روح الله ، قواده الرسل والانبياء وزعماؤه رجال المنابر والاقلام وجنوده الصامتون كل من تخير الآلام صديقاً على الملذات مراوغا زنديقا ...

ما كان فوزي الا زعيماً كبيراً من زعماء هذا الجيش المقدس ، عاش مجاهداً ومات شهيداً ، قصرت مرحلته فى مقياس الزمان ولكنها بلغت منتهاها فى مقياس الحياة الفكرية ، فمراحل الاجساد خطوات ومراحل النفوس مراتب ، وصرعى جهاد الفكر شهداء فى سبيل الحق سواء ارفعوا على اعواد المشانق أم هوت رؤوسهم تحت منصل المقصلة ، أماتوا في سجون الظالمين أم استحالت اجسادهم من التجرد سجوناً خانقة قاتلة ..

ان امثال هؤلاء الشهداء المرتفعين فوق الحياة لا يبكى عليهم كاموات الحياة

* * *

هذه كآتى فى شاعر خفق قلب الشرق القديم فى قلبه ، ورجعت اصداء ضلوعه ما قرع اجواءه من دوى النبوات وهواتف العبقريات ، وما كنت حين استذرف تذكارى هذه الدموع الصارخات متذكراً فوزى المعلوف وحده ، ان شاعر الامة المشردة كان يتمثل لعياني بهذا المثل الكامل لكل شاعر مشى قبله على طريق الألم ولكل شاعر لم يزل يمشي بالهامه غريباً بين قومه وعلى جبينه نجمة الثقافة الشرقية العربية . .

واني وانا اعلم ان اشعار فوزي المعلوف قد تسللت الى قلوب الادباء كلهم ، لا املك النفس من ايراد بعض ابياته لا لأستعرض عبقريته بل لأدعم نظريتي في العقل الباطن الشرقى . أما عبقرية الشاعر فمن الظلم ان نستعرضها في ابيات مقتضبة من بعض اشعاره ،

قال فى قبر توت عنخ آمون

أيهان فرعون الكبير بقبره   وهو العزيز بملكه وجنابه
أفما رأيت امامه وحياله   حرس البلاط مدججا بحرابه
ورأيت «انوبيس» فى ناووسه   متحفزاً وأمون فى محرابه
هو صامت لكنه فى صمته   أقوي وابلغ منه فى إعرابه
أعيا الفناءَ فلم ينله ولم يزل   متألق اللمعان نور اهابه
الروح حائمة على تابوته   والجسم رطب العود فى جلبابه
فترى اللظى متنفساً بطعامه   وتري الحباب مشعشعا بشرابه

أيصف هذا الوصف الرائع لامجاد مصر القديمة من يعدها غريبة عن وطنه ينتسب اليها قوم غير قومه ؟ ان الشاعر العربي اللبناني يعتز باجداد اخوانه فى ثقافته اعتزازه باجداد تسرى دماؤهم فى دمائه ، ولعل فى مثل هذه العواطف درساً لمن

يحسبون مجد الفراعنة حائلا يقف بين واجبهم وبين ما انطوت ارواحهم عليه من ثقافة عربية اصبحت منذ اجيال شخصيتهم الراسخة التي بها يحسون ويدركون الحياة

وهذا شاعر لبنان يصف اثار بعلبك ، اثار اجداده الاقدمين قبل تكون الثقافة العربية فلا يعتلي الهامه طبقة اسمى من الطبقة التي بلغها امام آثار مصر الخالدة قال

وأعمدة ملء الفضاء كأنها ... باعناقها تبغي معانقة الزهر
جبابرة ترنو بكبر الى الثرى ... وترمق وجه الافق بالنظر الشذر
وضخم حجار كالجبال اذا هوت ... على جبل شقت روابيه بالوقر
على حالق منصوبة عزَّ خفضها ... تحير في كيفية الرفع والجر
وأسد من الصخر الأصم تخالها ... تهمّ بوثب ثم تربض عن كبر
اذا فاتها من ليث غاب زئيره ... فما فاتها ان تملأ القلب بالذعر

هذه بعض نظرات الشاعر الى الماضي واليكم قطرات اجفانه عند تحديقه الى ما حوله

أرى أمتي تمشي بكل غباوة ... الى حيث لا تلقى سوى البؤس والسحق
لقد قيل ان الشرق أتعس موطن ... ونحن اسوء الحظ أشقى بني الشرق

وهذه دمعة محرقة القاها على شاطىء لبنان يوم وداعه

مهما يجر وطني عليَّ واهله ... فالاهل أهلي والبلاد بلادي
أرثي لبؤسهم فاندب حالهم ... بفمي وأرثي حظهم بمدادي
هم ضيعوا ارث الجدود فنالهم ... غضب الجدود ولعنة الاولاد
قسماً باهلي لم افارق عن رضى ... اهلي وهم ذخري وركن عمادي
لكن أنفت بان أعيش بموطني ... عبداً وكنت به من الأسياد

وهذه صرخة من قلبه في غربته

انا الغريب فلا اهل ولا وطن ... اذا انتسبت امام الناس وانتسبوا

ولا لواء اذا دق النفير مشى　　يحميه من صيد قومي العسكر اللجب
ومن يكون غريباً في مواطنه　　لا بد ان انكرته الارض والشهب

وهذه ايضا صرخة بكاء على غرناطه الاندلسية استوحاها فوزى من ملحمة لصديقه الشاعر الكبير فيلا سباز فانكم لتسمعون فيها الثقافة العربية نائحة فى اعماق روح الاسباني وبين شفتي العربي في اعجاز بيانه ،

غرناطة ، اواه غرناطـــة　　لم يبق شيء لك من صولتك
هل نهرك الجاري سوى أدمع　　تجرى على ما دال من دولتك
والنسمة الغادية الرائحـــه　　هل هي ألّا زفرة نائحه
ما عدت في النهر كسلطانه　　جبينهـــا في مائه ساطعه
للقبة الحمـــراء في تاجها　　وهج والمـأذنة اللامعه
آه على امجادك الضائعه　　شيعتها بالنظرة الدامعـــه
مرّت مرور النهر من جسره　　واورثتك النوح فى عزلتك
غرناطة ، اواه غرناطـــة　　لم يبق شيء لك من صولتك

***

لله حمراؤك تحسو الاسي　　وحيدة فى الروضة الخاليه
لم يبق لا زهـوة ندمانها　　ولا صدى اعيادها الماضيـه
ولم يعـد للحب فيها انين　　ينقله العود الى العاشقين
بين يجيل البـدر الحاظه　　باهتـــة فى المرمر اللامع
بين اريج الزهر المنتشى　　وبين شدو البلبل الساجع
وقصرها الخـاوي بارجائه　　كم غمر الليل بضوضائه
اذا الجـواري خاطرات على　　سجـــادة جارية جارية

اروع ما فى الشرق من رقصه　　تنسجه اقدامها العاريه

* * *

غرناطة ، آواه غرناطة　　ما انت الاّ خرب قابعه
تحمل اسراب السنونو الى　　افريقيا انبائك الفاجعه
هناك ابناؤك من بأسهم　　باكون لا باكون من يأسهم
عرّوا من الاغماد بيض الظبي　　ووشحوا الخيل ببيض السروج
ويمموا البحر فلما بدت　　منك على الافق جبال الثلوج
خروا على أوجههم راكعين　　وزفروا من قهرهم صارخين
غرناطة ، اواه غرناطة　　ضعت فيا للعظم الضائعه
فيزفر الموج ويبكى لهم　　حين يرى أعينهم دامعه

* * *

ان فيلا سبازا الذى يمت باصله الى بني أميّه يجيش صدره بالعواطف العربية القديمة فيرسلها لسانه بلغة الكاسحين لغة ابائه منذ اجيال ولكنه يشد على هذه اللغة فيلويها حتي يسحقها سحقاً تحت بيانه العربي الخفي ،

ولو ان هذه الشعوب العربية المنتشرة على وجه الشرق ضائعة مفككة العرى تائهة بين تعصبها وجهلها يمكنها اليوم ان تستجلى كوامن ثقافتها كما استجلاها ادباؤها المشرّدون حتى بين اقوامهم لكانت هذه القصيدة وحدها اذا انشدتها الاصوات العربية على اعالى الجبال وفى مفاوز الصحراء كافية لبعث المجد القديم واقامة المدنية التي يتنصت علماء الدنيا الى وقع اقدامها من بعيد متوقعين طلوعها بغصن السلام على الانسانية الباكية . . .

. . .

قال الاستاذ كمبفاير المستشرق الالماني فى مجلته « معرض الافكار الشرقية »
« تتمشي النهضة الادبية في الاقطار العربية الثلاثة مصر والشام والعراق بخطى متساوية متوازنة كأنما هي قلب خفاق يهتز تحت عاطفة واحدة ويتنفس عن شعور واحد »

انهم فى الغرب يشعرون بوحدة قلبنا ووحدة انفاسنا، لانهم يعاينون هذا الخفوق فى قصائد شعرائنا وفى فصول كتابنا وما هؤلاء الشعراء والكتاب الاّ أمة واحدة تدين بدين وحى الشرق الواحد وتطرب لنغمات الحجاز والعراق ومصر وسوريا وتتكلم بلغة الضاد صافية رائعة، ولكنها أمة تجلت كوامنها الموروثة بين فئات متعددة من الناس لم تزل هذه الكوامن راقدة فيها تغط في نوم عميق، فاذا ما اجتمع حجازي بعراقىّ من الفئة المستنيرة في مصر مثلا كان احدهما اقرب الى الآخر نسبا من المثقف المصري بين قوم لم تزل فطرتهم مضللة من بنى امه فى عقر داره

سأعود بعد فترة الى رأي المستشرق الالمانى فينا ولكن اسمحوا لى قبل ذلك ان اسمعكم بعض ابيات فوزى وان اسرد لكم عنه ما اراه نازلا في صلب موضوعنا هذا المساء، انني اكلمكم عن شاعر الامة المشرّدة فانا اذاً اتلمس معكم جراح هذه الامة وما كان فوزى المعلوف ليستوقفكم معى عند ذكره لو لم يكن كسائر اعلامنا رمزاً لما كمن من العظمة فى مجموعنا المبدد الهائم.

اسمعوا شاعر الامة المشرّدة يخاطب قلبه،

معرض للرسوم فيه غموض ووضوح وفيه حسن وقبح
إنما نلمح الصفاء عليـــه لمحة والصفـاء في العيش لمح
وتحس العذاب بالنار محفو را فخاذر ما زال للجمر لفح
طـويت بسمة لينشر دمع وخبت بهجـة ليامع جرح

يا فؤادى وأنت منى كلى ... ليت حكمى يوما عليك يصح
انت مهد المنى وهذي بقايا ... ها أكبت عليك تغفو وتصحو
خافقة الحب أنت كل خفوق ... فيك حب وكل بغضك صفح

واسمعوه في قصيدته بساط الريح يقول

نجمة الليل رحمة فضلوعى
من شجونى تتمزق
كفكفى السيل انه فى دموعى
من عيونى يتدفق

واذكرينى بين الكواكب وادعي ... لي عسى يهتدى الى السلام
عشت بين المنى يراود نفسي ... خلب من طيوفها وعقام
اقتفيها وفي يدى فؤادى ... ثم ألوى وفى يدي حطام
أى حلم سكبته ذهبيا ... لم تذبه بنارها الايام
ورجاء حبكته من خيوط الـ ... نور لم ينسدل عليه ظلام
أى عود حملته للتلهي ... لم تقطع اوتاره الايام
ونشيد وقعته للتأسى ... لم يعكره بالأنين الغرام
أى كأس قربته من شفاهى ... لم تحل حنظلا عليه المدام
وفؤاد ذوبت فيه فؤادى ... لم يضع عنده لعهدي زمام
أي طيف عانقته فى منامى ... لم يكاله دمع عينى السجام
وهناء زرعته فى ضلوعى ... لم يكن منه للذبول طعام
ليت شعرى والليل يعقبه الـ ... فجر متى يعقب البكاء ابتسام
ضاع عمرى سعياً وراء رسوم ... خططتها فى الشاطىء الاقدام

عشت أبنى على الرمال وهل يثـ بت ركن له الرمال دعام ...

...

قلت انى سأعود الى رأى المستشرق الالمانى فينا وها انا استعيد قول فيلا سبازا متمما لهذا الرأى اذ قال —

« ليس اجدر من امم البحر المتوسط المحتفظة بالثقافة الشرقية والقائمة على اذاعتها من وضع حد نهائى لتدهور الغرب المشؤوم الى هوة التوحش الاقتصادى

ان العالم البحاثة والشاعر الحساس متفقان اذاً على ان الثقافة الشرقية المنطبعة على ما خلقه الوحى القديم من الغرائز سيكون لها شأنها في مستقبل المدنيات المتقلقلة ، فالفكرة الانسانية التي تصلح الحياة انما هى اذاً روح الشرق التي حررت الغرب من قيوده واخرجته من ظلماته بينما كان الشرق نفسه يتدهور من ذروة الانوار الى مهاوي التعصب والجهل والانقسام

على ان المدنية الغربية التي احتضنت روح الشرق القديمة ونشرتها حاملة عنوان حقوق الانسان قد انشأت في مراحلها فكرة اخرى تلازمها وهى فكرة الحياة المادية الآلية فكانت هذه الفكرة الاخيرة كغلاف لا بد له ان ينتفخ وينفجر يوماً ليقوم مقامه غلاف آخر أصلح منه تبعا لنظام النشوء فى المظاهر المتحولة .

إن من الفلاسفة من يعتقد بتقمص الروح الانسانية فى الفرد على مر الاجيال لبلوغ محور الدائرة ، وما انا بالباحث هذا الموضوع فى نفس الفرد ولكن ما اراه هو ان هذا التقمص انما هو حقيقة يؤيدها التاريخ فى فكرة الانسانية العامة أو الروح البشرية في مجموع الامم ويمكن اعتبار المدنيات على اختلاف اشكالها من ابعد ظلمات التاريخ كأنها اجسام تحلّ فيها فكرة الخير فتتغذى تلك الفكرة منها الى ان يدب الهرم في الجسم فتتملص الروح منه اذ ذاك لتحلّ فى جسم مدنية ناشئة

أخرى والروح سائرة الى التكامل على اشلاء هذه المدنيات المتوالية، وقد احتضنت مدنية الغرب هذه الروح العامة اجيالا فكانت هنالك نهضة في سبيل الحق تجلى في رحلها من ابناء الحياة من دعائم التاريخ بحق أنصاف آلهة، وهذه ارض الغرب كلها لم تبق فيها بقعة الا انارت أفقها فكرة حر وخضّب أرضها دم شهيد، ولكن جسم هذه المدنية قد تصلبت شرايينه فدبّ الهرم فيه بعد ان ارتوت الروح العامة من دمه ومن دماغه . .

وما كانت الحرب العامة الأخيرة الا أعراض الحمى في جسد نهكته السموم وما تلك السموم الا العراك المادي العنيف بين رأس المال والعمال، بين العيلة التي تريد الاحتفاظ بنفسها والحرية المتطرفة التي تنازع الأطفال حقهم في سرير طاهر لا تدور حوله الاهواء الجامحات

إن مدنية يستلهم عباقرتها الروح العليا ما يرفع العناء عن الانسان بكل اكتشاف واختراع مفيد فتُمسخ هذه القوات النافعة فيها نقمات على الناس لهي مدنية يشوش غلافها على ما كمن فيها من حق وجمال، فهي الجسد المتعب الهرم يحوّل الى ألم ما يرهقه من حوافز ونزعات، ان هذه المدنية يتصدع شكلها مما كمن فيها من قوة مضللة فهي الآن في ليالي احتضارها وسوف تنعتق الروح العامة منها لتتقمص جسما آخر من مدنيات التاريخ .

إنني أصغي بخشوع لهتاف فيلاسبازا إذ يقول —

« إذن فنسيم البحر المتوسط العليل هو القادر على تبريد هذه النشوة، نشوة الخمر والذهب، وحسب الغرب الممسوس ما يتخبط فيه من نوب يستسلم بها الى أحط ملاذ المادة ضاربا عرض الحائط بأجل ما في الحياة من أمانيّ وأحلام . . »

انها لصرخة مروعة صرخة هذا المفكر الشاعر الكبير الذي يولي وجهه شطر بلاد

الانبياء ومنشأ الفلاسفة الأحرار الأقدمين منتظراً منها انبثاق أنوار الهداية للعالمين

هل نحن ، ياترى ، ذلك الجنين الذي تحوم روح الانسانية حوله لتحلّ فيه وتقيمه جسداً جديداً للحياة الجديدة ؟

ان هذا التقمص المنتظر لن يكون بقيام أمة على انقاض أمم ، بل بهبوب فكرة حية من مثوى الوحي القديم تسود المدنيات الهرمة فتبدل ما طرأ عليها من اطوار لم تبقَ تصلح لها ولا تصلح لاية أمة من أمم الارض

تلك عودة لا بد منها الى ما أنزل على موسى وعيسى ومحمد وإلى ما هتف به الحكماء الأقدمين فى الشرق فأغلقت دونه القلوب حتى فى الشرق نفسه

إن المدنية المنتظرة انما تقوم على إحياء الأسرة ورفعها الى عرش قدسيتها من مهاوي الاغراق فى الاستبداد بالمرأة ومن مزالق إطلاقها المتطرف الشائن . انها لمدنية تقضي على تناكر المذاهب والجنسيات لأسعاد الانسان بالتعاون فى كل أمة وفي كل بلاد ، انها لمدنية تحتفظ بالعلم الذى قبض الغرب على ناصيته في جهاده لادغامه بالنظم الاجتماعية الصحيحة المستلهمة في الشرق لأصلاح الحياه . ولكنني لا أدري كيف نتمكن نحن أمم البحر المتوسط من وضع الحد الاخير لتدهور الغرب بقوة ثقافتنا الشرقية اذا كانت هذه الثقافة مثقلة من نعاس الاجيال نائمة بين خرائب هيا كلنا وآثار مدنيتنا الباقية ؟ . . .

ان هذه الثقافة لم يجهلها عظماء نوابغ الغرب وقد ملأت مؤلفات شكسبير وهوجو ودانتي فاقامت في الغرب كل ما هو جميل ونبيل حتى جاءت المدنية الآلية تكافح ذلك النبل وتشوّه ذلك الجمال . وهـذه الثقافة نفسها هي الملهمة لأكبر شعرائنا وكتابنا وخطبائنا هي النسمة الخالدة التي أحيت كلمات مصطفى كامل وسعد وشوقى ومطران وطه حسين وهيكل والمازني والمعلوف وحافظ ومى وجبران

والريحاني وخيرالله والملاط ومجاعص ومردم والزركلي واسطفان وبشاره الخوري والياس أبوشبكه والزهاوى والرصافى ورشيدالخوري والمكرزل وأبى ماضي و.. و.. من هذه السلسلة الطويلة التي تماسكت حلقاتها فوق التراب وتحت التراب وعلى أرض الشرق وكل أرض نثرت تلك الحلقات عليها .

ولكن أين من هذه الثقافة هؤلاء الاقوام المحيطون بالبحر المتوسط وهم طليعة ما فى الشرق العربي من أقوام ؟ ان بين هذه الشعوب وبين النابغين منها لمجالا بعيداً ، فان الروح الشرقية الهابة فوق الاهرام والأرز وقلعة بعلبك وهياكل اورشليم وقباب بغداد ومآذن دمشق قد قبضت على مشاعر العباقرة منا ولكنها بقيت تنزلق انزلاقا على هذه الكتل المبددة التي تتلوى كالمقاصب الضعيفة وقد ساورتها هوج الرياح من كل جانب

أين الثقافة الشرقية الرائعة التي تتجلى فى اقوال عباقرتنا مشبعة بروح الصيانة والتساهل والعطف والاخاء من هذه الشعوب المقلدة التي تناست غريزتها ولم تقتبس من مدنيات الغرب الا ما يبكي له عظماء الغرب أنفسهم .

لقد جمحت ، ايها الاخوان ، عن المركز الذي يستقر موضوعي فيه ، ولكنني إن خططت دائرة بعيدة عن هذا المركز بطرف البركار فان طرفه الآخر لم يزل يدور فى صميم هذه الدائرة ، ان ما أردت اثباته هو ان للشرق ثقافة خاصة فيه مقدورة عليه مما تشربت الاجيال الماضية من الهام أنبيائه وجمال ارضه وصفاء سمائه وان هذه الثقافة واحدة فى جوهرها متغلغلة فى ارواح كل الأقوام الشرقية العربية برغم ما يتجلى فى كل قوم منها من نزعات طارئات مختلفات ، هذا ما أردت اثباته وقد أكون توصلت الى اقناعكم به ، على اني لا أرى بدأً من السير فى الموضوع الى أقصاه فأضع حداً بين الثقافة الشرقية الروحية التي اجتاحت الغرب والعالم الجديد

فاتخذها العالم بأسره أساساً لعقائده الدينية وبين الثقافة الكامنة في الفطرة والتي تميز الشرق عن سائر الامم في نزعاته وشعوره بالحياة .

ان الثقافة الدينية مشاع بين البشر كلهم فهي دعوة فى صحراء التيه وعظة على جبل فلسطين وهداية فى الحجاز لكل انسان أينما ولد وأيّان يعيش ، وهذا الوحي الواحد فى أصله المنزل لاصلاح الحياة فى ثلاثة أزمنة مختلفة لا ينجلي للغريزة الشرقية المستنيرة بما كمن فيها من حق الا صوتاً واحداً تعالى ثلاث مرات داعياً الى المعروف ناهياً عن المنكر ، وما كان عيسى ناقضاً لموسى ولا كان محمد ناقضاً لعيسى ، ولولا ان الشعوب البعيدة عن مصدر هذا الوحي المثلث لم تضف الى كل من هذه الثقافات الروحية الثلاث الواحدة فى جوهرها طفيليات من عندياتها وذيولا من ثقافتها المادية الخاصة لكان يصعب على الفكر المجرد أن يجد بين هذه العقائد الروحية فرقاً يصح أن يقسم جوهرها الى جواهر مختلفة .

اننا لو عرّينا حياة المسيحي مما علق بها من عادات الغرب وعرّينا حياة المسلم مما علق بها من عادات الفرس ورجعنا بالرجلين الى الانجيل والقرآن فانه ليصعب علينا أن نعيّن موضع الفرق بينهما .

ويقيني انه لو تنبهت الغرائز الشرقية الكامنة في النفوس ووقفت عند فطرتها الاصلية لما كان ابناء الشرق يجدون في كتبهم المنزلة الا دستوراً واحداً يجمع بينهم ليس فى كيفية عباداتهم فحسب بل فى طرق حياتهم كلها

واست بالسابر هذا الموضوع الآن وهو يحتاج الى بحث طويل مستقل ، فاكتفي بأن أبحث معكم الثقافة الشرقية فى مصادرها الادبية وفى نزعاتها للشعور بالحياة ، وهذه الثقافة تتجلى بمعزل عن المؤثرات الدينية فى كل الشعوب ، إذ لو كان للمعتقدات الدينية قوة تسطو بها على الغرائز القومية واستعداد السلالات

لوجب ان تتوحد ثقافات العالم الاسلامى وثقافات العالم المسيحي وثقافات العالم الاسرائيلي ، والحال ان مميزات الامم ونزعاتها الفطرية لم تزل تتجلى على مافيها من طوابع خاصة برغم المؤثرات الدينية الواحدة ، وما نال الدين المسيحي من غرائز اوروبا بل هى نالت منه بوجه عام ولا هو وحدّها بوجه خاص إذ بقي الافرنسي افرنسياً والانكليزي انكليزياً والالماني المانياً وكل من هذه الاجناس بقي محتفظاً بما أورثه الاجداد من خلال وبما كمن فيه من حوافز للتمتع بالحياة .

إن من درس آداب أمم أوروبا يتجلى لديه ما بين شعوبها من وهاد بالعاطفة والتصوّر فاذا ما اتفق العلماء فيها من كل أمـة على الاستقراء والاستنتاج فانهم يختلفون اختلافاً بيناً فى كل ما يتعلق بالعاطفة ومبادىء الحياة الأجتماعية . والستار الفضي « السينما » هو خير كتاب يدرس فيه المفكر أحوال الامم إذ يدوّن نبرات الصوت ودقائق الحركة والشعور بالحياة بصورة جامعة يمكنك ان تستجلى فيها بساعة ما لا تستجليه بتمضية الشهور بين هذه الامم .

انني أيها السادة ، وقـد قدر لي ان اجىء الحياة من أب لبناني عربي ومن أم سويسرية بأمها هولندية بأبيها ، أرجع الى كوامن الغريزة فيّ فاشعر بالفطرة العربية متغلبة على سائر ما ورثت من نزعات أوروبية ، ولـكنني استبقي على هذه النزعات الاخيرة واستجليها أحياناً لأسخرها جميعها لسلطان الفكر باحثاً منقباً ، وليس بالسهل على الحي ان يعمل مبضع الجراح في صميمه سابراً متحرياً قاطعاً واصلا ، ولـكنّ للاستطلاع استهواء وللسير وراء الحقيقة جذبة لا يقاومها المتطلع الى أصول الاشياء .

ان لـكل انسان من كيانه نافـذة يتطلع منها الى الحياة ، هي نافذة فطرته الموروثة فنها يستقبل النور ومنها يستقبل النسمات لأنفاسه ، فان قفى على هذه

النافذة بالاقفال خُنقت الشخصية الماثلة وراءها وسادها الانكماش على نفسها في ظلمة حالكة ، وإذا ما أنت نظرت الى مدنيات الاقوام في سائر مراحلها ، فانك لتتبيّن فيها نزعة خاصة مميزة لكل منها في حبها وبغضها وسكونها وثورتها وحربها وسلامها ، وحتى في تصور العدل والظلم فيها . ومما يسهّل عليك الاستقراء ويغنيك عن مشقة التفتيش في التاريخ ان تقابل بين مايعرض في دور الستائر الفضية «السينما» من الروايات ، إذ يستحيل عليك أن تخطيء في التمييز بين مصادرها ، لان من الممتنع على الامريكي مثلا ان يأتيك بحركة وتصور الافرنسي أو الالماني كما يمتنع على هذين ان يظهرا عقلية الامريكي والحال على هذا المنوال بين كل الشعوب على اختلافها .

هذا وانك لتشاهد ارتياح الجرمني مثلا الى تمثيل ابدعه ابناء قومه بأكثر من ارتياحه الى أي تمثيل آخر حتى ولو قصرّ مايرتاح اليه في مجال الفن اخراجاً وتصوراً

إن ما يراه الأفرنسي على الستار الفضي من الحركة العنيفة بالقفز والكسر والتحطيم وهي ما يرتاح اليها الذوق الامريكي لما يجرح ذوقه الخاص ، وكم على الستائر الفضية من مشاهد يرى بعض الاقوام فيها كل الظرافة وكل الابداع في حين ان اقواماً آخرين يرون فيها نهاية البلاهة وقلة الذوق .

قال الحكماء في كل الامم كلمة ذهبت مثلا على ممر الاجيال وهي « لاجدال في الذوق وتمييز الالوان » ذلك لانه كما لا يمكنك ان تثبت ان اللون الاحمر هو أحمر لمن لاتريه حدقة عينه الأحمر الا أصفر ، كذلك لايمكنك ان تحول الفطرة في التلذذ من موقفها المقدور دليها الى موقف آخر .

على انني ، أنا ، وقد فتح المقدور فيما ورثت من ثقافات امام شعوري نوافذ عديدة الى جانب النافذة العربية الشرقية ، فانه ليتسنى لي ان المح الشعور بالحياة

لمحاً من نوافذ الثقافات الغربية عندما اشاء ان اقفل النافذة الكبرى الى حين، فان تنصّتت الى موسيقى بيتوفن وموزار وصلت الى شعوري الباطن الخفيّ اهتزازات هذه الموسيقى كأنها صدى خفت لصوت بعيد أقف عنده محولا كل ما فيّ من عزم للاعتلاء مع هذه النغمات فاستغرق في بحران المبهوت أمام جمال رائع في وجه أسدل القناع عليه، واشعر ان لاختياري سهماً وافراً في ما اتمتع به من لذة، غير انني إذا كنت لا أدرك اللذة الكاملة من هذه النغمات فلا يفوتني ان استجلي الآفاق التي تنجذب اليها عواطف الغربيين أنفسهم فيحلّقون فيها بقوة ما في فطرتهم من الاستهواء الكامن، وانني لأشعر بمثل هذا الشعور امام كل ثقافة غربية سواء تجلت في الانشاء أو الشعر أو العادات والتقاليد، فانني وأنا المدرك بشيء من الفطرة ما لا يدركه ابناء قومي من الغرائز الاجنبية، متيقن من امتناع دخول انوار الحياة اليّ الا « من النافذة العربية الشرقية الكبرى التي تطلعّ اجدادي قبلي منها الى أشباح الحياة مستجلين منها جميلها وقبيحها . . .

وإنني لأعجب لفئة كثير عديدها من ابناء هذا الشرق العربي تنفرط من عقد قوميتها ويتظاهر افرادها بتفهّم الثقافات الغربية تفهماً تاماً فهم يفتخرون بابتعادهم عن لغة قومهم وغرائزهم، ولكم رأيت في هذه البلدان العربية اناساً يخدعون أنفسهم ليقال عنهم انهم متمدينون راقون متعالون الى أسمى درجات المدنية، فهنالك شاب يقلد الغربيين في كل ما لا قبل له فيه فيتشاعر بما لا يشعر به ويتلاذذ بما لا ينفذ الى حسه فهو يُري عينه مالا ترى ويُسمع أذنه مالا تسمع عاملا على قتل القوة العريقة فيه بسدّ ما لها من منافذ الشعور الصحيح نحو الحياة

خرجت مرة من احدى الحفلات الخيرية في بيروت وفي روحي ثورة مما رأيت من الرقص الخلاعي ومن موسيقى العبيد التي تخدّش الآذان وتورث الدوار

يكتسحان ابناء الأمة العربية لا لعلة الاّ لاكتساحهما أوروبا المحمومة من صدمة الحرب ، فمشيت أتخطى ساحة الشهداء حتى وصلت الى منعطف ضيق من الطريق فسمعت نغمات هادئة شجية ترتفع متغلغلة فى أنفاس الليل بمقاطع كأنها عبارات تبللها العبرات ينطق بها عاشق مروّع على قبر حبيب ؛ تقدمت الى مصدر النغمات فاذا صديقي مصطفى الاعمى جالس القرفصاء بأطماره الباليات والى جانبه الفتاة الصغيرة التي تقود خطواته في ظلمتي الليل والنهار تتلهى باللعب بالحصى ، ومصطفى مكب على القصبة التي فتحت النار خروقها السبع الباكيات يرسل فيها انفاسه الحرّى تتنبّه بين الجدران المتهدمة فى ذلك الحيز الضيّق مأثوى من نبرات الشرق القديم فى فسيح أجوائه

وكان حول الأعمى عدد من فقراء الباعة والعمال واقفين يتنصتون الى أصوات غرائزهم المتعالية مع هتاف الناي الى أوج احلامهم الخفيـة وكلهم واجم متخشع ، فوقفت بين هؤلاء القوم وقد قبض على مشاعري ما قبض على مشاعرهم فعطفت على مصطفى أستزيده من العراق بعد الحجاز بعد النوى ، حتى شعرت أني استعدت الى أذني ما شوشت من صفائها ألحان الصخب والضجيج فى موسيقى العبيد ، وإذ أنا اتهيأ لمتابعة السير نحو مسكني وجدت امامى أحد الشبان من معارفي وكان حاضراً الحفلة التي حضرتها فلم يفلت من شر ساعديه خصر من خصور مائسات المرقص ولم تقف رجله لحظة عن الارتجاج مع نقرات الطبول وصرخات الزمور ، فاستقبلني بضحكة وقحة عالية لم أجد ما أقابلها به الاّ نظرة أسى واشفاق

مسكين هذا الفتى وما أكثر هؤلاء المساكين فى الشرق يخجلون مما فتلوا من عبقرية فى غرائزهم ويتباهون بفراغ مروّع في شخصيتهم ، وما شخصيتهم الاّ رداء وسيع منشور على هيكل من عظام . . .

أيها السادة ، ان للامم شخصية لا تموت ، شخصية تحيا على ممر القرون ، فى

غرائز تتجلى في افرادها على قدر انتباه الحياة وخمولها فيهم، فما الغريزة في المجموع الاّ بمثابة العقل الباطن في الافراد، وما قدّر للأمم في حياتها انما هو كامن في هذه الغرائز نفسها، لأن الفطرة في أمة انما هي الروح التي تحيا بها تلك الامة.

ونوافذ الغريزة على الحياة عديدة أهمها اللغة، اداة الفكر، والموسيقى اداة الشعور، ونظام الاسرة وهو اساس أنظمة المجتمع.

فلنقفن قليلا عند كل دائرة من هذه الدوائر الاوليّة لغرائز الشرق العربي

اللغة — ان اللغة هي الشكل المحسوس للفكر والعاطفة، وإذا كانت اللغة في الاصل مظهراً للاتجاه الكامن في النفس فانها قد أصبحت بناموس التوارث مؤثرة على الاتجاه نفسه بقوة التفاعل المشترك بين العلة ومعلولها. ولقد يخيل للبعض ان الفكر حر طليق في دوائره يتسنىّ له بلوغ أوج الافصاح باية لغة يستخدمها على ان القائلين بهذا الرأي يجهلون تأثير التعبير على الفكر نفسه. ان البيان ممتزج بالاتجاه الداخلي امتزاجاً لم يسع علماء احوال النفس انكاره، فهو يدوي ابداً في آذان الاحياء بصوتين صوت الأم فوق المهد وهاتف الجدود من القبور.

ولقد يولد العربي في محيط غريب ولا يتعلم كلمة من لغة اجداده ويكون فيه عبقرية فكرية تتجلى في اللغة الاجنبية التي تعلمها ولكن مثل هذا الالمعي يستبق ابداً دون أن يشعر على صور لغة اجداده فيبقى الغموض سائداً على انشائه فاذا ما قرأه ابناء تلك اللغة الاجنبية يتلمسون العبودية تتمشى في سطوره. وهذا غونجروا الكاتب الأشهر الاسباني تتدنى لغته عن مرتبة فكره الأسير وفكره العربي كما شهد الاسبانيون انفسهم تتململ صوره في تعابيره فكأن جناحه لا ينطلق الاّ على الصور الكامنة في غريزته منذ اجيال

ان عدداً كبيراً من ناشئتنا الحديثة يفتخرون بجهلهم اللغة العربية ويدّعون

التفوق بالافرنسية أو الانكليزية أو سواهما، وانا اؤكد لكم ان أمثال هؤلاء المنشئين يبقون أبداً في مرتبة وضيعة بين أرباب البيان من الكاتبين باغة جدودهم واني اعرف من رفاق الشباب جبران خليل جبران والريحاني من العرب الذين كتبوا بالانكليزية واعرف شكري غانم وخير الله خير الله من الذين كتبوا بالافرنسية فاجادوا وصفق لهم الغرب والعالم الجديد، ولكن مثل هؤلاء العباقرة الذين قلما يجود بمثلهم الزمان لم يشتهروا بصفاء لغتهم وفصاحة تعبيرهم قدراشتهارهم بروح من الشرق هبّت بين سطورهم فاعجب بها العالمان. فما كان جبران والريحاني الاّ رسولي الادب الشرقي الصحيح كلا منهما على طريقته لدى ابناء المدنية الالية الجبارة، وما اشتهر غانم الاّ برواية عنترة كما ان خير الله لم يشتهر الاّ برواية مجنون ليلى وبما عقد عن الشرق من فصول.

ان حياة اللغة فى أمة هى أول مظاهر الحياة فى مجموعها.

ولا يمكن الوطنيّ فى أية بلاد كانت ان يبلغ فى المصالح الاجنبية مرتبة عليا مهما بلغ تضلّعه من لغة تلك المصلحة ولا يمكننا ان ندّعي، بصرف النظر عن مسألة الترجيح للجنسية، امكان تفوق الدخيل على الاصيل فى دوائر تتأثر فيها قوة العمل نفسه بملكة التعبير....

لذلك نرى ابناء البلاد التي تستغلها المصالح الاجنبية مستعبدين بفكرهم وعملهم لأنهم قد استعبدوا بلسانهم اولا...

منذ سنوات استفتت مجلة الهلال المستشرقين والادباء في مستقبل اللغة العربية فوردتها اجوبة عديدة نشرتها تباعاً وفى جلّها تفاؤل ودعوة الى أحياءهذه اللغة الخالدة ونفخ روح التجدد فيها وكان من جملة من ادلوا برأيهم فى هذا المطلب حضرة المستشرق الفاضل الاب لامانس، وهذا لباب ما قال

« ويجب أن يعني اهل البلاد العربية بلغتهم باعتبار انها لغة وطنية ، على انهم ينبغي لهم أن يثابروا على تعلم اللغات الاوروبيـة التي مكنت السوريين بوجه خاص ان يلعبوا دورهم التاريخي وليس عندي ادنى شك فى انه إذا جعل التعليم العالي باللغة العربية تنعزل البلاد شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة إذ تصبح اللغة الوطنية حاجزاً منيعاً دون مواصلة التقدم »

وقفت امام هذا الرأي فى ذلك الزمان وعارضته بمقال مطوّل نشرته الجرائد البيروتية، وهانذا أورد لديكم بعض ماورد فيه مما يتعلق بموضوع الثقافة الشرقية قلت:

اذا كان لا يحق لنا انتقاد عواطف حضرة الاب لامنس لانها منحرفة عن قبلة عواطفنا ولانه يرمى الى تعزيز لغته اولا ، فلا يمكننا موافقته على تصوّر ترده حقيقة الواقع

ليس للعلم لغة خاصة به والارتقاء العلمي لم ينحصر بلغة دون سواها ، واللغة العربية من أغنى لغات العالم بل هي أرقى من لغات أوروبا لتضمنها كل ادوات التعبير فى اصولها في حين ان الأفرنسية والأنكليزية والأيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة ولاتزال حتى الآن تعالج رمم تلك اللغات لتأخذ من رمادها ماتحتاج اليه

اليس من الغريب ان يقول مستشرق بوقوف اللغة الوطنية حاجزاً دون تقدمنا

إذا كانت هذه النظرية صحيحة فلماذا تتمسك الامم الناهضة بلغاتها ، لماذا عكفت اوروبا على اقتباس علوم العرب دون القضاء على لغة أوطانها عندما كانت اللغة العربية خزانة العلم بل الحلقة الوحيدة التي ربطت الرقى المنقرض بالرقى المنتظر لقد كانت لغات أوروبا في تلك الحقبـة من الزمان تتولد من اليونانية واللاتينية تولّد الطفل المريض من أم تجود بآخر انفاسها فلماذا تمسّك الغرب بهذا الطفل الضعيف ولم يتخذ لغة العرب مع علومهم اساساً للتعلم فى مدارسه وجامعاته ؟ . .

لا أرى حضرة المستشرق الآ ّعاجزاً عن الجواب على هذا السؤال ، وهو يرى تمسكنا بلغة اجدادنا انعزالا لأوطاننا عن الحركة العلمية العالمية، وهل انعزلت المانيا مثلا عن العالم عندما تتبعت علوم فرنسا وآدابها بعد ان سبقتها فرنسا في مضمار الرقى

ليس من أمة فى الارض لم تقتبس العلم عمن تقدمها ولم يزل مشعل العلم ارث الانسانية يتهادى فوق الامم كلها فى مراحل التاريخ ، وقد محقت الاجيال لغات فدالت والفكر باق جوهراً مضيئاً يستشفه الناس من وراء مقاطع واصوات تتلبس العلم وماهي فى نفسها لا فكراً لا علماً . و

ايمكن حضرة الاب لامنس أن يقول بأن حركة العلم منعزلة فى بريطانيا عن حركة العلم فى المانيا أو فرنسا لعلة اختلاف اللغات ؟

اننا لا نجد برهاناً على صحة نظرية الأب لامنس وما نحن ممن يتعصبون للمقاطع والحروف ولكننا نعلم ان فى حياة الشعوب ناموساً يسمى ناموس التوارث أو الرجعة وهو قوة تجعل أدمغة الاحفاد أشد انفعالا لما جال في ادمغة الأجداد فان الطالب الذي كانت اللغة العربية آلة لتفكير اجداده منذ الف سنة لا تخضع لفكره لغات الاجانب بمثل خضوع لغة أجداده .

إذا كان المقصود من التعليم ترقية الشعوب ودفع العقول الى ارفع ما يمكنها الوصول اليه فيجب أن نجارى القوى الكامنة فى استعداد الامم لا أن نضع الحواجز فى سبيلها ، ولا خلاف في ان الطالب الذي يتلقن علماً بلغة أجداده الطائعة لمجارى أفكاره يسبق الطالب الذي يجبر دماغه على الاذعان لصور فى التعبير لم يرثها فطرة فتصبح قيداً لافكاره لا جناحاً لها .

ان المستشرقين من كبار علماء الافرنج يعرفون هذه الحقيقة من أنفسهم ، فانهم بالرغم من انقطاعهم لدرس لغات الشرق والتعمق فى اساليبها لا تخلو صفحة

من كتاباتهم من آثار العجمة والقصور فى الفهم والتعبير ومن ورث اللغة عن اجداده يحس بهذا النقص حتى فى حال تدنى مرتبته العامية عن مرتبة هؤلاء المستشرقين وما حال الناطقين بالضاد تجاه اللغات الاجنبية بأحسن من حال علماء الافرنج تجاه اللغة العربية ولولا ذكاء مفرط فى الشرق وصبر عجيب على موقفه لكان مقامه من العلم دون ما هو الآن لتسليم قياد افكاره الى غير قائدها الفطري

ان الذين حولوا كل قواهم الى التعلم باللغات الاجنبية جاعلين لغة اجدادهم فى المنزلة الثانية أو فى طي الاهمال قد سُدت دون مواهبهم منازل الالمعية فا كتفوا بالسير وراء قادتهم معجبين مقلدين ، ونظر اليهم اساتذتهم نظرة المصطفى من الطبيعة الى من هو دونه فى مراتب الفكر والحياة .

ان اللغة القومية هى اللغة التي يصفو بها الذهن و يسمو بها القلب فاذا حكم على الانسان ان يتخذ سواها قائداً لفكره ومضرباً لاوتار قلبه فكأنما قد حكم عليه بفقدان حقه من الاعتلاء والتفوق فى الحياة .

ان ما نتمناه قبل أي شيء آخر لهذا الوطن انما هو سيادة لغة فيه لتقوم على سطحه جامعة تقدر أن ترتقي بمميزاتها الخاصة ، أما لغات اوروبا فيجب ان تكون لنا البحر الذي نستخرج من قعره درر اجدادنا بل الدرر المشاعة لكل مستخرج لانها ملك الناس أجمعين ، وليس المترجمون قلائل فى البلاد العربية . ان بين الوف الالوف من كتاب الاجانب كاتب واحد يقدر على ترجمة ما فى لغتنا أما نحن فلدينا من المئة خمسون كاتباً يقدرون على نقل أرقى ما فى لغات الأجانب من الادب والعلم فالحاجز الذي تصوّره حضرة المستشرق انما هو محض توهم قام فى خياله لاغراقه فى حب لغته وما لغتنا بأضيق منها مجالا اذا أعطي لها ان تحيا بحياة أبنائها»

ذلك ما صرّحت به منـذ سنوات طويلة وما زادتني الايام الاّ رسوخا بما

اعتقدت، فان الألفاظ الفنيّة التي يستعملها الافرنج للدلالة على المسمّيات المستحدثة لم تكن موجودة في الأصل واذا انت رددتها الى مصادر الكلام عندهم فان اوفرها يجيء مغلوطاً ولكنّ الاستعمال جعلها صحيحة في مواضعها، خذ لك مثلاً تسميتهم الطيّاره « ايروبلان » وهي مركبة من جذري الحومان والهواء على شكل مقلوب لا يتفق والتركيب اللغوي بشيء ومع ذلك فان بعض كتابنا لا يروقهم استعمال اللفظة العربية التي تؤدي المعنى بصورة أصح من التركيب الافرنجي نفسه فيفضلون كلمة ايروبلان على طيّارة أوطائرة، وقل مثل ذلك على الشمندفير، السكة الحديدية وعن التلفون - المهتف - وعن الراديو - وهذه اللفظة مأخوذة عن جذر الاشعاع توسعاً من النور الى اهتزازات الصوت، فاذا ما نحن اسميناه المندى كنا أكثر توفيقاً من الأفرنج أنفسهم في ايجاد اللفظ الأطبق لان المندى يفيد الالة المبعدة الصوت من مصدره، ولك ايضاً ان تقف عند مثل هذا التخبط في الألفاظ الطبية التي اتخذها الافرنج بتركيبها اليوناني اللاتيني فيقولون مثلاً « ادهيرانس بيليرو باريكارديت » ومعناها التصاقات غشاء الرئة بالشغاف، ومعظم الاطباء العرب في هذا العصر يستسهلون كتابة هذه الالفاظ على ما وردت دون ان يعتنوا بالبحث عما يقابلها في اللغة العربية، على ان هذا القصور لا يطالب به الاطباء ولا سائر رجال العلوم والفنون ما دامت الامم العربية لا تمثل بجامعة تقر من الالفاظ ما تنوسي وما يجب استحداثه اشتقاقاً للمسمّيات العصرية.

هذا واني لأعجب لبعض رجال اللغة يتوهمون ضيق الاصول العربية عن الاتيان بالتعابير على اختلاف مراميها، ولو انهم دققوا في الصيغ الافرنجية التي بنيت عليها الفاظ الاوروبيين للدلالة على المعاني، لاتضح لهم ان هذه الصيغ أضيق بما لا يقاس مما يتوهمونه من ضيق في الأصول العربية، فان كلمة « سرفيس » مثلا

في اللغة الفرنساوية تعني « الخدمة » اسما للفعل ولـكن اهل تلك اللغة يضمنونها معنى الادارة التي تقوم بهذه الخدمة ومعنى المكان ايضاً ، وقس على هذه الكلمة الوفاً من الكلمات التي قاد الافرنج لغتهم فيها الى مرونة أقرها التساهل وأخذبها الاجماع

كلـكم يعلم ، ايها الاخوان ، أهمية المصالح المرتبطة بادارة بلدية الاسكندرية فان هذه الادارة العامة التى تشرف على أعمال تتناول كل الفنون والصنائع وتتمشى فيها العربية الى جنب الفرنساوية فى كل مناقشة ومعاملة قلمية ، لهي أوفر احتياجاً من أية مصلحة كانت في الشرق الى المفردات والتعابير العربية ويمكنني أن أؤكد لـكم وانا رئيس قلم الترجمة فى هذه الادارة ان لغتنا لا تضيق بنا عن وجود كل ما نحتاج اليه لمجاراة اللغة الفرنساوية في كل مجال وفي كل مقال

ولا بدّ لي من التنوية فى هذا المقام بما لصاحب العزة احمد بك صديق المدير العام لهذه البلدية من فضل عميم في سبيل احياء اللغة العربية فى ادارته وفي سبيل تسديد مرامى الالفاظ والقضاء على التعقيد فى كل التعابير ، فان هـذا الرجل الفذّ الذي قبض على زمام الفصاحة باللغات الاجنبية لايقصر عن الازهريين فى إعرابه وتمسكه بلغة أوطانه وأجداده .

ومن واجبي ايضاً ان انوّه بفضل صاحب العزة ابراهيم بك سيدأحمد السكرتير العام للبلدية ورئيس نقابة موظفي الحكومة التي شرفتني بدعوتها إياي لالقاء هذه المحاضرة ، فان اقتداره بلغة بلاده وتدقيقه الصارم في صحة كل ما يُكتب بها لما يثير الاعجاب ويدعو الى الاجلال .

ويقيني ايها الاخوان ان الفـكرة التي تتمخض بها مصر وهى دماغ الشرق بانشاء المجمع اللغوي لوضع الموسوعة الـكبرى ستضع في التاريخ مبدأ خلود اللغة العربية فى الحياة العملية كما وضع القرآن الـكريم مبدأ خلودها فى عالم الصلاة واقامة

العدل بين الناس .

ان كل شرقي عربي يتطلع اليوم من كل الاقطار الى عرش المليك فؤاد الاول متوقعاً بزوغ هذا النور الوهاج بين صولجانه وعلمه .

الموسيقى .

الموسيقى الغربية هى وليدة الاجتماع والتنظيم فهي اصوات متعددة يخضعها الطباق فيوحدها بالايقاع ، ولكنها إذا رُدت الى مايكمن فيهامن الانشاد الروحي الحر المطلق بانفراده فانها لتتجلى كهيكل من عظام . . .

انني اتخيل ابناء الغرب فى اجتماعاتهم القديمة فى بلدانهم الباردة يحيطون بالموقد وقد دارت بالمسكن عاصفات تتراقص في أعاصيرها ذرات الثلوج، أتخيلهم هاربين من وجه السماء المتجهم وقد تلبدت دون شمسها وقمرها و نجومها حالكات الغيوم لاجئين الى التعاون والتفاهم بحكم الطبيعة نفسها، فأراهم وقد تنبهت فى كل منهم عاطفة الانشاد يذكرون من جمال الطبيعة ما رسمته في مخيلتهم أيام الصفاء القليلة ويهتفون جميعاً بالصوت الملحن الكامن فى اعماق الحياة نفسها .

فى هذه الاجتماعات تكونت موسيقى الغرب فرست على المطاوعة والتنظيم وكان الايقاع مجلى لكل مافيها من وحي للتعبير عن كامنات الجمال والحب، فالموسيقى الغربية ، فى رائينا ، إلهام نزل على جماعة لزمهم الاتفاق فساقهم الاضطرار الى إيجاد الايقاع والطباق ، ولكن هذه المطاوعة قد استوجبت حتماً انشلال الحوافز الدقيقة وكبت النبرات الناعمة المتمردة وهكذا ذهب ضحية الطباق ما فى الصوت الطبيعي المنفرد من دقائق الدرجات وأجزاء الاهتزازات .

اما الموسيقى الشرقية العربية فقد أنزلتها السماء الصافية بشمسها وقمرها ونجومها على حادي العيس فى البيداء ، وراعي القطعان في الأودية ، والعاشق الشارد فوق

التلال الخضراء ، فالموسيقى العربيـة كشعرها هتف بهما الانسان منفرداً وحيداً أمام وحدة ربّه الذي يعبد ، فكان الشعر مشتقاً عن الموسيقى والموسيقى نفسها مرتفعة من صوت الطبيعة الحرة المطلقة في نواميسها المتعالية عن كل إكراه .

إنّ الغربي يقيس شعره على مقاطع الكلمات شاذاً عن النظـام الطبيعي في إنتساق التفاعيل المبنية على السواكن والمتحركات فهو يعدّ المقاطع عداً بمعزل عما فى بعضها من القصر وفى بعضها الآخر من الامتداد فاذا ما أراد تلحينها برزالنقص في وضعها وتنافر قياسها وقياس اللحن الافرنجي على مافي هذا اللحن نفسه من فقدان الاجزاء الدقيقة والوزن الصارم .

خذ لك بيتاً من أي بحر في العربية واعرضه على القياس الافرنجى تجدالمقاطع فيه منطبقة على مقاطع الوزن ، ولـكنك إذا عرضت بيتاً من هـذا الوزن نفسه بالافرنجية على تفاعيل البيت العربي ذاته يتجلى لديك اختـلال البيت الافرنجى إختلالاً بيناً فى نبراته المتحركة والساكنة على السواء .

ان الموسيقى الشرقية هتاف عميق من النفس منفردة تجاه الوحدة المتجلية في مستلهمات الشرق ديناً وفناً ، فهى ان نقصها الايقاع، لاتزال حتى فى دور انحطاطها اليوم أغنى من الموسيقى الغربية بأوزانها ونغماتها ، وقـد بدأ الغربيون أنفسهم بالالتجاء اليها مقتبسين منها ما يسدّون به فقر موسيقاهم التي ذهبت شوطاً بعيداً فى التفنن وهى محصورة ضمن نطاق ضيق فى أنغامها .

ومع هذا ، فان التقليد الاعمى للغرب قد دفع ببعض من يدّعون التجديد فى الموسيقى بيننا الى تقييد الغناء العربي بالطريقـة الافرنجية متوهمين ان فى هـذه الطريقة انهاضاً للفن .

ولا بد لى هنا من ايراد مقال كتبته منذ سنوات عن منشد عربي ربي صغيراً

فى الولايات المتحدة وتلقن الموسيقى الافرنجية فى المعاهد الكبرى فاكتسب شهرة واسعة بين أبناء العالم الجديد . المنشد هو مدحت افندي السربجى من طرابلس الشام وكان قدم إلى بيروت بعد طول غيابه فأسمع مواطنيه من انشاده ما أثار كل اعجابهم ، وهذا بعض ما نشرته عنه في ذلك الزمن .

* * *

«عرفت مدحت افندي السربجى فى مدينة فول ريفر في اثناء رحلتي الخطابية فى الولايات المتحدة منذ سنة ونصف سنة، إذ وقف فى إحدى الحفلات بدعوة الحضور من المهاجرين واطلق صوته بأبيات من أطيب الشعر العربي فكان كل مقطع من أبياته غصة قلب مشتاق إلى سوريا ولبنان وبلاد العرب .

لاول مرة سمعت مدحت فيها، سمعته يحن إلى الاوطان بين قوم كل ما فى قلوبهم متكوّن من خيالات جبالنا وسهولنا ، فكان صوته يرتفع من أصداء تلك القلوب كأنه أنين ريح وهينمة نسمات تهب من روابي البلاد ووهاد البلاد

ومدحت هناك عزيز على مواطنيه يعشقون فيه صوت بلادهم ويباهون به أمام الاميركيين إذ يجاري كبار منشديهم فى فنهم الخاص .

مدحت شاب إذا وقف على المسرح وهو حليق وعلى عينيه نظارتاه المستديرتان ينشد أرقى ما جادت به قرائح رجال الموسيقى فى الغرب تحسبه أمريكياً بلهجته وحركاته فيطربك ويشجيك إذا كنت مطلعاً على ما فى موسيقى الغرب من الفن ويدهشك بقوة صوته وتلاعبه بطبقاته اذا كنت لم تألف غير ما فى الابراج الشرقية من الحان . ولكن هذا المنشد الذي لا يطرب أبناء العالم الجديد إلاّ بما فى صوته من سحر الشرق لايلبث أن تهب من أقصى روحه نغمات كامنات إن لم يكن فيها أنين عبده الحمولي ونبرات الشيخ سلامه فان فيها من القوة والصفاء ما لم يسمعه

عربيّ في الاجيال المتأخرة

ينتقل مدحت في إنشاده من الغناء الافرنجي الذي سبر غور أصوله وتلقنّه عن أشهر الاساتذة الى الغناء العربي الذي لم يلقنه اياه غير شوقه إلى بلاده فى ديار غربته وفى أيام محنتـه فيسطو عيك بشيء هو أعلى من الفن ويصل إلى روحك بقوة سرّية هى أنين الصوت العربى أخضعته أنظمة من غير أوضاعه وآيات من غير وحيه ، وكم من عبودية تورث ثورة ومن تحكم يولّد تمرداً وانك لتستجلي فى ذلك التمرد كل مافى ناموس الغريزة الموروثة من كامن القوات

أصغيت لمدحت يتغنى بالافرنجية فالفيته يجاري أشهر من سمعت من ارباب الفن في اوروبا والعالم الجديد فحنيت الرأس خاشعاً أمام نبوغ بلادي يزاحم بالمناكب كل نبوغ في أي بلاد وبين أي شعب ، ولكنني عند ما أصغيت اليـه يستعير الألحان الافرنجية للأنشاد العربي ، تلمّست ما يلاقى هذا المنشد من عناء فى تطبيق الفاظنا على هذه الألحان ، واني لا أرى هذه الطريقة فى الغناء مما يصح ان يتخذ مثالا لان الالفاظ العربية تتمرد على الوزن الافرنجي فتلمحها تطفر طفراً وتتمرد على محاولة إخضاعها لسلّم لم يوجد لها . وقد كان مدحت من رأينـا عندما أعلناه له فهو ما قصد ولن يقصد التفرنج فى الأنشاد العربى لانه ينفر كما ينفر كل ذي ذوق سليم من سماع الالفاظ العربية تتلوى على السلم الافرنجي صارخة المدد . ولدينا مثال على هذه الطريقة الشاذة الاناشيد الكنائسية التى أدخلها المرسلون على اللغة في الصلاة ، وهى تخدش الاسماع وتستنفر المشاعر ، فان واضعى كتاب الانشاد قد نظموا بالعربية مقاطع لا بأس بها لغة ومعنى ولكنهم ارادوا إخضاع ما نظموا للانغام الانكليزية ، وهكذا اذا تنصت العربي الي إنشاد الانجيليين فى معابد البلاد العربية يخيل له لاول وهلة ان المنشدين يتغنون بالانكليزية ولكنه لا يلبث ان

يسمع الكلمات العربية مدقوقة مقطعة بلهجات ومخارج تظهر فيها اللغة كأنها رهط من ممثلي المساخر ، وتصل الى الاسماع كأنها لغة الزولو أوقبيلة نيام نيام . . .

ليس هذا مايرمى اليه منشدنا الوطنى وليس هذا ما نشجعه عليه.

نريد ان تسلم لغتنا من كل تشويه يدخله الانشاد الغربى الى لهجتها الفصحى العالية ، ولا نعترض على اقتباس الانغام أياً ن وجدت بشرط اخضاعها للسلم الشرقى المرن الذى يتدرج على دقائق الصوت بكل ما في هـذه الاجزاء من النبرات الطبيعية دون الوقوف عند انصاف الابراج كما هو الحال فى موسيقى الغربيين.

ان السير على السلم الافرنجى فى الانشاد العربى يستلزم حتماً تفخيم الألف حتى تصبح كأنها الألف الفارسّية الخارجة من تجاويف الانف وتقود الزاماً الى مضغ العين فتصبح الفاً والى دق الضاد فتغـدو دالا ، فضلا عن تقطيع العبارات والكلمات نفسها تقطيعاً يضيع كل ما فى اللغة من فصاحة وعذوبة »

تلك خطرات افكار دو نتها منذ سنوات عديدة ولم تزل حقيقتها ماثلة امامى فى مراحل التطوّر الذى اجتازته الموسيقى العربية الى اليوم . وما انشاد الامة الاّ صوت ثقافتها المعتلي مجارياً لغتها وما كمن فيها من أخلاق فان ذهب هـذا الانشاد مع التقليد خارجاً عن مصدره الطبيعى فانه ليعلو شاذاً عن نفسه كاذباً مكذوباً .

إن لكل معدن رنة لو أنت طمعت باستنطاقه غيرها لما أستطعت ، فالموسيقى العربية على إقتباسها الشيء الكثير من اليونان والفرس ، لم تزل منفردة فى جوهرها ، لانها قد هضمت ما اقتبست فاصبح منها لتسلط وحيها الخاص عليه ، وما الموسيقى العربية الاّ أخت شعرها وقد نشأ كلاهما من وقوف الانسان منفرداً وحيداً امام وحدة ربه الذى يعبد فكان وحى الشعر مشتقاً من الموسيقى نفسها والموسيقى مرتفعة من أحشاء الطبيعة المتمردة بنظامها على كل نظام موضوع

فاذا كانت الموسيقى الغربية قد ذهبت شوطاً بعيداً على أساس نغمات معدودات فان الموسيقى الشرقية ، على ما هي عليه الآن من الانحطاط ، لا تزال أغنى من الموسيقى الغربية بوفرة مقاماتها وأوزانها وتنوّع نغماتها وقد تنبه الغربيون أنفسهم إلى سد عوز نغماتهم بما يقتبسونه من نغماتنا

على أنه مهما كان مقام موسيقانا من الضعة والاعتلاء ، فانها تبقى أبداً الصوت الذي يهبّ علينا من مراقد الأجداد ومهود الأطفال ، ونحن فى هذه الايام المتأخرة تملأ أجواءنا نغمات الجازبند ، ويتطارب أبناء الشرق من موسيقى الغرب بما لا يهزّ من قلوبهم وتراً ولا ينبه من خفايا أرواحهم صدى . . . لا لأمر إلاّ ليقال عنهم أنهم متمدنون يتظاهرون بالنشوة كأنها تملأ نفوسهم من إيقاعات بتوفن وموزار وروسيني حتى ومن نغمات باخ ، ويتظاهرون بالنفور من بقايا موسيقانا القديمة المتغلغلة أصواتها فى أرواحنا .

أما أنا فانني أعترف جهاراً انني برغم إمكاني تفهّم روح الموسيقى الغربية لأن أمي أنشدتها فوق سريري وأنا طفل وأمي من وطن جان جاك روسو مستلهم الشرق فى ثورته ، انني برغم ذلك ، لا أفهم الموسيقى الغربية إلاّ بدماغي ، أمّا أصداء روحي فانها لا تتجاوب إلاّ إذا سمعت فى السحر أصوات الأجيال القديمة فى أمتي تهتف من أعالي المآذن (حيّ على الفلاح ، حيّ على الصلاح ، أشهد أن لا إله إلاّ الله)

لا تهتزّ أوتار قلبي الخفيّ فى وجداني الباطن إلا إذا سمعت نغمات الحجاز والعراق ترتفع إلى الأعالي كالصلاة ، سواء أنشدتها أم كلثوم أم أنشدها بدوي يحدو لعيسه فى الوديان ومفاوز الصحراء .

ان أرواح أبناء الشرق كلهم تنطوي على مثل هذا الشعور ، فقد رأيت فى المهاجر حيث جلت فى بيوت الشرقيين المغتربين كثيراً من اخواننا حتى المتفرنجين

منهم يستنطقون الحاكى أغانى الشرق فتهدج أنفاسهم وتبلل أجفانهم الدموع ؛ فكنت أرى فى تلك القطرات دموع الرماد الثاوى فى القبور ...

بعد أن تكلمت ، أيها الساده ، عن اللغة والموسيقى ، بقي علي أن أتناول بالبحث النظم الاجتماعية والعادات وهى المنفذ الثالث للفطرة في الامم .

اننا تجاه مطلب متشعب المناحي وأهم هذه المناحي ما يتعلق بأحوال منابت الأطفال ولست بالسائر فى هذا المبحث هذا المساء ولعلني أخص له محاضرة مستقلة غير انني استكمل كلماتي هذه عن الثقافة الشرقية العربية بكلمة موجزة عن مناهجنا الاجتماعية وعاداتنا

ان أبناء الشرق يتبعون اليوم فى حياتهم نظما لا تتفق وما في فطرتهم من ميول فالحياة المادية الصرفة تلبس الشرق وجهاً خشناً مستعاراً تنقبض عليه أساريره تقليداً وتصنيعاً . فنحن أبناء العاطفة نكذب نفسنا إذ نجعل لكل شيء ثمناً يتمثل بالارقام لدينا . . .

وان هذا التفكك باسم الاستقلال الفردى بين أبناء الأسرة الواحدة والجامعات في الأسر الكبرى لما يؤلم قلب الشرق في صميمه ، وليست تلك الظاهرة المتجلية فى الغرب فى تراخى الاواصر الطبيعية الا ظاهرة مرضية تدل على ضعف الحيوية فى شعوبه .

ان علماء الحيوان يستدلون على قرب انقراض بعض فصائله مما يشاهدونه فيها من ضعف الشعور بين أفرادها ، فالكونجورو الانثى الحاملة صغارها فى كيسها اللحمي لا تتردد فى القاء هؤلاء الصغار فريسة لوحش مفترس يلاحقها إذا شعرت بقرب لحاقه بها فهي تعمد إلى تخفيف وقرها تنقذ نفسها بالقاء من تحمل ، ويستدل علماء الحيوان من هذه الظاهرة الحديثة فى هذا النوع من أن

انقراضه قد أصبح قريباً .

ان انكماش الأحياء على أنفسهم وظهور الانانية فيهم دليل على ضعف القوة الحيوية ، فالرجل أو المرأة إذ يضعف شعور أحدهما بالعطف والتضحية تجاه الآباء أو البنين لا يكون هذا الضعف إلاّ دليلا على التواء الحياة على نفسها فيه فما انسلاخ الانسان عمن حوله من أهل وأقارب إلاّ نتيجة التنظيم المدني الذي أضعف فطرة العطف بصلة الدم والارحام على كل نسيب ، وما هذا شأن الشرق في غريزته التي لم تخدّرها المدنية بعد ولكننا نأخذ بهذا الضعف تقليداً وتكلف تكلفاً الظهور بمظهر الانانية التي تكذبها شخصياتنا الكامنة

والمرأة الشرقية ، المرأة الحرة التي ضربت بعفافها ووفائها الامثال يصونها النقاب الدخيل المتطرف والسجون الجائرة من جهة ومن جهة أخرى تنطلق مهتوكة الستر ضاحكة لاعبة مراقصة من يشاء . ان الفطرة الشرقية لا تحتاج إلى الاكراه للصيانة كما ان هذه الفطرة تتمرد في الرجل على تركه زوجته وأخته وإبنته آلة لتسلية الفاحشين بعواطفهم في المراقص والمجتمعات

وما أنا أوجه الانتقاد الى سائر الشعوب فى عاداتهم فان لكل شعب تقاليده وغرائزه وله أن يسير بحوافزها ومقتضياتها ولكن ما يتألم الفكر له هو أن تختار أمة نظاماً لحياتها لا تتفق وفطرتها فتسير في طريق تدمى أرجلها ومع ذلك فهي تداوم الذهاب على تلك الطريق.

لقد وقفت ملياً أمام هؤلاء الشرقيين الذين يذهبون بنسائهم إلى المراقص ليقال انهم أخذوا بمحاسن التمدن ، وقفت أمامهم ملياً وتأملتهم وأوكد لكم انني ما رأيت رجلا كان يبتسم لامرأته أو لابنته أو لأخته تعصرها سواعد الغرباء عصراً إلاّ تجلّى لي وراء ابتسامته المصنعة المكذوبة الصفراء عبوس أجداده

الثائرين فى أعصابه ومجاري دمه . . .

كل انسان يجبن أمام الحوادث فى حياته فيلين لها حوافزه وفطرته ، إنما هو الشخصية المفقودة التائهة ، فهو الشبح الباكى والحى المستحجر ، ولقد تلمع أحداق مثل هذا الانسان بالظفر والمجد ولكن أنوار السعادة تبقى منطفئة فى عينيه .

ونحن كأمة لا نقدر أن نعلو فوق هذا الناموس الثابت ، ان فطرتنا مقدورة علينا كامنة فينا وكل أمة تحيا على غير ما تسوقها اليه فطرتها فهى أمة باكية بدموع صامتة ، هي أمة مستضعفة مستعبدة لا معنى لحياتها ولا سعادة لها فيها .

« ٣ »

جبران خليل جبران

(فلسفته وحياته)

أدب جبران وفنّه ـ عبقرية الشرق بين قومه وبين الأجانب ـ تطوّر فلسفة جبران ـ إصلاح الشرق بعلوم الغرب وإصلاح الغرب بإلهام الشرق ـ كتاب النبيّ لجبران وشرحه ـ أعضل القضايا الاجتماعية فى صفحات موجزة ـ الحياة والموت ـ الحب ـ الأبناء ـ الاجرام ـ الصلاة ـ التجارة ـ العمل الخ . . . مقام جبران بين الادباء العالميين ـ موقفه بين الاستقراء والاستلهام ـ جبران ومىّ تذكارات شخصية عن جبران ـ قصيدة تراب الجدود وترجمتها شعراً إلى الانكليزية بخط جبران ـ قصيدة إبنة النّور ـ فلسفة جبران والمدنية الشّرقية المنشودة

انا مسيحي ولي الفخر بذلك ، ولكنني أهوى النبي العربي واحب مجـد الاسلام وأخشى زواله . انني أسكن المسيح شطراً من حشاشتي ومحمداً الشطر الآخر .

أنا شرق ، ولي الفخر بذلك ، ومهما أقصتني الأيام عن بلادي ، أظل شرقي الاخلاق سوري الأميال ، لبناني العواطف .

في تلك البلاد الممتدة من قلب الهند إلى جزائر الغرب ، المنبسطة من الخليج الفارسي إلى جبال القوقاز ، في تلك البلاد التي أنبتت الملوك والأنبياء والابطال والشعراء ، في تلك البلاد المقدسة ، تتراكض روحي شرقاً وغرباً وتتسارع قبلة وشمالا ، مرددة أغاني المجد القديم محدقة بالافق لترى طلائع المجد الجديد .

(جبران)

أيها السادة ،

هذه الكلمات الخالدات هي صورة جبران رسمها بقلمه وما كان قلم هـذا العبقري الكبير إلاّ ريشة رسّامة كما كانت ريشته قلماً كاتباً . . .

قال عظماء الغرب عن جبران أنه نابغة عالميّ في القرن العشرين ، ولكنه منارة عالية من منائر الشرق توهّجت على ذروتها أنوار أجياله كلها . ويتراءى لي ان جبران كان إحدى الارواح الخاشعة المتنصتة إلى صلاة ابراهيم وموسى وعيسى وأحمد على أطلال هيكل سليمان في ليلة الاسراء ، فأعطي لها أن تتشرب من مناجاة موحّد الله وكليمه وكلمته ورسوله ما ردّدته للانسانية المشتتة في القرن العشرين

إن أنا أحدثكم عن جبران هذا المساء ، فأنا محدثكم إلاّ عن شخصية تجسّمت حكمة الشرق فيها وتمثلت في حياتها حياة الشرق بكل حوافزه ومطامحه وآماله .

ولد جبران في بلدة بشرّي من أعمال جبل لبنان في الشهر الاخير من سنة ٨٨٣، وما بلغ الثانية عشرة من عمره حتى هاجر إلى الولايات المتحدة حيث تلقّى العلم سنوات قليلة باللغة الانكليزية ورجع إلى بيروت لدرس اللغة العربية فى مدرسة الحكمة، وفى سنة ١٩٠٣ رجع الى الولايات المتحدة فأقام فى مدينة بوسطن خمس سنوات ثم قدم باريس سنة ١٩٠٨ يستكمل فيها نبوغه فى الرسم الرمزي ودرس متاحف أوروبا ومدنيتها، وفى سنة ١٩١٢ عاد الى نيويورك حيث أقام الى أن أدركته الوفاة فى منتصف شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٢

هذه هى حياة جبران تمشت فى نصف قرن هادئة مطمئنة في عالم الحس المنظور، فما كان هذا القائد الكبير مرتمياً بفيالق أفكاره على الأعراض الحوّالة لأدواء الانسانية لتصدمه ويصدمها فى عراك عمليّ يملأ حياته صخباً ويثير حوله الحادثات الجسام، وقد كان للعمل فى ميادين الجهاد الأصغر زمانه فمر به موسى بتمرده واجتازه عيسى بحواريه وأتباعه الذين قرضوا قاعدة عظمات الرومان الملطخة وساده محمد بجهاده بالقوتين لتحطيم الاصنام والقضاء على الشرك والضلال، ولكنها أزمنة توارت مخلفة لنا عصراً لا تكتسح ضلالته الاّ بالجهاد الاكبر الذي يقيم فى كل نفس فتحاً لخيراتها وغازياً كاسحاً لشرورها.

لم يكن جبران زعيماً يقيم فئة على فئة ويثير أمة على أمة بل كان جندياً يأتمر بهواتف ابراهيم وموسى وعيسى وأحمد فتشدّ به كلها الى هدف واحد فى حين ان هذه الهواتف نفسها تدوى فى أذان الناس كأنها من آفاق مختلفة فتشتت رحلهم فاذا هم أصبحوا متباعدين متناكرين.

ان جبران ثائر لا تنال منه سلطات السياسة ولا سلطات المذاهب ولا سلطات المال، انه خارج على نظم الناس في أفق لا تناله فيه السجون والسيوف، لأنه لا

يهيب بالمحكوم عليه للانتفاض على حاكمه ولا يدعو المُستعبَد لقتل سيده، بل هو يخلق في نفس المتغلّب ثائراً منها وفيها يزجرها عن غيها ويردّها الى سعادتها بردعها عن الاعتداء على سعادة الآخرين .

فاذا ما كان تاريخ جبران تدونه خمسة سطور فى عالم المظهر فهو فى عالم المصادر الخفيّة سفر طويل لا ينتهي آخر سطر منه الاّ عند أسمى دائرة يمكن النفس أن تبلغها فى اعتلائها ، فتاريخ جبران إذاً إنما هو تاريخ فكرة نيرّة انتبهت في أمة وتجلّت في فرد متطورة على مدارجها من إصلاح فئة من الناس الى إصلاح الناس أجمعين

درج جبران طفلا تحت ظلال الأرز الخالد يستقبل الشمس شارقة على أنجاد لبنان العالية ويودعها منسحبة بأشعاعها الدموي على أغوار (قاديشا) الوادي المقدس العميق ، فانحنى صامتاً على نفسه الجبّارة المنكمشة على ذاتها كأنها من روح ذلك الأرز ومن روح ذلك الوادي ، وما كانت تلك الروح لتأخذ بدخيلات الانحطاط الطارىء على قومه وبانكماش محيطه الضيق على عادات يستسلم الفكر العادي فيها الى الوقوف عند حدود ضيقة من السياسة والدين والتقاليد، فقد عرفت روح جبران المعدّة بحوافزها لبلوغ الدوائر العليا أن تجد من المعبد الصغير فى بلدته الصغيرة المنفذ الذى يقود الي معبد الانسانية جمعاء وجدرانه الآفاق وسقفه ما وراء المجرّة فى السدم الخفية ... وقد عرفت روح جبران أن تتمرّد على انطباعات الانقياد للسيادتين الدينية والاقطاعية وقد كانتا فى عهد طفولته تذهبان في روع من حوله مذهباً قصياً .

ما كان جبران فى الثانية عشرة من عمره الاّ العبقرى الصغير تمتنع عيناه وأذناه أن تنظرا وأن تسمعا بعيون الناس وآذان الناس ، فقد كان انجذابه بروح الماضى المجيد يقيه صدمات الحاضر ويمنع ضلالاته أن تنفذ الى دماغه وقلبه، وهكذا

ينشأ العباقرة في كل أمة وفى كل شعب ، أطفالا يكوّنون شخصيتهم مما يشعرون لا مما يرون ويسمعون .

واقتلعت أعاصير المهاجرة ، فى ما اقتلعت من أشجار لبنان تنثرها على مشارق الارض ومغاربها ، تلك الغرسة الغضة الضعيفة في جذعها القوية بعودها الصليب لتلقيها على تربة الأسمنت والحديد فى بلاد الجهود والمادية الساحقة .

وهنالك أيضاً كما في لبنان لم تنفذ الى روح العبقرى الصغير انطباعات الحياة الدائرة على دواليب ، ولكنه رأى فيها ما يجارى شعوره بالثورة على ما في بلاده من استكانة وانقياد ، فاحتفظ من تلك المدنية بصالحها دون أن تأخذ به ضلالاتها

درس جبران لغة شكسبير فأخضعها لالهامه الشرق وقفل الى لبنان ليستولى على بيان لغة العرب حُلّة لفكرته العربية السائدة فى أعماق نفسه ، وفى تلك الفترة التي انقضت عليه الى سن العشرين أي الى سنة ١٩٠٣ تاريخ عودته الى الولايات المتحدة حفر شعوره المتألم على صفحات خاطره كتبه الاولى التي نشرها عن بوسطن طوال الخمس السنوات التي قضاها فيها ، وهى دمعة وابتسامة والموسيقى وعرائس المروج والاجنحة المتكسّرة والارواح المتمردة ، وكلها مشاهد مفجعة للقروح الدامية فى مجتمع بلاده استجلاها كأنه وهو يحرك القلم بيمناه يرفع بيسراه على جبال بلاد العرب مشعل نصب الحرية الذى أرسلته فرنسا الى نيويورك فوقف كالجبار الثائر على مدخل العالم الجديد .

وجاء جبران باريس سنة ١٩٠٨ ، فقضى فيها أربع سنوات يستكمل نبوغه في الرسم الرمزي ودرس متاحف أوروبا ومدنيّها ، وفى خلال هذه السنوات كان جبران وهو يقبض على ناصية الفن يتلمّس قروح الغرب ويشاهد عن كثب ما يفعله التنظيم المادي بالفرد وبالمجتمع ، وعندما عاد الى نيويورك اتّخذها مقراً له

سنة ١٩١٢، أشهر ثورته على الغرب بروح الشرق كما اشهرها من قبل على تقهقر الشرق مستلهماً ما صفا من روح النهضة الغربية .

ان مؤلفات جبران الأولى كانت متجهة الى إصلاح مجتمع بلاده ولكنّه وقف قامه بعد ذلك على إذاعة روح الشرق وجلائها للغرب فكتب العواصف والبدائع والطرائف ورسم رسوم فلاسفة العرب ونظم المواكب بالعربيّة شعراً ونشر بالانكليزية المجنون والسابق والنبي ورمل وزبد وآلهة الارض وكثيراً من المقالات والفصول المستقلة .

فرسالة جبران قد كانت إذاً رسالتين الأولى محاربة التعصب والجهل والاستبداد المعنوى فى بلاده والثانية إصلاح المدنية الحديثة بروح الشرق القديمة

تلك هما مرحلتا جبران فى حياته لا ترجح إحداهما الأخرى نصباً وجهاداً ومجداً في عين المنصف المتعالي فوق النتائج لتقدير الامور بذاتها منسلخة عن تنويعات الأمكنه والأزمان ، غير أن جبران لم يجن فى مرحلته الأولى الاّ ما جناه جميع رفاقه العاملين على هداية أقوامهم فى الشرق ، فنُعت بالكاتب المتهوّس الممسوس بعقله وسخر منه الزعماء أو من يدعوهم اشياعهم عظماء والقيت عليه اللعنات باسم الدين فاصبح مشهوراً بكفره وزندقته وإلحاده . . . . .

على أنّ جبران لم يكد يدخل فى مرحلته الثانية ويبداء رسالته فى إصلاح مدنية الغرب بروح بلاده الشرقيه ، حتى تعالى نجمه فى الآفاق لامعاً متوهجاً ، إنّ أُمم العالم الجديد وشعوب الغرب تفتح اذنيها للاصوات العالية أما الشرق فيتصامم جاحداً أقدار ابنائه . عند ما يعلو هنالك صوت مصلح يتفلّت القوم ويخشعون حتى ولو كان المُلهم غريباً عنهم يكافح معتقداتهم ويصد حوافزهم ، اما نحن ، هنا ، فاننا مستغرقون فى ما فسد من فطرتنا حتى أصبحت هواتف قبور

الاجداد نفسها نبرات شاذّة مؤلمة لاذآننا .

ألحق أقول لكم أن الشرق لن ينصفه العالم ما لم يبداء هو بأنصاف نفسه

إنّ جبران بقي الرجل الممسوس بعقله ، المتهوس الخيالي بين ابناء أمته الى ان خشع العالم الغربي والعالم الجديد أمام روحه فأكرهت بلاده إكرهاً الى الخشوع أمام عبقريته .

إنّ الصوت الذي خدشّ الأذان وأضحك الاقوام فى هذا الشرق العربي ، هو نفسه ذالك الصوت الذي تباهي به اليوم بلاد لبنان وسوريا ومصر والعراق والشرق العربي بأسره .

لو لم يكتب جبران سفر النبي الخالد بالانكليزية ، ولو لم يقل عنه روزفلت وبرزباين وطاغور وورود ان ودهاقنة الغرب ما قالوا ، ولو لم يترجم كتاب النبي الى عشرين لغة من اللغات الحيـــة ، بل لو لم يترك جبران بعدموته ثروة مالية طائلة لبلاده ، لكان امتنع على نعش جبران أن يأويه معبد وان يواكبه واحـــد من رجال السلطتين فى وطنه . . .

تلك كانت حياة جبران ، فما هى فلسفته التى رفعته الى مصاف عباقرة الدنيا فى هذا الجيل ؟

ان فلسفة جبران منشاؤها الألم من إنحطاط الشرق وضلال الغرب فى نفس سبرت غور المدنيتين وأحست بألآم الانسانية فى كلتيها . وما تجلت عبقرية جبران في ما كتب وما رسم طوال حياته كتجليّها فى كتاب النبيّ و هو تلخيص للتوارة وللأنجيل وللقرآن في ماية و عشرين صفحة صغيرة تتمشّي فيها العقلية الصافية والعاطفة الطاهرة جنباً الى جنب و قد أصبح هذا السفر انجيلاً ثانياً لكبار المفكرين فى العالم الجــديد وأوربا يُتلى فى المجتمعات تجويداً رافعاً بالأرواح

الراقية الى دوائر انبياء الشرق الخالدين .

روى جبران فى كتاب النبي ان رجلا مختاراً دعاه بالمصطفى نزل اثنتي عشرة سنة فى مدينة كان فيها الغريب المجهول بين أهلها فسبر أقصى أرواحهم ووقف على كل خافية وبادية فى اخلاقهم الى ان قدمت سفينة لتقلّه الى وطنه فوقف فى اليوم الأخير بينهم يخطب فيهم كاشفاً لهم عما خفي عنهم في أعماق نفوسهم من الحقائق العليا .

إنّ خير طريقة أتبعها لتحديد فلسفة جبران انما هي ايراد فقرات من كل قسم من خطاب النبي شافعاً مواضيعها العديدة بما أراه لها من بيان .

قال المصطفى

عن فراق المدينة

«كيف أنصرف فى البحر دون كآبة وكلا إنني لن أبرح هذه الارض حتى تسيل الدماء من جراح روحي ، فليس ما أفارقه بالثوب الذى أنزعه عني اليوم ثم أرتدى به غداً ، بل بشرة أمزقها بيدي . إن الصوت لا يستطيع حمل اللسان والشفتين معه ، فهو يخترق الجو وحده ، كما ان النسر لا يحمل عشه معه عند ما يحلق في الجو »

* * *

إنّ مانفارقه بالموت إنما هو شخصيتنا التي نعرفها وما يجتاز البرزخ منها الى الخلود إلاّ الذات المطلقة التي نشعر بها ونجهلها ، ففى الموت ألم عميق هو تراكم الألام كلها التي تحمّلناها طوال الحياة ، فلا بد أن نشعر بها دفعة واحدة عند اطراحنا لها للانعتاق منها .

قال اسماعيل صبري

لاتخف فالممات ليس بماح منك الاّ ماتشتكى من عذاب

ولكن سليمان الحكيم قد شعر كما شعر جبران بزوال الشخصية التي تكوّن

أنانية الأنسان فقال عنه أمام الموت « حينئذ تضمحلّ جميع أفكاره »

ولعلنا نجد نقطة الاتفاق بين التقديرين إذا نظرنا الى ان أفكار الأنسان ليست إلاّ مجموعة عذابه وآلامه تطرحها الروح الخفية مروّعة بروعها حتى تنطلق منها نسراً بلا عش وصوتاً بلا لسان .

...

وقال عن المحبة

« كما أن المحبة تكللكم فهي تصلبكم، وكما تعمل على نموكم، هكذا هي تعلمكم وتستاصل الفاسد منكم، ان المحبة تضمكم إلى قلبها كأغمار الجنوب وتدرسكم على بيادرها لكى تظهر عريكم وتغربلكم كي تحرركم من قشوركم وتطحنكم لتجعلكم أنقياء كالثلج وتعجنكم بدموعها لتلينوا ثم تعدكم لنارها المقدسة لكى تصيروا خبزاً مقدساً يقرب على مائدة الرب المقدسة . »

...

قال فيكتور هيكو فى إحدى قصائده، إن الروح تأتي الحياة منفردة لتفتش عن أختها فتندغم إحداهما فى الأخرى لتكوين الملاك الخالد فى الملأ الاعلى، وما هذا العذاب الذي يشير اليه جبران الاّ الجهاد فى سبيل الاندغام، فهنالك الانطباع المتبادل بين شخصيتين تجد كل منهما حريتها فى استعباد الأخرى، ذلك عذاب لا يشعر به الاّ أبناء الحب الحقيقي الذين يعتلون بقوة حبهم الى مرتبة التفاهم بالاستعباد المتساوى المحبة نفسها مندغمين بالروح الأعلى، أما أبناء الشهوات المدنّسون الحب فلا يمكنهم إدراك هذا الجهاد لان الحب قد استحال فيهم الى لذّات متقطعة يتدنّون بالهبوط على دركاتها الى حلقة الحيوانات الدنيا، ومثل هؤلاء الناس يفتشون عن الأنوثة فى أية امرأة كانت، فيقضون عمرهم في المسير وراءها ولا يقدرون على إدراكها، فهم كمخدوع سراب تشدّهم الواحات القائمة فى صحراء شهوتهم فينتقلون

من عاهرة الى عاهرة أو من ضحية مخدوعة الى أخرى حتى يقتلهم الظمأ بين صحراء السماء وصحراء الارض .

أما المحبة التي تحرر وتنقي ، المحبة التي يشير جبران الى جهادها السامى بآلامها فهي استقرار رجل وامرأة على بداية مصعد الشوق شخصيتين تسير كل منهما الى نفوذ أختها وبلوغ أقصى سرائرها حتى إذا تكشفت قروح الواحدة لعين الأخرى اتحدت الشخصيتان بالحنان لشفاء تلك القروح على أشعة المحبة المستمدة من شمس الله .

الحق أقول لكم ، إن الانسان لا يزال بين ديدان الارض يزحف زحفاً على التراب حتى يستنبت مثل هذا الحب في جهاده وآلامه للصدرين المتحدين الجناحين النيرين يرفعان بهما الى دوائر الحق الأعلى .

وقال عن الزواج

« لقد ولدتم معاً وستظلون معاً إلى الابد ، وستكونون معاً عندما تبدد أيامكم أجنحة الموت البيضاء ، أجل وستكونون معاً فى سكون تذكارات الله . »

. . .

إن جبران يعتقد كما أعتقد قبله سويدنبرج الفيلسوف الاسوجي العظيم بزوجلية الروح ونسويتها فى العاطفة المجردة عن الأجسام ، فهو يقول ببقاء المحبة بعد فناء الجسوم وبالاندغام الروحي فليس الزواج إذاً فى عرف جبران شركة تمتع واستغلال شهوات واستنبات أطفال لايطول أمدها إلا الى آخر الحياة المنظورة عند مفترق الطريقين وكيف تفترق روحان استكملت الواحدة منهما الأخرى وتجلى كل كمال فى إحداهما منبثقاً من عذاب الأخرى وجهادها فى سبيلها .

ولكن كم هو عدد الرجال والنساء الذين يدركون هذا من أبناء الحياة ، وكم

من زوجين سيستمران معاً عندما تبدد أيامهما أجنحة الموت البيضاء ؟. . . .

وقال عن الاولاد

« إن أولادكم ليسوا أولاداً لكم ، إنهم أبناء الحياة المشتاقة إلى نفسها بكم ياتون إلى العالم ولكنهم لا يأتون منكم فهم ليسوا ملكا لكم . فى طاقتكم أن تبنوا المساكن لأجسادهم ، ولكن نفوسهم لاتقطن مساكنكم ، فهى تقطن مساكن الغد الذى تقصر أحلامكم دون الوصول اليها. إن الحياة لاترجع إلى الوراء ولا تلذ لها الاقامة فى منزل الامس »

• • •

وما يريد جبران بهذا أن ينسخ حكمة الأجيال وهو المشبع روحه منها، ولكنه يرى الأنسانية مندفعة في طريقها نحو التكامل مسيرة قسراً الى التلبس بأشكال لا بد لها من تلبسها ، فمن العبث أن نخط للآتين طريقاً لا نعلم كيف يكون اتجاهه نحو القمة فى مسالك الانجاد والاغوار . علينا أن نسلم لأبنائنا مشعل الحكمة الذي ورثناه عن آبائنا ليستنيروا به فى طريقهم المجهول ، ولكن ليس لنا أن نرسم لهم الطريق .

• • •

وقال عن العطاء

« إنك إذا أعطيت فانما تعطى القليل من ثروتك ولكن لا قيمة لما تعطيه إن لم يكن جزاء من ذاتك لأنه أى شيء هى ثروتك . »

• • •

إنّ العطاء من الثروة قد يفيد المعطى له فهو إحسان له بعض الثواب ولاريب ولكنّ العطاء الذى يرفع بروح المعطي الى دوائر الروح الأعلى إنما هو البذل من الذات نفسها عطفاً وجهوداً ، وما إحسان المثري العقيم بنفسه الا تبرع للمجد الباطل بأتعاب الآخرين من الاحياء والاموات .

وقال عن الطعام

« وإذا ذبحت حيواناً فقل له في قلبك ان القوة التى أمرت بذبحك ستذبحني نظيرك لأن التى أسلمتك إلى يدى ستسلمني إلى يدى من هو أقوى مني ، وليس دمك ودمى سوى عصارة قد أعدت منذ الازل غذءاً لشجرة السماء . »

• • •

إن جبران يرى الحياة في مظهريها الحيواني والأنساني معدة لغاية مستورة وراء الحجاب ، فزوالها إذاً محتوم ولا قيمة لها بنفسها ، ولكنني لا أدري كيف يصح للانسان أن يضع للحياة حداً فى الحيوان كما يضع الموت الطبيعي حداً لحياته .

وقال عن العمل

« إن العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة، فأذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجراً ملولا ، فالأجدر بك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة ، لأنك إذا خبزت خبزاً وأنت لاتجد لك لذة في عملك فانما أنت تخبز خبزاً علقماً لا يشبع سوى نصف مجاعة الأنسان وإن أنت أنشدت أناشيد الملائكة ولم تحب أن تكون منشداً فانما أنت تصم آذان الناس عن الاصغاء إلى أناشيد الليل وأناشيد النهار . »

• • •

إن أشقى الناس من يعمل بلا لذة ولا رغبة لان المتألم في واجب يؤديه لا يستحق أن يتمتع بهذا الواجب . العمل مقدس وهو مصعد النفس إلى دائرة إدراك ذاتها فالعامل بأبسط الصناعات يمكنه أن يطبع مصنوعه بطابع شخصيته المسعدة بالعمل ، فى حين ان الفنيّ الملول المرغم يحطم جناحي نفسه ويجني على المجتمع بجنايته على ألوهيه الحب الكامنة فى الفنون . . .

إن رغيفاً تخبزه لك أمك أو زوجتك بأصابع تقطر حباً وحناناً لأفضل بكثير من الرغيف الذي يشبع مجاعة جسدك ولا يشبع مجاعة روحك الخفية .

وإن حقلا صغيراً ينصّب على ترابه عرق الفلاح الحر من جبين تكمن وراءه رسوم الزوجة والأطفال لأجمل من أوسع السهول تحفر فيه السواعد المقيدة بالاغلال

وقال عن التجارة .

« إن الارض تقدم لكم ثمارها ، ولو عرفتم كيف تملأون أيديكم من خيراتها لماخبرتم طعم الحاجة في حياتكم . لأنكم بغير مبادلة عطايا الارض لن تجدوا وفراً من الرزق ولن يشبع جشعكم . لاتأذنوا لذوي الايدي العقيمة من ذوى البطالة أن يشتركوا فى معاملاتكم لأنه لا شيء لهم يتاجرون به سوى أقوالهم التى يبيعونها لكم باعمالكم .. »

...

إن جبران يرى نصف الناس مصاباً بالتخمة والنصف الآخر مصاباً بالجوع وقد قال الامام علي « ماجاع فقير إلّا بما تمتع به غني »

ان الطفيليات الأنسانية تنمو وتتضخم من دماء العاملين فى الارض ، لذلك أشار جبران بلسان نبيه باطراح التعامل على أساس القيم الاعتبارية والمعاملات اللفظية والرجوع الى القيمة الحقيقية التي لا تنيل متمتعاً من الغلال إلا على قدر جهده

ان العالم المتمدن اليوم يتهدده الفقر لزيادة انتاجه ، فخيرات الارض وثمرات جهود العاملين تغرق وتحرق وتسد دونها منافذ التعريف لأن بين الارض والعمل يقوم العراك الهائل بين الذهب وهو ثروة الانسان الاعتبارية قبل الحرب وبين الورق وهو ثروة الحكومات الاجبارية بعد هذه الكارثة الطاحنة ، والعالم بأسره يتطلع إلى ما سيكون ومن يدري ما سيجده المفكرون للرجوع إلى الحقيقة التي تحجبها غيوم الاوهام ؟ . . . .

وقال عن الجرائم

« إن الذات الآلهية لا تقطن وحيدة في كيانكم ، لأن كثيراً منكم لا يزال بشراً وكثيراً غيره لم يصر بشراً بعد ، بل هو مسخ لا صورة له يسير غافلا في الضباب وهو ينشد زمان يقظته ، الحق أقول لكم إن القديس والبار لا يستطيعان أن يتساميا فوق

الذات الرفيعة التي في كل منكم وهكذا الشرير والضعيف لا يستطيعان أن ينحدرا إلى أدنى من الذات الدنيئة الكامنة في كل واحد منكم

« إن فاعل السوء بينكم لا يستطيع أن يقترف إثماً دون إرادتكم الخفية ومعرفتكم الخفية التي في قلوبكم فانكم تسيرون معاً في موكب واحد متجهين نحو ذاتكم الآلهية . . فاذا عثر واحد منكم فأنما تكون عثرته عبرة للقادمين وتكون أيضاً توبيخاً للذين ساروا أمامه بأقدام سريعة وثابتة لانهم لم ينقلوا حجر العثار من طريقه

« إن القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل ، وكثيراً ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه ، إذا جاء أحد منكم بالزوجة الخائنة إلى المحاكمة فليزن أولا قلب زوجها ، وليقس نفسه أيضاً بالمقاييس .

« أنظروا إلى الاعمال بعين اليقظة فى النور الكامل فانكم تحت هذا النور تعرفون أن الرجل المنتصب والرجل الساقط على الارض هما بالحقيقة رجل واحد واقف فى الشفق بين ليل ذاته الممسوخة ونهار ذاته الآلهية . »

. . .

قضيت شطراً كبيراً من الحياة محامياً فسبرت أرواح المجرمين ودرست القضاء والقدر فيهم مستقصياً ماينزع بهم إلى الأعالي وما يشدّ بهم الى الأعماق .

وقفت كثيراً أمام أعواد المشانق وخاطبت مراراً من قضت واجبات مهنتي أن ارافقهم في خطواتهم الاخيرة نحو اللاجة البعيدة الغور ، فكنت أرى فى هؤلاء البائسين تلك الذات الخفية خالعة حظها معراة عنه كأن ذلك الحظ شخصية أخرى تشخص هي اليها وتتفرس فيها كما ينظر المتشح البياض إلى خياله الأسود على الأرض وهو مدبر عن النور . . . .

وما كانت تتجلى لي تلك الذات الخفية في المجرمين بأسوأ من ذاتي ولا خيراً منها . . . بل كنت أرى الحظ العاثر منبثقاً عن الذات الظاهرة تحف بها أغلال الأمكنة وأصفاد الأزمان .

بين من دافعت عنهم من رجال الثورة السورية الاخيرة أمام محكمة العدل

العليا في بيروت ، كان رجل طيب العنصر كريم الاخلاق ولكن القضاء أدانه فقضى المجلس العالي عليه بالاعدام ، وعندما لفظ الرئيس حكمه الرهيب وقفت واجماً لانني ما كنت أتوقع لموكلي هذه النهاية وقد دهشت عندما شعرت بيد هذا الرجل تمتد الى كتفي وهو على مقعد المجرمين ليدفع الي بلفافة تبغ قائلا : - أشعلها يا أستاذ فقد تعبت كثيراً اليوم ، فلندخن . . . ذلك هو قضاء الله.

وبقيت مشنقة هذا الرجل معلقة ثلاثة أيام تمكنت في خلالها من إقناع السلطة العليا بوجوب استبدال الحكم فاستبدلت به الاشغال الشاقة .

إني وأنا أقرأ كلمات جبران أتذكر الشيء الكثير مما كنت أقرأه في عيني هذا الرجل من إنطباعات حياته المقدورة وذاته الخفية . .

وأذكر أيضاً شاباً في مقتبل عمره في الثامنة عشرة من حياته الشقية كان محكوماً عليه بالاعدام لاقدامه على قتل أمه في ساعة جنون لا لسبب إلا لانها تأخرت في إعداد غذائه ، توصلت إلى نقض الحكم في محكمة النقض والابرام وفي المحاكمة الثانية أثبتت للقضاه فنا أن هذا الشقي قد قتل أمه مختلا من تسمم بداء الزهري الذي ورثه عنها . . . .

ويل للانسان مما وراءه ومما حوله من حوافز ، وويل له مما يلقيه متقدموه من صخور العثار في سبيله . . . .

إن العدل يقوم بواجبه لصد الشر في مسيره ولكن سيادة روح الخير في العالم هي وحدها قادرة على شفاء الانسان من جرائم الشخصيات المنحطة وهي وحدها يمكنها أن تحول دون الاستفزاز إلى ارتكاب الآثام . . .

وقال عن الحرية

« إنكم لا تبلغون الحرية مالم تصبح أيامكم بلا هم تعملونه ولياليكم بلا حاجة تفكرون بها أو كآبة تتألمون لذكراها ، لانكم كيف تستطيعون أن ترتفعوا إلى ما فوق أيامكم

ولياليكم إذا لم تحطموا السلاسل التى قيدتم أنتم أنفسكم بها في فجر إدراككم فامتنعت الحرية عليكم في ظهيرتكم .

« إذا كان ما تريدون الانعتاق منه همّاً فان هذا الهم إنما أنتم اخترتموه ولم يضعه أحد عليكم ، وإن كان خوفاً تريدون طرده عنكم فان جرثومة هذا الخوف مغروسة في صميم قلوبكم وليست هي في أيدى من تخافون . . »

• • •

متى كان فجر الادراك الذى قيّدت النفس فيها آتى حياتها فى ظهيرتها ؟

لقد ورد فى الأسفار الهندية القديمة « إن الأناء الخزفي المتصلب فى النار له شكله الذى لا يتغير ولكنه كان من قبل طينة ليّنة بين أصابع الخزاف

فالفلسفة الهندية لا ترى للارادة حرية الاّ في مرحلة سابقة ، أى أنّ النفس تختار طريقها ما وراء الزمان والمكان ، على أنّ هذه النفس ، بعد أن تدفع بخطواتها على سبلها المختارة تصبح أسيرة لقضائها وقدرها الكامن فى ذاتها .

فهل يرى جبران ما رأته الفلسفة الهندية من أن الفجر الحر هو ماوراء الحياة ، أم هو يقول بالانطباع على غرائز الجدود والتأثر من حوادث الطفولة ؟ ولكن مايقوله جبران من أن الناس قد قيّدوا نفوسهم لدليل جليّ على أنه لا يعني الغرائز الموروثة ولا الثقافة المنطبعة أيام الطفولة هنا بل يتكلم عن القيود التي حبكها تشوق النفس قبل حلولها فى المنظور ، فهو إذاً يضع قضاء الأنفس فى كل مرحلة مسطوراً على الشوق الكامن المختار فى مرحلة سابقة .

وقال عن العقل والهوى

« وليكن لك من عقلك دليل وقائد لأهوائك لكى تعيش أهواؤك فى كل يوم بعد موتها وتنهض متسامية فوق رمادها »

• • •

حسب فريق من علماء التجرد أن السعادة تقوم بقتل الاهواء وشلّها ، فهم

برأيهم هذا كمن يشير بقطع الرجل اذا ضايقها حذاء يشد عليها.

لقد عزز الخالق الانسان بالاهواء، فان هو كبتها تحولت الى سموم يتحجر الانسان بها وتتلاشى إنسانيته فيها، وأبلغ ما قال الناس عن الهوى قول السيدة عائشة. — «ماتمتع الاشرار بشيء الا تمتع الأخيار بمثله وزادوا على ذلك رضى الله»

فالخير اذاً في تنظيم التمتع بالهوى لا بكبته والقضاء عليه والحكمة في السير بالهوى على صراطه السويّ، خطوة واحدة تقود الى الهدى وخطوة واحدة تقود الى الضلال، وما هي إلاّ غفلة ساعة فاذا الحب شهوة والحق باطل والغيرة أنانية، والسعادة آلام وشقاء.

وقال عن الالم.

« إن ما تشعرون به من ألم إنما هو انكسار القشرة التي تغلف إدراككم، أنتم مخيرون في كثير من آلامكم وهذا الكثير من آلامكم هو الجرعة المرة التي يجرعكم أياها الطبيب الساهر في أعماق نفوسكم ليشفي أسقامها. »

• • •

إنّ الجسد الماديّ ليس الاّ غلافاً للجسم الأثيري أوالروحاني وليس مايظهر فى الأول من علل وأسقام الاّ انعكاس ما يكمن فى الآخر من إختلال

وإني لأرى العلل فى الناس حاجة من حاجات نفوسهم، والذات الخفية قادرة على شفاء أمراض الجسوم ولكنّ اختيارها مكتوم فيها غائر فى أعماقها.

رأيت رجلا في الحياة يتألم ويشتهي الموت لانه كان يملك مليون دينار فأصبح لا يملك إلا نصف مليون لا غير.. فخيل إليّ أن هذا الرجل يبكي لاحتياجه الى رغيف وأنه هو وأطفاله يتضوّرون جوعاً...

ورأيت رجلا آخر يملأ الآفاق صراخاً ويعول لبثرة صغيرة ظهرت فى ساعده فحسبتني أمام رجل مصاب بالسرطان فى دور نزعه، ورأيت إمرأة تجهش فى

البكاء لحرمانها من عقد ثمين كأنها أم جف ضرعها في صحراء قاحلة ووحيدها يموت على صدرها المتحجر . . .

ليست اللذة الا ألماً في أصلها سلطت الارادة عليه الايقاع والتوازن فاختفى الألم ورائها ، فما وراء التنفس الا الاختناق وما وراء الحركة الا السكون وما وراء الحياة الا الموت ، فالألم إذاً ناشىء من تشوش في الارادة الخفية تختاره اختياراً لتتجرع منه ما تحتاج اليه فأشد الناس ألماً أشدهم حاجة للارتقاء على مدارجه . إننا نستقي الأوجاع حساً وشعوراً بالقدر المحتوم علينا باختيارنا الكامن في عقلنا الباطن ومن لم تبقَ له حاجة للالآم يبتسم لها كما يبتسم الابطال والشهداء

ليس في طاقة أحد أن ينزل بنا الالآم إذا كنا نحن قد كرعنا كأسنا حتى الثمالة ، وإذا ما فرغت كأس الالم في يد من ارتوى منها فانه ليحطمها على شفتيه فيسمعك من رنين إنكسارها عليهما نشيد انحدار الارض وانتصار السماء.

وقال عن المعرفة

« إن قلوبكم تعرف في السكينة أسرار الايام والليالى ، ولكن أذانكم تتشوق إلى سماع صوت هذه المعرفة الهابطة على قلوبكم . »

• • •

لقد أعطي لأرباب البيان أن يندمجوا بأرواح الناس بالتجرد الموقت فينطلقوا متكلمين بما يجول في فكرة المجموع فلا تكون كلماتهم إذ ذاك الا لمعات من أنوار العالم الخفي فما هم يسحرون بحكمة فيهم ، بل بالقوى الكامنة التي يصلون بينها وهي مبدده منكمشة على ذاتها في كل فرد من الناس .

وقال عن الخير والشر

« إن الشر هو الخير المتألم من تعطشه ومجاعته ، والخير هو حنين الانسان إلى ذاته الجبارة ، وهذا الحنين يشد بكم جميعاً . »

إن الشرّ في في عرف جبران قوة منفية لا وجود لها بنفسها فما الشر الّا شوق ضلّ السبيل وفقد الى حين السلك الموصل الى الذات الجبّارة الكامنة فى كل انسان

ولكم رأيت السفهاء معجبين بالحكماء، وأهل الدعارة نفسهم يصفقون للصيانة والعفاف، فالمرأة الفاسقة تباهي بالفتاة التي تموت ولا تأكل بثدييها كما أن الرجل الخائن ينحني بأجلال أمام الرجل المستشهد في سبيل عهده، وما تلك المباهاة وهذا الاعجاب الّا الحنين الذي يقول جبران أنه يشد بالناس أجمعين الى الذات الجبارة الكامنة فى أغوارهم.

وقل عن الصلاة

« إن الصلاة هي اتساع الذات فى الاثير الحي »

• • •

إنني أرى مع جبران أن امتداد الروح في الاثير الحي لا يشعر به الانسان الّا مصلياً ويخيل اليّ ان الانسان لا يتعالى فوق حياته وإرادته المقيدتين بالزمان والمكان الا عندما يكون جاثياً أمام ربه، متصلاً بمرجعه الأعلى، فأن العبودية لتتراجع حينئذ منكسرة أمام الروح المطلق الذي يرفع الانسان نفسه اليه بالصلاة. وما مرا كع المصلين الّا الواحات المخضلّة يستريح المجهد فيها فترة مستمداً منها الجلد على متابعة السير في الصحراء القاحلة، فويل لمن لا واحة فى صحرائه..

وقل عن اللذة

« إن جسدك قيثارة نفسك، وأنت وحدك تستطيع أن تخرج منها أنغاماً رائعة أو أصواتاً مشوشة مضطربة. »

• • •

وانني لأضيف الى قول جبران أنه قد تكون الاصوات المشوشة فى القيثارة أنين الاوتار تضرب شاذة اولا لتهزج اخيراً موقعة متزنة.

وقال عن الجمال

«هو صورة تبصرونها ولو أغمضتم عيونكم ، وأنشودة تسمعونها ولو أغلقتم آذانكم»

• • •

إن نفس الانسان مرآة الكون كله فان صقلت بشوقها استقر الجمال فيها وإن غشاها ضلالها قبحت المنعكسات عليها ، فالجمال مستقر ما وراء المنظور فهو استعداد فى الناظر نفسه .

وقال عن الموت

« إذا رغبتم أن تنظروا إلى روح الموت فافتحوا أبواب قلوبكم على مصراعيها للحياة ، لأن الحياة والموت واحد كما أن النهر والبحر واحد ، وهل موت الانسان هو أكثر من وقوفه عارياً في الريح وذوبانه في حرارة الشمس ، إنكم لا تستطيعون أن تترنموا بالأناشيد حتى تشربوا من نهر الصمت ولن تقدروا أن ترقصوا حتى تتسلم الارض جميع اعضائكم»

• • •

وتنتهى رواية النبي بهذه الكلمات التي ينطق بها المصطفى والسفينة تهتز لتمخر عباب البحر

إن الحجاب المسدل فوق عيونكم سترفعه اليد التي أسدلته ، والطين الذي يسد آذانكم سترفعه الأصابع التي جبلته وحينئذ تبصرون ، وحينئذ تسمعون ، ولكنكم لن تتحسروا على أنكم كنتم عمياناً وصماً لأنكم فى ذلك اليوم ستعرفون المقاصد الخفية في كل شيء .

وستباركون الظلمة كما تباركون النور

• • •

إن فلسفة جبران كلها تتمشى على مثل هذا الأسلوب الوجدانى العميق ، فهو وإن كان عالماً واسع الأطلاع كما عرفته شخصياً ، لا يلجأ الى التوسع بالحجّة

العلمية ولا يتناول درس المظاهر بالاستقراء الوضعي جرياً على طريقة أوغست كونت أو سبينوزا أو شوبنهور، لأنه يعلم أن الظاهرات الكونية لم تستجلي بعد بصورة تتفق كلها والحس الباطن فى أصحاب العقيدة الروحية، فهو يتسامى بنفسه عن أن يجعل إيمانها عرضة لظاهرات الماء والهواء والتراب فلا يفتش عن روحه فى الكهارب والذرّات بعد ان انكشفت له هذه الروح أصلا مستقلا كان منذ الأزل ولن يفنى الى الأبد.

إن جبران رأى ظاهرات المادة خيالا منبسطاً على معكس ورأى الانسان الخفيّ حقيقة ذلك الخيال مولياً وجهه شطر هذا المعكس ووراء رأسه تشع أنوار الحق، فأدرك أن هذا الشبح المتحرك ليس له حياة في ذاته وأن من العبث أن يستطلع خفايا الانسان بالاعتكاف على درس خياله، فأدار ظهره للخيال مستقبلا مطلع النور!: فأقوال جبران تبقى غامضة لدي الواقفين بين العلم والجهل على نصف الطريق، ولا يدرك فلسفة جبران الا أحد رجلين عالم سبر أغوار المادة فأفلتت من يده فوقف مشككاً فى حواسه وفى أصل المادة نفسها وانحنى بين المنظور والخفيّ يفتش عن ذاته، ورجل يؤمن بالخير وينفر من الشر مستنيراً بالوجدان آخذاً بعبر الحياة شاعراً بالحق إنصباباً داخلياً، فالطبقة العليا من رجال العلم والطبقة الساذجة الطيّبة في المجتمع هما وحدهما يدركان فلسفة جبران، وهو لدى ما سواهما من الناس مخدوع كموسى أمام النار الملتهبة في العليقة دون أن تحرقها، ممسوس كعيسى الداعى الناس الى محبة أعدائهم ومباركة مبغضيهم، متهوس كمحمد يصدع العالم المشرك بآيات ربه.

خذ كتاب النبي واتلُ على أبناء الأديان المختلفة أياته الباهرات بعدخروج كل فئة منهم من معبدها فأنهم على اختلاف مذاهبهم ليحسبونها استمراراً لما

بدأوا به صلاة . .

أمّا كبار العلماء والشعراء والفنيين فى الدنيا فقد قالوا كلماتهم فى جبران وسأكتفي هنا بأيراد ما قاله برازبين أكبر كتاب الامريكان .

« لو كنت من المؤمنين برجوع المسيح الى الارض مرة أخرى لأيقنت أنه عاد بشخص جبران خليل جبران »

وما قاله رودان أعظم نحاتي هذا الزمان

« يجب أن يتوقّع العالم شيئاً كبيراً من جبران شاعر لبنان ونابغته فهو وليم بلايك القرن العشرين »

وما قالته مجلة كرشسن سايانس مونيتور عن رسومه :

« لم يبق من التأثيرات العديدة المتراكمة فى ذهننا في اثناء زيارتنا لمعرض الرسم في كوندلر ما يفوق التأثير الذي أبقته رسوم جبران خليل جبران ، فان التخيلات الشرقية بما تبطن من أسرار ثابتة تتجلى فى فنه بالرغم عن اشتغاله طويلا بالرسم فى نيويورك وفى باريس »

وما قالته مجلة الفنون السبعه

« فن جبران رمزي سامى المعانى لأن أصوله لا ترتكز على الخطوط فحسب بل على الحقائق الجوهرية التي تظل ثابتة فى كل العصور متعالية فوق تجارب الاجيال . فان جبران يرسم تاريخ الحياة ويقتسم معها عراكها الدائم فهو في فنه عصريّ ولكنه قديم كقدم الزمان »

وهذه أيضاً فقرة من محاضرة القاها رئيس ديني كبير هو الاستاذ فرنكل رئيس الطائفة الاسرائيلية فى دترويت ميتشيغن عن كتاب النبي ، قال :

« أعترف أنه لم يسبق لي قط إن تحركت نفسي من أعماقها كما تحركت بعد

أن تلوت هذا الكتاب ، كتاب النبي ، مرات عديدة

« ليس جبران يهودياً بطائفته ولكنه يهوديّ بروحه . »

ان خطبة الاستاذ فرنكل قد نشرت برمتها في آخر كتاب النبي الذي عربه الكاتب البليغ حضرة الارشيمندريت انطونيوس بشير ، وقد استوقفتني كلمة أوردهاهذا الكاتب فيمقدمته عند ذكره محاضرة الأستاذ فرنكل إذ قال « ونحن مع الخطيب فى كل ملاحظاته ما عدا رغبته فى ضمّ جبران الى اليهودية »

إن جبران لاسرائيلي وعيسوي وأحمدي بروح موسى وعيسى وأحمد ، بل هو هندوسي وبوذي وبرهمي ، وكل من قرأ آيات جبران من أي دين كان تتجلى له فيها روح شريعته وكتابه ، لان الدين فى كل أشكاله السابقة واللاحقة إنما هو صرخة الضعف موجهة الى القوة وهتفة المشعر بالزوال نحو العلّة الأولى الخالدة .

إن دين جبران هو ما دان به المتصوّف الأكبر محي الدين العربي إذ قال .

وقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني الى دينه داني
فأصبح قلبي قابلاً كلّ صورة فمرعىً لغزلان وديرٌ لرهبانِ
وهيكل أصنام وكعبةُ طائف وألواحُ توراة ومصحفُ قرآنِ
أدين بدين الحب أنىّ توجّهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

ذلك هو دين جبران تجاه المذاهب ، أما دينه الخفى المستقر فى أعماق نفسه ، ذلك الدين الذى استوحاه كل حكمته فهو مقنع بسطر واحد من كل ما كتب فى حياته ، سطر قد يمرّ به الكثيرون دون أن يستوقفهم مغزاه وقد يستوقف البعض وعلى شفاههم ابتسامة الشك أو تبرم اللعنة .

إن دين جبران يتجلىّ فى صلاته بهذه الكلمة ، موجهة الى ربه الذي يشعر به فى أعماق ضميره

« إلهي ومقصدي وكمالي ، أنا أمسك وأنت غدي ، أنا عروق لك فى التراب وأنت أزاهر لي في السماء ، ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس . »

تلك صلاة الكفر والجحود لمن لا يدرك معنى قول عيسى ها إن ملكوت الله فى نفوسكم ، إن جبران يوجّه توسلاته الى ما فيه من نسمة الله الكامنة فى كل انسان فهو يتجه الى سبيل الله فيه لا الى الواحد الأحد الكامل المستغني عن النمو مع مخلوقاته أمام وجه الشمس .

أما وطنية جبران فقدوصفها هو بكل ماأبقى من اثار في الفن والشعر والحكمة فما أرز لبنان يظلل جدران بيت طفولته المهدّمة ومعابدأجداده ، وما الهرم والنيل وما قمة عرفات وركن البيت الحرام ، وما المسجد الأقصى ، وما باب الكعبة على ضفاف بردي ، وما الدجلة والفرات ، فى عينيه ، وهو الشريد الغريب ، الّا الوطن الواحد ، وكيف لا تكون هذه الأماكن وطناً له وقد تكوّنت عبقريته من عبقرية رجال كل هذه البلاد وملوكها وأبطالها وروح أنبيائها وشعرائها .

• • •

في العاشر من نيسان (ابريل) من سنة ١٩٣٢ ، مات جبران فى الولايات المتحدة وقد تمشّت فى كبده العلة التي أودت باسماعيل صبري وكان يقول فيها .

يا آسي الحي هل فتّشت فى كبدي وهل تبيّنت داءً فى زواياها
أواه من حُرق أودت بمعظمها ولم تزل تتمشى فى بقاياها

تلك كانت علة جبران الأخيرة وقد سبقها اعتلال القلب فوقفت الجراحة عاجزة عن إقتطاع مكمن دائه ،

مات جبران ، فوا حنين الدنيا الى شدوه وأنينه . .

انكسر القلم الذي ملأ العالمين بخيالات الكلمة الحية المجنحة وبأصداء صوتها.

هوى ذلك القلم الوثاب وهو يطاول الأفق الأعلى ليكبّل بسلاسل البيان الأنساني تلك الكلمة ويستنزل لابناء الحياة إلهاً ..

مرت عشرات السنين وتلك الكف المشتعلة التي اتخذها جبران رمزاً لحياته ترسم بريشتها ما اجتازت تلك الحياة من دوائر المحور وتسمع بأقلامها دوي الاغوار التي انجهت من أعماقها متسامية الي سدرة المنتهى

هنالك مستقرّ الكلمة المجنّحة الحية معبودة جبران وكل من تقدمه على سبيل التجرد والالهام ، وهذه الكلمة نفسها قد جذبت رجل العبقرية اليها وهو يحاول هتك حجابها ليراها الناس ويسمعوها بعد ان أراهم رسمها وأسمعهم صدى صوتها

وقد كان نزع جبران طويلا امتد مدى السنين ، وعندما قدّر لي أن القاه لأول مره فى السابع والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٢٢ ، في نيويورك شهدت اوائل اعراض فنائه بجسده وأوائل دلائل خلوده بفكرته .

فى مساء ذلك اليوم كنت مدعواً مع جان والياس الدبس رفيقيّ فى رحلتي الخطابية الى العالم الجديد لوليمة فى منزل السيدة الفاضلة ماري خوري فى الشارع الرابع والاربعين فى مدينة ناطحات السحاب ، وهنالك صافحت يدي لاول مرة يد جبران ، يد العبقرية والفن وغارت نظراتي فى أغوار نظراته .

وكان جبران ، قبل اجتماعي به بعشر سنين ، قد وضع لي رسماً على طريقته التي ابتدعها بتجسيم فكرة الكتّاب وخلق ملامحهم مما يتفرس فى أقوالهم فقال لي لقد كنت انت أول من جرّبت عليهم طريقتي ويسرني الآ تكون فراستي المعنوية قد اخطأت فيك .

ودام حديثي مع جبران الى الساعة الثالثة بعد نصف الليل .

والآن ، وقد أصبح ذلك الطيف النيّر مندثراً وراء الحجر البارد ، فانني

أطالع ما نشرته ميّ زياده ، أخته فى العبقرية من رسائله فى الاهرام فتستوقفني من أقواله عبارات أحلّ بها الرمز الخفى الذي وقفت طويلا أستجليه كل مرة كنت أجلس اليه .

أنا ، يا ميّ ، بركان صغير سدّت فوهته ، فلو تمكنت اليوم من كتابة شيء كبير أو جميل لشفيت تماماً . . لقد ولدت وعشت لأضع كتاباً ، كتاباً واحداً صغيراً ، لقد ولدت وعشت وتألمت وأحببت لأقول كلمة واحدة حية مجنّحة ، ولكنني لم أصبر ، لم أبق صامتاً حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتيّ لم أفعل ذلك ، بل كنت ثرثاراً وبقيت ثرثاراً حتى انتهكت قواي ، وعندما صرت قادراً على افظ أول حرف من كلمتي وجدتني ملقى على ظهري وفى فمي حجر صلد . .

لا لم أقل كلمتي بعد ، أقول لك ، يا مىّ ، ولا أقول لسواك ، انني إذا انصرفت قبل تهجئة كلمتي ولفظها ، فانني سأعود ثانية لتحقيق امنيتي

عرفت الآن سر خشوعي أمام جبران وانجذاب عينيّ الي ما فى احداقه من إشعاع . . ، عرفت سر زعامته وأجلال كل من حوله له على ما كان فى شخصه من بساطة وفى حركاته وسكناته من دعة وهدو . .

لقد كانت الكلمة الحية المجنّحة في قلبه فيبدو كالجبار الهازئ ، بالحياة وبالموت وقد كان يحاول تجسيدها للناس بخطوطهم وبيانهم فتجهد تلك المحاولة ذلك الجسم النحيل وتفقده ثقته بنفسه فيبدو كالطفل فى ابتساماته ودموعه .

جبران ، لقد عرفت اليوم دائك التي أودى بك واختطفك من أواسط طريق الحياة .

لقد تجلّت لك الكلمة الحية ووصلت الى محور الدائرة فانهتكت أمامك أستار الحق ، فأردت أن تقول ذلك الحق كلمة حية للناس . .

أفما علمت ، أيها المتفاني بحبك لهذه الانسانية المتألمة التائهة وراء ضلالاتها وملذاتها ، أفما علمت وأنت المتسنم ذروة العلم ، ان الحق ليس كلمة تقال بل كلمة تحل حلولا فى الروح التي جاهدت وصبرت واضطهدت وظُلمت فصفحت ، وان الحق يؤخذ ولا يوهب .

لقد عاينت الله بما سكبت من دموع وبما كبحت من شهوات التراب فى حياتك ، لقد عاينت الحق بشعورك بالآم ابناء الحياة ، وابناء الحياة لم يشعروا بما فى نفسك

لقد استقرت الكلمة الحية فيك لانك استلهمتها بافتكارك وانحنائك المستمر على ما فيك وفي كل انسان من أغوار ، وبشخوصك الدائم الى ما فيك وفى كل انسان من ذرى وافاق ، فأردت أن يعرف معنى تلك الكلمة كل انسان دون أن يشقى كما شقيت أنت وشقي من قبلك الانبياء والعباقرة فاستنبتت هذه الكلمة لنفسها فى أفاقك جناحين، ولهذا رأيتها متطايرة فى محاولتك القبض عليها لاستنزالها الى افاق بيانك ورسومك . .

• • •

أقلب الآن المفكرات التي كتبتها فى نيويورك وفى بوسطن حين جالست جبران ساعات طويلة تركت فى نفسي أثراً لم تترك فيها مثله أية شخصية كبيرة عرفتها فى حياتي ، أقلب هذه الاوراق فأجد فيها الشيء الكثير مما لا يجوز أن أبقيه لنفسي لأنني أعده الآن ملكاً لكل من أحب جبران ورأى فى حياته النور الذي يصبو اليه

أمامى كتابان أحدهما أرسلته الى جبران من نيويورك فى ٢٢ نيسان (ابريل) ١٩٢٢ والآخر جواب منه عليه وقد نشرا كلاهما فى جريدة السائح النيويوركية

فى ذلك الحين .

أخي جبران ،

انتظرت ليصفو صوتى من غصّة الدموع ، فما جفّت مناهلها ، أردت أن أكتب اليك مغرداً لا نائحاً فرأيت القلم يعصيني فأطعته .

كدت أسلم نفسى لمبضع الجراح لو لم أجد علاجاً أوقف به ألآمى التى حملتها ستين يوماً فما أبقت لي غير عظام تسيّرها الارادة على الارض فتمشي

جبران ، ان رؤيتي اياك عليلا كانت أشد عليّ من علتى ، تعال لنذهب الى وطن الجسد نحييه هناك، إن للجسم نزعات الى ترابه كما ان للروح نزعات الى جوهرها عندما تثور عاصفة الالآم . .

تعال ، يا أخي ، إن لكلينا فى الصدر وفى المظهر جنحاً سليماً وجنحاً مكسوراً فلنرم المكسورين ولنطر بالسليمين الى مستقر السكون . .

إن فى روحي اليك شوقاً يشبه الشوق الى المقر الذي تركت قلبي فيه ، هنالك على مرفأ بيروت تتطلع عيوني الى جنان أرزي وجنّات بلادي ، وقربك ياجبران تتطلع روحي الى أرزها الخالد كأنها على شاطىء الكون الحقّ . .

تعال لنظفر بالوطنين ونداوى العلتين، إن هذه المدنية التى نالت منك تبريحاً بعد سنين قد نات عليّ بشهور ، فتعال نستثمر الآمنا منها تحت ظلال الأرز والصنوبر إذ نكون هنالك أقرب الى الارض وألصق بالسماء

أتيت اخوانى المهاجرين شاعراً ، فأراد بعض المتسيسين أن يمسخوني نفعياً وما كانت استفادتي من هذه الرحلة غير غصة في الروح وقرحة فى الحشاشة ، ولكنني أتعزّى بقطرات دموع أسالتها كلماتي على المنبر من جفون المهاجرين أخوتي . تلك القطرات هى كل غنيمتى : لقد أيقظت شوقاً كاد يموت فى رقدته

ونبهت ألماً كاد في هجعته يجعل الداء مزمناً عقاماً . وما من داء اقتل للافراد والأمم من علة لا تؤلم ضحيتها . .

كل ما أطلب من القوة المسّيرة العليا ، هو أن تقدّر الوصول لي معك الى بلادنا فاستند الى ذراعك وتستند الى ذراعي فنتمشى على مهل بين وديانها وجبالها وعلى ضفاف انهارها ونسمع زقزقة عصافيرها ، فنفهم ما تسرّ الانهار وما تقول الاطيار وما تعلن الانجاد والاغوار .

لقد اشتاقت عيناي الى مرأى تراب الارض وما فيه من تجليات العالم الخفي صدّق ، ياجبران ، انني ما رأيت زهرة ناضرة ،ولا نشقت عرفاً ذكياً ، ولاسمعت تغريد شحرور ولا مر بي نسيم بليل منذ توارت آخر أشعة رمقتها عيناي على آخر مشهد من أرض الشرق بلادك وبلادي . .

دع هذه البلاد العظيمة الغنية ، وتعال معي الى بلادنا الصغيرة الفقيرة حيث لاتتكسر الزنابق ولا تذبل الازهار . .

تعال ، لقد عرف العالم الجديد فيك ما يتاح للعالم القديم أن يخلق من قوة في ضعفه ، وقد حان الزمن الذي يجب فيه ان تعمل هنالك مع اخوانك ، قرب مقابر الاجداد على أحياء المبادىء السامية التي تمخض الشرق بها قديماً وهي تنتفض اليوم لتسود مدنية العالمين في آتي الزمان .

تعال ، لتنبه الالام الساكنة ، تعال لتسمع سماؤك الصافية كل مافي أناشيدك من الصفاء ، ولترسم ريشتك عن الاصل ما ترسمه الآن عن انطباعات الخيال في قلبك

سلام اليك من اخيك : فليكس فارس

وهذه فقرات جبران :

اخي فليكس ،

لا ، ليس من الغرائب ان يريشنا جبار من جبابرة المظهر بسهم واحد في آن واحد فيصيب منك جناحاً ويصيب مني جناحاً . لا بأس، يا أخي ، فالالم يد تكسر قشرة النواة لتستنبت لبابها . .

لم أزل رهن الأطباء الأخصائيين وسأبقى رهن مقاييسهم وموازينهم حتى يتمرّد جسدي عليهم أو تتمرّد روحي على جسدي،وقد يجيء التمرد بشكل الامتثال والامتثال بشكل التمرد ، ولكن تمردت أو لم أتمرد فلا بدّ من الرجوع الى لبنان لا بد من التملص من هذه المدنية السائرة على دواليب ومعانقة تلك المدنية المستسلمة لنور الشمس ، على أنني أرى من الحكمة الّا اترك هذه البلاد حتى أقطع الخيوط والسلاسل التي تربطني بها ، وما أكثر تلك السلاسل والخيوط . وأنت لا تريد أن أذهب الى لبنان واتكيء في ظلاله عاماً أو عامين ثم أراني مضطراً للرجوع الى الولايات المتحدة لقضاء مهمّة فنّية أو للنظر في مسألة كتبية .

إنني أريد أن أذهب الى لبنان وأبقى ذاهباً . .

لقد تركت عندنا ذكراً عاطراً . الخ . .

أما غطيط بعض المتسيسين فلا يضر ولا ينفع بل يستدعي الشفقة ، وانت من المشفقين . . والله يحفظك أخاً عزيزاً لأخيك

جبران

. . .

إن داء جبران في خفقان قلبه قد بدأ سنة ١٩٢٢ ، وعندما اجتمعت به للمرة الأولى لمحت فيه ذلك التجلد المعلن في الأحشاء تمرّداً على الحياة .

رأيته يغالب أنفاسه مغالبة، فتنفرج شفتاه عن ابتسامة كلها مرارة وحلاوة ووقف بعد ذلك معي على منبر « الاكاديمي اوف ميوزيك » في نيويورك ليقدمني

لمواطنينا المهاجرين فقال كلماته بخفقان قلبه لا بنبرات أنفاسه فسادت تلك الكلمات جو القاعة كأنها همس أرواح تحوم فوق كل جوانبها .

ورأيته فى قاعته الواسعة التى يملكها في بناية رجال الفن يحيط به اعضاء الرابطة القلمية بعد ان خرجنا من المجمع العلمى الاميركى فى الشارع الخامس حيث كنت ألقيت محاضرة بالافرنسية عن سوريا ولبنان ، وكنا كلنا ضيوف جبران ذلك المساء نحيي ليلة من ليالى جبلنا الأشم فى تلك القاعة الواسعة حيث كان فراش عبقري الشرق ومكتبة ومعدات عمله فى الرسم ، وهنالك ، فى متحف الفن ومستلهم الفلسفة والشعر، كان جبران، كاهن هذا المعبد يقوم بنفسه بخدمة ضيوفه على رنين أوتار العود وصوت الاستاذ كاستفليس .

وكان جبران يعجب بقصيدتين لى احداهما بعنوان « مناجاة النفس » قدمتها له وتوّجتها برسمه والأخرى بعنوان « تربة الجدود » وهى أبيات كنت نظمتها على أثر وصولى الى الولايات المتحدة واصابتي بالالتهاب الرئوي بعد خروجى من معتقل « جزيرة أليس » حيث بقيت ١٦ يوماً مع رفيقى اسعايات سياسية لا محل لذكرها الآن ، والأبيات الأخيرة ترجمها جبران الى الانكليزية شعراً ونشرت فى مجلة أدبية ولم تزل الترجمة بخط جبران لديّ بين ما أحفظ من اثاره

وقد رغب جبران ذلك المساء الى الأستاذ كاستفليس أن ينشد هاتين القصيدتين بصوته الرائع فمضينا بسماع الانشاد ساعة كان أجمل الشعر فيها يتدفق من عيني جبران ، وانى لأورد هاتين القصيدتين وأحسبهما من وحى الفقيد الخالد نفسه وقد أراد أن يربط فيهما روحه بروحى .

ابنـة النور

يا ابنـة النور رحمـةً بالجريح قد كفى ما لقي من التبريح

أسدلى الستر فوق وجهك وامضى أنت روحٌ لعالم الروح روحى
أنت رمز الكمال حقّ خفىّ تتجلين فى الضلال الصريح
صورةُ الصدق فى فؤاد كذوب لمحةُ الحسنِ في المحيّا القبيح
كلُ قلب لولاك يبدو كذوباً كلُ وجه لولاكِ غيرُ مليح
أنتِ معنى الاكوان والكون لفظ المعانىّ واللفظُ غيرُ فصيح
قد تجليتِ لى بشكل صريح قبل ما جئتُ عالمَ التلميح
وبروحى من نورِ وجهكِ إشعا عٌ كحبل الجوناءِ عند السفوح
يا ابنةَ النورِ قد حسبتك تبـ ـدينَ لعينى في كل شكل صبيح
من سريرى لملعبي لعلومى لغرامى الى شفـيرِ الضريح
كنتِ أماً فصرتِ لهواً فعلماً فغراماً بهجـة المقروح
كلُ شىء قــد كنت أحسبه أنـ ـتِ فكان التخمينُ غيرَ صحيح
هتك السترُ فى كرور الليالى عن خيال فى ذا البقاءِ جموح
يتولىّ زمام شوقى فيهفو ثم يخفى بزفرةِ المذبوح
فضحَ العلمُ فهو جهل ولاحت آلهاتُ الهوى بشكل فضيح
كل شيء بدا قبيحاً لعينى ويحَ نفسى من ذا الوجودِ القبيح

• • •

إيه نفسى ؟ أراك تبكين كالـ غادةِ تروى من دمعها المسفوح
قد عشقتِ الحياةَ ترجين نوراً يتجلى من ناظرى المفتوح
صرتُ أعمى وإبنةُ النور لم تخـ ـطر أمامى في ذا الفضاءِ الفسيح
خدعتني الاشياءُ دوراً فدوراً كلُ شىء قد كان قبضةَ ريح
يتجلى حيناً كنورِ ويخفى كظلام على الهواءِ سبوح

إيه نفسى أتعبتنى فالى ما ذا التفاني على السبيل الطموح
إبنةُ النور جوهر فيك مكتوم تواري عن نظرةِ المستبيح
ذاكَ سرُّ الحياة يـكمن فى الموتِ فكفى عن البكا لا تنوحى
إبنةَ النور أنت ذاتُ لذاتى تتوارين في مجاهل روحى
سوفَ يجلوكِ لي انعتاقكِ منى في رُبى النور فاصبرى واستريحى

• • •

أما الأبيات التى ترجمها جبران الى الانكليزية شعراً فهى

تربة الجـدود

من لوعـةِ التوديع للبحرِ للباسم المملوءِ بالغدرِ
لرحمـةِ الانواءِ والذعرِ لمعقلِ التعذيبِ والأسرِ
لعاتةِ الصدرِ

إلى هنا قد صرتُ ياسلوى لما تركتُ النورَ والمأوى
وها أنا في الليـلِ لا شكوى تفيدنى ودمعتى نجوَى
تُسّر للفجرِ

أنّى لهـذا الفجرِ أن يطلع ونجمتي في موطنى تلمـع
وبيننا الأبعادُ لا تقطع ما ينفعُ المحكومَ ما تنفع
تعلّةُ الذكرِ

يا فكرُ لا تذهب إلي وطنى لا تدخلِ البلوى إلى سكنى
لا تزعج الاجفانَ في الوسنِ لا تقلقن بخيالِ ذا الكفنِ
شريكةَ العمرِ

هل نسمةٌ من ذلك الوادي ونهلةٌ تطفي لظىَ الصادي
أو قبضةٌ من ترب أجدادي حتى إذا ما حانَ إلحادي
تُذرّ في قبري

وهذه ترجمة القصيدة بالانكليزية والكتاب الذي أرفق بها وكلا الترجمة والكتاب بخط يد جبران

أخي فيلكس

سلام على روحك الطيبة وقلبك الكبير
لقد سررت جداً بزوال الألم عنك وبعودة العافية إليك.
نحن يا أخي بحاجة ماسة إلى مواهبك فلا تدع العلة
أن تقف حاجزاً بين مواهبك وحاجتنا.
طيه تجد ترجمة قصيدتك الجميلة إلى الانكليزية. لقد
تصرفت بها بعض التصرف فجاءت كما يريدها الشاعر لا
كما يريدها اللغوي المدقق. أبعدنا الله عن جميع المدققين!
أنت بالطبع تعرف حجم وشكل فرحي بنجاح مشروعكم في هذه
البلاد. ولكنني أرجوك يا فيلكس أن لا تجهد نفسك
ولا تحمل فؤادك فوق طاقته.
بلغ سلامي إلى جان وإلياس [illegible] بمودتي وأخلص
تمنياتي والله يحفظك أخاً عزيزاً

جبران

ماونتنين

From the pain of bitter parting
To the laughing faithless sea:
From the merciless waves to fear,
And then to prison and despair!
Is this what I sought, my Salwa,
When I left you and my home?

And behold me now in a night
Whose ears are deaf to my cries,
Whose eyes are blind unto my grief.

But what if my morn should come?
And the star of my morn should rise?
What would they bring save a memory
To a heart over-burdened with memories?

O my thoughts, my stricken thoughts,
Fly not towards my homeland,
And enter not into my house,
Lest you touch with your dark wings
The sleep-veiled eyelids of my mate.

Oh for a breath from that fragrant vale,
Oh for a draught from that singing stream,
And for a handful from my forefathers ashes
To be strown, as they lay me low,
Into my lonely grave.

— o —

وبعد انقضاء تلك السهرة في ساعة متأخرة من الليل، سار جبران معى الى محطة النفق، (سكة تحت الارض) ليشيعنى الي طريق منزلي، وكنت إذ ذاك فى دائي أقرب الى القبر من جبران فى دائه، وكان متأبطاً ذراعي نسير كلانا تحت ناطحات السحاب شاعرين بالقوة المادية الساحقة تحيط بنا وتعلو رؤوسنا وكلانا مختلج القلب ناحل ضعيف..

أعود الى مفكراتى لآخذ منها ما دونته ذلك المساء فيها عند وصولي الى غرفتي فى أمتى ستريت:

فى ٢١ اذار (مارس) سنة ١٩٢٣.

وإذ نحن متجهان الى باب النفق، وقف جبران بغتة في مسيره وقبض على يدى الناحلة بكلتى يديه وصوب نظره الى احداق وقال بصوته الصافى العميق.

— إنك متألم، ياأخي، وفيك قرحة فى الروح وقرحة فى الأحشاء، أما روحك فلن يشفيها سوى بلوغها مدى الألم وأنت تدفعها الى ما قدّر لها بجلدك وجهادك وصبرك، أما جسدك وفى أحشائه قرحة فليس من حقك أن ترهقه بالمكابرة، دعني أذهب بك الى اكبر جراح فى الولايات المتحدة، إن صندوق أخيك جبران لك، كما ان لك عطفه وكل حنانه. دعني أمثّل لبنان فاسعى الى شفائك وتكون يدي رابطة على يدك فلا تشعر بأوجاع جراحك.

تهدّج صوتي في صدرى فاختنق، وعانقت جبران، فاذا بقطرات دمعه تبلّ خدي، وقطرات دموعي تبلّ خديه..

• • •

وما مرت ايام حتى اشتدت العلة على جبران فذهب الى بيت شقيقته في بوسطن حيث أرسلت له كتابي بعد اجتماعي الاخير به بشهر أي في ٢٢ اذار (مارس) سنة ١٩٢٢

من مفكراتي في الباخرة باريس، عرض الاوقيانوس بتاريخ ٥ اب (اغسطس) سنة ١٩٢٢

أحاذر أن يقف هذا القلب على حين غفلة، فاريد ان أدون كلمة تكون وصيتي الاخيرة في آخر الصفحة : « أوصي بقلمي الذي أكتب به الى جبران خليل جبران »

• • •

تسع سنوات مرت على جبران منذ ذلك العهد وقلبه ثائر على جسده يتوقع الاطباء شفاءه أو موته ، وهو لا يشفى لانه واله بما كمن في نفسه فلا يحوّل ارادته الى وقاية جسده ولا يموت لأن رسالته كانت لم تتم بعد .

في هذه السنوات الطويلة التي كانت نزعاً طويلا وفترات بين نزعين ، وضع جبران أجمل رسومه وكتب أبلغ حكمته وأنشد أشجى أشعاره .

لقد حاولت عبثاً، وحاول الكثيرون من أصحاب جبران انتزاعه من الولايات المتحدة واستقدامه الى لبنان . ومن يدري ما كان سيؤثر هذا الانتقال على جبران لو أنه رضي به ؟

أكانت سكينة جبالنا وهواؤها البليل وماؤها السلسبيل قادرة على انتزاع العبقري من هيامه بأصول الأشياء فتردّه عن المضي بنفسه الى قمة نفسه ؟ . .

ما كان جبران عليلا بجسده ، وقد خفيت على الاطباء علة خفقان قلبه، ذلك لأن ذلك القلب كان قد أصبح هو بنفسه تلك الكلمة المجنّحة التي أراد جبران أن يهجئها حروفاً . .

• • •

والآن ، لأوردن في هذا الحديث، بعض عبارات من كتاب طويل أرسلته الى صديقة جبران العبقرية ميّ زياده بعد وفاته بأيام .

عندما سرت فى رحلتى منذ عشر سنوات الى العالم الجديد لأعمل على لم هذا الشعث المبدد من اخواننا ، وقفت اكثر من خمسين مرة على منابر أمهات المدن فى الولايات المتحدة ، أهيب بأبناء السبي للرجوع الى بلادهم التى شرّدهم اختلالها آملا ان ينظموها ليحيوا بحياتها . فأطلقت فى هذا السبيل كل ما فى صدرى من أنفاس وفي صوتي من نبرات . وهنالك عرفت جبران الذى عرفته أنت كثيراً ، يا ميّ ، ومفكراتي التى دوّنت فيها ما شاهدت من حوادث وما جال بي من خواطر فيها الشيء الكثير عن جبران .

إن جبران ، يا ميّ ، كان فيه البهاء المجهول الذي عرفته فيك (ثقي يا أختى من ترفع هذه الكلمة عن كل تزلف ومحاباة (فان من المفكرين من تتجلى القوة الخفية في مظهر واحد من مظاهرهم فهنالك من رقت عواطفهم فلا يخلبون إلا إذا ابتسموا ، ومن عمق افتكارهم فلا يسطون الاّ إذا حدّقوا ، ومن صفت نواياهم فلا يؤثرون إلا إذا لمسوا ، ومن تألموا بالآم الانسانية فلا يربطون على القلوب إلا اذا أطلقوا صوتهم ، ولكن جبران ما كان ليحتاج لا لعينيه ولا لشفتيه ولا لصوته،لأن في جوه الهادىء الرائع كانت كل النظرات والابتسامات والاصوات التى تشدّ بالحس التائه فى الحياة الى المستقر الأعلى .

ذلك لأن الفكرة النيّرة فى جبران كانت قد خلعت عليه من إشعاعها وشاحاً يجلّله من رأسه الى أخمص قدميه ، وقد كان فى حياته منقطعاً الى اكتشاف خفايا العالم الأكبر متوغلاً فى ما وراء الأسرة وفى ما وراء القبور . إن جبران كان قد مات قبل أن يموت فلم يلمس الحياة الّا برأس ريشته وبرأس قلمه .

إنني لأستعرض اليوم كل مَا ينشر لشخصه من صور فلا أري واحدة منها تمثل لي جبران كما رأيته .

وقد كان هذا الرجل الذي أصبحت الانسانية كلها أسرة له والارض كلها وطنه يحن دائماً الى لبنان وما فيه من أغوار وأنجاد ، وما أرى انه كان يفهم الوطنية كما يفهمها أنصارها العاديون فى الحياة ، ولو أن جبران ولد فى أية بقعة من الارض لما كان يرى وطنه إلا تحت ظلال الأرز حيث يجثم تاريخ الأمجاد القديمة وتطوي روح الالهام جناحيها الداميين لتنشرهما على الدنيا في آتى الزمان .

إن تلك الذكريات النائمة هنالك ، وتلك الامانى الماثلة للانبعاث فوق تلك الجبال وفى تلك الاغوار البعيدة القرار هى موطن كل مفكر متجرّد يفهم حقيقة الحياة فى مراحلها الظاهرة والخفية .

أفلا تذكرين ، يامّي ، وقفاتك فوق تلك الارض المملوءة بالأسرار تحت تلك السماء الشفافة المترامية على رؤوس الجبال كأنها انعطاف ما لا يرى على ما يرى واحتضان الثابت الدائم المتقلب الزائل ؟ وهلاّ تعجبين كما أعجب من أن يكون منا من يقدر على كسر عزّته وإذلال ضميره بعد ان علّمه شروق الشمس الذهبي على قمم لبنان وعلّمه غروبها الدامى على آفاق بحره ما هى الحياة وما هو الموت؟ .

لقد كان جبران يحب لبنان ، كما تحبينه أنت يامّى ، لان الأنفس الحساسة تهتك فى هيكل جماله أستار المادة فتعرف ان الانسانية اخاء وتعاين وجه الله . .

أتريدين ان تعرفى كيف كان يتشوق جبران الي لبنان ؟ إذاً فاقرئى كلماته التى نشرها فى جريدة السائح بعد إن سمع اول خطاب الفيته فى نيويورك سنة ١٩٢٢ قال «لقد كان لخطاب فليكس فارس وللتماثيل التى صنعها جان الدبس وللصور المتحركة التى شاهدتها يوم الاحد تأثير عميق ثابت فى نفسي ، اما الخطاب فلأنه أبان لي شاعراً ذهبي القلب يرى لباب الحياة دون قشورها ويحب أمته حتى العبادة ولا يمزج حبه بمعصور سياسة الاحزاب أو بمسحوق المنازع الذاتية ، وأما التماثيل

فلأنها عواطف فتى حساس رأى النكبة شبحاً هائلا فاستوقفه ورسم معالمه ثم أقامه نصباً بين الجلجلة واورشليم الجديدة ، وأما الصو المتحركة فلأنها أبانت لي وطني وابناء وطني فى حالات البؤس والامل وأعادتنى الى تلك الجبال والاودية التى مافكرت مرة فيها الا شعرت بشعلة فى قلبي وبأكليل الزنابق فى يدي ، هذه يثيرها الحنين وذلك يضفره الرجاء »

إن جبران ، يامى ، قد تراءت له اورشليم الجديدة بين ماحبكت نبرات صوتى من رسوم الامال فى الاثير . . كنت مؤمناً بالمستقبل فجعلت الالوف يؤمنون به لاننى كنت أعتقد

إسترح في قبرك قليلا ، يا جبران ، على ضفاف الهدسن ، ودع روح هذه المدنية الآلية الخشنة تتشرب من حول قبرك ما تدفعه بقاياك من إلهام الشرق الذي ستتجه اليه الانسانية كلها فى حضارتها المستقبلة

كما انتهت روحك الى مصدرها ، هكذا سيعود ترابك الى ترابه . . . لقد قلت أنك تريد أن تذهب الى لبنان وتبقى ذاهباً . . فسيكون لك ما تريد . .

ستدخل أرض اباَئك وأجدادك ، ستعود الى مسرح خيالك السامي ، وقد انسدلت أجفانك على أحداق كانت تريك لبنان على ماسيكون عند ما تتغلغل مبادئك في نفوس كل ابنائه ، وخير لهذه الاحداق الاّ تكون مفتوحة اليوم ، خير لك أن تأتي الى لبنان اليوم ميتاً من أن تأتيه حياً فينكسر خيالك فيه . .

لترقد عظامك تحت ظلال الأرز ، وليقف تمثالك مشرفاً على وادي قاديشيا المقدّس فترتفع الصخرة اللبنانية التي ستمثل جبينك عالية هازئة بصدمات العواصف والسيول الى أن تثمر البذور الحية التى ألقيتها الى شعبك والى كل الشعوب .

فى ذلك الحين عندما يعود اللبنانيون المشرّدون فى أقطار المعمور من سبيهم سيأتي الابناء والأحفاد بشعورهم البيضاء : أمة حية متحدة تضع إكليل الغار على مثال الجبين الخالد الذي كلّلته الدنيا بالاشواك فى حياته .

—:o:—

هاتف الخلود

جبران خليل جبران

يوم وصول رفاته الى لبنان فى ٢١ آب اغسطس ١٩٣١

لمن الألوفُ تموج فى لبنانِ ... وتروذ لفحةَ ثغره الحرَّانِ
وتسير حاملةَ البنودِ تمايلت ... فيها أهلّتها الى الصلبانِ
فترى بها الرمزين رمزاً واحداً ... وهما بقلب القوم مفترقانِ
لمن الجموعُ تهبّ فى قلب الدجى ... وتجوس أجفان الضحى الوسنانِ
يتشا كل الاضدادُ فيها فالنهى ... والجهل كالصنوين يزدحمانِ
فهناك مظلومٌ بجانب ظالماً ... وهناك أسيادٌ إلى عُبدانِ
وهناك أنصارُ التقاليد التى ... ضربت على الامصار كلّ هوانِ
وهناك أجنادُ الحقيقة أنجم ... شردت بليلٍ مدلهم جانِ

...

فارقتُ يا لبنانُ أرضك ثائراً ... لما عصيتُ بك الشقا وعصاني
أوحيتَ لي سرّ الحياة ومجدها ... وعرضتَ أروع بؤسها لعياني
فملأتُ من أشباح ذلك مقلتى ... وملأتُ من باهى سناك جناني
ولكم وقفتُ بظلّ أرزك اجتلي ... سرّ الخلود بكل ظلّ فانِ
ولكم طوَت روحي جناحيها على ... قمم الربى ومغاور القيعانِ
وتنصتَت لمواكبٍ تمضي بها ... فوق المكان وفوق كل زمان

تمشي فتنكر كلّ ما يبدو لها ‏ ‏ ‏ في موطن الاجداد من حدثانِ
ولقد مشيتَ مع المواكب مصغياً ‏ ‏ ‏ لأنين شعب عاثر حيرانِ
ساد الهوان قويّه وضعيفه ‏ ‏ ‏ وأضلّ بالاحكام والايمانِ
ولعلّ أشقى الناس من مستَعبد ‏ ‏ ‏ فيه رجالُ الحكم والأديانِ

* * *

لبنانُ مدرستي وصوت سكونه ‏ ‏ ‏ استاذُ تفكيري ورب بياني
خُنقت به زفراته فأعرته ‏ ‏ ‏ صدري وُجدت لنوحه بلساني
فلئن تنصتت الشعوب لآية ‏ ‏ ‏ نطقت بها الاقلام تحت بناني
وتلفتت لرسوم أشباح مشى ‏ ‏ ‏ فيها البيان بريشة الفنّان
فلرهبة المجد القديم بموطن ‏ ‏ ‏ طمست مفاخره بكل هوانِ
ولروعة قدسية نزلت من الـ ‏ ‏ ‏ توراة والانجيل والقرآن
أعليتها قبساً توهّج هادياً ‏ ‏ ‏ للمشركين بوحدة الانسانِ

* * *

دمعُ الضعيف مداد أقلامى وما ‏ ‏ ‏ سفك العتاةُ من الدما ألوانى
كتبي وألواحي رواياتُ الورى ‏ ‏ ‏ وقعت بأشقى مسرح الاكوانِ
أنا ثائر الشرق القويّ بأدمعي ‏ ‏ ‏ المستبد بلهفتي وحنانى
نوري الضئيل يجوس طيات الدجى ‏ ‏ ‏ لمعاتِ أحداق الظليم العانى
فضّاحَ أهل الغيّ ظلاّم الورى ‏ ‏ ‏ الثاملينَ بسلطة ودنانِ
صوتى أنين المطرقات بذلة ‏ ‏ ‏ الباكياتِ بدمع هتّانِ
أنا كاسر القيدين جبار الشقا ‏ ‏ ‏ عند اشتداد النقمتين تراني

* * *

أشربتُ روحى من مفاخر أمتى وشقاءها فأعلّني الضدّان
وفزعتُ للحق المبين أرى به حريةَ السليط والمتوانى
قضيت عمري لا الشقاء أذلّني فيه ولا حبّ العلى أغرانى
ومررت فى ذا الحلم أعرف انه حلم حقيقته بدورٍ ثانِ
هذى البرايا أحرف منثورة إن أهملت بقيت بدون معانِ
حتى إذا ساد النظام ونضدت ظهر الخلود على الجماد الفاني
عبثاً نفتش عن حقيقة نفسنا فى ما انطوى فى الهيكل الانساني
فالقلب فى خفقانه سر البقا والمرء يجهل علةَ الخفقانِ
هذي القلوب هى الحروف تشرّدت ترتاد أفق منىً وبحر أماني
كلٌّ يرى اللذات فى ألم السوى فيعاقب المجموع بالحرمان
إن السما فى الارض فى أمم ترى ألم الضعيف تألّم العمران
إن السما فى الارض في روحين فى قلبين بالاخلاص يختلجانِ
حرفان إن وُصلا تجلت فيهما والله فى هذا البقا حرفان
حبٌّ، هو اللفظ الذى هجئته ببقية الأنفاس في بحرانى
أتممت ما كتب القضاء عليّ في هذا البقا وطويت فى أكفانى
وبقيتُ أنتهج السراط موجهاً للقطب نوراً غار في أجفاني

. . .

هـذا ترابي أرجعوه لتربة الـ جبل الأشم الى رُبي لبنانِ
أتبعته فكري وقد وسع الفضا فانا من الدنيا القصيّ الدانى
لمن الجموعُ وفى طلائعها الأولى أدماهمُ فى مرقي برهاني
ما كنت أحسب أن جثمانى يُرى شبحاً لغير الحق في وجدانى

أتراهمُ ، وأنا بعينهم الذي انتهج الضلالَ تخيروا بهتاني
أم أنهم سدلوا عليّ تساهلاً ضنوا به قبلي على أقراني
هبني أميرَ الناشزين فأنني لأحقُ بالنقات من فرساني
ماذا يرى جبرانُ فى تكريمهم ما أبقت الالامُ من جبرانِ
وأنا أهان بكل فذٍ نابه ضربوا عليه الذلّ من اخوانى

• • •

طلبوا لي الغفرانَ من رب السما متزلفين اليه من إحسانى
يستغفرون عن الجهاد بدرهم ما كان يوماً مبلغاً لجنانِ
وأنا جهادي والحياة صرفتها فيه أعوذ به الى الرحمن
قالت دهاقنةُ الزمان بأنني جبت الذرى بمدارج العرفان
فاذا بنعشي وهو يطلب أرزه ليقرّ تحت ظلاله بأمانِ
مستسلماً بأسم البلاد لمقدر ألقى على صدري الوسام ... الثانى...

• • •

فى ذمّــة الرحمان أعمالي فما لسواه وضع الروح في الميزان
وبذمّةِ الأجيال لا في ذمّة الـ أفراد ما أبقيت للأزمانِ

• • •

« جبرانُ هذي صرخة علويةٌ أرسلتَها من عالم الفيضانِ »
« نزلت على قلبي الكسير وقد رنا متلفتاً يبكى على الأوطانِ »
« فتنظمت بدمى وصوتك هاتفاً عقدين ، عقد دمٍ وعقد جمانِ »

فلبكس فارس

الهام شوقي

ألقى حضرة الخطيب الكبير الأستاذ فليكس فارس من ندي (راديو) فريد في الاسكندرية بلسان المغفور له أمير الشعراء القصيدة الآتية بعد مقدمة وجيزة وأهداها الى الاستاذ انطون الجميل بك بمناسبة رسالته عن شوقى
(الاهرام) ٢٣ يناير سنة ١٩٣٣ .

• • •

قال

« ما هو صوت من عالم الغيب هـذا الهتاف الذي تحمله اليكم الا ن تموّجات الأثير . ان القسم المادي من صوت أمير الشعراء قد طواه الزمان ببلاء الصورة التي كان متجلياً فيها ولكن القسم الروحي من هذا الصوت أو الهاتف الخفي العالق بأهداب فكره فانه لم يزل خالداً يسمعه المتنصتون الى الاجواء الخفية فى عالم ما وراء القبور . »

« إن القصيدة التي ستسمعونها الآن هى رسالة فكرية أنزلتها روح أمير الشعراء على جنديّ من فيلقه الكبير المنتشر فى كل بلاد تنطق بلغة إلهامه وتتغنى بأناشيده وما كان لهـذا الجندي أن يقف موقف أميره ويرفع بيده لحظة ذلك العلم المعقود عليه والمنكس مبللا بدموع مبايعيه على قبره ، لو لم يكن فى ساعة استلهامه رأى القلم مسيّراً فى كفه يخط الرثاء بلسان من أراد أن يرثيه . »

« وما كان للشاعر أن يقاوم ما قدّره العالم الخفى على قلمه فتركه يجري متنصتاً فى صريره الى همسات كأنها أناشيد أطيار الجنان . »

« وكانت ساعة حلم ذهبي سمع فيها جندي الأمير صوت أميره وهو بما نظم تحت استهوائه يصور لكم مشاهد حلمه ، وأي بيان يمكنه أن يتحكم في عالم الرؤى فيورد رسومه بيّنة جلية للناس ؟

ليصغ جنود شوقي الى نشيد من أناشيده الآن كما تعودوا الاصغاء من النّدى الى أروع الأصوات تقطّع صفاءها طفيليات الأجواء المعتكرة ، إنما صفا وراق في ما ستسمعون إنما هو من همس الالهام الأعلى وما كدر وتشوّش فيها انما هو طفيليات قصور الشاعر وعجزه في أجواء نفسه

إلهام شوقي

ما توارى غيرُ الضنى من وجودي — حين أدرجت في ظلام اللحودِ
أنا حيٌّ بما كسبتُ من الدنـــ — يا نزوعاً لعالم التجريدِ
أشربت روحي الخلودَ فأفنا — ها التسامي في ذاتِ هذا الخلودِ
كان عيشي في كل يوم مماتاً — وانطلاقاً في أفقِ نفسي البعيدِ
فتجلّت ليَ القلوبُ كأسرا — بِ طيورٍ في غورها والنجودِ
تتسامى للنورِ فوقَ الروابي — تترامى الى المهاوي السودِ
فخفوقٌ يشدّها بقيود — وخفوقٌ يحلّها من قيودِ
وسمعتُ الحياةَ منها أناشيـ — دَ تعالت بالنوح والتغريـــدِ
فحنينٌ الى أمانٍ كذاب — وأنينٌ من كاذباتِ الوعودِ
كلّها تنتهي بزفرةِ نزعٍ — كقرار لشهقةِ المولودِ

• • •

فتحَ اللهُ المناجاةِ نفسي ... فأطلت على الخفيّ العتيدِ
وغدت (كالنديّ) يهزجُ فيه ... ما وراءَ الأثيرِ من ترديدِ
تلك اجواؤنا الخفيّة ملأى ... بدويّ يهزها كالوئيدِ
إنما القابلُ المحوّلُ للاصـ ... ـداءِ منها قلب المشوقِ المريدِ
فجنوحٌ الى مذيعٍ ضاولٍ ... أو بلوغٌ الى مذيعٍ رشيدِ
ذاك سرّ الالهام صبوةُ قلب ... واتصالٌ بمبداءِ التوحيدِ

...

أيها الطائفونَ ما حولَ قبرى ... ترسلون القصيدَ تلو القصيدِ
وتناجونَ في الترابِ رمادى ... وبقايا يراعتي وبنودى
أنا مصغٍ لصوتكم يتعالى ... أنا مصغٍ فيكم لهمسِ الكبودِ
أنا ما زلتُ حيث أنتم وأنتم ... لستم بعدُ حيث لاحَ وجودى
كنتُ فيكم كما أردتم أميراً ... ورضيتم بأن تكونوا جنودى
ما توانيتُ فى جهاديَ حتى ... عثرت أخمصى بأرضِ جهودى
فانهياري الموت كل عثارى ... عثرةُ الموتِ نصرةُ الصنديدِ
ما انتهت بيعتى بموتى فكنى ... لم تزل فى لوائي المعقودِ

...

أيها الفايقُ المسيرُ فى الشر ... ق لأحياء مجده المنشودِ
أرسل الدمعَ فوقَ قبرى عقداً ... ينظمُ العربَ نظم عقد نضيدِ
إن دمعَ الشتيت فى الارض ذلٌ ... ودموعُ اللفيف دمعُ الأسودِ
زفرة الشعر صرخةُ الشعب يعلو ... فى أهازيجه هتافُ الجدودِ
يا لجندى وفّيتُ قسط جهادى ... يشهدُ اللهُ وهو خيرُ شهيدِ

إنني ما ونيتُ يوماً لضعفٍ　　أو تلمستُ لهوةً للقعودِ
حسبيَ الله ما طرقتُ بكفيَّ　　غيرَ بابِ الحقيقة الموصودِ
فلئن سخرَ القضاءُ لشعري　　وبياني عطفَ الملوك الصيدِ
ودعيتُ العميدَ للشعر أبني　　ما تداعى من ركنه المهدودِ
إنما كان ذا المقدرُ إحيـ　　أً لشعب لا عزةً لعميدِ
ما تباهيتُ بل تهيبتُ تاجاً　　صيغَ فى الشرق من دمٍ وحديدِ
إن تلاشت قوايَ فى المرتقي الـ　　صعب تسامى وجدٌّ بي للصعودِ
حافزاً للسماكِ شوقى فأقضي　　ما تبقّى من عمري المحدودِ
ملهباً بالأسى بقيةَ أنفا　　سٍ تلاشى فى صدري المفؤودِ
صولجاني ما صانه اسمُ أميرِ الـ　　شعر بل صنتهُ بحفظ عهودى
صنتهُ بالقديم من حلل الأعـ　　راب وشياً لحلة التجديدِ
صنتهُ حرمـــةً لماضٍ مجيـــدٍ　　واهتداءً لفجرِ آتٍ مجيـــدِ

• • •

أيُّ شيء أنالنى ذلك الشعـ　　رُ وما نيلَ دون ذا المجهودِ
قل لمن يحسب القرائح رهنَ الـ　　دهر من راحةٍ ومن تنكيدِ
قد جهلتَ الفيضَ المجرد في الرو　　ح تعالى عن سيدٍ ومسودِ
نقدةُ العيش كلُ شيء فضولٌ　　بعدها للمجنَّحِ الغرِّيدِ
قل لمن دارَ حول قصرى وشعرى　　من جهول ومفترٍ وحسودِ
أى وصلٍ ما بينَ ذاكَ وهذا　　بينَ خلدٍ وبينَ وهمٍ مشيدِ
يعصر الشاعر الحقيقةَ راحاً　　من جنى حنظلٍ ومن عنقودِ
ويسيلُ العطورَ من قاتم السر　　وِ كما يستشفها من ورودِ

لم يكُ الشعر مسعداً لشقي ولكم كان مشقياً لسعيدِ
ليس تسكابُ مهجةٍ في قوافٍ حرفةً للمفكر المعمودِ
إن من يبذلُ الحياةَ على الشعـ ـر ويضنى العيونَ بالتسهيدِ
ويعاني بنفسه ما تعانى أممٌ روّعت بكل وعيدِ
وبعينيه أدمعُ الشيخِ فيها جاريات على دموع المهودِ
وبجنبيه ما بها من جراحٍ ودماها في قلبه والوريدِ
أحقرُ الزائلاتِ في ناظريه تيهُ قصرٍ ورافلات برودِ

...

قلمي إن رويته من رشاش المجـ ـدِ يروي عن طارف وتليدِ
فلكم سالَ من دموع ظليم ولكم سال من دماءِ شهيدِ
دنتُ بالحب للبرايا جميعاً ذاك دينُ المهيمنِ المعبودِ
كلُ شِرك بالناس شركٌ برب الـ ـناسِ فالله رب كل العبيدِ
يتساوى الجميعُ في غمرات الـ ـموتِ فالموت مطلعُ الموجودِ
مغرسُ الروح هذه الارضُ تنـ ـبتُ فيها جناحها للصعودِ
أطلقَ الله في الحياة جناحي فبلغتُ الخلود قبلَ خلودى
كلُ حيّ يضل فيها فقيد ليس من يبلغُ الهدى بفقيدِ

...

نصفَ قرنٍ مشيت في رحل هذا الـ ـشرقِ أهفو الى سراب البيدِ
وعيونى تغور في الأفق الو هّاج منبثةً على مفقودِ
يرجف النورُ في اختلاج مآ قٍ طريداً يسعي وراءَ طريدِ
ما تحولتُ عن مرامى الامانى باتباعي تحول المرصودِ

حيث لاحَ الهدى دفعتُ بياني قائداً للقلوب غير مقود
تحت شمس السلام بين مروج ناضرات ونامياتٍ حصيد
في ظلال السيوفِ تحتَ مثار النـ قع بين اللظى وبين الرعود
في ركابِ الأمير أو عند كهف الـ منزوي في تسهد وسجود
لم أكن راصداً لغير المبادي في نحوس تلوحُ أو في سعودِ
ماهم الحق فوق كل اغترارٍ بحظوظ وعاثرات جدود
طال سيري فطال عمري حتى استنفدَ الفكر في الحنايا وقودي
ربّ عام مضى بخطرة فكر في مجالِ التصويب والتصعيدِ
وقضى الله أن يقر قراري عند تخم للشرق سام وطيد
عندَ عرشِ (الفؤاد) باعث أمجا دِ عصور في أفق عصر جديد
عندَ عرش يلوح (فاروق) فيه كافلَ المجد للزمان المديدِ
أمم الشرقِ شاخصات اليه هاتفات بخالداتِ نشيدى

...

هذه واحةُ الرؤى ولكم حنّ اليـ ها قلبُ الشجى الموعودِ
كان عهدى عهدَ التشوق حتى جاء عصر (الفؤاد) بالتشييد

...

هدأت رجفة المآقى وقد حا نَ رقادى بعد انتباهِ الرقود
بسط الموتُ ظله فترامى جنحُ روحى لجنحه الممدود
وتواريتُ داعياً لمليكى وبلادى بالنصرِ والتأييد

جان دبس

وأثره الخالد — تماثيل هيا كل بعلبك

بعد تماثيل مجاعة لبنان

جان دبس الفنّان العبقري ، صانع تماثيل المجاعة التي لوت لبنان ايام روع الحرب العظمى تحت اعصارهـا ، وصانع مثال هيا كل بعلبك مصغراً مستعيداً فيه لها شكلها القديم الرائع قبل ان دمرها الازمان ، جمعتني واياه روابط عطف متبادل نشأ مما تخيل في بياني من شعور وما رأيت من عظمة نفسه ورقة عواطفه فى ما تبدع أنامله، وقد كانت تلك الانامل مهبط الهام يقصر بيان الخطيب وقلم الكاتب عن استنزاله كما أنزله جلياً باهراً للناس .

مات رفيقي جان دبس فى باريس في صيف سنة ١٩٣١ فجأة حين كانت تحفته التي بعثت هيا كل بعلبك تعرض فى باريس وتصدو فى أذنيـه اصوات الثناء على جهوده والاعجاب بعبقريته .

وقـد قدمت أرملته الفاضلة السيدة مايبل دبس قبلان الى الاسكندرية لتعرض فيهـا أثر زوجها الخالد ففتتح المعرض فى ٢٢ ابريل (نيسان) تحت رعاية حضرة صاحب السعادة حسين صبري باشا محافظ المدينة وبحضور حضرة صاحب السمو الامـير عمر طـوسون وحضرة صاحب العـزة احمـد بك صديق المـدير العام للبلدية ، فى مقدمة عدد غفير من رجال الفضل من أجانب ووطنيين ،فألقيت

بالافرنسية كلمات عن التحفة وعن مبدعها وقد رأيت ان أضم تعريبها الى هذه الرسالة لأن موضوعها يندمج فى ما تناولت من ابحاث فيها تتجه الى احياء مافي ابناء البلاد العربية من حوافز مجيدة وعبقريات سامية ، وقد كان جان دبس من خيرة ابناء البلاد الذين تجلت فيهم هذه القوى الكامنة فى الشعوب العربية فتبدو طلائعهم كالأزهار التى تنور زهرة فزهرة بعد الشتاء مبشرة بحلول الربيع

...

هياكل بعلبك

هاهي بكل روعتها التحفة الفنية التي انتزعت أشد الاعجاب انتزاعاً من أساتذة الفن وأرباب القلم

ان هياكل « بعل » الضخمة الهائلة التي مرت أمامها الأجيال المتوالية مدى أربعين قرناً خاشعة حائرة تحت أعمدتها وأروقتها المتعالية فى الفضاء كتعاليها عن الادراك تنطوي أمامكم الآن فى هذا المثال المصغر الذي بعث أعجب عظائم التاريخ فكان هو أيضاً مثلها موضوعاً للاعجاب والخشوع

ان رؤساء الحكومات والشعراء والعلماء والمهندسين والأثريين قد مروا خاشعين بهذا المثال الصغير الذي يلوح العوبة اطفال للجاهلين ولا يفهمه ويعجب به الا رجال العلم وابناء الشعور .

لن أجيز لنفسى ان أخوض فى مباحث علم الاثار لأكرر لديكم أقوال المهندسين والمؤرخين المتناقضة عن زمن تشييد هذه الهياكل حيث انطبعت آثار كل الشعوب القديمة . فان كل محاولة فى هذا السبيل تتجه الى استقراء هذه الازمان لابد لها ان تصطدم ككل محاولة سابقة بذلك السر الدفين الذي ينقلب امامه كل حكم افتراضاً وكل رأي توهماً واغتراراً .

ما أنا بالطامع فى هتك أستار الزمان لاتيكم بما يستوقفكم عند هذه التحفة الفنية الماثلة أمامكم وهى تبعث معابد الشمس كما كانت عليه ايام غزوات اليونان والرومان . فاكتفي بأن الفتكم الى ثلاثة أحجار هائلة مرتكزة فوق قاعدة بناء هيكل (جو بيتير) وطول كل منها ٢٠ متراً باربعة فأربعة عرضاً وعلواً ويبلغ حجمها ٣٥٧ متراً مكعباً . فاذا ما كسرت احدى هذه القطع وأريد نقلها فانها تملأ ثمانين عجلة من عجلات السكة الحديدية، وهنالك قطعة من الصخر أضخم من هذه معروفة باسم (حجر القبلة) طولها ٢١ متراً و٣٦ سنيتمتراً بأربعة أمتار و٣٦ س عرضاً وأربعة امتار و٣٣ س. علواً . ويقدر ثقل هذه القطعة بمليون كيلوغرام

ان مثل هذه الضخامة تفوق كل افتراض يتجه الى تعيين كيفية نقلها وتحريكها ورفعها للبناء . وقد خيل للبعض ان العمالقة الذين تحجبهم ظلمات التاريخ قاموا ببناء الهيكل بواسطة الردم على طريقة السطح المائل غير ان هذا الافتراض يدحضه ما شوهد من ربائط البرونز الضخمة التى شد بها البناء فهنالك فتحات تغلغلت الربائط فيها بصورة لاتدع مجالا للريب في أن هذه القطع الهائلة قد رفعت عاموديا على الجدران

ذلك سر عجز الفكر عن كشفه فلن يدعي الانسان فى القرن العشرين انه هاتك الاستار وهو عاجز حتى عن ادراك اعمال مادية قام بها من تقدموه فى مراحل هذه الحياة.

بعد هذه المقدمة الوجيزة عن ضخامة البناء وهى مما يستحيل تمثيله بغير الأرقام أيجدر بى ان أوجه البيان الى وصف ما فى هذه الهيا كل من آيات الفن وروائع الصناعة وما فى تفاصيلها ومجموعها من دقة وا نتظام؟

لقد كان يسهل علىّ أن أقتبس من فولناي ولامارتين وفولبير وبارّس أبلغ

تعابيرهم وان أورد اجمل اشعار فوزى المعلوف وخليل مطران لأصف لكم ما يتناوله البيان من هذه الاثار الساحقة ولكننى أرى كل الصفحات التي كتبها أساتذة الأدب عن جمال هياكل بعلبك وبديع نظامها وروعة مشاهدها تمر باهتة صفراء أمام هذه الصفحة المجسمة التي رسمتها أنامل مثال ملهم كتب أسفارها قاعدة فقاعدة، وأعمدة تتلوها أعمدة وأروقة تتبعها أروقة باذلا عليها نور آماقه اياماً وليالي، لا ليرفع التماثيل للاثار المتهدمة حيث مرت قوافل التاريخ فحسب بل ليبعث أيضاً الى عالم الحس من عالم الرؤى ما لم يحلم به ولم يطمع بتصويره أي شاعر أو أي كاتب

وقد نشرت جريدة الالوستراسيون المشهورة ما يأتي في عددها بتاريخ ٦ يناير سنة ١٩٣١ « بعد سنتين مرتا بجهود الصابرين وبالدروس المرهقة والابحاث العلمية الدقيقة والتأملات الطويلة فى الهياكل ومواقعها وتنظيمها، رفع جان دبس مثاله الذي بعث من العدم مجموعة الهياكل الرائعة بكل أوضاعها الخارجية والداخلية فأبدعها بكل حقيقتها وكل جمالها ان ما قام المسيو دبس بصنعه انما هو انموذج تكامل فيه أسلوب الفن المعماري اليوناني الروماني وله قيمته العظمى في عالم الاثار والبناء»

اطرحوا بخيالكم، أيها السادة، على هذا المثال المصغر بدقته وجماله، الجسامة التي عينتها الأرقام، ينتصب أمامكم مجموع الهياكل الهائلة كما كانت قبل ان اصبحت اثاراً عافيه لخيال توارى وراء حجب الدهور

والآن، اسمحوا لي، أيها السادة، ان أخاطبكم عن الفنان بعد ان تكلمت عن تحفته أستميحكم القاء كلمة عن هذا الرجل الذي صيرته مصائب أوطانه مثالا شاعراً، ورفعته تذكارات أمجادها الى مصاف المهندسين الخالدين

فى سنة ١٩٢١، ما كنت اجتمعت بعد بصديقي جان دبس وقد كانت بدأت

شهرته بين مواطنيه بتماثيل صنعها وهو لم يتعلم شيئاً من فن النحت ، ان فن جان دبس نشأ فيه من وقوفه بكل رقة شعوره فى العاصفة الهوجاء التى اكتسحت بلاده أيام الحرب العظمى إذ رأى المجاعة الهائلة تطرح بضحاياها على الطرق هياكل عظام تجر اشلاءها جراً على ارض لبنان وقد أصبح بأسره مقبرة كبرى لأحيائه وامواته

فى ذلك الزمن قبض الروع والاشفاق على قلب ابن لبنان البار الحساس جان دبس فشت أنامله فى الصلصال تطبع عليه أشباح الشهداء

واني لاستمحيكم وصف هذه التحفة الاولى التى صنعها جان دبس بما كتبته سنة ١٩٢١ فى بيروت عند مشاهدتي هذه التماثيل في معرض أقيم فى تلك المدينة فى ذلك الزمان

(فى القاعة البيروتية فى المعرض رسوم شمسية طبعت مشاهد المجاعة الهائلة التى اجتاحت البلاد ، فهنالك ما يقارب الخمسين رسماً اختطفتها العدسة في ظلمات الروع تستعيد للتذكار المشاهد التي أزهقت النفوس طوال اربع سنوات ومحتها تقلبات الايام

لقد كانت عدسة التصوير أنفذ من عيون الشاهدين المروعين وكانت الصفحات الزجاجية أقوى على الذكرى ممن كتبت لهم الحياة بعد ان دارت بهم الاهوال فاحتفظت برسوم هياكل العظام الساحبة الاطمار زاحفة تطلب من الارض قبراً بعد ان عجزت الارض عن امدادها بالقوت . .

ان مواطننا جان دبس الذي أخذ هذه الرسوم قد أقدم بفنه بل أقدم بجرأته وقد هزته روح الآلام والاشفاق على نحت سبعة تماثيل من هذه المشاهد عرضت فى القاعة فرأيت الناس يقفون حاسرين خاشعين أمامها وعلى شفاههم رجفة صفراء وفي أماقيهم دموع

فهناك متسولون ينازعون الكلاب فى الازقة ما طرح عليها من أقذار

وهناك أم جثمت فوق جسد ابنها البارد وقد خانتها القوى فلا تقدر على جره الى حفرة تواريه فيها

وهناك أم منكبة على الارض تحفر بأظافرها مكاناً لتواري فيه جثة ولدها الممددة عظاماً قربها

انه لمشهد هائل هذا المشهد تتقابل فيه أمان، المرأة التى انتزعت الحياة بالحب من العالم الخفى، والارض المستعيدة ابنها ساكنة هادئة من يد ضرتها المقهورة الباكية

وهناك أيضاً يتيمان مات أحدهما جوعاً ووقف الآخر أمامه يتفرس بالموت على وجه أخيه متحفزاً للانطباع على وجهه.

وهناك أم استحالت الى هيكل من عظام يدب على ركبتيها طفلان يتلمسان الحياة من ثديين لا حياة فيهما بعد.

وهنالك أيضاً أم وطفلتها تسيران حاملتين حزمتي حطب لا يتجاوز حجمهما ما أمكن وجوده وما يمكن لهيكلي عظام ان يحملا، متجهتان نحو المدينة لبيع حمليهما وللجهاد الى آخر رمق فى سبيل الحياة. وقعت الأم وقد خانتها القوى وخانتها الحياة نفسها فهي جثة تشدها الطفلة بأطمارها لتقيلها من موت حسبته الطفلة في جهلها عثرة تقال

ذلك مشهد من أروع مشاهد هذه المحنة بل ذلك الدليل على ما يكمن فى هذه السلالة اللبنانية من همة لاتني عن العمل والمجالدة حتى تجود بآخر الأنفاس

لا، ان ماتحمّله الشعب اللبناني من فقر وشقاء لم ينزل به من تواكل أوخمول ان الشعب الذي عرف ان ينشيء الحدائق على أعالى الجبال فوق الصخور الشعب الذى قدر ان يحمل على اكتافه التراب ليمده على الصخور ارضاً تغذي أطفاله ويوارى

فيها أمواته ، الشعب الذى نثره الشقاء وليد المظالم في أربعة أقطار العالم ، إنما هو شعب كبير فى محنته وآلامه

سلام على آخر جهودك وانت تجودين بأنفاسك ، ايتها اللبنانية المتهدّمة تحت وقرها ، سلام يا ابنة السلالة الشرقية التى تواجه الموت وهى رافعة أثقالها .

وهناك تمثال أخير يريك متطوعاً لبنانياً عاد الى وطنه بعد ان ألقت الحرب أوزارها فقاده كاهن قريته الى البقعة التى انتثرت عليها عظام أهله الشهداء .

يصعب على البيان بل يمتنع عليه أن يأتي بما تشعر به النفس أمام هذا المشهد فانك لترى في الخرقين المنفرجين فى الصلصال عن عينىّ الكاهن الشيخ عالماً من الأشباح المتحجرة بالآلام .

ولو أن ميتاً يُبعث بين الاحياء لما شهدت فى أغوار أحداقه نظرة أروع من هذه النظرة الهادئة المستقرّة .

هنالك أعظمُ تملأ الرحب بينها جماجم كأنّ محاجرها تحدج من أعماقها المظلمة هذا الفتى اللبنانى الجميل العائد بعد فوات الحين الى من توقّعوا قدومه طوال السنين وهم معلّقون أبصارهم المحمومة المروّعة على آفاق البحر البعيد.

* * *

وما كان جان دبس يعرف من النحت الا ما اوحاه اليه استغراقه فى المطالعة والتفكير ، فاعلنته هذه التماثيل نحّاتا لا يقف فنه عند حدود القواعد والاصول بل عبقريا ينزل في الصلصال الجامد روعة الفكر وقوة الحياة .

أطاعت انامله نبضات قلبه الدامى فاذا هى ملهمة تسير فترسم فى تاريخ أوطانه أبلغ صفحاته .

فى ذلك الزمن التقينا أنا وجان دبس لنسير فى رحلتنا الى بلاد المهاجر ، هو

بتماثيله وانا بعقيدتى واختبارى لنحاول إعادة اخواننا الى اوطانهم آملين ان نقوم بقسط ولو يسير من الجهود المبذولة لاحيائها .

بلغنا نيويورك في اواخر سنة ١٩٢١ وكانت المفاسد التى لاتنى تقطع السبيل على كل مقصد جليل قد سبقتنا اليها فاعتقلتنا ادارة المهاجرة ستة عشر يوما في جزيرة (الليس) وعندما أفرج عنا سُلّمت الينا الاربعة عشر تمثالا محطمة في صناديقها .

ليس هنا مقـــام سرد ما لقيناه سوية من محن . ما كانت هذه الالام إلا الحجر الصاب شحذت عليه فى نفس جان الهمّة لمتابعة حلمه فى الاحياء والبعث والتجديد فذهب مفتّشاً عن عناصرها فى الامجاد العافية على ارض أوطانه . فاذا ما كانت الدموع التى ذرفها جان ايام محن الحرب العظمى قداوجدت فيه المثّال الشاعر اولا ، فان ما شدّ به الى الفن ثانياً قد كان ظمأ الى النهوض وطموح متغلغل فى الفطرة الموروثة الى الاحياء والتجديد وبهذه العواطف التي تملكّت الفنان تملك العقيدة المؤمنين ظهر جان دبس فى هندسته خارقا حجب الغيب فأبدع هذه التحفة التى استحق من اجلها بكل جدارة إعجاب امراء الفن فى العالم .



الكاظمـــــى

شاعر العرب

القيت فى الحفلة الكبرى التى اقامتها لذكر الرابطة العربية
في دار الأوبرا الملكية في ١٠ ابريل سنة ١٩٣٦ .

أشيدوا بذكر الكاظميّ وعددوا ... وسيروا على آثاره لتجــــددوا
فكم بيننا في شرقنا من مغرّبٍ ... بدا يدّعي التجديد وهو مقلدُ
يصدّع اجواء النفوس بقـابل ... لكل مُذيع معجم يترصـدُ
ومايهتدى الأقوام من رجعة الصدى ... إذا لم تكن من روحهم تترددُ
فان لم تكن كالكاظميّ وصحبه ... يناشدك المجدُ القــديم فتنشدُ
ويلهمك الشرق المشيح بقلبـه ... الى الملاء الأعلى يُنار ويُرشـدُ
فلا تدّعِ الاعراب عن روح أمة ... بلاها فما أخفى عليهــا التبددُ
غرائزها الوسنى تحفُّ بها رؤى ... منائرهـا فى الطور والبيت توقدُ
وما مات من فى حلمه وجه ربّه ... وإن لاح فى الأطلال يغفو ويرقدُ
أما كان حول الطور شعبٌ مبددُ ... وفى البيد أقــوام تُذلّ وأعبدُ
فحررهم ، حــتى تحررت الدنى ... بأنوارهم ، موسى وعيسى وأحمدُ

* * *

منائرَ هذا الشرق ذرّوا شعاعكم ... فقد طال ليلُ بالجهــالة أربدُ
بعثتم من الشرق القديم بيانه ... وأحييتمُ أمساً فكان لنا غدُ
شهدتم بأن الشرق أدرك نفسه ... وأن ليس فيه مشركُ وموحّدُ
وأن إله الانبياء جميعهـــم ... هو الحق روح الكون لا يتعددُ

ألا أيها النشءُ الجديد ليَعربٍ ... لك العلم الخفّاق في الشرق يعقدُ
وما الشرقُ لولا ما ورثنا ثقافةً ... سوى طلل يهوي وبرج يهددُ
ثقافتنا من عهد موسى لأحمد ... معارجُ أرواح الى الله تصعدُ
الا أنّ سطراً أنزلت فيه آيةٌ ... تبدد أوهام الحياة وتسعدُ
لخيرُ لنا من بعلبكٌ وتدمرٍ ... ومن قمم الأهرام للنجم تنهدُ
وما هي إلاّ آيُ ظلم وذلة ... منازلها في صفحة الدهر جلمدُ
وهل كان قبل الوحي الا غطارسٌ ... وحشدٌ تناديه السياط فيسجد
ليركع لآمونٍ وباعالَ من يشا ... فقد ماتت الأربابُ تطغي وتحقدَ
هيا كلها كانت أشد على البقا ... الا أعجب لمعبودٍ يواريه معبدَ
فما زهو فرعون وفينيقيا ولا ... حضارات أقوام خلوا وتبددوا
لتسطو بتفريق على وحدة إذا ... نفاها فريقُ كان لله يجحدُ

* * *

بني العرب مات الكاظميٌّ وكم هوت ... مآذن تُدعو للصلاح وترشد
فما أسكت الصوتُ المديد على الضحى ... يهيب بأبناء الحياة ليعبدوا
فاءنّ نداء جاش في صدر أمة ... وصاحت به أحيالها ليس يهمدُ
قضى شاعرُ العليا وما ناله الفنا ... فما كلُ محجوب عن العين يُفقدُ
ولو أن ستر الغيب يهتك لحظة ... لشارفنا الروح الخفيُّ المخلّدُ
ولاح لنا الجسم المسجّى على الثرى ... خيالَ خيالٍ للردى يتوسدُ
وما ظاهرات الكون الا تموجٌ ... لبحر من الانوار يرغي ويزبدُ
فومٌ بصدر المهد طفلٌ مداعب ... ووهمٌ ببطن الارض ميتٌ ممددُ
فلا الميتُ مفقود البقاء بموته ... ولا الطفلُ موجود البقا حين يولد.

* * *

سلامٌ على مثواكَ كعبة وحدة ... يطوف بها هـذا الرعيلُ المبددُ
تخيّرت مصراً مفرق الشرق منبراً ... فأيقظت روح العرب أيّان توجدُ
وما مصر إلا قلبهـــم ودماؤهم ... تَرَدّد فى أعشـــاره فتجددُ
لقد كنتَ تستوحى السماء فينجلى ... قريضك عن زُهر به تتوقدُ
أتتك القوافي صاغرات يقودهـا ... الي كلّ شطر في قصيدك سيدُ
الا أن حور الشعر نشوى نوافر ... يباغت منها الفكرَ منا يتصيدُ
ولكنّها دانت لديك فرضتهـا ... وأنت أمام الحق للحق تشهـدُ
فأصبحت الدنيـا لديك قصيدةً ... تعاين فيها الشعر أيّان ترصدُ
وتشدو به عفـواً كأنك قارىء ... لما خطّه فى أصغريك التجردُ
تعاليت فى جوّ الحقيقة مطلقاً ... وأنت بأغلال الحيـــاة مصفّدُ
فما أوقفت مجراك فى فلك العلى ... وقد شدّ فيها كاشحون وحسّدُ
وكم راودتك الزائـلات فأفلتت ... بجنبيك روحٌ للعـــلا تتمردُ
زُليخَةُ دنياك ابتغتك على الخنا ... فما نالهـا الا الرداءُ المقـــددُ

* * *

ليعجبُ ابناءُ الزوال بخـــالد ... يمرَ فيـدنو منهم وهو أبعدُ
يُحمّل من دنياه آلام من جنوا ... وليس له في ما أتى جهلهم يدُ
ويبكيه أن الناس فى الجهل أُغمدوا ... فيضحكهم منه الأبيُّ المجردُ
يرى مجده في أن يُضحّي ويهتدي ... ومجدهم فى أن يضحوا ويشردوا
يعيش بنور الحب للحب وحده ... وما الحب الا الدائم المتجـددُ
اذا حلّ قلباً ساد فيه تشوّق ... يسير به لله أيّان يقصـــدُ
فيـا لجلال الشاعر الفـذ ينجلِي ... له الصبح فى قلب الدجى فيغرّدُ

أينَ ذاكَ الطودُ العزيزُ وهذا القاحلُ المقفرُ الذليلُ الصغيرُ
نشر الدهرُ فيه بدعته الكبرى فضل النهيَّ وساد الغرورُ
فاذا النورُ في العقول ظلامٌ وظلامُ العقولِ حقٌّ ونورُ
أنكر الحاضرُ المضلّلُ ماضينا وهذا تاريخنا المبتورُ
نحنُ منه كالدوحِ صوّحه الر يح فقُضَّت أصوله والجذورُ
تسقط الناضجاتُ منه على الار ضِ وتذوي براعمٌ وزهورُ

* * *

جئتُ يا موحشَ القبور أناجيك ونجوايَ أدمعٌ وزفيرُ
فكلانا ميتٌ وسيانِ في الدنيا شريدٌ وراحلٌ مقبورُ
أدمعي من دموعِ كلّ شريدٍ حملته الى السحيقِ البحورُ
وزفيري زفيرُ كلّ مقيمٍ هجرت روحه المنى والحبورُ
نحن من أمةٍ تسود بنيها غيبةُ الهجرِ والغيابُ الأخيرُ
فزوالٌ قبلَ الزوالِ وموتٌ يسبقُ الموتَ إنَّ ذا لمريرُ
كنتَ ميتاً عن أرض لبنان ياعمٌّ وقد دام فيه منك الضميرُ
غبتَ عنه فلاحَ فيك عزيزاً رُبَّ طيٍّ للمجد فيه نشورُ
حملتك الامواجُ غصناً من الأر زِ كسيراً يفوح منه العبيرُ
فتعاليتَ في الجلادِ صبوراً علّم الناسَ كيف يحيا الصبورُ
وتراميتَ من سما المجد صقراً علّم الدهرَ كيف تقضي الصقورُ

صليما لبنان ١٥ آب سنة ١٩٣٥ فليكس فارس

« ٤ »

جبران

بحث في كتاب نعيمه عنه

رجال التاريخ وأجناد الفكر — ماهي شخصيّة جبران — الألهام ومنعكسات الصور — خطاء نعيمه فى استكمال فكرة جبران من وقائع حياته — شكري غانم فى عنترة — شوقى فى قيس — لسان نعيمه فى فم جبران — زلاّت فنيّة وأخطاء خطيرة — مارى وميشلين فى حياة جبران الصداقة الزائفة والحب المجرم — بين تولستوى ونعيمه — تأثير احتضار جبران فى نعيمه — بين الاستنتاج الفاسد والاغتياب — جبران وجميل المعلوف - أخادعاً كان جبران أم مخدوعاً - حظ العباقرة من الحبّ — إكليل الورود وإكليل الاشواك — رأى العقّادفى جبران - هل كان نييتشه استاذاً لجبران — المدنية الساميّة والمدنية الآريّه — كلمة امين الريحاني فى المدينة العظمى — صوفية جبران وصلاته — جبران النذير وجبران البشير — الارادة الكلية والارادة الجزئية — نعيمه يحكم بنفسه على ما أورد فى رواياته

عرفتُ جبران سنة ١٩٢١ ، أثناء وجودي لمدة سبعة أشهر فى الولايات المتحدة ، فالتقينا كأننا على عهد قديم . تعانقنا أخوين ، وتحادثنا ببيان التلميح ، فكانت كل إشارة منه تصريحاً وكان كل إبهام مني لديه قولا فصيحاً .

وما كنت أعرف من جبران الا ما مرّ من حياته على بنانه إنشاءً وتصويراً ، كما أنه جهل مني كلَّ ما لمسني من الحياة فى غير رسائلي وخطبي .

كنت أعرف أن جبران مهاجر من بشرّي إلى بابل القرن العشرين ، التقيته على المنبر ، والتقيته فى قاعة عمله الواسعة ، ولولا أنني رأيته مرّة في بوسطن إبانّ مرضه لما عرفت أن له أختاً .

وقد يستغرب البعض إذا قلت إنَّ مقابلاتي العديدة لجبران كانت تمر وكلانا يسبر اقاصى فكر الآخر وأعماق شعوره ، دون أن يخطر لأحدنا أن يتفهّم شيئاً عن حياة رفيقه ومركزه وعلاقاته .

ما كان جبران أمامي سوى تتمّة لم تكتب بعد للاجزاء التي كتبت من سفره الملهم . وإنني لأذكر بين أجمل أيام حياتى وأشدّها إشراقاً ، على ما فيها من حالكات ، تلك الفترات التي قرأت فيها فى عينيّ جبران وعلى شفتيه الباسمتين ما كان سيكتبه في ما بعد من الحكمة والحب فى رسالة النبي الخالدة .

رجعت الى لبنان فبارحت جبران وأنا لم أزل معه كما كنت قبل أن التقيته. ومرّت السنون ، فاذا بجبران يعود الي وطنه مطبّق الاجفان محمولا على الأكفّ مرفوعاً على زفرات القلوب الى حيث يستقر عزيزاً تحت ظلال أرزه المشرف على أغوار وادي . ومنْ يدري ، لو أن جبران عاد الى لبنان مفتّح الأحداق ، يحدج من حوله بنظراته الوقّادة تستقبيح الخفايا فى القلوب وتهتك أستار الرياء والدسائس والمصانعة ، مَنْ يدرى ما كان سيلاقى هنالك من السائدين الذين ثار عليهم ومن المستعبَدين الذين الذين بكى بدموعهم وجاع معهم وهم جائعون ؟ !

قضى الله للبقية الهامدة أن تكرّم هذا التكريم المكذوب الذى لن ينقلب الى إجلال صادق إلا بعد مرور الأجيال ، فلندع تلك البقية الساكنة فى قبرها الى أن يصبح هذا القبر مزاراً للابناء والأحفاد . . .

لا أتناول الآن ببحثي الرسالة الأدبية الفنيّة التى قام بها جبران وقد قمت بهذا الواجب بمحاضرة طويلة ألقيتها في الاسكندرية إثر وفاته وبقصيدة طويلة استوحيتها روحه عند ما حُمل الى بلاده ، فمقالى اليوم إنما هو بحث فى حياة هذا العبقرىّ وقد كنت أجهلها فعرّفها الىّ كتاب ميخائيل نعيمه .

إن حياة بعض الأشخاص كائنة كلها فى حركاتهم وسكناتهم ، فاذا أنت لم تقرأ ما فعلوا ، كانوا في حكم المعدوم لديك وأمام التاريخ . غير أن رجال الفكر ، وقد أذابوا شخصياتهم على أناملهم وسكبوها نوراً للعقول ورحيقاً للقلوب إنما يخلدون بهذه الشخصية القائمة على عالم المبادىء المجرّدة عن كل عمل له آثاره فى الوقائع . وما كانت حياة جبران للعالم الاّ فى الساعات التى أكبّ فيها على صفحات كتبه وألواح رسومه ، وليس ما تبقّى الاّ ايام رجل هاجر وأحب وتألم ومات غريبا ككل مهاجر سُلخ عن أوطانه فمات مرّتين . . .

إنَّ حياة جبران الأدبية والروحية قد كتبها هو ... كتبها كاملة متناسقة ، فاذا هي فصلٌ رائع في سفر الانسانية الحائرة الباكية ، المتألمة الآملة. وليس لأحد أن يضيف الى هذا الفصل سطراً او يحذف منه سطراً دون أن يجني على مؤلفه فيشوّه الصورة التي أراد الله أن يظهر هذا المؤلف فيها ،أما حياة جبران الشخصية ،حياته كمجاهد تتقاذفه الآلام واللذات ،كرجل له علاقاته بأهله وأصحابه وأحبابه ، فانّ جبران لم يكتبها ، فهو لم يضع مفكرات عن أيامه ، لأنه عاش وراء ماتحدّد الأيام وما كان رجل كجبران بلغ عالم ماوراء الموت فجال في الآباد قبل أن يموت ليقف أمام الحوادث العاديّة التي مرّ بها ومرّت به مستقياً منها مايضيفه الى أوقيانس اللامكان واللازمان الذي كان دماغه وقلبه يخوضان عبابه..

إنّ حياة جبران ، سوأ منها ما قضّاه في بشرّي او في بيروت او في باريس او في العالم الجديد ليست هي التي أوجدت جبران المتجلي لذاته ولنا سطوراً ملؤها الحكمة ورسوماً ملؤها الفن والجلال.

لقد ولد الألوف في لبنان وهاجروا وأصيب الالوف منهم بالسل الخفي الكامن، وقراء الألوف من الناس حياة وليم بلايك،واتصلوا برودان ،وتصفحوا الكتب التي قراءها جبران من التوراة والانجيل والقرآن حتى مؤلفات عباقرة الشرق والغرب فما أوجد كل هذا من أحدهم شخصية جبران نفسها.

وليس لنا أن نتسآئل ما اذا كان جبران يتجلى كما تجلّى لنا ولنفسه ،لو ان حياته اتخذت وجهة أخرى من شعاب الحياة ،ليس لنا أن نفترض أن جبران ما كان سيصبح الرسّام العبقري لو لم يتصل برودان وما كان ليكتب النبي لو لم يقراء نيتشه لأن انتهاج مثل هذا السبيل لتحليل القوى الكامنة لضرب من التحرش بالغيب المستور وتخبّط في دياجر لاسبيل للاسترشاد فيها .

إذا نحن افترضنا أن الحوادث هى التى تسوق العبقرية الكامنة فى الذات الى الاتجاه نحو الاعتلاء أو الاسفاف ،فهل للمفكر أن يتصور إمكان تحوير هذه الحوادث ليستنتج تعديلا مفترضاً للعبقرية نفسها ؟

أين تبتدىء العوامل المهيئة فى الذات وأين تنتهى لتبداء منها الاسباب الباعثة لها على الظهور ؟ .. إن العبقرية قوة كاملة بنفسهالا يقدر صاحبها نفسه أن يحللّها ، فكيف يتسنى لمن يريد سبر أغوارها أن يشطرها شطرين ليعرف الجزء الذى استصحبه العبقرىُّ من الأزل والجزء الذى طرأ عليها من الحوادث ومن شخصيات الاخرين ليبعثها على الظهور؟

من له أن يضع الحد الفاصل بن الألهام الداخلي وبين منعكسات الصور من الآفاق ؟ ..

من العبث أن نفتّش فى حياة أبطال الفكر عن منشاء عبقريتهم وعما نظن أنه كان الباعث على ظهورها ملقياً عليها تعديلا خاصاً من طبيعته من درس بامعان حياة افذاذ الدنيا إنما يقف مندهشاً من التناقض الذى يتجلّى غالبا بين بيئاتهم وبين نتاج افكارهم. فكم من باك يضحكك وكم ضاحك يبكيك .

كم من شاعر تشعُّ قصائده بالأنوار وقد ألهمها وهو فى غياهب السجون ! وكم كاتب سكن القصور وجرَّ برود العز يربط على قلبك بانشائه فيزجّ بك فى سراديب البؤس ويذيقك من خياله أمر ما يتجرع الاشقياء فى الحياة ! ..

ما كان نعيمه إذاً ليقصد باستعراض مايقول إنه عن حياة جبران أن يحلل مذاهب هذا العبقري او أن يأتينا بتفسير لتآليفه ورسومه . ومن قراء كتاب نعيمه لا يجد فيه ما يزيده علما بشخصية جبران الروحية والأدبية التى تتجلى واضحة فى آثارة . فما هذا الكتاب الأقصة لحياة جبران المادّية او بتعبير أو فى رسوم

لجانبي" الطريق التى قطعها جبران من سريره الى قبره. ومثل هذه القصة لها شأنها في نظر اصدقاء الفقيد بل فى نظر الأنسال الآتية التي ستتصل آثاره اليها.

ولو أن نعيمه وقف عند حد تصوير هذه المشاهد دون أن يحاول إدغام اكثر خطوطها فى الخطوط الروحية الأدبية التي رسم جبران نفسه من إشراقها وقتامها، اذن لكان آمن العثار فى تحفته الادبية التى تعد بحق من روائع الانشاء العربى فى هذا العصر.

ولكنّ نعيمه أراد أن يستعير من جبران الرجل ما يكمّل به جبران المفكّر فلم يوفّق الى قصده، وليس لأحد ان يبلغ مثل هذا القصد حتى فى درس نفسه فكيف به وهو يرسل مجسّه الى أقصى سريرة غيره.

قال نعيمه فى مقدمته إنه أراد أن يصوّر من جبران صراعه المستتب مع نفسه لينقيّها من كل شائبه ويجعلها جميلة كالجمال الذى لمحه بخياله وبثّه بسخاء فى رسومه وسطوره.

إن الصراع مع النفس إنما هو العمل الكامن في السريرة، وقد عرفّه النبي الكريم بأنه الجهاد الاكبر تقوم به الانفس في سبيلها نحو ربها. ومَن من أبناء هذه الحياة يمكنه أن يهتك الأستار عن موضع السر في أخيه ليرى هذا الصراع الخفى الذى لا يعلمه غير الله ؟...

قرأت كتاب نعيمه معجباً بأسلوبه الرائع في إيراد الحوادث التى مرّ بها جبران منذ ولادته حتى موته فأن القاريء ليجد نفسه وهو يطالع هذه الصفحات أمام مشاهد لا يقدر على رسمها بمثل هذا الجلاء وهذه الألوان الا قلم العبقرى الوثّاب المتدفق حكمة وفناً.

ولكني ، كلما صدمني من هذه الصفحات كلام بعزيه المؤلف الى جبران في مخاطبته الناس أو مناجاته ضميره ، كنت أشعر بثورة في نفسي فأمد أناملي لأقبض على السطور والحروف أقتلعها كأنها اعشاب غريبة القت بذورها الرياح الهوجاء في هذه الحقول الزاهية بالازهار الأصيلة فيها .

إن ما قد يكون جبران فكّر فيه ، وما يفترض افتراضاً أنه قاله للآخرين لا يمكن للمطالع أن يقبل به كأنه حق ، اذا لم يكن مكتوباً بقلم جبران نفسه . فأن الطريقة الروائية اذا صحت في الاساطير والأقاصيص عن أشخاص مجهولين او مختلقين اختلاقاً ، فأنها لا تصح مطلقاً في سرد الوقائع عن رجل معروف ملك البيان بأطرافه وليس لسواه أن يتولّى الكلام عنه في أي موقف من مواقفه تجاه ربّه او تجاه نفسه او تجاه أي كان .

لعل الصديق نعيمه وهو يريد تخليد صورة حية كاملة لجبران ، تخيّر هذه الطريقة مأخوذاً بأسلوب كبار الروائيين فأتانا بالكثير ممّا أتى به فيكتور هوكو في فصل عاصفة في جمجمة من كتاب البائسين ... غير أن المؤلف فاته أنّ جان فالجان إنما هو خليقة واضع الرواية ، فكان له أن يبدع ضميره كما أبدع شخصه ، في حين أن جبران خليقة الله وليس لأحد أن يتصرف بضميره ويضع في سرايره الروح التي يختارها له .

منذ خمس عشرة سنة ، مررت بباريس وتسنّى لي أن أقابل فيها صديقي ونسيبي المرحوم شكري غانم ، الشاعر اللبناني العبقري المشهور ، فدعاني لشرفته الخاصة في الأوبرا لحضور تمثيل روايته (عنترة بن شداد) .

شهدت الرواية وأنا الى قرب مؤلفها وكنت استصحبت معي نسخة منها لاتلوها بينما يتغنّى الممثلون باشعارها فما فاتني معنى من معانيها . ومضت السهرة

وعليّة القوم من الفرنسيس يصفّقون للأشعار الرائعة التي كان ينشدها عنترة العبسي بلغتهم وبنبرات ألحانهم ، وقد أكرهت لأشارك القوم باعجابهم على أن أمحو من حافظتي كل ما أعرفه عن عنترة وكل ما احفظ من أشعاره. ولكن عند نهاية التمثيل لم أملك نفسي من مصارحة شكرى غانم فقلت له.

إن ما استحقه عنترة من إعجاب القوم إنما حقّ لك جلّه إن لم أقل كلّه . فاستغرب الشاعر وطلب الايضاح فقلت .

— إنك نفخت روح شكرى غانم فى هيكل عنترة ، بل انتزعت العبقرية العربية منه لتحشوه بعبقرية الفرنسيس . ولو أن عنترة لم يكن الشاعر الذى نعلم ولو أنه لم يترك للأدب العالمي من إلهام الصحراء ما صوّر فيه جميع وقائعه ، لكان هنالك ما يبرر إمداده بروائع خيالك . ولكن عنترة ملاء التاريخ شعراً وانت لم تأخذ بيتاً من أبياته أو معنى من معانيه ...

أبتسم شكرى ابتسامة لم يكن فيها شيء من المكابرة وسكت ...

ومرت الايام والسنون ، فاذا بشوقي يجود على الأدب العربي الحديث برواية «مجنون ليلي» وإذا به يرتكب الخطأ نفسه الذى ارتكبه غانم فى رواية عنترة .

بعث شوقى مجنون ليلى الخالد بأشعاره المتدفقة روعة فى سذاجتها وأنفاسها الحرّى ، فاذا المجنون بأطاره ولفتاته المشتعلة بجنون الحب العذريّ يحمل فى صدره قلب شوقى وعلى لسانه بيان شوقى . . .

خطر مجنون بني عامر على المسرح فى القرن العشرين ، فلم نسمع منه سوى أربعة أبيات من الاشعار التى كوّنت شخصيته الفتانة فى الادب العالمى فكانت هذه الابيات الزفرة الوحيدة التى أجاز أمير الشعراء لأمير العاشقين أن يزفر

بها من صميم جنونه ، وقد يكون جنون أمير العاشقين أسنى وأروع من أن يطاوله تجنن أمير الشعراء . . . .

* * *

وهذا كتاب نعيمه فى جبران ، أقلبّ صفحاته فيذكّرنى بغانم المتعنتر وشوقى المتقيس ، .

إننا ، معاشر الكتاب والشعراء ، كثيراً ما تطغو علينا موجات الالهام عندما نتصل بمستودع الفكر العام ما وراء الحس الواعي ، فيخّيل لنا أن كل ما نشاهده منعكساً على مرايانا من أصول الاشياء إنما يتجلى بالصورة نفسها على مرايا الاخرين .

وهكذا نستبيح لنفسنا ان نعير سوانا معاكس استعدادنا وفطرتنا فنشعرهم شعورنا و نتطقهم بياننا .

وما أرى ميخائيل نعيمه الا مأخوذاً بهذه القوة فى إلهامه عندما اراد ان يبعث جبران من قبره لينشره كاملا بما ظهر منه وما اختفي على صفحات كتابه .

ويقيني ان المؤلف ، بعد ان طرح قامه ، قاطعا اتصاله بعالم الالهام الخفي وقف أمام ما كتب وقفة الحائر المتردد ، وهذه خواطره فى مقدمته تلوح لنا كوميض تتلاعب غيوم الشك فيه . فهو يقف بين الاحجام والاقدام مترددا فى نشر ما كتب عن عبقري كان من أقرب الناس اليه .

ولو أن ميخائيل لم يدوّن عن صديقه الا ما رأى وما سمع ، ولو أنه لم يحبك حول مايعلم مطارف واسعة من خياله ، لما كان من موجب لهذه الحيرة وهذا التردد

إن ميخائيل ، وهو القائل فى مقدمته «ان فى حياة كل انسان أسرارا يكتمها عن الناس ، وانا قد وقفت على البعض من أسرار جبران وفاتنى منها الكثير » قد أقدم كما يتضح لنا من قصته التي لاتترك للقاريء زاوية مظلمة يرتدّ عنها ، على

تكميل ما وقف عليه مستقياً ما فاته من تقديره واستنتاجه ، وهذا هو سرّ تردد الكاتب وحيرته ، ولعل ما سنبحث فيه من هذه المكملات يؤيد اعتقادنا امام القراء بل وامام المؤلف نفسه .

* * *

يأخذ ميخائيل بيد جبران ليمشي معه فى كتابه منذ كان جبران فى الخامسة والاربعة أشهر من عمره ، فاذا أمامنا صورة عن حلم رآه الولد الصغير جبران (تنتصب فيه أكمة الصليب وكرسى الربّ بلحيته العظيمة البيضاء والنار التي ينفخها هذا الرب ليصبّها على اليهود) الى آخر ما هنالك من أضغاث أحلام لو فرضنا أن جبران كان رآها لما كان سيذكرها ليقصّها على صديقه بعد كرور السنين .

ولو كان المؤلف اكتفى بسرد حكاية هرب جبران الي الحقول ليقتطف الازهار ويعود بها مفتشاً بين القبور على قبر المسيح ليضعها عليه لكان يقال ان المؤلف يقصّ حادثا واقعياً نقله عن تذكارات جبران من حديث أمه ، ولكن المؤلف ذكر الحلم مقدمة للرواية فأتى بما لا يقرّه عليه النظر النقّاد وجاء مشوهاً لما أمكن وقوعه من هرب جبران الى الحقول يوم الجمعة العظيمة ولهذا الهرب معناه العميق فى درس نفسية العبقري وهى تتأثر فى طفولته للحق والجمال و تقتحم الصعاب فى سبيل تمجيدها .

أوردنا هذا المثل من أول واقعة بدأ المؤلف بتدوين حياة جبران بها لأنها الخطوة الاولى التى ذهب منها قلم ميخائيل على سبيل الايجاد آخذاً باساليب الاساطير في حين أنه يعلن فى مقدمته « إنه اندفع الى تدوين حياة جبران على

حقيقتها لانه عندما عاد الي الشرق بعد عام لوفاة جبران وجد صديقه يكاد يكون أسطورة من الأساطير فليس هو جبران الذى رافقه ١٥ سنة وخبره الخ »

ولو أن المؤلف وقف فى اسلوبه الروائىّ عند الأمور التى تخرج على الفن كما فعل فى اختلاق حلم جبران ، لما كان هنالك ما يستوجب النقد الاّ من الوجهة الفنّية ؛ ولكن ميخائيل بعد أن خطاهذه الخطوة العاثرة فى ميدان لا خطر فيه ، سار الى المرتفعات والمهاوى فى حياة صديقه فلم يأمن الانزلاق على منحدر الجروف والاصطدام بقاسيات الصخور وهو يتأبط ذراع جبران فيُدمي يديه ورجليه ويحطمُ أضلاعه . . .

وها نحن نمرُّ على المآذق التى سار بها المؤلف بمن أراد تدوين حياته .

(صفحة ٣٠) يقول جبران لأمه . — مالك ولأبي وأخوتى عندك جبران وكفى)

ما كان جبران ليقول هذا ، بل إنه كان ليدافع عن أبيه واخوته ، ولا يتحفزّ ليحتلَّ مكانهم من قلب أمه .

(صفحة ٣١) يقول نعيمه بلسان جبران الولد . — ومع مَن ألعب ؟ مع أولاد الصينيين أم الارلنديين أم السوريين ؟ . . ما أكثر السفهاء بينهم ؛ يا أمي حتى بين البنات ...)

أنفس هذا الطفل الذى يحتقر أبناء جنسه هى نفس العبقرى التي اشتعلت بجبهم فارتفعت نوراً لهدايتهم ؟

(صفحة ٣٣) يقول جبران وهو ابن ١٤ سنة للسيدة التى كانت تراوده ، وهو يتكلمّ عن الفن . — لا تكتمل الصورة حتى بعد أن يتركها المصور ، نحن لا نصوّر الاّ بدايات او مقدمات ، اما الصورة الكاملة فلا يُبدعها الاّ الله .)

لقد يكون جبران قال هذا بعد سنوات من ذلك الزمن ،فان الفتى العاشق الفنّ الطامح الى تصوير الكمال لا يبدأ بادراك مثل هذه الحكمة اليائسة وهي دليل النضوج وأدراك القصور ،ومن علم أنه لا يعلم فهو في آخر شوط الفن لا في أوله ».

(صفحة ٤٠ وما يليها .) في هذه الصفحات حكاية الأمريكية الحسناء التي أغوت جبْران فغوى ، وليت الكاتب لم يوردها بهذا الأسلوب القصصي ، بل ليته ، وهو يقصّ وقفَ على الأقل عند حد ما يمكن أن يكون صديقه قصّه عليه منها ، وإن تكن مثل هذه الرواية التي تقع لكل شاب تقريباً مما لا يصح أن يُنقل ، ولكن ميخائيل وقف يتكلم بصوت ضمير جبران فيقيس ويرجّح وينازع ، واليك مثالا من هذا التخبّط في تقدير الأمور ومن التناقض في التصوير اقراء في صفحة ٤٢ ما يأتي .

(مرّ عام مزدحم بالزيارات الى البيت السرّي ، بيت الأميركية التي يدعوها الملاك الحارس : فقد ظن جبران في بادىء الأمر عندما قطف الثمرة المحرّمة أن بأمكانه أن يأكل حلالها دون حرامها وان يتذّوق حلاوتها دون مرارتها ، ولعلّه لم يفكر في حلاوتها وفي حرامها على الأطلاق)

قف هنا وارجع الى الصفحة ٤٠ حيث يصوّر المؤلف جبران خارجاً من بيت ملاكه التي سلبت عفافه (وكأن كل قطرة من دمه تحولت الى جمرة ملتهبة وهو لا يدري كيف يهرب منها وبماذا يبرّدها . لكنه ما مشى بضع خطوات في الشارع حتى تحوّل اللهيب في داخله الى قشعريرة اشمئزاز وندم وراح يؤنب نفسه تأنيباً موجعاً وتذكّر كلمات أمه وقانا الله ساعة التجربة)

نسي المؤلف هذا بعد كتابة صفحتين فقط فقال ما قاله ، ثم زاد على ذلك

« فازداد جبران تعلقاً بالثمرة المحرّمة واعتقاداً بأن المرارة ليست فيها بل فى الذين حرموّها »

وتمرّ الأيام فاذا نحن فى سنة ١٩٠٢ واذا جبران في باريس عائداً من بيروت حيث درس أربع سنوات فى مدرسة الحكمة ، فمن الصفحة ٤٦ الى الصفحة ٥٠ حديث طويل لجبران عن نفسه وعن وطنه وغرامه ، ولا أعلم لماذا يتمسّك المؤلف بهذه الطريقة ،فهو لا ينفكّ عن إسماعنا صوت جبران ،فهلا كان اصلح له ولنا أن يسمعنا صوته هو متكلماً عن صديقه فلا ينفحه بكل هذه الافكار التى قد لا تكون مرّت بخاطره!

اسمع بعـــد ذلك جبران يرثى أخته سلطانة ، بعد عودته الى بوسطن صفحة ٥١

(لست أبكى سلطانة ،وانما أبكى الله ،فقد مات الله إذ ماتت سلطانة ،وقد نهشت رئتيه مكروبات السل مثلما نهشت رئتيها ،وما ذاك غير الحق لأن مَن يميت بالسل بالسل يمت كما يؤخذ بالسيف مَن أخذ بالسيف ، لقد كان لى ربّ وكان مصدوراً .. الخ ..)

وعلى هذا النمط يقبض ميخائيل على عنق جبران فيكرهه على إلقاء خطاب طويل عن مصائبه وعن الله وعن الحياة فيلوح لك أنك أمام رجل أصابه الخبل يورد لك الفلسفة والأيمان والجحود والحكمة والجنون متداخله متراكبة حتي يصل بك الى نتيجة غريبة وهو يســأل عن أسباب الداهية الدهماء التى حلت بأسرته،داهية السل ،الداء القتّال الذى لايرحم.

اسمع جبران يقول مُكرَهاً

(لماذا .؟ لماذا .؟ لماذا .؟.. ، لأنك دَنّستَ روحك بالفسق وبالغش وبالكذب

ياجبران ، لانك أستدفأت فراش الشهوات وهو بارد ... الخ .

(لأنك خاطىء ، يا جبران ؛ وهل يجازي الله الأم بخطيئة ابنها ؟ .. والأخ والأخت بذنب أخيهما ؟ .. وما هي الخطيئة ؟ .. الخ ..)

أليس هذا هو الكفر بعينه ؟ ...

وهل كان جبران لينطق بمثل هذا ؟ بل هل كان جبران لينظر الى القضاء عابساً بوجهه منزلاً به وبأهل بيته النوازل لانه وقع فى شراك إمرأة كما يقع ملايين المراهقين على وجه هذه الارض ؟

لقد أسرف المؤلف كثيراً بالشتائم يرسلها الى جبران من فم جبران : الدنس الفسق ، الغش ، والكذب ..

جميعهم أخطأوا ، وأعوزتهم رحمة الله .

إن من يدين نفسه هذه الدينونة الصارمة ، لا يُميت ربّه بالسل لان هذا الربّ قد أمات أخته مسلولة ..

ثم أفما كان السل مقدوراً كامناً في صدر الأخت والأخ ، وحتى فى رئتيّ جبران نفسه ، فهل اعتقد هذا العبقرى ولو لحظة أن سقوطه فى فخاخ الامركيّة وهو يافع ضعيف قد أثار جراثيم الداء الفتّاك دافعاً به الى الماضى البعيد ليحتلّ صدور أسرته جميعها ؟ ..

ان هذه الصورة لجبران يرى السماء تتفجّر انتقاماً عليه لمجرد سقوطه فى فخّ لم ينجُ منه الا النذر اليسير من المراهقين لا تتفق بوجه من الوجوه والصورة التي رسمها له وهو يعبث دون مبالاة بعرض عذراء وحياة جنين كما سنراه فى حادثة ميشيلين ...

لنقلب الصفحات أيضا ...

« صفحات ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ الخ . » . جبران يتكلم ، يتكلم دائماً ، مع أخته ومع العالم المجهول ومع نفسه ومع فنه ، حتى الحوادث والوقائع نفسها ترد بشكل مناجاة جبران لذاته ، بل أنك لتشهد جبران يتكلم فى قلبه (صفحة ٦٤ ، هنا قال جبران فى قلبه ، ما اكثرهم — عشاق الفن في هذه البلاد وما أكذبهم)

ومن هـذه الصفحة تبدأ معرفة جبران بماري هاسكل التي لعبت فى حياته دورها الكبير والتي تعرّف جبران فى مدرستها وبواسطتها الي ميشلين ، وميشلين هى بيت القصيد من حياة جبران الخصوصية .

أمام ميشلين ، يُنطق المؤلفُ جبران بأحكام تتناول أصول الاشياء بتعابير يقول هذا المؤلف نفسه عنها إنها بهيجة الالوان عذبة الرنين ولكنها ثقيلة الوزن شديدة الغموض . (صفحة ٧١) فكأن المؤلف نسي أنه هـو الذى يأتي من عنده بهـذا الانشاء المقعّر وهذه النظريات الغامضة وأكثرها متعاكس متناقض ليضعها بالرغم من جبران فى فمه ويسحبها سحباً من دماغه وقلبه . وما رأيت من قبل مؤلفاً ينشئ الصفحات بقلمه ثم ينقلب عليها ليصفها بمثل هـذا الوصف وينقدها مثل هذا النقد . . .

إن المؤلف يعترف لجبران بالعبقرية ويخشع أمام بيانه وسمو أفكاره ، فكان من واجبه ، وقد رأى ان يتكلم بلسانه ، أن ينفحه على الاقل بخير ما عنده من فكر وتعبير ، لا ان يعزو اليه مثل هذه الاقوال التى يعتبرها هو سخيفة غامضة . .

وأننا نعتقد أن ميخائيل ما كان ليقصرّ فى هذا المضمار ، وهو المنشيء الصفحات الرائعة في كتابه كالصفحات التى وصف فيها احتضار جبران والمدنيّة ومساوئها ، فجـاءت من أبدع ما ينشيء كاتب وهى تتمشى بلا قصور الى جنب طرائف جبران وبدائعه .

لندع كل هذا جانباً الآن ، إنّ ما رأينا من الأخطاء فيما كتب نعيمه عن جبران حتى تناول قصة ميشلين ، انما هي اخطاء الخيال الجامح وزلّات الفن وقد ضلّ بالخطوة الاولى التى خرج منها ، ولنقف الآن أمام ميشلين ، تلك النعجة المسكينة التى يقف جبران منها فى كتاب نعيمه وقفة الذئب المفترس . . .

وقبل أن نبدأ بتحليل هذه الواقعة نحيل مَن لديه كتاب نعيمه الى الصفحات ٧٣ وما يليها ليقرأ بامعان وصف المؤلف لهذه الفتـــــاة الحسناء ، ولمن ليس لديه الكتاب ننقل الفقرات التي يجب الاّ تفوت القاريء من هذا الوصف .

ميشلين . فى شعرها الأسود لمعان يأسر العين ويكهرب اليدين الي حدّ ان الناظر ، لولا قوانين الحشمة واللياقة ، لما تمالك من لمسه وتمسيده . . وفى عينيها العسليتين كذا . . . وفى ضحكتها كذا . . .

ثم يصف المؤلف صوتها ، ثم مشيتها فيقول « كأن فى رجليها أجنحة . . . »

وبعد ذلك يدفع بقلمه التى تصوير صفاتها الادبية فاذا أنت من هذا الوصف أمام ملاك كريم ، كلـه لطف ورقةّ وجمـــال ودعة ، وكله بخاصة صيانة وأنفة وعفاف . . .

هذه هى ميشلين التى أغواها جبران ، هــذه هى الغادة العذراء التى احترق بنار جمالها وكمالها فاحرقها بنار شهواته وعيوبه . . .

واليك مثالا من الأشراك الروحية التى كان جبران ، على قول نعيمه وذمته ، يمـدّها لعفاف ميشلين وطهرها ؛

« أنتِ لاتعرفين من أنت ، ياميشلين ، أما أنا فأعرف ، لقد عرفتك قبل أن ولدتك أمك ، لقد كنتِ شوقاً هاجماً فى أعماق كيانى قبل أن صرتِ كلمةً مرتعشة بين شفتى الحياة ، وقد كنتِ حياة فى عروقى قبل أن مشيتِ دماً سخيناً في مفاصل

الارض !! .. وهكذا ، الى أن يقول .

(منذ ولدت ، وأنا افتش عنك الخ ...

فتقول ميشلين ، لقد اقترنت برفيقتك أمام الله ، فمتى تقترن بها أمام الناس؟..

ويبدأ الحوار بين جبران والفتاة التى انتزع منها عفاها وصيرّها امرأة وصيرّها أماً ... فيثور الرجل الذي يقول نعيمه إنه جبران ثورة كلها كفر وجنون ، فيقول إنه يكره الناس ويراهم « كالدجاج التى تفتش على الديدان والاقذار ... ولا يتورّع هـذا الغاوى المعتدى على قدس اقداس الانسانية من أن يقول لضحيته :

أنتِ منهم . . . ، أنت كذلك أبنة الديدان والاكفان . . وأنا كالنسر لا ارضى غير الفضاء ميداناً ولا أطيق ان أشرف على الحياة إلاّ من القمم العالية فسبحان من جمع بين النسر والدجاجة ....)

وأسمع الآن كيف يصف نعيمه صديقه جبران بلسان ميشلين .

(اذاً ، انا غذاً لجسمك لا اكثر ولا أقل ، انا مطيّة لشهواتك ، انا ألعوبة فى يديك ، وحبّنا ليس الا فرخ دجاجة ....

الى ان تقول (واقول لك انني اخشى شاهداً ما يزال « جنيننا » أن يفضح أمرنا ، فتجيبني ... الناس ... ثم تأمرنى ان اكتم السرّ عن كل الناس وبالاخص عن رئيسة المدرسة . وان أقضي على الشاهد قبل ان يحسن الشهادة .)

بعد هذا يعود جبران الى المراوغة ، ثم يكرر امره بقتل ابنه قائلا .

أما المسألة الاخرى فتدبرها بحكمتك قبل فوات الاوان ، ثم يعود الى التكلم عن فلسفة الحياة والتقمص ورواية يريد وضعها عن الحب الخالد ورماد الاجيال والنار الخالدة .

وهنا ينزل المؤلف الستار ليرفعه على مشهد آخر يقف فيه جبران أمام مارى هاسكل فترى الرجل يتحدث الى هذه العانس فيمزج عاطفته نحوها بفلسفة التناسخ وتعارف الارواح فتذهب هي معه الى حيث يريد إيقافها من الرضوخ لتأثيره ليقول لها .

(ها انا اتحدّث اليك فى كل بارقة ألمحها بين روحى وكأنى اتحدث الى نفسى . انا غريب فى هذا العالم يا مارى لكننى لست غريبا عنك ولا أنت غريبة عنى .)

وهكذا يقول لنا المؤلف إن جبران وجد شقيقة روحه فى روح مارى وهو يعلم انها أكبر منه بعشر سنوات ويعلم فوق هذا انها محرومة من الجمال ومن فتنة الجنس ، واذا نحن أخذنا بوصف المؤلف لماري تمثلها أمرأة مشوّهة الخلقة لا حواجب ولا أهداب لها مستطيلة الانف يبدأ فمها من متوسط خدها الأيمن لينتهى عند متوسط الخد الأيسر وهو منفرج عن لثتين تركبت فيها أسنان متراكبة فلجاء ، صدرها ضيّق وكتفاها عاليتان تمتد منها زراعان طويلتان تنتهيان بكفّين طولهما ضعف، عرضهما ، ركبت فيهما أنامل عظمها أوفر من لحمها ، فهل يجد القارىء مناصاً بعد هذا الوصف من ان يقول — أعوذ بالله رب الفلق . .)

على أن نعيمه لم يفته وصف هذه المخلوقة العجيبة او المسخ المخوف بخير ما ما يتصف به انسان من الاخلاق العالية والمقدرة والذكاء .

لنقف عند هذا الحد الان من تعليل علاقة جبران بمارى ولنقل فقط ان هذه المحادثة التى يرويها نعيمه انتهت بأن تعهدت ماري بجعل شهري لجبران قدره ٧٥ دولاراً وفوقها مصاريف السفر ليذهب الى باريس لمتابعة دروسه الفنّية .

وقد ختم المؤلف هذا الفصل هكذا .

(ماري ... ماري ... ،وكاد لسان جبران يزلّ فيقول ميشلين . ميشلين . . لقد أترعت قلبي حتى الفيضان فلتكن دموعي جواباً لك)

وبكى جبران وكانت دموعه تقول ياليت روح ماري في جسم ميشلين ،. . . . مسكينة ميشلين . . . . وهل كانت روحها اقلّ جمالا من روح ماري. ؟ والمؤلف نفسه يصفها بأرقّ الأخلاق وأرقاها ، واليك بعض ماقاله عنها .

(اذا عطفت على طفل فبكل ما في كيانها من عطف دون أن تسأل ماذا كان يتيما أو غير يتيم ، فقيراً او غنياً . الواجب عندها مالا تطيق القعود عنه والحق ما يستريح اليه قلبها بكليّته ، والحرام ما أنفت عاطفتها التدنس به ،تكره الألم لها ولسواها واذا امكنها أن تخفف من ألم جارتها اوجارها لا تتهاون لحظة ، وأن كلفها ذلك ألماً.)

الى أن يقول .

لكنها ابداً متحفظة حريصة لاكبرياء فيها ولا ادعاء ، والذي يحسبه الناظر فيها كبرياء ليس الأ درعاً تصون به عفة جمالها من رجاسة الشنعاء ووقاحة البلداء .

***

نحن لانعرف ماري ولا نعرف ميشلين ولكن اذا كانت ميشلين على ما وصفها نعيمه خلقاً وخلقاً ،فاي عذر لجبران في طلبه استكمال الكامل في الغادة الحسناء من صفات يهفو اليها في العانس الشمطاء ؟ .

فهل يريد المؤلف أن نعتقد أن جبران كان فاسد الذوق الى هذا الحد أم هو يريد إيقافه أمام الناس موقفاً يحكمون عليه فيه بأنه استغلّ مال ماري

بتمجيد فكرها ودغدغة أميالها على ما فيها من كراهة ، وأستغلّ جمال ميشلين لشهوته غير مشعر بالصفات الأدبية التي وصفها نعيمه بها ، وتلك صفات لانرى بعدها زيادة لمستزيد من ساميات الأخلاق .

* * *

وصلنا الى الصفحة ٨٥ ، فاذا جبران فى باريس ، اقرأوا من هذه الصفحة الى أخر الفصل ، فهناك عشر صفحات يستعرض جبران فيها ماضيه ، فيتكلم ... ثم يتكلم ولا ينقطع عن الكلام .

ليأخذ من يشاء مايشاء من هـــذه الصفحات ، اما نحن فأننا نراها تمرّ أمامنـا كأحدى ليـالى العواصف فى الربيع . نجوم وكواكب وظـلام دامس وعصف رياح وشميم رياحين وأزهار ، ولفحـات قرّ ، وقد خرجنا منها بهـــذه العبـارة ننقلها هنا لأن المؤلف يأتى فيهـــا بتعيين صريح للحبّين الذين اوقف جبران بينهما ذلك الموقف المضطرب .

(عجبـاً تلمسنى ميشلين فألتهب بنـار لا أبالى من الجحيم هى أم من النعيم والمسك ، ياماری ، فتهدأ كل لواعجى الارضيـة وتضطرم نـيران أشواقى التى لا تستوطن الارض .)

ليس فى الأرض حبٌ ناره من الجحيم ، الاّ الحب الذى يمسخه الانسان بالخداع والرياء ومايخدع العاشقُ الفاسدُ الأ نفسهُ ، لو يعلم العاشقون الفاسقون ...

* * *

من الصفحة ٩٧ يتعرّف جبران الى جبّار الفن رودان وذلك سنة ١٩٠٨ فيتعرّف الى وليم بلايك

وفى هـذه المرحلة يصمّـم جبران على اتخاذ مارى زوجة شرعية له وبينما هو

يفكر فى حياته ، اذا بميشلين تدخل عليه فجاءة فى غرفته فتقول له .

— لقد أمرتني فأطعت ناديتني من وراء المحيط فلبيت ، فأنت كما ترى لا تزال صاحب سلطان عليّ يا خليل .

وهنا يدور حديث خلاصته أن ميشلين تهرع الى حبيبها لتعيش واياه زوجين تربطهما رابطة الناموس فيتمرد جبران عليها مدعياً أن رجل الفن لا يرضخ لشرائع الناس ثم يداجى فيقول إن أقاربه الذين ينفقون عليه يقطعون المدد اذا هو تزوج ، واذ تلمح له ميشلين بأن من يعنى إنما هم عبارة عن مارى هاسكل يعود جبران فيدعو ميشلين لتعيش معه خليلة ، ولكن ميشلين تقول له .

أنا قانعة بأن اكون الحصير تحت رجليك ، والغبار على حذائك ، ... ولكن لا تسلني أن أكون خليلتك .

وعبثاً يحاول جبران أن يقنعها بنظريات يوردها المؤلف عن لسانه وهى أفظع ما يتلفظ به رجل من المكابرة على الحق ومن احتقار الله والناس ، فتقف ميشلين قاذفة غاويها بأشد ما تقذف به ابنة حواء ابن آدم ... وتولى الادبار لتذهب شاردة فى فضاء الله .

***

جبران ! ، أخي ، استمحيك ، وأنت المحرر من القيود التى لا تزال تقثل علينا ؟ أن أدعوك بما كنت تدعوني به فى الحياة ، فأن الموت لا يمحو الأخاء من الارواح بل يزيده جلاءً وجلالاً ، وان الموت ليجعلك أقرب الى من أحبوك الحب الجم لأنهم لم يحبوا فيك سوى اللمحات المنعكسة على مرآة عبقريتك من سناء الحق الذى صدرتَ عنه ورجعتَ اليه .

جبران ، أخي ، أصحيح انك فعلت ما يرويه صديقك الحميم عنك . فتركتَ

مَن لجأتْ اليك لتدعوك الى إتمام واجبك تخرج من بابك هاربة فازعة الى الضلال منك ، حاملةً في دمها قطرات دمك وفى أنفاسها لهات أنفاسك ؟ موسومة بميسمك الذى لا يمحو طابعه الا الموتُ من جسمها ، تركتها هكذا تذهب بتوقيعك على صفحتها البيضاء ليكتب الغواة على هذه الصفحة ما يشاؤون تركتها لتحمل منك الشيء الكثير ، ومن يدرى الى أىّ ماخور ستحمله لتدنّس بتدنيس ذاتها . أصحيح انك تركتها ، وبدلاً من أن تلحق بها لتقف دونها ودون الانتحار ، وفي الحياة انتحارات أشد فظاعة من قتل الجسوم ، ارتميتَ على فراشك تنتحب كالأطفال يحطّمون ألعابهم وهم عاجزون عن تصليحها فما رأيت من وسيلة لاصلاح نفسك الاّ بالانطراح على فراشك باكياً لتقول في زفراتك .

(هى النهاية ... هى النهاية ... لقد نحرت حبّك على مذبح شهوتك ، ياجبران . أنك مصاب بداء الكلام ، ياجبران ، ولأنك تخجل من كل ما فيك من ضعف بشرىّ تعكف عليه فتستره بحلة الكلام الجميل والألوان البهجة ، والكلام الجميل لا يرفع الشناعة الى مستوى الجمال ، والالوان الجميلة لا تصبغ الضعف قوة ، وقولك الحبّ هو الله لا يجعل الشهوة الجسدية إلهاً ولا اللذة الحيوانية ناموسَ حياة) :

أصحيح انك رأيت جرمك ماثلا أمامك بهذه الصورة المخوفة ، ولم تتحرّك لرد ما سلبتَه الفتاة المسكينة ونفسك الأشد مسكنة ... ؟

لقد صوّرك صديقك وأنت خارج من بيت ملاكك الحارس ، أو ملاكك المضلّل ، متعثّراً بزلتك ، مردداً قول أمك (وقانا الله ساعة التجربة) يثور ضميرك عليك فتحسب أنك أتيت أعظم جرم ، فى حين كنت ضحية لشهوة أمرأة لا مضحّياً لعفاف عذراء ، فاين مات هذا الضمير منذ كنت فى الرابعة عشرة

من سنيك ، ... فهل كنتَ دفنتَـه فى الصفحات التى نشرتَها بين الناس لتدعوهم الي احترام الحق وتقديس الطهارة والعفاف .

***

ما هكذا يحبك الكتّاب حوادث رواياتهم ، يا ميشا ؟،

أما وأنت الكاتب العبقرى الذى نعرف ، أما وأنت المُشبع من آداب الامم وبخاصة من الادب الروسي القديم ، هلاّ كنتَ ذكرتَ رواية « البعث » لتولستوى وأنت تضع روايتك عن جبران ...

أن تولستوى اغترف من قلب الحياة او من صميم خياله حادثة الضابط الذى اغوى الفتاة الخادم ، القرويه الساذجة ، فعبث بعفافها وترك في احشائها جرثومة الحياة ، ثم دعاه نفير الحرب فسار ناسياً ما ارتكب غير عالم انه اخذ بكراً فصيّرها أماً ، حتى اذا مرّت السنون ، جلس الضابط يوماً رئيساً على منصّة القضاء ومثلت امام المحكمـة بغىّ أتهمت بجريمة فحكم المجلس عليها بالنفى الى سيبريا وما كانت تلك البغي الا تلك الفتاة المسكينة ضحية شهوة الضابط الشاب وهو رئيس المجلس القاضي بالعقاب . على أن الشريف الروسى لم يجبن امام الحياة ولم يقتل ضميره ليحتفظ بمقامه ومجده ، عرف واجبه فودّع الدنيا وسار الى سيبريا جنباً الى جنب مع التى نفاها هو من المجتمع فنفتها العدالة الانسانية الى بلاد الصقيع والموت : ذهب الشريف الروسى قريناً للبغىّ الملوّثة ليبعث روحها من جسمها الذى دنّسه هو فجعله الباغون عليه من بعده مدفناً لروح الله المتجلية فى كل عذراء وفى كل زوجة مصون .

وكان الجهاد الأكبر ، وكان النزاع العنيف بين الجاني المخلّص والساقطة المضللة .

بمثل هـذا الفن الرائع يصور تولستوي الضمير الحى وسواء أكانت هـذه

الرواية بنت الحياة أم بنت الخيال ؛ فأن ربّ القلم الروسي قد رفع فيها مثالا للحق وخلق قدوةً للناس تشعّ نوراً على سبيل الفداء، وإقالة عثرات النفوس .....

أما انت، ياميشا جبران ، ايها الكاتب العبقرى ، ايها المفكر اللبنانى الذى يجول فى دمه شمم لبنان ، افما كان يجدر بك ، وانت تكتب لنا حياة علم من أعلام الادب فى الشرق أن تستنير بما فيك من نور وبما فيك من كرامة ،أفما خطر لك وأنت تورد لنا هذه العيوب بل هـــذه الجرائم سواء أكانت هذه الوقائع حقيقية أم خيالية أنك تسيء الى الادب العربى وتسيء الى الناشئة العربية التى تطلب من ارباب القلم أن يخلقوا لها المثُل العليا لا نتهاج سبيل العدل والكرامة والنخوة والمروءة فى الحياة.

لماذا كتبت لنا قصة جبران .

ألتشرح لنا فلسفته ولتحلّل لنا مباديه ، ولتمر على مؤلفاته ورسومه بنقد منصف ، أم لتنشىء لنا رواية كهذه الرواية الطويلة وهى خالية من الحوادث والمفاجآت والوقائع التي يصح أن تعقد عليها كل هذه الفصول .

إن رواية جبران التى استغرقت نيف وثلثمائة صفحة : اذا ما جردتها عما دسّ فيها من المحادثات والمناجاة ، انما هى عبارة عن قصة شاب مهاجر اشتغل بالفن والادب فعاش عالةً على إبرة اخته ، ثم على عاطفة عانس شمطاء أستغلّ العزلة التي قضى بها عليها قبحُ وجهها وتكوينها ، وقد كان بالوقت نفسه يفترس قربها فتاة فيحرمها عفافها ويستطرحها جنينها منه الى التراب . يذهب هذا الفتى الى باريس فيسبر اغوار الفن وينسى الفـــتاة التي أغواها حتى اذا لجأت اليه مدفوعة بحبها وبالحالة التى اوصلها هو اليها ، يكلفها مقاسمته فراشه خليلة ، ليعرّضها مرة أخري للحمل والاجهاض ، ويحاول إقناعها باتباعه على هـذا السبيل الضلول بأسم الحق

والحب والمبادىء العليا في الفلسفة والفن .

تذهب هـذه الفتاة ضاربة فى مجاهل الحياة حاملة عاره بعارها ، ويسدل المؤلف عليها الستار كأنها ليست شيأ فى الرواية ، مع أنها هى العقدة الوحيدة التي تستحق الدرس والتحليل واستنتاج العبرة منها

أسدل الستار على الضحية حتى فى ضميره. بطـل الرواية الذى يفكـّر بعد ذلك جدّياً بعقد زواجه على العانس طمعا بمالها وتثبيتاً لمركزه فى عالم الأدب والفن وطلبا للتنعم بالحياة ، فتجرح هـذه العانس معزّة نفسه بطلبها التيقن من نظافته . . . من نظافة جسمه . . فيذهب حانقا عليها ولكنه مُمرً فى قلبه اذ حال هذا السؤال دون ارتباطه بالعانس المسنّة القبيحة .

وتمرّ السنون فيصادف بطل الرواية بعض النجـاح ، ولكنه بقي يتلقّى من العانس التى تزوجت بارادته وبركته . . . الجمل الذى خصصته به

وأخيرا ، وأخيرا . . . يقول المؤلف ان بطـل روايته أحس بالعلل تنحل جسمه ، وبعـد ان كشفت الاشـّعة له دائه الكمين الذي لا شفـاء منه ، شعر بحاجته الي فتاة يقترن بها ، فساق القدر اليه فتاة شغفت بالكمال الذى صوّره البطل هذا فى اجمل كتبه ، فاراد ان يقترن بها ، متناسيا انه المدنف المحكوم عليه بالفناء ، غير ملتفت الى ما سيجّره على هـذه المسكينة من الاضطراب والمشقّات في سيرها معـه على طريق يوصله الى القبر ويوصلها الى الترّمل والوشاح الاسود . . .

ولكن هذا البطل ، بالرغم مما كان يعرفه من دنو أجله ، لم يتورع وهو على عتبة القبر من محاولة تدنيس عروسته ، فنفرت منه ، غير انه استغفرها فعادت

اليه ، ولكن الداء كان قد استفحل فى كبده فلم يمهله الاّ بضعة اشهر . . .

***

هــذه هى الرواية ، ولا أري من يطالعها بأمعان كرواية الاّ خارجاً منه بنتيجة واحـدة وهى ان رجلاً عبقرياً دعا الى الخير وناهض الشر طوال حياته قضي ايامه باستغلال النساء فعاش عالة على الاخلاص ، والجمال وحتى القبح فيهنّ . .

وهناك الجريمة الكبرى فى حياة هذا البطل جريمة افتراس عذراء وإرغامها بسلطان الأمل والاكراه الادبي على إسقاط الجنين . تلك فاجعة يمثلها كثيرون من مسوخ الانسانية في هــذا العصر ،ولو أن المؤلف وضع إسم (ميشلين) عنواناً لكتابه بدل إسم جبران ،لكنا نذهب الى أن القصد من تأليف هذه الرواية انما هو تحذير الأبكار من غواية ذئاب الادب وثعالب الفنون ...

لكن المؤلف يعلن انه يكتب حياة رجل من عباقرة القرن العشرين ،يكتب حياة صديق عزيز كان موضوع اكرامه ١٥ سنة ،يكتب ليبـيّن أجمل ما فى حياة صديقه الميت (كذا) وهو صراعه المستقب مع نفسه لينقيها من كل شائبة ويجعلها جميلة كالجمال الذى لمحه بخياله وبثهّ بسخاء فى رسومه وسطوره .

أين هو هذا الصراع الجميل ،يا ميشا ،يا صديق جبران ،وياصديق ...

إنك صـوّرتَ هذا المتنقل الي عالم الحق رجلاً شديدَ الشكيمة على مصائب الناس ، متساهلاً الى حد الأجرام تجاه نفسه ،صورته مغروراً متعجرفاً فى أدبه وفى فنه وأريتنا اياه فى حياته طفيلـياًّ يتمـشّى الخداع حتى فى صداقته مع العانس الجميـلة الأخلاق ،اريتنا اياه يمشي على دمـاء عذراء ودمـاء طفل ،دون أن يلهمه الادب الالهيّ الذي وقف الحياة عليه مايلهمه الضمير فى ايّ رجل عاديّ لم تتغلغل جهنم فى روحه ولم تتأكل المعصية جميع احشائه . بل أريتنا اياه ،وهــو يتأهّب

لمغادرة الدنيا مصاباً فى كبده بالقرحة التي لا شفاء لها ،يحاول ايضاً أن يضحيّ بفتاة خشعت أمام عبقريته وجمال روحه .... دون أن يبدو في سريرته أقل صراع لمقاومة هذه الجريمة التي لم ينفذّها الا لمعاجلة الموت له.

هذا هو جبرانك ،يا ميشا ، فكذبني فيه او امددني بما أكذّب به نفسي ، والا فقل لى أهذا هو الدّين الذى كان في عنقك فوفيته ....

دعني ،ايها المسجّى تحت ظلال الارز أن اسألك ما اذا كنتَ وقفتَ في حياتك امام صديقك ميشا وقفتك بعد موتك امام الديّان الذى لا يدين الضمائر الاّ ه ... دعني اسالك ما اذا كنتَ بحت له بجميع وقائع حياتك حتى ما كنت تنكره منها على نفسك — على حد تعبير صديقك نفسه — او اذا كنت أقمته كاهناً لضميرك واعترفت له بزلاّتك وجرائمك فهل انت جعلت نشرها على ملاء الاشهاد أمانة فى عنقه ....

إنك أدرى وأنت فى عالم الحق ، بالعوامل التي دعت صديقك الى القيام تجاهك وتجاه التاريخ بمثل هذا الواجب . فاذا كانت هنالك ضغينة عليك ،كما قال بعض الناقدين ، فلست أنت تدينه ولا انا أدينه ايضاً.....

الله وحده عليم بما تطوى السرائر فى أغوارها ، وانا تمشياً مع مذهبك ، وأخذاً بمذهبي ايضاً ، سانظر دائما الى الرسوم من أضوائها لا من ظلالها ، وخير لنا ان نواجه الوقائع بخير الظنون .

ان ميخائيل قد طغت عليه موجة من موجات الهامه كما قلنا فى بدايه رسالتنا هذه ، فهفا كبيراً فى هفوته كما هو كبير فى اصابته . وميخائيل كاتب محلل قدير يعرف كيف يصف المقدمات ويأخذ النتائج من قلبها ،وقد امتزج الشاعر بالكاتب فيه امتزاجاً يحطّ بالشخصيتين احيانا الى المهاوى كما يرفعها معاً الى مستوى

رفيع من آفاق التفكير.

ان هـذا الكاتب لم يقـدم على وضع تاريخ لحياة صديقه الا وهو مصمم على الارتفاع فوق نفسه وفوق صداقته وفوق الحوادث نفسها التى مشى جبران عليها نحو هدفه الأسمى. ويقيني ان نعيمه الذى شهد جبران يحتضر وينسلخ عن المادة تاركاً للتراب جثة حطمتها الأوصاب والعلل إنمـا وقف امام دنيا صُغرت في عينيـه فتطـلّع اليهـا مذدرياً كبارَها وصغارَها، غير ناظر الا الى بحر الأنوار الزاخر الذى تلوح المخلوقات عليه موجات تشـعّ وشيكاً وتختفى، فشعر هـــذا الـكاتب الفـذّ انه قد دخل هو ايضاً عُباب هذا العالم الخفى، واليك الصورة التى يرسمهـا ميخائيل عن هـذا العالم وقد لاحت له على وجه جبران الممـدّد امامه على فراش موته.

(وانا بجانب السرير افكر في القلب المحتضر امامى ودقاته من الاولى الى الاخيرة اين هى ؟ .... فيتراآى لى ان فى الفضاء حافظةً تعي كل دقة من كل قلب وكل شهوة وكل فكر وكل عمل وكل طرفة عين وكل حلم وكل نبرة وكل نَفَس. وان كل انسان ستتمثل امامـــه سيئاته يوم تتمزق فيه اغشية الحس عن عينيه وتنفك عصائب الوهم عن اذنيه فيبصر ويسمع كل ما كان من امره منذ صدوره عن مصدر الحياة حتى عودته اليه، بل يخيـّل الىّ ان تلك الحافظة كامنة فى اعماق الانسان من حيث لا يدرى يحفر حياته فيها مثلما يحفر الصوتُ فى صفيحة الفونوغراف، واذكر قول يسوع (لا خفىّ الا سيظهر) فأحسّ برهبة الدينونة وعدلها وارى ان يوم الدين هو اليوم الذى نسمع فيه (فونوغراف) حياتنا يردد علينا كل ما كان منا على ممر الدهور).

أفما ترى ميخائيل فى وصفه هذا يلمس عالم الاموات ثم يعود منه الى الحياة

وفى سريرته الاذدراء بالظواهر التي تخفي البواطنَ الى حين ؟ افما تراه بعد هذه الوقفة امام فراش الموت يكتب كتابه عن حياة جبران وهو يولي ظهره لكل اعتبار يأخذ به الناس ؟ افما تراه يهتك الاستار عن كل ما يمر بخاطره فيعتقده حقاً فيتكلم عن الروح كأنه هو روحٌ مجردة ايضاً حاسباً نفسَه في الدوائر العامّة من الكون حيث تظهر الخفايا وحيث تُعلَّل الاشياءُ على غير المقاييس التى تقبض عليها انامل أبناء التراب ؟

إن صراحة نعيمه المتخطية حدود المألوف إنما نتجت عن زهده بهذه الحياة بعد ان شهد فيها معنى الزوال فى تفجّعه على صديقه المسجّى امامه ، اما ما اورده رافلاً بهذه الصراحة من وقائع فما نراه نحن إيجاداً واختلاقاً ، بل نراه ناشئاً عن خطاء فى وضع المقدمات لاستنتاجه . واشد هذه الاخطاء هى اعتقاد ميخائيل انه جدّ مصيب فى اتخاذه وصفه لماري وميشلين قاعدة ثابتة فذهب من هذه المقدمة الخيالية يزن علاقات جبران بالفتاتين فيراها مثقلة بالخداع والاكاذيب والخيانة والاجرام . وهكذا نشر ميخائيل بين المعاصرين وللتاريخ استنتاجات مغلوطة فى اساسها وهو لا يعتقد انه يسيء الى صديقه وانه يلطّخ ذكره .

وهل كان ميخائيل ليولي اهمية للاعراض والحوادث الزائلة فى حياة جبران ، ما دام جبران ، في نظره ، لم يمرَّ بها الا ليتوصّل الى القمّة العالية حيث أشرف على الحقائق وعرف الكمال وهو يكتب للناس كتاب (النبي)

وكيف يرتاع ميخائيل على صديقه جبران مما وصف من حياته ، وهو يقول فى كتابه الى صديقنا الكاتب العبقري يوسف البعيني .

(إقرأ الكتاب فترى بلا شك انني نهجت فيه نهجاً جديداً ، وأنني قد تركت حبي وصداقتي لجبران جانباً كيما اتوصّل الى روح جبران العارية وجوهرها

الخالص وهذا الجوهر قد تجلّى لجبران في كتابه النبي ، وانا قد درجت معه في منعرجات حياته الكثيرة وكهوف نفسه المظلمة لأخرج به الى نور الحق الذى أبصره في النبي)

فنعيمه ، اذاً لا يرى ضيراً في جميع ما أورده عن صديقه من الحوادث ، ما دامت هذه الحوادث كانت صراطه الضّيق يجتازه ليقف أمام الحق ويبصر نوره .

لم يكن نعيمه ، إذا ، جانياً على جبران ولا متحاملاً عليه تشفياً . . .

كان نعيمه مخلصاً في رسالته ولكنه أخطأ لارتكانه الى مقدّمات اتخذها كأمور مسلّم بها دون بحثها والتدقيق فيها ، ولعلنا سنتوصل الى اثبات هذا الخطأ اذا ما استعرضنا المواقف التي استعار فيها المؤلفُ لسان جبران ليُنزل به أشد التقريع .

ففي موقف جبران تجاه ماري يشق المؤلف بصفاتها الأدبية فيجود عليها بالاخلاص والصراحة والعفاف وجميع الفضائل التي يحرم صديقه جبران منها .

وهل كان للمؤلف أن يعرف نوع عطف ماري على صديقه ، وهل كان متأكداً من أن هذه الفتاة كانت في عين جبران تلك الفتاة العانس الشمطاء العوجاء الشوهاء . . .

فاذا ما امتنع على الانسان أن يسبر أقصى عواطف كلٍّ من الرجل والمرأة في علاقتهما فمن العبث أن يقيم نفسه حكَماً بينهما فيقضي لأحدهما على الآخر .

وعلى كل حال فأن سيدة مترّجلة كماري لا تسودها الأنوثة قد تكون شخصاً مفكّراً أعتلى قلبه الى دماغه فصح أن يكون صديقاً لأمرأة كما يكون صديقاً لرجل ، وأن يستند كلا الصديقين الى الآخر دون أن يكون للعاطفة

الجنسية أقل دخل في هذه العلاقة .

بماذا نلوم جبران اذا كانت ماري صديقة له ، وقد اتضح من ثباتها على الولاء وثباته هو عليه حتى بعد زواجها انه لم يكن هنالك عاطفة يصح ان يستتر جبران وراءها لخدع هذه الفتاة وأستغلالها .

وبعد فما حجّتنا على جبران ، فى حين أن ماري نفسها باستمرارها على ولائها له حتى آخر حياته تعلن لنا وهى المرأة الذكية الفؤاد الصريحة التى لا تخدَع ولا تخُدع ، على حدّ وصف المؤلف لها ، أن جبران خير صديق لا تشوبهُ موأربة ولا يدنّسه خداع .

أنظر الصفحة ٢٦٤ حيث يقول ميخائيل في كتابه .

« وهناك في تلك القاعة — حيث عرض جثمان جبران — تعرّفتُ بماري هاسكل التى قدمت من سافانا البعيدة لتحضر الدفن فرأيت الرصانة والبساطة والدعة ورحابة الصدر فى كل ملامحها حتى في ثيابها ولم اقرأ فى وجهها حزناً ولا سمعت فى صوتها غصة بل حدّثتني حينئذ ومراراً بعدئذ عن جبران كما لو كان لا يزال حيا ، وانا مدين لها بالكثير مما صوّرته فى هذا الكتاب عن علائق جبران معها ومع ميشلين . »

فاذا كانت ماري وهي الحكيمة الصارمة فى مبادئها وأحكامها لم تزل ترى في جبران الرجل الذي يحق له الاحترام والاعجاب وهى تعرف علاقته بميشلين ، فما ذلك الاّ لأنها تعتقد أن ليس هنالك جناية ارتكبها جبران فى هذه العلاقة ، فهل ان المؤلف عرف ما لم تعرفه هي ؟ أيكون جبران إذاً هو الذى اعترف لميخائيل بهذا الجرم فجاء هذا الصديق يعلنه للملأ بعد موته ؟ . .

اننا نرى على كل حال شيأ كثيراً من التخبّط فى التحليل الذي يأخذ

به المؤلف حين يتكلم عن الأخلاق فى أقاصيصه عن جبران ، فاسمع ما يقول فى الصفحة ١٥٩ .

(ومن حين الى حين كانت ماري تزور جبران فى نيويورك فيجعل بيته بيتها وسريره سريرها) . . .

فهل كان جبران يتخذ سريرا له فى فندق ، أم ماذا ؟ . .

إن من يقرأ حكاية ماري وميشلين لا بد له من ان يصل من وقائعها الى نتائج تناقض تماماً ما يريد المؤلف اثباته عن فضائل هاتين الفتاتين .

أفلا يتضح من هذه العلاقات المتداخلة المتراكبة أن ماري كانت عاشقة لجبران تبذل كل شيء فى سبيل استعباده لها فتجود بمالها وتجود حتى بأنفسها بالموافقة على علاقات معشوقها بفتاة جميلة تنسيه قبحها ؟ . . .

فجبران بعد هذا لم يكن غير رجل يساير قبيحة لقاء مال ولقاء قيادة . .

إني والله لأقف حائراً امام هذه المقدمات وهذه النتائج فلا أعلم كيف أُعلل هذا الشطط . ويؤلمني جد الالم ان أرى ميزان الانصاف مختلاً مثل هذا الخلل فى يد كاتب عرفته وقاد الفكرة صائب التعليل .

أما ميشلين التي وصفها المؤلف كما رأيت والتى لا نعلم اذا كان عرفها شخصياً فأننا ننظر اليها بغير العين التى رآها نعيمه بها . غير اننا نتحاشى الوقوف موقفه من الجهة المقابلة ، فلا نحكم عليها لنبرر جبران كما حكم هو على جبران ليبررها ، بل نستميح القراء والمؤلف أن نتساءل فى نفسنا عما اذا كانت هذه الحسناء الغامضة الاصل والمنشأ لدينا كانت لم تزل حتى عرفها جبران تلك الصفحة البيضاء الناصعة البياض ، وهل لم يكن « شعرها الذى يكهرب اليدين الى حد أن الناظر اليه ، لولا قوانين الحشمة واللياقة لما تمالك نفسه من لمسه وتمسيده »

قد صادف مُقدرا حساساً كميخائيل ووقحاً كجبران فعبث على الأقل بهذا الشعر الطافح بالشهوات . . .

أفَـا نعذر إذا نحن ارتبنا ولو جدلاً بحشمة هذه الفتاة التي لم تكن قاصرة وهي في العشرين (ويحق لنا ان نرتاب قليلاً بهذا التحديد لسنّها لأن من أغرق هذا الاغراق في وصف صفات ميشلين لا بد له أن يكون اقتطع من عمرها اربع او خمس سنوات على الأقل) ليسمح لنا أن نرتاب ، ولريبتنا تعليلها ، بهذه البكارة التي قاومت طوال السنين عبّاد الجمال في بابل القرن العشرين في بلاد الحرية المضلّلة والنور الاقتم لتحتفظ بوريقات زهرها ينثرها جبران في الحقول التي لا مالك لها والتي يرتعي بها كل عابر . . .

إن التي تصل الى العشرين وما بعدها وهي محتفظة بعفافها لا تبذل هذا العفاف لقاء قصيدة او مقال ، ويعلم قدماء رجال القانون ،ونحن والحمد لله منهم ، أن الاغتصاب حتى المعنويّ منه انما هو في الاغلب ، اذا ادّعته فتاةٌ راشدةٌ ، إيجادٌ وتدبير واختلاق .

فاذا كانت حادثة جبران مع ميشلين واقعية ،فما هو المرّجح الذي أخذ به المؤلف ليقول بالاغواء ،ويوقف ميشلين في مطالبتها غاويها موقف العذراء المهتوكة العرض تتقاضى حق حياتها سلطانة على عرش الزواج ؟ .

إننا نعتقد ،ولا موجب معقول لدينا يحوّلنا عن هذا الاعتقاد ، أن جبران لو أنه كان أغوى ميشلين بل أية فتاة أخرى من أية طبقة من البشر وسلبها عفافها لما كان تردّد لحظة في افتداء زلّته بكل أيام حياته .

إن الكاتب المفكّر الذي يدعو الناس الى الصلاح بمثل ما دعا جبران قد يتمرغ في حمأة الشهوات ،وقد يسقط كثيراً ، قد يرفع كثيراً الى فمه الثمرات المهترئة

التى تأكلها الدود او رمت الاعاصير بها الى الارض ،ولكننا لا نعتقد بأن رجلاً يصح أن يطلق عليه أسم رجل يمكنه أن يقتطف ثمرة لم تزل تنعقد على زهرتها ليطبع أنامله وأسنانه عليها،ثم يطرحها على مزابل الانسانية طعمة للجائعين من ابناء الشهوات ...

أما الجنين ، فكنا نود لو يتسع او يلائم المقام لكلمة مطولة عن موضوعه ، ولكن يكفينا أن نقول المؤلف انه « يبوح على ذمته » او يستنتج ضلالا ، كما نريد أن نعتقد ، جرماً له تحديده وعقابه فى شرائع جميع الأمم والازمان ونحن نسأل هذا المؤلف ، وهو صديق المجرم المفترض ، هل كان يبوح بمثل هذا السرّ الذي يدّعى معرفته فى زمن وقوعه فيسلم للقضاء من أودعه هـذا السر فيرسله القضاء الى السجن ...

أن العدو فضلاً عن الصديق لا يفعل هـذا ،فكيف يُقدم عليه نعيمه بعد موت جبران ،أيحسب محكمة الرأى العام والانسال الآتية أقلّ صرامةً من المحاكم القانونية ؟ ...

لقد عرفنا نفس جبران جائعة الى الحب عطشى الى العاطفة الثابتة التى لا ترتوي بسواها نفس الاديب الحقيقي ، وعرفنا جبران ايضاً أشدّ الاصدقاء ثباتاً فى صداقته ، فهل يُعقل أن يكون هـذا العبقري وجد في ميشلين أخت روحه المنشودة ولم يشبع عواطفه باتخاذها خليلة له ؟

إن جبران كان منذ اوائل شبابه يحنّ الى استكمال نفسه بما فرضه الله على عباده ، وهذه زفرة من زفرات قلبه كان أرسلها منذ نيف وربع قرن الى صديقه جميل بك المعلوف تهنيئة له بزواجه ، وكنا نشرنا هـذا الكتاب فى جريدتنا لسان الاتحاد فى شتاء سنة ١٩١٠

وهذه فقرات من الرسالة المذكورة ننقلها عن مجموعة الجريدة

(أنت ياجميل ، قد التقيت بالنصف الحقيقي ، وهذا أجمل وأشرف لقاء يحدث امام وجه الشمس . أنا اعتقد أن فساد الجامعة البشريه قد نتج عن لقاء الرجل بنصف غيره وبقاء المرأة مع نصف سواها ،وأعتقد أن ثمرة الزواج الفاسد تكون فى أكبر المواطن فاسدة ،فالمجرمون والاشقياء والخاملون هم ابناء النفور الروحي الكائن بين المتزوجين .)

الى أن قال

(والآن ، في سكينة هذا الليل ، اطلب منك أن تفعل امراً صغيراً لتكريم جبرانِ ،وهو هذا ، عندما تعود فى المساء من ادارة اشغالك الى منزلك وتجلس مع قرينتك الى مائدة العشاء ، ارجوك أن تقول لها هذه الكلمات .

لنـا ، ياعزيزى ، صديق وراء البحار يحبنـا كثيراً لأ ننا ابناء المحبة ، وهـذا الصديق يطلب من السماء أن نكون اليوم وغداً وبعـده وإلى الأ بد مثل جناحين مرفرفين على جانبي كرّة الشعاع العلوى ، ويرجو أن يكون المستقبل منبسطاً أمامنا كالحقل الجميل فى أيام الربيع ، ويرجو ايضاً أن يلتقي بنا يوماً فيرى أولادنا بجانبنـا كالأغراس بجانب الجدول العذب ، أما اسم هـذا الصديق العائش بعيداً عن نصفه الحقيقي فهوجبران خليل جبران)

اليوم وغداً وبعدَه والى الأبد : ! . .

هذا هو الحبّ الذى كان ينشده جبران مثلاً أعلى يصبو اليه ؛ وما هو معنى الرقيّ فى الروح اذا كان لا يوصل الانسان الى الظفر بلذة الكمال ؟

أحبٌ هو ، ذلك التمتع بشهوة أولها وهمٌ وآخرها ندمٌ ومرارة ؟

أحبٌّ هو هذا الجمع بين اثنين يُشدّان على قيثارة الحياة وترين ينشذ صوت كلٍّ منهما عن صوت الآخر ؟ .

أحبٌّ هو هـذا الحب القائم على الشكوك والارتياب وعدم الثقـة الكاملة من الجانبين ؟

أحبٌّ هو هذا الحب الي يحاذر الواحد فيه أن يرتبط بالآخر أمام الله والناس؟

إنَّ كتاب جبران صادرٌ عن باريس ؟ بعد مضيّ سنتين على قدومه اليها ، فهل كان جبران يعني ميشلين بنصفه الحقيق ؟ وكان قد طردها من بيته أو هي طردت نفسها منـه . ليست إذاً ميشلين من يعني وقد كان بامكانه أن يقترن بها فلم يفعل ، فالزفرة التي يصعّدها في كتابه لجميل انما يتجلّى فيها يأس العبقري وعثرات آماله في سيره وراء مثَـلِه الأعلى .

إنَّ نعيمة يورد لنا الكلمة الآتية عن حالة عواطف جبران (صفحة ١٥٨)

(وكاد ينسى كل ما كان يقدّسه في أول شبابه لا سيّما الحبّ ، حبّ المرأة ، فقد صار يرضى بالمرأة شريكة له في فراشه ولا يرضاها شريكة في قلبـه وفكره وروحه)

ولكنَّ نعيمه ، لاعتباره ان جبران كان يخدع النساء ولايخدعنه ، ذهب في إسناد هذا التبدّل الى ما أبقته مطالعة كتاب نييتشه من أثر في نفسه .

لا ياصديقي ، إنَّ جبران لم يكن صبيـاً عند ما قرأ نييتشه ليسطو عليه بطل روايته باقواله ، إنَّ اليأس لا يسطو على قلب المفكّر من مطالعته كتاباً ، فالعبقريّ لا يتأثر الاّ مما يرميه كتاب الحياة بوجهه وهو يقلّب صفحاته .

لماذا لا تقول أن حظّ جبران من الحبّ كان كحظوظ العباقرة الذين تقدّموه

فى هذا السبيل أفما نقلت لنا ، يا ميشا ، ما قاله جبران عن المرأة التى دعاها بالساحرة ؟

إسمع :

(ولكن قفي قيلاً ، أيتها الساحرة ، فها قد استرجعتُ قولى وكسرتُ القيود التى برت قدميّ وسحقت الكأس التى شربتُ منها السمّ الذى استطيبته ، فماذا تريدين أن نفعل ، وعلى أية طريق تريدين أن نسير) .

فهل هذا قول رجل غيّرت قلبه نظراتُ فيلسوف ، أم هى صرخة مُخلص تقيّد بسلاسل الحب ليتحرّر فى عبوديّته فاذا هو فى أغلالٍ تبري قدميه ، وكرع الكأس يطلب فيها الكوثر فاذا هي تقطر الغسلين فى فمه .

أكان من السهل على جبران ان يجد المرأة التى تُجسّم ما صوّرته ريشته ويتجلى فى أخلاقها ما خطه قلمه ؟

ما معنى هذا الهتاف يضعه المؤلّف فى فم جبران ؟ :

(يا ليت روح ماري فى جسم ميشلين)

أفليس فى هذه الكلمة التى يوردها المؤلف فى معرض تقريع جبران ، ولعلها من القليل الذى أصاب حدثه فيه ، الدّليلُ الذى كان يجب على هذا المؤلف ان يقف عنده ليشرف على أغوار بعيدة في روح جبران لو انه اكتشفها لقادته حتماً الى تعديل حكمه فيه .

إن جسم ميشلين كان صورة من تلك الصور التى تدفقت جمالاً من خيال جبران تحت ريشته ، ولكن روح ميشلين لم تكن فيها تلك الصفات العليا التى أدركها جبران بروحه فانزلها سوراً على قلمه

أفلا يتجلّى لنا يأس جبران من الحبّ فى تصميمه على الاقتران بصديقته ماري ؟ وهلّا يرى المفكّر المنصف فى هذا القرار أن هذا الرجل الذي

رست عبقريته على عنصريّ الحكمة والجمال كان سيقضي بالطلاق بين هذين العنصرين في كيانه بعد ان انحطم أمله أمام الجمال ؟ وكان الجمال أحد ربّيه في اتجاهه نحو إلهه .

من يدري ؟ . . من يدري ما انكشف لبصيرة جبران من ماضي ميشلين ومن حاضرها ، ومن ماضي غيرها وحاضر غيرها ، وبل ومن يمكنه أن يعلم على اية طريق من الشوك مشى جبران متراجعاً عن الهيكل الذى حمل اليه روحه بكلتي يديه ؟! !

أيُلقى اللوم والتقريع جُزافاً على رجل كان كل همّه فى الحياة ان يظفر بالسعادة ، لا لسبب الا لأن هذه السعادة أفلتت منه وطفرت تهزأ باخلاصه وجهوده ؟

إن جبابرة الفكر يعشقون الجمال على الارض وهم يتطلعون الى جمال السماء ، فما ذنبهم اذا أفلت جمال الأرض منهم وهو فى لمعانه الزائل يزحف على التراب ويلتصق بالزائلات ؟ . . . .

إن التي تنعقد على مفرقها ضفائرُ الورود قلّما يمكنها أن تُساير الجبَّارَ المكلَّل بالشوك المرتقي جلجة التضحية والفداء . . .

لقد رأى نعيمه فى جبران شخصين منفصلين ، أحدُهما العبقريّ الفذّ فى إلهامه وتفكيره ، وثانيهما رجل الدولار والشهوات ، فنعيمه يحشر مبادىء المسيح ومحمد وفلسفة الشرق والغرب من جبران فى جسد رجل أميركيّ من الطراز الماديّ المحض ويسير به من أول حياته الى أخرها ملاكاً تقمّص شيطاناً ، فلا الملاكُ رضي عن شيطانه ولا الشيطان اتعّظ بلاهوت ملاكه !!

أما نحن فاننا نرى جبران إنساناً بلغ مدرجاً عالياً من سلّم الارتقا ، فليس

هو بالنبيّ المعصوم ، وليس هو ايضاً بالتاجر المتأمرك ، فحياة جبران لم تكن الاّ مراحل طال جهاده فيها طلباً للحق والجمال يهدي اليها نفسه ويهيب بالناس الى اتبّاع السبيل للوصل اليها . . . .

لقد جاء نعيمه بوصف لجبران اتخذه من تعبير رؤيا رآها ، فهو حتى من الرؤى يريد ان يثبت عليه ميولاً عالميّة وشهوات مضللة ، قال .

(والأفعى الخارجة من النهر هي ميول جبران العالميّة وتعطّشه الى مجد العالم وملذاته وعظمته ، وهي التي أفسدت عليه طهارة نيته ونشوته الخيالية وقضت على أمنيته الكبرى ، أمنية التوفيق بين أعماله وأقواله والتوحيد بين ذاته الظاهرة وذاته الخفية) . . . .

فكأن نعيمه ، وهو نفسه الأديب الكبير الذى مضّى حياته بالسعي وراء المال متاجراً ومضاربا فى بلاد الجهاد الماديّ العنيف ، ما كان ليرضى عن جبران الاّ اذا تغذّى بكسرة خبز وارتدى المسوح وجال فى الازقّة مستعطياً . ومع ذلك فما هو هذا التعطّش الى أمجاد العالم وملذاته الذى أفسد على جبران حياته الروحية . أتريد أن تعرف ما كانت هذه المطامح والمطامع ؟ إذاً ، فاقرأ فى الصفحة ١٧٢ من كتاب نعيمه :

• (وعلاوةً على ذلك فحجر الرحى ، رحى الفاقه ، الذى كان يحمله على عنقه منذ فقد أمّه وأخاه وأخته ، أوشك أن يتحوّل الى قلادة من ذهب ، فقد صار جبران ينام من غير أن يفكّر بحاجاته اليومية من أكل وشرب ولباس ومأوى بل أصبح فى كل شهر تقريباً يودع قيمة من المال في البنك ، وال ٧٥ دولاراً من ماري ما فتيئت تأتيه في مواعيدها فاستعاض عن نور الغاز في محترفة بنور

الكهرباء وعن وجاق الحطب بوجاق من الغاز ، وجاء بتلفون) ....

اذاً ، منذ قدم جبران الى نيويورك كان لم يزل يستنير بالغاز ويتدفأ بالحطب ولا يأمن الجوع والعري في غده . . .

كانت مرت أجمل سني "الشباب على هذا الرجل المعلق" أبصاره على آفاق الفكر والفن فما استهواه إله مانهاتن ولا استعبدته عاهرات الحياة . . .

بين تلك الملايين المصابة بحمى" العجلة وبجنون الضخامة فى الابنية والارقام والمشروعات ، حيث يتورم كل مجموع ويهزل كل فرد ، حيث ترى الابنية تنطح السحب وسيعةً عالية كأنها مدائن معلقة بين السماء والغبراء ، ومكان الفرد فيها يكاد لا يكفي لايواء طوله وعرضه فاءن وقف نطح السقف وأن تمدد احتك رأسه ورجلاه بالجدارين . . . في مانهاتن ، محشر شعوب الدنيا حيث يحيا ألوف الألوف بالنصب والعياء ولا يموت واحد منهم حتى كنّاس الشوارع ومسّاح الأحذية الا" وهو يحلم بأمتلاك الملايين ويسعى لبناء ناطحة سحاب يباهي بها شعوب الارض . . . ، هنالك مشى جبران غير ناظر الا الي ريشته وقلمه ، وقد كان قلمه العربي" وهو يكتب لأ ُمته وبلاده عالةً على ريشته التى قدرها الغرباء ولم يشعر الشرق بنبوغها حتي اليوم .

ولو أن جبران كان متعطشاً الى أمجاد العالم وملذاته ، لكان سعى كما سعى ميخائيل نعيمة على الأقل ضارباً في مناكب الصنائع والتجارات معرّضا حظه لخطرات الحظوظ ، غير أن جبران بقي معانقاً ريشته وقابضاً على قلمه ، فهو لم يكسرهما ، بل لم يحطّم على الأقل هذا القلم العربي الذى كان شؤماً على جميع أجناده ، ذلك لأن جبران كان طماحاً الى ملذات وأمجاد لا تنال بالمال ولو أنه أراد

ثراء وطمح الى التنعم بملذّات الدنيا ، لكان حوّل عبقريته الى استغلال الحياة المادّية فى بلاد يتوصل مخترع تجميد (الشوكولاتا) فيها الى ربح الملايين . .

على أن ميخائيل لم يكتف باتهام جبران بالمادية فى حياته بل ذهب الى أبعد من هذه التهمة إذ أدانهُ وشددّ النكير عليه لتألمه من إنكار الناس فضله ومباهاته بعد ذلك لتقديرهم نبوغه ، ونعيمه يعجب لرجل يعلّم الناس ويحتقر معائبهم ثم يهتّم لما يقولونه عنه : إنه لغريبٌ هذا الرأي من كاتب كانت له رسالته في سبيل الحقيقة ، فهو يريد أن يكون المصلح مقرعا للناس فى ضلالهم وأن يضيف الى دعوته احتقار من يدعوهم الى سواء السبيل ، ولا ينتبه نعيمه الى التناقض الذى يبني عليه مبدأه الجديد ، فهو يريد أن يجعل الاصلاح للناس شتيمة واذدراء فكأنه لا يعلم أن الشتّام المحتقر لا يهتّم للناس ولا يقول كلمة في سبيل إقامة حقهم ودحض باطلهم . إن الثائر على الفساد لا يبغض الفاسدين والداعية الى الخير لا يحتقر الاشرار ، وما أحب الانسانية مثل من أبغض شرّها . من لا يحزن لحبوط مساعيه ويفرح لتقدير الاشرار لها قبل الاخيار لا يستحق أن يسير فى فيالق المصلحين

إن ميشا يريد أن يحطّ بصديقه الى ما دون مرتبة الانسانية او هو يريد رفعه الى ما فوق مرتبة الرسل والانبياء وفوق مرتبة كلمة الله نفسها

اقلب صفحات الانجيل ، واذا ما وصلت الى (متّى ص ١٦ عدد ٣) فاقراء .

(ولما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا ما يقول الناس عني ، أنا ابن الانسان ؟ فقالوا — قوم ، يوحنا المعمدان ، وآخرون ايليا وآخرون أرميا أو واحدٌ من الانبياء .

(فقال لهم — وأنتم من تقولون إني أنا ؟

(فأجاب سمعان بطرس وقال — أنت هو المسيح ابن الله الحي .

(فأجاب يسوع وقال — طوبى لك يا سمعان بن يونا ، إن لحماً ودماً لم يعلن لك ، لكن أبي الذي في السموات) .

* * *

أرى القلم يسير ويسير ، وفي كل صفحة من كتاب نعيمه ما يستوقفه ليدفعه الى ما تلاها ، لذلك أقف عن مجاراة هـذا القلم في تحليله المفصّل لوقائع حياة جبران ولما دسّه المؤلف فيها من أسرار أسندها اليه وفرضها عليه فرضاً لأقول ان نعيمه أوقف صديقه أمام المفكّرين وقفة الرجل الحائر الذى عزف عن عالم الظاهر وما اهتدى من عالم الباطن الى شيء . ذلك لأن ما اورده عن لسان جبران من التفلسف في أصول الاشياء في مختلف مواقفه يعرض للناس من القلق الفكري ما يضلّل حكمهم في حقيقة مذهبه وهذا الاستاذ عباس العقّاد المفكر الواقف على فلسفة الشرق والغرب قديمها وحديثها يقول عن جبران على أثر مطالعته كتاب نعيمه ، إنه نصف درويش . . .

بدأت رسالتي لأتكلم عن حياة جبران ، أما وقد استخرج نعيمه من هـذه الحياة ما يمس صميم فلسفته ، فأجدني مضطراً الى تناول هذا الموضوع بكل ايجاز .

قال العقاد :

(لا ريب أن المعجبين الكثيرين بجبران سيعرفونه في هذا الكتاب فوق ما عرفوه ويسبرون من أغواره أعمق مما سبروا)

فلا ريب إذاً في أن العقاد نظر الى جبران وهو يسبر الغور الأعمق الذي وصله نعيمه اليه وهو يوقف جبران كقصبة تهبّ عليها الرياح من بلايك والعواصف

من زردشت نيتشه ، والعقاد يرى جبران فى هـــذا الموقف عند ما يحلل شخصيته قائلاً :

(وفى الحق إن القارىء لا يستطيع أن يضع جبران فى وطنـه الفكرى ما لم يعرف هـذه الصلة بينه وبين بلايك ونيتشه مجتمعين وكلاهما « درويش » فى عالم الفكر يرى بعين الباطن ما ليس ينكشف للعيان الظاهر)

الى أن يقول .

(أمّا ملاحظاتى عن جبران الدرويش فهى انه نصف درويش فى الحقيقـة ولكنه يلبس مسوح الدراويش الـكاملين ، فالدروشة الصوفية تستلزم فى صاحبها خصلتين متعاقبتين لا مناص للجمع بينهما للدرويش ، إحـداهما العزوف عن عالم الظاهر ، أو عالم الشهادة أو عالم المادة أو عالم الاوضاع والاكاذيب ، والثانية الالفة والاستقرار فى عالم الباطن أو عالم الغيب أو عالم الارواح والحقائق والأسرار .

(وجبران عنده الخصلة الأولى وليس عنده الخصلة الثانية ، فهو عازفٌ عن عالم الظاهر ولكنه مستقرٌ فيه ، لا يرى العالم الباطن الاّ من بعيد ، وهو فى فنـه صاحب خيال يفهم أن الخيال هو الانطلاق من الواقع الحق ولا يرى أن الخيـال هو الواقع الحق مجلواً فى نور الفخامة والجلال .)

وقد أتى العقّاد بايضاح موجز لمذهب الصوفية على غاية من الدقة ليقول لنـا أخيراً إن جبران فى نفوره من العالم الظاهر وقف عند حدّ الزهد به ولكنه لم يملك صورةً للعالم الباطن المحجوب ، ولذلك لم يكن له وسيلة لتصويره الاّ بايراد نموذج الظاهر مقلوباً .

اذاً ، إنّ جبران فى نظر العقّاد إنّمـا هو هدامٌ للصروح الزائلة فى الظاهر

يأخذ من أنقاضها ما يلزمه لبناء صروح المحجوب معكوسةً فى أوضاعها ، والعقّاد يؤكد لنا أن الدرويش الكامل يقدر على رسم الباطن كما يدركه بوجدانه .

لا نقصد ولوج باب الصوفيّة فى هذه الرسالة الموجزة للسير مع العقّاد في مجاهلها فنحن إذاً لا نتناول الموضوع الاّ من وجهته المتعلقة ببحثنا فقط .

إنَّ العقّاد يرى بلايك ونييتشه درويشين فى حين أنه لايجود على جبران الاّ بلقب نصف درويش ، أما بلايك ، فمؤلف كتاب جبران يقول عنه نقلاً عن تأريخه انه ما جاء بمؤلفاته الأخيرة الاّ بانشاء ملئ بالتشويش اللغوى يذهب بالقارىء الى القول بجنونه . أما نييتشه ، أو زردشت الذى أبدعه فليس الاّ جاحداً يرى الظاهر مبتلعاً للباطن أو بتعبير آخر يرى ارادة المخلوق مردية للخالق ، فهو يسقط الله عن عرشه ليرفع عليه الانسان الكامل . . .

فأية الصورتين ، يا ترى ، رآها العقّاد أمامه جليّة عن عالم الباطن مما كتب بلايك ونييتشه .

أغموض الاول وهذيانه ؟ ، أم كفر الثانى ووقاحته ؟ . .

ثم أنني لا اري لماذا يجارى العقّاد نعيمه فى جعل جبران تلميذاً لبلايك ونييتشه ، ألأن جبران تنازعته الشكوك فى حياته ومرّ فى مآذق الحيرة ، يجب أن يكون تابعاً لهذين الفيلسوفين ؟

أفليس فى طبيعة كل انسان أن تتنازعه الارض والسماء ، أن تشدّه قوة العالم اليها وترفعه أشواقه الروحية الى آفاق نفسه فى العالم الباطن ؟

أننسى التوراة والانجيل والقرآن وقد أغرق جبران فيها روحه ، وننسى الأمام الغزالى والقديس اوغسطينوس وسواهما لنذكر بلايك دون سواه معلماً لجبران فى روحانيته . . .

أ ننسى ألف كاتب وكاتب من مشككي الشرق والغرب ، بل أ ننسى التراب نفسه فى الانسان وعراكه المستمرّ مع الآمة ووثبات أعصابه فى كثير من أدوار حياته لنذكر فقط اقوال زردشت كأنها السبب في جنوح جبران أحياناً نحو القوة التى يقول عنها بأنهـا قد تظفر يوماً ولكنها تتقهقر ابداً في معترك الحق مع الباطل .

أما ما قيل عن جبران بأنه نصف درويش لعدم أتيانه بصورة جلية عن عالم الغيب ، والارواح والاسرار ، فأنه ليدفع بنا الى القول بعدم وجـــود أى درويش بلغ الكمال على أساس هذا التعريف .

أين هو هذا الدرويش الكامل الذى يشير اليه العقاد ويحدده بأنه « من رأى الظاهر والباطن على السواء ، ومن قد يرى الغيب حاضراً فى العيان »

فهل من علاّم للغيب الا الله ، يا ترى ؟ . .

* * *

إن كل ما أعطي للانسان أن يستشفه خلال إنسانيته ، انما هو الشعور بمحال زواله والتيقن من أنه سيعود حتماً الى مصدره .

وَحسبُ المؤمن فى حياته أن يتوّصل الى ما توصل اليه « مصطفى » جبران إذ قال (ولـكن لا قبور ههنا . . . لأن هـذه الجبال والسهول إنما هى فى الحقيقة سريرٌ ومرقاة)

وَحسبُ الدرويش الكامل أن يبلغ هذه العقيدة التى يعلنها جبران بلسان مصطفاه ، وهى .

(إن الحجاب المسدول على عيونكم سترفعه اليدُ التى حاكته والطين الذى يسدّ آذانكم ستنزعه اليـد التى جبلته ، وحينئذ تبصرون ، وحينئذ تسمعون دون

أن تتحضروا على أنكم كنتم عميانا او صماً لأنكم فى ذلك اليوم ستعرفون المقاصد الخفيّة فى كل شيء ، وستباركون الظلمة كما تباركون النور . . .)

* * *

لقد استدرجنا البحث الى صميم مذهب جبران فلا بد لنا اذاً من أن نورد ما قاله نعيمه عنه فى الصفحة ١٤٥ .

(فأخذ جبران يقرأ لى أمثالاً وقصائد دخلت كلها فيما بعد فى كتاب المجنون ومنها قصيدته المنثورة فى « الله » وعند ما بلغ ختامها حيث يقول . (أنا جذورك فى الارض وأنت زهرتى فى السماء ، ومعاً ننمو أمام وجه الشمس)سألته وما هو هذا الاله الذي تنمو واياه امام وجه الشمس ، أو ينمو الله ، وكل ما ينمو يشيخ وينحّل ، وكيف ينمو هو أمام وجه الشمس العلّ الشمس أقدم منه أم انت تعنى أن ادراكك لله ينو بنموك . ؟)

فأجابنى أن له رائياً خاصاً فى الله سيشرحه لى في وقت آخر . لكن ذلك الوقت لم يأت لأن جبران عاد فوجد الهاً لا ينمو ولا يزيد ولا ينقص ولا يتغير ولا يتحوّل .

إن نعيمه قد أخطأ كثيراً فى قوله تعمياً بان كل ما ينمو يشيخ وينحلّ لان هذا الحكم لا يتناول الروح وادراكها للحق وما تشيخ الروح ولا تنحل بنموها وتكاملها ، بل بهما تتغلّب على الانحلال لتبلغ القوة والخلود .

هذا ما قاله نعيمه فى كتابه الذى ألفه فى لبنان سنة ١٩٣٤ ، واليك ما كنت ألقيتهُ في محاضرتى فى النادى السورى فى الاسكندرية عن الموضوع نفسه سنة ١٩٣١ .

(أما دين جبران الخفىّ المستقرّ فى أعماق نفسه ، ذلك الذي استوحاه كلّ حكمته فهو مقنّع فى سطر واحد من كل ما كتب فى حياته ، سطر قد يمرّ به

الكثيرون دون أن يستوقفهم مغزاه ، وقد يستوقف البعض وعلى شفاههم ابتسامه الشك أو تبرّم اللعنة .

أن دين جبران يتجلى في صلاته بهذه الكلمة موجهة الى ربّه الذى يشعر به فى أعماق ضميره

(إلهي ومقصدي وكمالي انا أَمسك وأنت غدي ، أَنا جذورٌ لك فى التراب وأنت أزاهر لي فى السماء ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس)

(تلك صلاة الكفر والجحود لمن لا يدرك قول عيسى ، ها أن ملكوت الله في نفوسكم . فأن جبران يوجه توسلاته الى ما فيه من نسمة الله الكائنة فى كل انسان ، فهو يتجه الى سبيل الله فيه ، لا الى الواحد الاحد الكامل المستغني عن النمو مع مخلوقاته أمام وجه الشمس)

وما خفي هذا التأويل عن بصيرة نعيمه اذ قال . (أم أنت تعني ان ادراكك الله ينمو بنموك) فما معنى عدول نعيمه عن هذه الحقيقة التي نفذ اليها ليقول أن جبران عاد فوجد الاله فيما بعد .

ما كان جبران فاقداً إلهه فى أي دور من أدوار حياته ليعود فيجده ، أفليس فى قوله مقصدي وكمالي مقصده هو وكماله هو لا مقصد الله ، ولا مقصد ينتهي تعالى اليه ، ولا كمال يتوجه نحوه بعد كماله . فروح الحق الأعلى لا حدّ فيه ينتهي عنده ولا تكامل يتدرج عليه .

أَفما ترى أن جبران عاين بذاته المركّبة نسمة الحياة التي نفخها الله فيه فرأى ما به من زائل أمساً له وما فيه من نسمة الخلد غداً يتوقعه فلاحت ذرّات ترابه جذوراً فى التراب وانجلى ملكوت الله فيه ازهاراً فى السماء . .

ذلك ما عاينه جبران ، وليس هذا ما يعاينه أنصاف الدراويش ، فأن الفارق

فى موضع السرّ لا يعاين الاّ النسمة التى خصّها الله به من روحه : ما هي الاّ (الباب) الذى ينفذ منه الى السبيل المؤدّي بعد الموت الى أول المرحـــلة الاخيرة الموصلة للفناء بالله ، وليس هذا فناء بالانحلال بل فناء بالخلود .

حسبُ المرء من دهره أن يعرف نفسه ويعاينها ، أما معاينة (وجه) الله المتعالى عن كل عيان فليست مما أعطي للبصيرة أن تناله ما دام البصر نفسه يحجب عالم الوحدة المطلقة عنه .

فهل نكفّر جبران بعقيدته كما كُفّر الصوفيّ عندما قال (أنا الحق) ففهم الناس منه أنه يدّعي الألوهية سلطانة الازل والابد ، فى حين أنه لم يكن يتكلم الاّ عن حق نفسه وربّ نفسه . . .

هذا وانا طلباً لاقتضاب البحث المطوّل فى هذه المسالك الوعرة نلجاء الى ايراد فقرتين من الانجيل .

الاولى — كان النورُ الحقيقيّ الذى يُنير كلّ إنسان آتياً الى العالم ، كان فى العالم وكوّن العالمُ به ولم يعرفه العالم (يوحنا ص ١ عدد ٩ و١٠)

الثانية — أجابه اليهود قائلين لسنا نرجمك لأجل عملٍ حسن بل لأجل تجديف ، فأنك وأنت انسانٌ ، تجعل نفسك إلهاً ، إجابهم يسوع أليس مكتوباً في ناموسكم أنا قلت أنكم آلهة . إن قال آلهة لأولائك الذين صارت اليهم كلمةُ الله ولا يمكن أن يُنقض المكتوب ، فالذى قدّمه الآبُ وأرسله الى العالم ، أتقولون له إنك تجدّف لأنني قلتُ إني أبن الله ؟)

* * *

فليتبصّر المتبصّرون ليفهموا من هذا معنى الألوهية فى الانسان ومعنى بنوّة المسيح .

* * *

هذا ما توصّل جبران الى إدراكه ، ومن هذا الموقف تجاه نفسه ، طلب الحقيقة واقفاً عليها ريشته وقلمه ، وأنا الذى تتبّعتُ سير جبران فى ارتقائه منذ ربع قرن شهدته يتعالى سنةً فسنة على مدارج الالهام فرأيته يتّجه نحو القمّة ، فيثب وثباً ثم تتثاقل خطاه ثم يحكمه العياء فيقف ثم يسوده النعاس فينام ليهبّ مذعوراً من رقدته ، لا أذكر أنه كفر يوماً بربّه أو ضعف إيمانه به ، بل رأيته فى كل ما رسم من المثل العليا للفضائل الانسانية ، يستند دائماً الى العقيدة الألهية والى إيمانه المكين بالخلود

واذا كان ذهب فى بعض الفترات من حياته مذهب نيتشه فى تمجيده القوه وحمله على الضعف ، فليس هنالك ايّ شبه بين القوّة التى يرفعها نيتشه إلهاً ليسحق بها الضعفاء وبين القوة التى أرادها جبران للناس ليتغلّبوا على ضعفهم وعلى قوى الطبيعة متعاونين متساندين حيث لا ذل ولا جبروت . فقوةُ جبران إيمانٌ ورحمة وقوة نيتشه إلحادٌ ونقمة ، وهذا جبران يتوجّ صفات « يسوع » الانسان الالهيّ بهذه القوة نفسها التى نشدها حتى فى مرحلة الآلام والدموع .

ما هى اذاً هذه التلمذة التى يريد ميخائيل ان يلصقها بجبران لتعاليم نيتشه ليقول إنه تخلص منها فيما بعد ؟

لا إن روح نيتشه لم تتسرب الى روح جبران فى أية مرحلة من مراحله الفكرية .

إنّ روح نيتشه روح جبّار آلمه ما رأى من ضـــلال فى الحياة فوصف معائب الناس وصفاً رائعاً قد يكون أعجب به جبران كما أعجب به المفكرّون ،

ولكنَّ نيتشه لم يصف هـذه المعائب إلا ليثبَ منها الى نتائج هى الضلال بعينه فأن هذا الفيلسوف الغربيّ الذى كانت شبيبتـه اعتلالاً وضعفاً والذى سحقته القوة فى مدنية تحمل كتاب الله بحكم التقاليـد لا بحكم الأيمان ، تيقن أن الله لم يكن إلا وهماً من أوهام الشرق دان له أجداد الغرب عن ضعف فنبـذه أحفاده عن قوةً ، فهبَّ بدوره يعبد هـذا القوة لأنها الأله الأحـد الذى تجلّى له بين قومه . لقد كان نيتشه ملحداً كبيراً ولـكنّـه يفضـل الـكثيرين من صغار الملحدين بأنه لم يخدع نفسه فى ضلاله ، رأى الله قد مات فى مدنيّـة مضلِّلة فقام يهتف منادياً بموت الله مهيباً بالناس ليخلقوا لهم من نفوسهم ألها ...

هذا هو نيتشه الفيلسوف العربيّ الذى يتهكم على الله لأنه إله شرقيٌّ كما يقول إذ يلصق به وبأقوام الشرق معه الضعف والتناقض والضلال ، فأين هـذا الرجل من جبران الفيلسوف الشرقىّ العربىّ الروحيّ الذى يهيب بالضالينّ الى استجلاء روح الله في نفوسهم والذى لا يحيا ولا يرى حياةً للناس الاَّ بما أنزل الله فى الشرق من وحيٍ على أنبيائه ومن إلهام على حكمائه وأبطاله وشعرائه ؟ . .

***

وهذه شذرات من أقوال نيتشه وتعاليمه .

يقول كتاب زردشت بلسان رئيس الأحبار .

(لقد كان هذا الاله مستتراً مفعماً بالاسرار ، حتى أن ابنه لم يأْتِ له الاَّ عن السبيل الملتوى ، فاذ نا هو الخطوة الاولى في هذا الايمان وما يمجد هذا الألهَ كأنه أله المحبة الاَّ من قصر عن إدراك المحبة الحقيقية ، أفما ترى هذا الأله يطمح الى إقامة نفسه رباً للدينونة ، إن من يحب يترفع بمحبته عن كل مجازاة وعقاب .

(لقد كان هذا الالهُ (الشرقيّ) قاسياً فى أوائل حياته ، لقد كان متعطشاً الى

الانتقام فأعدَّ جحيماً لتسلية أصحابه ، ولكنه انقلب الى الضعف فى أيام شيخوخته فأصبح شفيقاً رحيما ، اصبح جدّاً بعد أن كان أباً بل اصبح أشبه بجدّة هرمة متداعية الى الفناء . . .)

وهذا ما يجيب زردشت به .

(إن هذا الاله كان مضطرب العقل مفعماً بالتناقض والغموض ، أبعدوا عن هذا الاله ، افما أجدر بنا أن لا يكون لنا مثل هذا الهاً ، أفما نفضّل أن نقيم القضاء على رأسه فنصاب بالجنون ويصبح الانسان نفسه إلهاً . . ؟)

ويقول .

(الى الامام ايها المتفوّقون ، لقد آن الاوان واقترب الميعاد فأن القمم الانسانية تشعر بالمخاض ، لقد مات الله وها نحن بارادتنا متمتعون ، ليحيى الانسان المتفوّق)

ويقول .

(ليست الرحمة الا مذلّة سوأ أصدرت عن إله أم صدرت عن إنسان ، إن مَنّ يرفض المعونة لأشرف ممن يبادر الى النجدة .)

(إن مَنْ قال فى تعاليمه أنا الحق إنمّا علمّ ضلالاً عظيماً .

. . .

(إن المهمّة العظمى التى تحتاج الى طبيعة الاسد إنمّا هى التمرّد وإنكار كل شيء حتى الواجب)

. . .

(لقد نتجت العظائم من الشجاعة والحروب لا من محبّة القريب ، وما أنقذ الضحايا حتى الان الاّ إقدامكم لا رحمتكم)

...

(لقد مات اللهُ مقتولاً برحمته)

...

(عندما تتشوّقون الى الاعتلاء ترفعون رأسكم الى ما فوق اما أنا الانسان المتعالي فأنني أنظر الى المهاوى والاعماق .)

...

(ينبحون ورائي لأنني أقول لهم — ليس للمساكين الاّ الفضائل المسكينة مثلهم ، ولأن مداركي ترفض التسليم بضرورة الاستبقاء على المساكين)

...

(يتراآى لى أن الخشونة تجاه المساكين إنمّا هى فضيلة القنافذ . .)

...

(لا تسرق ، لا تقتل . . . ذلك تعليم كان مقدّساً فى غابر الزمان ، فكان الناس يسجدون لهذا التعليم مطاطئين الروؤس خالعين النعال . أفليست السرقة والقتل من قوام الحياة نفسها ، أفما قتلت الحقيقةُ ذاتها بتقديس هذا التعليم ؟)

***

هذا هو نييتشه ، هذه هى الفكرة التى نشأت من تمرّد الضعف الكافر وتوارت وراء جدران مستشفى المجانين . فأين نييتشه من جبران وأين جبران

من نييتشه . . أين جحود الأول من إيمان الثاني وأين عجرفةُ زردشت وقساوته من إيمان : المصطفى) ورأفته ؟ . .

أمّا وقد سمعتَ تجديف نيتشه فى كرهـه لبني الانسان فاسمع الآن جبران فى برّه بالناس وعطفه عليهم .

(لقد أحببتُ الناس أحببتهم كثيراً ، والناس فى شرعي ثلاثة ، واحد يلعن الحياة وواحد يباركها وواحد يتأمل فيها ، فقد أحببت الاول لتعسه ، والثاني لسماحته والثالث لمداركه .)

وهذا جبران يهتف آبان الحرب العامة وهو يصوم وراء الاوقيانوس ليشارك لبنان فى مجاعته .

(لو كنت سنبلةً من القمح نابتة فى تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحياتي يد الموت عن نفسه .)

واسمع جبران يقول متعظاً بما لقنته أياه نفسُه .

(وعظتني نفسي فعلمتني حبّ ما مقته الناس ومصافاة ما يضاغنونه .

وعظتني فعلمتني الاصغاء الى الاصوات التى لا تولدها الالسنة ولا تضج بها الحناجر .

وعظتني فعلمتني لمس ما لم يتجسّد ولم يتبلور وافهمتني أن المحسوس هو نصف المعقول وأن ما نقبض عليه هو بعض ما نرغب فيه .

وعظتني فعلمتني وأثبتت لي أني لست بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة .

وعظتني فعلمتني أنّ السراج الذى أحمله ليس لي .

وقال (إجعلني يارب فريسة للأسد قبل أن تجعل الارنب فريسة لي .

وقال . (أجعل يارب قوة أعدائي مضارعة لقوتي كيلا تكون الغلبة الا للحق)

* * *

أفما يتضح لنا بعد هذا أن جبران ما كان ليتخذ نييتشه له استاذاً بل ما كان ليعجب الا بالوجهة السلبية من فلسفته ؟ ولا عجب أن يتفق المؤمن والجاحد على التبرم من مساوى الحياة ولكنهما لن يتفقا في الوجهة الايجابية التي تنشيء عقيدتين مختلفتين في نفس كل منهما .

إن فلسفة نييتشه التي جاء بها أبناء قومه منذ نيف ونصف قرن مرتكزة على فكرة العداء للشعوب السامية ولوحيها والهامها قد فعلت فعلها في الغرائز الجرمانية الآرية ، وهؤلاء أشياع هتلر يتبرمون من المسيحية لا لأمر الا لأنها نشأت في فلسطين وأوحيت مباديها الالهية على وليد الناصرة تحت سماء الشرق ...

إن الانسانية بكل شعوبها تواجه الحياة وتسبر أسرارها مفتشة على خير ما يصلح فاسدها ، وقد كان النظر في ترقية الفرد وترقية المجتمع شاغلاً للافكار في كل زمان وفي كل مكان على وجه هذه الغبراء غير أن شعوب الشرق التي تمت كلها الى السامية بمباديها إن لم تمت اليها بالسلالة الصافية لم تكن تواجه مشاكل الاجتماع الا تحت نور الوحي وباعتبار هذه الحياة مقدمة لحياة أخرى في حين ان شعوب الغرب التي استنارت بوحي الشرق في أوائل نهضتها لم تلبث أن حشرت في مآزق المدنية الآلية فتحولت عن مبادىء التوحيد التي تستلزم حتماً الاعتراف بوحدة الانسانية وتضامنها والسير على نظام يكفل سعادة الضعيف قبل القوي ، فاجتاحت المادية العقول والقلوب وقام إله المال مسيطراً على علاقات الأفراد

فى الأُسر وفى المجتمع ، فانقلبت غيريّة الايمان الى أنانيّة الجحود ، .

ليس هنا محل البحث فى دستور المدنية الغربية الحديثة ومقارنتها بدستور الوحى المصلح لضلال الانسان ، وقد أتينا بمثل هـذا البحث مطولا فى رسالة أخري عنوانها (منابتُ الأطفال) ونكتفى الآن ونحن فى معرض النظر في فلسفه نيبتشه تجاه فلسفة الشرق بأن نقول إن هذا المفكّر الآريّ الذى يحتقر الشرقيين ويحتقر الله لأنه شرقيّ مات مسموماً باشفاقه وضعفه ، قد خلق لقومه إلهاً من نفوسهم دعاه إله القوّة والعنف ، فقال بوجوب الاجهاز على الضعفاء لخلق الرجال المتفوقين وهم وحدهم يصلحون للحياة .

دعا نيبتشه أبناء الغرب للتحرر من أوهام الشرق فجاء اليهم بخصم المسيح دعاه زاراتوسترا أو (زردشت) ليقيم على الارض مملكة من هذا العالم ، رجالها متفوّقون أقوياء غلاظ الرقبة قساة القلوب ، أول واجباتهم قتل الضعفاء ولكن مسكين نيبتشه ، مسكين هذا الانسان الضّال الذى تمرد على ربّه على حدّ قول الكتاب المقدّس (قال الجاهل فى نفسه ليس إله) فغرب عنه أنه لا يزال يدور ضمن حلقه مفرغة من فلسفته المبنية على السفسطة .

ليتصور القارىء معي مجتمعاً أجهز الأقوياءُ فيه على المرضى والأطفال والفقراء وكل ما يطلق عليه اسم ضعيف فى الحياه . وبقي هولاء المتفوقون الاقوياء ، فمن يمكنه أن يضع حداً فاصلاً للقوّة والضعف بينهم أو بتعبير آخر من يضمن لكل منهم قوة توازي قوة الآخر ليسود بينهم الاتفاق ؟ إن هؤلاء الاقوياء الذين يكونون ورثوا الارض بعد تطهيرها من الضعفاء سيخلو لهم الجوّ لتصفية حساب القوة في ما بينهم . فالقوي يجب أن يسحقه الأقوى ، ثم يسحق الاقوى الاشدّ

قوةً الى أن يبقى الجبّار الأخير وحده فينتحر باكياً على الضعفاء قبل بكائه على الاقوياء . . . . .

والغريب فى فلسفة نييتشه التى أحدثت ضجة فى الغرب حتى بين كبار مفكريها أنها تهدم ذاتها بذاتها ، لان هذا الفيلسوف الذى قتل الاله الشرقيّ برأفته لا يتورع أيضاً من أن يقتل الاله الذى أبدعه هو ، لا بالاشفاق والرحمة ، بل بالعنف والقوة والسقوة التى أقامه على قاعدتها . فاسمع زردشت عنوان التفوّق يقول : لقد هلكتُ حين بلغتُ قمّة الوجود ! ، ليس المتفوق الا مظهر الظفر والاندثار العنيف للانسان بوقت واحد . . . . .

الى مثل هذه النتائج المضحكة المبكية يصل دائماً الفيلسوف الذى يريد أن يعالج قضايا المجتمع بروح الماديّة المحضة ناظراً الى الحياة كأنها مرحلة أولها المهد وآخرها اللحد . أما المؤمن الآخذ بانوار الوحى فانه يعترف بقصوره عن حلّ المشاكل التي تخرج عن حد الأعمال المادية لقيام الحياة فيلجأ فى ذلك الى المبادىء العليا التى حملتها الى العالم آيات الكتب المقدسة وألهام الشرق المؤمن بوحدة الله والانسانيةوبالحق الطلق يتمجّد بالقوة كما يتمجد بالضعف ويلوح في الابتسام كما يلوح فى الدموع ويشرق على الروح في ساعات ارتياحها كما يشرق عليها فى ساعات محنتها وأوجاعها .

إن الحياة راسيةفى جوهرها على الألم ، فليس فى العالم رجل واحد سلمت بنيته من داء دفين ينمو معه ليرافقه حتى باب قبره ، ونييتشه يقول للمتألمين .

(ضعوا لحياتكم والآمكم حداً وليكن دستوركم « الانتحار واجبُ والهزيمة الى الفناء واجبة »

إن مدنيّة الغرب تتجه على هذا السبيل الذى يرسمه نييتشه فى كتابه والذى

نراه مرسوما أمام هـذه المدنية فى عراكها العنيف فى حين أن الشرق بقى حتى فى أشدّ أدواره انحطاطاً وفي أطبق مراحله ظلاماً يتطلعّ الى الاصلاح على أساس إيمانه واعتقاده بالخلود بعد جهاد هذه الحياة .

وخير ما يمكننى أن أجابه به نظريات نيتشه نظراتٌ لصنو جبران الاستاذ الفيلسوف الشرقيّ أمين الريحانى فى إصلاح الانسانيه ، وهـذه النظرات اقتطفها من خطاب القاه فى بيروت فى ربيع سنة ١٩٠٩ وكان موضوعه المدينة العظمى .

. . .

(ومن يتجاسر أن يتكهّن فى هـذه الايام ؟ ، من يدري ما فى المستقبل لشعوب آسيا الصغرى ؟ فقد تزهو المدينة العظمى فوق أطلال بابل ، قد يشيدّها الزمان على ضريح نينوى ، قد ترتفع صروحها وأعلامها وأبراجها وقبابها تحت هذه السماء الجميلة على هذه الشواطئ التاريخية المقدسة أمام هذه الأمواج التي شاهدت جنازة مجد آسيا وستشاهد إن شاء الله موكب بعثه .

الى أن يقول .

عبثاً تسنّ الحكومات الحرّة شرائع حرّة إن لم تطلق أنفسُ العلماء وأرباب الفنون من قيود المصلحة وهموم الارتزاق .

.(قيل لبعض العرب ، ومن سيّدكم ، فقالو فلان فقيل بِمَ ، فقالوا احتجنا الى علمه واستغنى عن دنيانا ، فمثله تكون العلماء والأمراء وبمثله ستفاخر المدينة العظمى سائر مدن العالم وقال اعرابى آخر ، إعلموا أننى حاسدت عليكم حتى صرت عبداً لكم أغدق على سائلكم وأصفح عن جاهلكم ، وأحوط حريمكم وأدفع غريمكم فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي ومن فعل دون فعلي فهو دوني ، فهل ياترى يوجد بين

المتمدنين اليوم من تجتمع فيه هذه الخلال الشريفة كلها ؛ أفلا يحق لمدينة المستقبل أن تفاخر سائر المدن بمثل هذا الأمير ؟

وبين رجال العرب من كان أعظم منه ، دخل ابن العباس على علي بن أبي طالب خارج الكوفة وهو يقطب نعله فقال عليّ ما قيمة هذا النعل فقال ابن العباس لاقيمة لها فقال عليّ لهي أحب اليّ من أمرتكم إلاّ أن اقيم حقاً أو أدفع باطلا . فالمدينة العظمى هى التى يكثر فيها مثل هؤلاء الرجال العظام الصالحين . هي التى يتعوّد كل امريء فيها محاسبة نفسه فاذا كان ممن لهم شيء من الشهرة أو المجد أو القوة أو النفوذ أو السلطة أو المال يسأل نفسه كل يوم وما قيمة هذه الاشياء كلها إلاّ أن أقيم حقا أو أدفع باطلا .

ما الفائدة من الشهرة أو السيادة أو المال اذا كانت لا تساعدني على نصرة الحقيقة وإقامة الحق ودفع الاباطيل والأضاليل ، ما أفائدة منها اذا كانت على الأقل لا تبعدني عن هذه الظلمات وسكانها ، عن أسيادها وعبيدها ؟ وقد قيل شرٌ من الجهل نصرة الجهال وأسوأ من الضلالة الاحتجاج للضلال .

إن المدينة العظمى هى التى تُنصر فيها الحقيقةُ قولا وفعلاً ، هى التى يروج فيها الصدق كما يروج الكذب في العالم اليوم ، هى التى يعيش فيها الادباء والعلماء لا للشهرة والمجد وكسب المال ، بل لخدمة الحقيقة فكراً وقولاً وفعلاً . إنّ النفس الراقية متى تعيش لهواها وشهواتها فقط لأشبه بالكلب يقضى حياته عند أقدام سيده ، والعجب فى أمر هذه النفس أنها كلمّا أمعنت في اللذات اكفهرّت في وجهها آفاق الحياة . وقد قال أحد الصوفيين :

إنّ المرائي لا تُريكَ م عيوبَ وجهِكَ فى صِداها
وكذاكَ نفسُك لا تُريك م عيوبَ نفسِكَ في هَواها

وعلى هـذا النمط الرائع يذهب الريحاني فى تصوير أمنية الانسانية في يقينها بالله ، سائراً مع إلهام الشرق على معارج الاعتلاء الروحي " ، فى حين أن نيتشه ينحدر الى أعماق العدم فى تصويره أمنية الأنسانية الجاحدة بصلفها وكبريائها .

والريحاني المشبع بروح الثقافة الساميّـة التي بقيت أربعين جيلاً محور دوران الافكار فى العالم والمطّلع بعلمه الغزير على أغوار مدنيّة الغرب ومناهج نزعاتها ، يرجع بك فى آخر خطابه عن المدينـة العظمى الى الزمن القديم الذى وقف الرعاة فيه بوجه الكاسحين العتاة فيصغى الى صوت النبـوّة ليسمعك اياه معززاً باليقين برجوع البشرية الى وحي الشرق لتهتدي الى حياة صالحة تقود الى الكمال فى الخلود .

اسمع الريحاني يسرد لك رؤياه .

(وهناك أمنية أخرى ، نبوة لاحد الانبياء ترددت فى ذكرها ، وليلة كنت أفكر فى هـذا الموضوع طرق بيتي طارق" ففتحت فاذا بالباب شيخ جليل عارى الرأس حافي القدمين لابس قميصاً بيضاء فوقها رداء أسود مسدول على هراوته ولما فتحت، دخل دون استئذان وسار توا الى مكتبي وجلس هناك على كرسيّ أمامي ، فأخذني من أمره العجب ، ولكن قبل أن بادرته بالحديث قال .

— جئت أحقق أمنيتك وأمدّك برأى آخر من آرائى ،

فقلت والدهشة تملأ نفسى — ومن أنت ياسيدي ؟

فقال — أنا هو !

— هو مَنْ ؟

— هو الذى يخطر الآن ببالك وتحيّر نبوته قلبك .

— تالله ! ، أأنت اشعيا بن آموص .

— نعم ، أنا اشعيا .

فنهضت فوراً وقبّلت يد النبي ، ولمّا رأيته تبسّم تشجعت وقبّلت شفتيه ولمّا تزالا ملتهبتين بكلمات النبوة ، ثم تجاسرت فقلت

– ألم تتنبأ ، يا مولاي منذ الوف من السنين بجيل يرعى الذئب والحمل فيه معا والأسد يأكل التبن كالبقر والناس يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل؟

فأحنى النبي رأسه مجيباً بالايجاب فقلت

– أو لم تقل في روساء أورشليم إنهم عصاة وشركاء اللصوص وإنهم يحبون الرشوة وإن الرّب سيقطعهم من اسرائيل ؟

فأحنى النبي رأسه ثانية فقلت

– وها قد مضى على ذلك ، يا صاحب النبّوة ، الوف من السنين ، والعالم لم يزل كما كان يوم صببت عليه شآبيب غضبك : .

فاجاب أشعيا قائلا – إن الوف السنين التي مرت على نبواتى هي كالدقائق في عين الله . والاجيال بالنسبة الى الأبدية هي كالساعات بالنسبة الى الاجيال ، فلا يريبك كلامي ، وردّد نبؤتي ولا تخف ، بشّر بالمدينة العظمى في بلادي وبلادك ولا تيأس .

وقبل أن فتحت الباب استحال شعلة وتوارى عن الأبصار .

ليس ما أقوله مزاحاً ، فأن للانبياء المقام الرفيع في العالم الروحي وهم لا يزالون يسيطرون على الأنفس المتسامية ، واذا أنت حككت نفس اكبر نابغة في العالم تجد في لبهّا شيئاً من روح النبوة .

المدينة العظمى ، إذاً ، هي التي تتم فيها نبوة اشعيا ، هي التي يسير فيها معاً الذئب والحمل والنمر والجدي ، هي التي يرتاح فيها الناس من شرور المفترين على الله وانبيائه ومن خرافات الجهل والتعصب والطغيان . المدينة العظمى هي التي

يكثر فيها أمثال علي بن ابى طالب واشعيا بن آموص ، وذاك الأمير العربي الذي ساد قومه لانهم احتاجوا الى علمه واستغنى عن دنياهم . »

أفليست هذه الروح ما تلمسه في مبادىء جبران ، بل ما تلمسه تحت كل قلم شرقيّ بأقدار مختلفة ؟ فجبران لم يتخذ إذاً زردشت مثالاً يحتذيه فى ما أراد نشره من مبادىء بينها وبين مبادئ نيتشه مهاوٍ وأغوار ، كما أنه لم يلجأ الى اقتباس مبنى كتاب النبيّ عن القالب الذى وضعه نيتشه لبطله كما أكد لنا نعيمه بقوله (صفحة ٢٠٦) هذا هو (القالب) الذى اختاره جبران ولكنه ويا للاسف لم يكن كله من صياغته فشكله الاجمالي مستعار من نيتشه وزردشته .

ويذهب ميخائيل بعد إيراده هذا الحكم المغلوط معدّداً ما توهمه فى كتاب النبي اختلاساً من زردشت ، على أن من يدقّق في هذه المقارنة ويلقي نظرة على كتاب زردشت يتضح له أن المختلس المقلّد إنما هو نيتشه نفسه لا جبران لأن الاول أوجد بطلا لروايته عهد اليه برسالة الجحود والكفر والدعوة الى إنكار جميع الفضائل ، فدفع الى العالم بالمسيح المزيّف ، يتبع طريق المسيح خطوة فخطوة ليهدم ببشارته الوقحة شريعة التضحيه والرحمة ومقاومة الشرّ بالخير . فما زردشت ، إذاً ، الاّ مجسّم المبادىء الآرية فى شركها وإلحادها تنتفض من مكامن الغرائز الخفية متمرّدة على الروح السامية التي هبّت من الشرق على الغرب ، فلزردشت انقطاعه عن العالم مدة يهيء فيها نفسه للقيام برسالته ، وله جبله يتجلىّ عليه ، وله خاصته وأتباعه ، فهو المعلّم السائر بين الناس هادماً لكل ما يراه ضلالا فى إيمان البشر منادياً بالانسان المتفوّق ، الانسان الذى يخلف إله الشرق المتلاشي ، حتى أن نيتشه لم يغفل عن إقامة وليمة لمسيحه دعاها (العشاء السري) جمع فيها أتباعه

حوله وبعد أن أعلن أحدهم أنه استحضر الخمر ولا ينقص العشاء غير الخبز . . . . هتف زردشت . وهو يضحك .

(ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بلحم الخراف ايضا . . . ولديّ هنا خروفان .)

وقال بعد ذلك .

(أنا الشريعة لا للعالم بل لأتباعي فقط وعلى أتباعي أن يكونوا قساة العظام خفاف الأرجل . عليهم أن يفرحوا فى المعارك فرحهم فى الولائم ، فلا يهتمّون ولا يبالون بل يستعدّون لعظائم الامور . لي ولاتباعي خيرات الارض فاذا مُنعت عنا أخذناها بالعنف ، لنا نحن ألذّ طعام وأنقى سماء لنا أقوى الافكار وأصفاها ولنا أيضا أجمل النساء)

بمثل هـذا يتكلمّ زردشت فى وليمته او عشائه السرّي وعلى هـذه الوتيرة ينسخ نيتشه الانجيل فيمسخه ليهدم مباديه متهكّما على الخـــبز والخمر رمز التضحية لخلاص العالم .

بمثل هـذا يتقدّم نيتشه الى قومه ليمحي من أذهانهم ذلك العشاء السري الذي غسل فيه المسيح أرجل تلاميذه ليقول لهم إن كبيرهم خادمهم ويدعوهم الى ان يحبّوا بعضهم بعضاً كما أحبهم هو . . .

لو أن جبران اقتبس من زردشت حياة مصطفاه لكان أولى بنعيمه أن يتهمّه باقتباس شكل الانجيل مباشرة إذ أن جبران لم يكن بحاجـة الى مؤلف الماني يهديه الى الانجيل المحفور على قلبه بمعانيه ومبانيه ، على أن جبران لم يقتبس

شكل كتابه الآن من تصوّره الروح الراقية تلقي بخلاصة اختباراتها لابناء الحياة عند مبارحتها الحياة ، فما شأن قالب زردشت فى هذا الوضع ، واذا نحن ذهبنا مع نعيمه الى القول بأن جبران إنما اقتبس من حياته نفسها حياة مصطفى روايته ، فان نعيمه ليقع اذ ذاك فى تناقض واضح لا مخرج له منه . وهذا ما يقوله نعيمه بهذا الموضوع (صفحة ٢٠٧) أما مَنْ عرف جبران كما عرفته فلا يصعب عليه أن يراه ويرى بعض ظروف حياته وكل أشواقه في المصطفى وظروفه وأشواقه فما أورفليس التى كان فيها غريباً يترّقب رجوع سفينته الآ نيويورك او امريكا وما (الميترا) التى اكتشفته وآمنت به الا ماري هاسكل ولا الجزيرة التى كان يشتاق اليها الآ لبنان .)

كيف أمكن لنعيمه وهو يعتقد هذا الاعتقاد أن يتّهم جبران بالتقليد ، أيكون مقلّداً مَنْ غمس قلمه فى قلبه ومَنْ ألقى بخطوط حياته نفسها على لوحة العِبَر ليرسم للناس عقيدته من ذوب دماغه وقطرات قلبه ؟

يتضح اذاً بعد كل هذا أن كتاب النبي براءٌ من معاني زردشت ومبانيه بل هو مناقض له بجملته وكيف نجمع بين مؤلفين وقف أحدهما على قمة الآرية وتسنّم الآخر ذرى السامية وبينهما الأغوار السحيقة القرار .

*
* *

لنتناول الآن تهمة أخرى ألصقها ميخائيل بصديقه اذ أبرزه للناس مرائيا يبدي ما لا يضمر وينصب نفسه داعية مبادئ لا يعتقد بصحتها .

أرجع ، أيها القارئ الكريم الى صفحة ١٩٠ من كتاب نعيمه اذ يقول إن جبران كان عائداً معه من نزهة فوقف فجأة وهتف .

— ميشا ، أنا نبأٌ كاذب I'm a false alarm

ويذهب ميشا فى تفسير هذا القول مذهباً غريباً يعبّر عنه هكذا بالحرف ·

(ولعلّ الطبيعة التى لا تعرف التكتم والتستر سطت على جبران بكل ما فيها من سحر التعرّي والصدق والامتثال ، وباسرع من لمح الطرف أنارت كل زوايا قلبه وخزائن نفسه فجعلته يخجل من كل ما تخبأ فيها من ضعف تردّى برداء القوة وتصنّع امتسح بمسحة الجمال وشهوة نَهِمة بدت كأنها العفّة الصائمة ، فرأى نفسه نبياً كاذباً ، وهاله أن يكون ذلك النبأ فى حضرة الطبيعة التى لا تعرف الكذب ولا الغش وهاله أكثر من ذلك أن يكون رفيقه الماشي بجنبه ممن صدقوا النبأ ، فلم يتمالك من الاعتراف له بل لم يجد كالاعتراف لصديقه منقيّاً لقلبه ومطهّرا لنفسه)

أحتى فى ترجمة كلمة Alarm ترتكب الخطأ ، ياميشا ، فيقودك هذا الخطأ المادي الى هذا الحكم الصارم على أخيك ، أفليس معنى هذه الكلمة «النذير» الذى ينبّه الى خطر يتوقعه ، فاين منها النبّأ والنبأ ، ولولا انك تهيبت لقلت النبي والنبوة ، وكلا المعنيين واحد .

اذا كان جبران قال لك هذه الكلمة فلا يمكن أن يكون ما دفعه الى الهتاف بها ما توهمته فيه من ندم على كذب وتبكيت ضمير على خداع .

نستنتج ذلك اولا من معنى الكلمة الصريح وثانياً من الظروف التى لابست الحادث وثالثا من تصريحك أنت عن المحادثة التى سبقت هتاف جبران . ارجع الى ما سردت .

(وكان حديثنا في قطعة قرأها لي من أمد قريب عن المحبة وقال انها ستكون الأولى من سلسلة قطع على شاكلتها ينوي تأليفها ونشرها فى كتاب سيدعوه «النبي») وكان سبق لي ان ابديت له إعجابى بتلك القطعة وأرتياحي لانتقاله

من التمرّد على الناس وحياتهم الى تفهّم أسرار تلك الحياة وكشف ما فيها من جمال ينضح من معين الجمال الكلّي ، وأنتهى من الكلام الى الصمت الذى هو أفصح من كل كلام . قطعنا مسافة . . . واذا بجبران يقف فجأة ويضرب الطريق بعصاه ويناديني . — ميشا أنا نبأ كاذب . . .)

أذن لم يكن هتاف جبران ناشئاً عن نوبة عصبية اجتاحت دماغه فجأة بعد أن وقف ملياً أمام جلاء الطبيعة فأخجله الخداع فى نفسه ، وما دام هنالك علاقة بين هتاف جبران والحديث الذى تقدّمه ، فما معنى الذهاب الى سبب بعيد لا علاقة له بالموضوع . وفى الحادث نفسه تفسير يفرضه المنطق علينا فرضاً ، اذا ما فُهمت كلمة النذير كما يجب أن تُفهم .

إن جبران الذى كان حتى المرحلة الاخيرة من حياته يرى شرور العالم ومفاسده فينوح ويتوعّد آنا فآنا ويقف نذيراً للناس منادياً بالويل والثبور كان قد اعتلي باوجاعه وأسقامه نحو القمة العليا فانكشفت امامه آفاق جديدة فى روح الانسانية السائرة نحو التكامل على سبيل الآلام ، وكانت أول زهرة من ازاهر حديقة النبي تفتّحت فى خياله وهو يتملّص رويداً من عواصف مرحلته الاولى فاحسّ بأن النذير فيه اصبح على وشك أن ينقلب بشيرا .

وكأن النزهة التي قام بها جبران مع اصحابه ميخائيل ونسيب عريضه وعبدالمسيح الحداد ، وبقاءه معهم مدة فى أحضان الطبيعة يرتقون المرتفعات ويهبطون الى الاغوار ويقفون الى متراميات المياه من الشلاّل الصاخب ، كل هذه المشاهد الخلاّبة الى وصفها نعيمه أنخم وصف قد أرسلت نسمة من صدر الطبيعة الى صدر جبران فتفتّقت فيه جميع الازهار التى ملأ منها صفحات كتابه النبي .

وتحت هذا التأثير تكلّم جبران وتحدّث الى صديقه ميخائيل عن هذا الكتاب ، وتلت هذه المحادثة فترة تفكير عميق في الصمت ، فما انقطع تسلسل التفكير فى دماغ جبران بل كان ولا ريب يقابل بين مرحلته الاولى كنذير وبين المرحلة التى كان يواجهها ليندفع اليها بشيراً ، فتيقّن بهذه المقابلة أن مسالك الضلال ليست الا مآزق لابد للروح من أن تجتازها للاشراف على آفاق التحرر فى الحق والخير .

وقف جبران بين نقمته فيما مضي وبين آفاق الاشفاق والرحمة التي رآها تنفرج أمام بصيرته فلاح له أنه كان منخدعاً عندما كان نذيراً .

وهذا نعيمه نفسه يؤيد تحليلنا بما قاله في الموضوع صفحة ٢٢٠ .

« وجبران قد أدّى فى النبي شهادة فى نفسه تكاد تكون الكمال بعينه ، فمن يشهد تلك الشهادة عليه أن ينسى ذاته الفردية ليجدها فى الذات العامة فلا يبغض انساناً لأنه كل الناس ولا يملك شيئاً لان كل شيء له ولا يهرب من الألم لانه الطريق الى الخلاص ولا يدين مجرماً لانه يدين نفسه ولا يطلب مجداً لأن كل مجد باطل وإن هو لم يفعل كل ذلك كانت شهادته كاذبة »

إن نعيمه يعرف اذاً تماماً ما وصل اليه جبران من مرتبة روحية عند ما كتب النبي ، ومع هذا فهو لم ينفكّ عن القول بأن جبران كان أنانياً وكان لم يؤدّب نفسه بل أنه يذهب الى أبعد من هذا اذ يقول أن جبران بالرغم من وصوله الى هذا الاعتقاد الذى يداني الكمال كان مستمراً بالخضوع لعيوبه على السير وراء شهواته ، لذلك كان يعزّي نفسه بقوله إن روحه ستعود الى الارض لتتغلب على ما استعصى عليها فى دورتها هذه .

غريب كيف يفلت نعيمه من المقدمات الصحيحة الى الاستنتاج المناقض لها ؛ فهو يريد أن تبقى حياة صديقه مناقضة لمداركه الروحية حتى يجود بآخر أنفاسه .

أما وقد فرغنا من البحث في حياة جبران وأظهرنا انخداع نعيمه في تقدير الضلال فيها ، فليس لنا الآن الا أن ننظر في ما اذا كان جبران أخلص في رسالته أم كان يخادع الناس فيها كما قرر نعيمه ذلك من ترجمته وتفسيره لكلمة النذير .

إن جبران بدأ أن يكون نذيراً ثم أدرك الوحدة بشيراً وهل من تناقض بين الانذار والتبشير . أفما كان الوعيد في كل مذهب روحي مقدمة تنتهي دائماً بالتبشير بعفو الله ورحمته ؟ لقد كان جبران في إنذاره وثورته يدور في دوائر الارادة الجزئية واذ لاحت له آفاق الارادة الكلية العليا ، ارادة الخالق في قضائه وقدره خُيِّل له في ساعة من ساعات المجادلة النفسية أنه كان مخدوعاً عندما ثار بعنف على شرور الناس وأهوائهم . وهذا ما أهاب به الى الهتاف فجأة بقوله .

انا نذير كاذب .

على أن الترجمة الحرفية للتعبير الانكليزي لا تفيد المقصود منه تماما ، وسوف يتضح من تحليل هذا التعبير انطباقه على ما نرى نحن لا على ما رأى نعيمه .

(أنا صرخة ضلولة بالويل والثبور) . هذا أقرب ما يمكن ان نعبّر به بلغتنا عما قد يكون جبران هتف به . فالمقصود هنا ليس الصارخ بل الصرخة

ولا مجال للقول بالكذب إذ ليس في النعت ما يفيد الكذب بمعنى التضليل والخداع بل عدم الاصابة في توقع الصارخ ويلا وثبوراً .

وعلى كل حال ، نري أن جبران ما كان ليكتب هذه الكلمة اثناء تفكيره وبحثه ،

وهو فى الواقع لم يكتبها ، بل قد يكون هتف بها فى ساعة خشوع امام صفاء الطبيعة بعيداً عن الناس ، قد يكون قالها وهو عائد من ساعات قضاها فى الحقول تحت السماء الصافيـة فأنساه جلال الطبيعة لحظة تلك العيوب التى ثار عليها بكل ما فى نفسه من التشـوّق الى الكمال ، وهى العيوب التى يجب على كل انسان أن يجاهد للتخلص منها بارادته الجزئية . . .

أجل إن جبران ما كان سيلقي هذه الكلمة اطلاقاً كما فعل لولا التأثير الموقّت الذي كان لم يزل مستولياً على نفسه ، وجبران يعرف جيداً أن كل رسول دعا الى الصلاح إنما كان نذيراً وبشيراً .

وما بدأ المسيح رسالتـه الا ثائراً مؤنباً مقرّعا . . . أفما دخل الهيكل فقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام صارخاً (بيتى بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة للصوص) أفما انتفض بوجه الاشرار نذيراً مهدداً ، اذ كان يقول لهم ويلٌ لكم ايها القضاة ، ويل لكم ايها الكتبة والفرّيسيون . . . . .

إن هـذا المسيح الثائر المهدّد المُنذر بالويل للاشرار ، هو نفسه البشير الذى قال باركوا لاعنيكم واحسنوا الى من يسيء اليكم ، وهو نفسه أيضاً ذلك المصلوب الهاتف في احتضاره (أغفر لهم يارب ، لأنهم لا يدرون ما يفعلون) . . .

* * *

فى العالم شرور وجب على رسل الفكر ، كما وجب على رسل السماء أن يثوروا عليها مهددين منذرين ، وفى الحياة ايضاً سرّ القضاء المحتوم على الارواح فى سبيلها نحو الاعتلاء ، وهنالك سرّ الارادة الكلية فى محور الوحدة وسرّ النوايا فى الاعمال ، وتلك أسرارٌ اذا ما تجلّت للمريد المتشوّق لابد له من النظر بعين الرحمة والاشفاق الى هذه الفيالق المندفعة من الأرحام الى القبور ولكل جندى فيها سواء

فى خيره أو شره جلجلة وعرة يرتقيهـــا حاملاً صليبه المرهق متوّجاً باءكليله الشائك . . . . .

على المفكرين اذاً عند مقاومتهم ما يلوح لهم من الشرور فى العالم أن لا يسرفوا فى تقدير قوتهم على نفوذ حقيقة الحوافز فى الاعمال ، فالانسان اضعف من أن يدرك المقاصد الخفيـة فى الارادة الكلية وقسط النية الفردية فى الخطأ والاجرام لأن مثل هذه الديونة تفوت اقتدارهم واذا هم وضعوها فى ميزان عدلهم انحطم جسره بين كفتيه . . . . .

لربّ كذبة أفظع من سرقة ، وربّ سرقة أفظع من قتل ، وربّ قبلة أفظع من زنا فى عين من بيده وحده ميزان المقـاصد فى الوحدة الشاملة وميزان النوايا فى الاعمال الانسانية .

انما الاعمال بالنيات ، ولكلّ امرىء ما نوى . . . . .

* * *

هذا الخطأ فى فهم الكلمة التى قالها جبران قادت نعيمه ايضاً الى إصدار أشد الاحكام صرامة على صديقه ، لأنه يعلنـه بشهادته على نفسه كاذباً فى أقدس ما فى حياته : في رسالته :

ثم أتدرى بماذا ختم نعيمه خطائه هذا ، اسمع .

(صفحة ١٩٠) ومثلما هال جبران أن أكون مخدوعاً بظواهر حياته عن بواطنها ، هالني أن يمضى فى اعترافه امامى فيجلو نفسه العاتية المتمرّدة امام عيني وينزع عنها دروعها العديدة ويتركها عريانة وبلا سلاح . . . ومن ثمّ ، فمن انا لأقتبل اعتراف نفس ، وأن تكن أختاً لنفسي وقدتكون نفسي أحوج الى الاعتراف منها . ءلذلك

عند ما حاول جبران أن يتوغل في تشريح (النبأ الكاذب) غيّرتُ مجري الحديث ، وأسرعتُ فى السير . . .

* * *

إذاً ، مَنْ اعترف لك ياميخائيل ، بجميع أخطاء جبران وزلاته وجرائمه ؟

أتلك النفس المتمرّدة ذات الدروع العديدة كانت تعرّت عن دروعها أمامك لتكشف لك عن جراحها وقروحها ، بل عن الجراح والقروح التى انفتحت من جرائمها فى نفوس الآخرين ايضاً ؟ أجبران كان المعترف ، فأصغيتَ وتحرّيتَ وطلبت التفاصيل كلها منه . . . . أهو الذى قال لك إنه استغلّ ماري بمالها واستغلّ ميشلين بجمالها وأوجب قتل طفله ، . . . . فوقفت تستمع هذا الاعتراف الرهيب ، ولم تغيّر مجرى الحديث ، ولم تسرع بالسير . . . ولم تتوار ، كيلا تسمع ما يهولك وما لا تقبله نفسك ؟ . . .

في أيّ الموقفين ، خُدِعتَ ، يا ميشيا ، أعند ما ألّفت رواية أخيك فأتيت بحوادث لايمكن أن تصل اليك الابطريق الاعتراف ، أم عند ماقلت انابكل تواضع وقداسة : ومن ثمّ فن انا لأقبل اعتراف نفسٍ وأن تكن اخاً لنفسي

* * *

لنقف عند هذا الحد فى تحليل الوقائع فى حياة جبران وقد عرضناه على نور المنطق فامّحت خطوطها السوداء وقد اعترف ميخائيل نفسه بالتأويل الصحيح الذي لا تأويل سواه أنه هو موجد هذه الوقائع تخيّلاً او استنتاجاً من مقدمات انجلت ظواهرها الغرّارة لدينا .

لقد شاءت العناية ، يا صديقي ميشا ، أن يتصل قلمك رأساً بعقلك الباطن فمحا بعبارة واحدة جميع ما حبكه عقلك لاقامة هيكل روايتك وقد نشرت عليها ، ولا نكر ، بروداً زاهية من روائع الحكمة وبدائع الفن .

لقد تداعى هيكل الرواية ، يا ميشا ، لأنه أسّس على أخطاءٍ واوهام ، غير أن البرود التي تجلّله لا تزال خفّاقة فى أجواء الادب العربي بل في أجواء الادب العالمى .

وكيف يُقضى بالزوال على مثل هذا الانشاء المتدفق حكمةً وشعوراً فى وصفك احتضار جبران ، وفى فلسفتك العالية تجاه الحياة والموت ، وفي وصفك ، من نفسك لا بلسان جبران ، كل ما حاق به من نكبات وكل ما تحمّل من أوصاب واوجاع ، بل كيف لا يُخلّد بين طرائف الأدب وصفك لرسوم جبران وما كتبتَه تحت عنوان سكرة ثم صحوة ثم سكرة وما وصفتَ به مدينة نيويورك وأخيراً وبخاصةً ما قلته عن جبران فى حفلة الاربعين .

دعني ، يا ميشا ، بعد أن نقلتُ للنقد ما أخطأتَ فيه أن انقل لتمجيدك الفقرات الآتيــــة من وصفك لجبران ومن فلسفتك العميقة النافذة الى قلب الحياة والموت .

« كلنا على الطريق ، ويا لها من طريق مفروشة بالاوجاع ، مخددّة بمعاثر المطامع مظلّلة بخيالات الشهوات ، غير أن روح الله يرفّ فوقها ونور الله يتخلل ظلماتها . وما الفرق بين السائرين عليها الاّ فى أن البعض يتوانى فى السير متلهياً هنا وهنالك بحلاوة لا تلبث أن تنقلب الى مرارة ، والبعض يجدّ فى السير عالماً أن كل ملذات الارض جذورها فى تربة الألم . وأن الألم ابن الجهل ، وأن لا غلبة على الجهل الاّ بالمعرفة وأن لا معرفة الاّ بالحق .

« كلنا آنية للحق ، إننا لا نسع منه الاّ بقدر ما نفسح له مجالاً في نفوسنا فالجرّة التي ملأتها خلّاً يستحيل عليك في الوقت ذاته أن تملأها خمراً ، كذلك القلب الذي أترعته بشهوات الارض أنىّ لك أن تملأه باشواق السماء .

وبالاحرى إننا نعكس الحق بقدر ما تكون صفيحة الروح فينا صافية أو غير صافية . »

***

« إن روح جبران خليل جبران من الارواح التي صفت للحق فاصطفاها وفي ذلك مجدها ، وفي ذلك شقاؤها ، لأن الروح التي تعكس الحق صافياً ولو لحظةً واحدةً تتألم فيما بعد كلما انعكس عليها ما ليس حقاً . وأين آلآم الارواح العكرة من آلآمها . والعين التي تلمح وجه الجمال المطلق ولو لمحة واحدة تدمع دماً كلما وقعت بعد ذلك على وجه ما ليس جميلا . وأين من دموعها دموع العيون التي لا تبصر الاّ جمال الارض .

« من ليس يعرف آلآم جبران ليس يعرف أفراحه ، ومن ليس يعرف أفراحه لا ولن يدرك تلك القدرة التي مكنّته من أن يرسل آلآمه وأفراحه موسيقى تترقرق في مقاطع من الكلام والواناً تذوب وتجمد افكاراً واشواقا حيــــة وخطوطاً كأنها سلالم تنحدر بك الى اقصى دركات الالم البشرى وتصعد بك الى عرش الاله الساكن في قلب كل أنسان . وفي ذلك يدنينا جبران من أنفسنا لانه يدنو من نفسه ويجلو صفائح أرواحنا بجلائه صفيحة روحه ويمجّدنا بالحق الذي يتمجّد به . »

***

أمّا وقد انتهى بحثي في كتابك، وقدقمت به مجرداً نفسي عن كل اعتبار غير ما يدعو اليه الحق أو ما اعتقدته حقاً، كما فعلتَ انتَ عند ما عقدت فصول هذا الكتاب، فانني أعود لأرسل اليك، الى الصديق الكريم الذى ظلّلني وأياه سقفُ جبران، هذه الكلمة التي لا يسعك الاعراض عنها

أنني اعتقد باخلاصك فى ما أعلنته في مقدمتك وأرجو أن تعتقد أنت ايضاً باخلاصي فى ما رأيتُ وما اعتقدتُ، فأنا أعيذك من أن يتملّكك غيظُ صغار المفكّرين تجاه ما يُوَجّه اليهم من انتقاد. لقد عزّزتُ كلَ رأيٍ لي بأدلّةٍ قد أكون مخطئاً فيها أو في بعضها ولست أطلب غير الادلّة للعدول عنها، ولا اراك ناقماً عليّ من أجل صراحة أضطررت اليها لبيان ما رأيته خطأ فى كتابك، فانك لو فعلت، لتبرّر نقمة الكثيرين عليك لما أبديتَ من صراحة فى ايراد ما اعتقدته أنت ضلالاً لا فى مبادىء أخيك جبران فحسب بل أيضـــاً وبخاصةً فى علاقاته وحياته..

لقد رأيتَ فى حياة أخيك جبران المراوغةَ والكذبَ والضلال، بل رأيتَ فيها زلاّتٍ وجرائمَ لم تتردد اخيراً فى نقلها للتاريخ قياماً بواجب رأيتَ الحقيقة تلقيه عليك، فعلت هذا ولم يخطر لك أن روح جبران ستدينك وتنقم عليك فى عالم الخلود، فدعني أعتقد إذاً أن روحك المجرّدة فى عالم الفكر والشوق الى الحق لن تحرم ذاتها من الحلم الذى نشدته فى جبران وأهله وأصحابه.....

الاسكندرية فى ١٠/ ١/ ١٩٣٦.

« ٥ »

منابت الأطفال

إصلاح الأسرة

الزواج في نظر العلم وفي نظر القانون — تكوّنُ الأجنة ، والكرموسوم في الخلايا — الانتخاب الطبيعيّ والإختيار — الغَيرةُ من الماضي والحذرُ من المستقبل — الافراطُ في التقيد والتفريطُ في الانطلاق — رأيان للسيد قدور بن غبريط والدكتور عبد الرحمن شهبندر — سلطةُ الرجل على المرأة — القتلُ محافظةً على العرض — الغلاميّاتُ في الحضارة الحديثة — الفريد ده موسّه يوضح أسباب تهدّم الأسرة في بداية القرن التاسع عشر — المسيحية وموجةُ المادّية في الغرب — قوانين نابوليون والشرائعُ الموحَى بها — المعضلاتُ الاجتماعية في مدنية الغرب وعلاجها — المرأةُ التى لا قوّام عليها — نظام الأسرة في المسيحية وفي الاسلام — التقيد بالحب والانطلاقُ مع الشهوات — أبناءُ الحبّ وابناء الكُره — أثرُ عاطفة الأبوين في الأبناء — الزوجةُ المُختارة والزوجة المُغتصبة في أمومتها — تعدّد الزوجات في صدر الاسلام وفي هذا الزمان — رأي الاستاذ عبد الله الزائد في تفسير العدل في التعدّد — ضلالةٌ غربيّة ، الخليلةَ المشروعة والخليلُ المشروع — الطلاقُ في المسيحيّة وفي الأسلام — أطفالُ الشرق العربي في الأسرتين المسلمة والمسيحية — إصلاح الأمة بأسلاح منابت أطفالها .

المجتمع بأفراده ، والأفراد بما أورثهم الآباء فطرة وبما اولوهم علماً وتهذيباً، فما الأمة الا الطفل اذاً ، وانما تنشأ الامم من منابت أطفالها .

إنّ النبات ينمو على الأسمدة يمتصّها فيحولها نُسغاً صافياً ، وتلك ازاهر الدمن تنوّر باسمه فوّاحة فوق أقذارها . اما الحياة فإن نبتت فى الأقذار فهي أشدّ قذارة من منابتها .

نحن فى الشرق ، وما أعني سوى الشرق العربي مجلى ثقافتنا ومدار قوميّتنا ، لا يهمنا سوى إيجاد الطفل ولم نزل مسيّرين بعقلية القبائل الغازية ، نطمح الى الكميّة لا الى الكيفية ، وكم على أرضنا من طفل كان خيراً له لو أنه لم يولد .

يقول لك علماء وظائف الاحياء — اجمع بين الأب المفتول الساعدين النقي الدم والأم القوية البنية فى مقتبل الحياة ، وخذ منهما الطفل سليماً صالحاً للحياة .

وتقول لك الشرائع على اختلاف نصوصها فى مراحل الزمان بين كل الشعوب — اجمع بين رجل وامرأة بعقد صحيح يتفق والنصوص المرعية ، يكن لك الطفل الشرعي بصحة نسبه وحقه فى ميراث أبويه ومقامه بين الناس .

إنّ الانسان ليس قلباً ورئتين وكبداً وكليتين فحسب ، بل أن فيه فوق كل هذه الاعضاء قوة الحياة المجهولة ، ويعتقد العلماء ان تلك القوة أعصاب ولكنّهم يعجزون عن إدراك التفاعل فيها ، ويعتقد الروحيون أنها جسد روحاني ، والجسد الروحاني فى عرفهم هو الانسان المنطوي تحت لباس المادّة الخشنة فهو مبدأ الحياة تأسره المادّة المرئية الى حين ، وفى ذلك المبدأ المحجوب تستقرّ العاطفة المتمردة على على العنف التوّاقة ابداً الى الحق المطلق والاستقلال بذاتها .

لست الآن فى موقف المرجّح بين القولين ، ولا فرق فى مبحثنا أن تكون تلك القوة الداخلية مستقرة فى المادة متولدة عنها او أن تكون متجلية من الروح الخفية ، ويكفينا أن نرى في الانسان قوة أدبية عليا لا ينكرها أحد لنقول بخطاء علماء وظائف الاحياء ، فانّ الطفل الذى يستولده جبّار من جبّارة جسماً وفى كليهما أو فى أحدهما نفور وكره واشمئزاز لا يمكنه أن يأتى الحياة الاّ معتلا مشوّش التركيب ، واذا ذهبنا جدلا الى إمكان انتقال قوة الاعضاء الى الولد من الأبوين فى مثل هذه الحال ، فما هى فائدة الحياة نفسها والمجتمع من مخلوق سلمت اعضاؤه وفسدت حوافزه ؟ على ان اقتباس المولود لصحة الجسم لا تتم بتفاعل ماديّ محض فى خلايا الانسان كما هى الحال فى النبات والحيوان ، واننى لاقف لحظة امام ما نعلمه من أحدث الاكتشافات فى علم التوارث إذ ليس من الحكمة فى مطلب كهذا أن نعتمد النظريات دون الاستقراء وإن يكن هذا الاستقراءُ العلميّ فى مجاهل الحياة لم يزل متلمّساً متردداً حائرا .

لقد توفق علماء وظائف الحياة الى اكتشاف ذرّات مستقرّها خلايا الجسم وهم يعرفونها باسم « الكروموسوم » وعددها فى كل خلية انسانية ٤٨ : نصفها تمثّل الأب والنصف الاخر يمثّل الأم ، فانّ الرجل الذى يستقرّ فى خليته

٤٨ عاملا لا تجد فى خلية تطفته الا نصف عددها وهكذا الحال فى المرأة أيضاً .
ويتضح من هذا أنّ الطبيعة قد هياءت هذا الترتيب العجيب ليكون المولود منبثقاً شخصاً واحداً من شخصين متحدين على تواز تام بين ما يندفع منهما الى الحياة الجديدة . وهذه الذرّات منظمة فى الخلية على شكل سلسلة متصلة الحلقات وهى مزدوجة فى سمطيها وفى هذه الحلقات تستقرّ العوامل او القوات التي تنقل الى البنين طوابع الآباء والأمهات في القامة واللون وشكل الملامح وتكوين الاعضاء ، ويقول العلماء إنّ فيها ايضاً مستقرّ التفوق العقليّ والحوافز الأدبية ، بانين حكمهم هذا على تجارب أجروها على ذباب الفواكه لسهولة تشريحها وسرعة توالدها ، وقد عقدوا فصولاً مطوّلة بينوا فيها كيفية التغلّب للقوة أو للضعف وللارتقاء أو للانحطاط فى السلالات الناشيئة ، فقرروا أن سلامة الطفل من علّة ما يتوقف على تغلّب الحلقة القوية تجاه الحلقة الضعيفة فى الأبوين ، وبتعبير آخر ذهبوا الى أن كل حلقة في العقد المزدوج تكمن فيها صحة عضو خاص فأن كانت هذه الحلقة ضعيفة فى الأب وقابلها في الأم حلقة فى موقعها قوية تغلّبت الصحة على المرض فيجيء الطفل سليماً والا فالطفل ينشأ معتلاً لان الحلقة التى يرثها عن أبويه لا مناعة فيها .

تلك هى النظرية المبنة على الاستقراء لا يزال العلماء يتيهون في مجاهلها غير أنهم يقفون مترددين فى نظريتهم عندما يرون أن الاولاد الناتجين من أم واحدة وأب واحد تختلف احوالهم الجسمية والعقلية والادبية ، فيقولون لك فى بعض الاحوال إن الطفل قد اخذ من السلسلة الاولى من الأم ومن الثانية من الأب وان اخاه قد اخذ على عكس ما اخذ هو ويعودون أخيراً فيعترفون بأن قاعدتهم لا تنطبق الانطباق التام الاّ على احوال النبات .

مما لا ريب فيه ، أن ليس كل رجل يصلح ان يكون زوجاً لأية امرأة كما أنه ليست كل أمرة تصلح زوجة لأي رجل ، أما استقراء هذه الجواذب والدوافع بواسطة المجهر فما لا نعتقد بامكان التوصل الى تحقيقه لأن فى حياة الانسان ما ليس فى حياة النبات فنظرية استيلاد القوي من قويين والعبقري من عبقريين إنما هي نظرية فاسدة لا يقرها علم وظائف الاحياء نفسه .

إن الحياة تغالب الموت فى هذا الوجود مفتشة على أصلح المنافذ للنشوء والارتقاء وهذه الحياة التى خرجت وراءنا من ظلمة الازل متجهة فى هذا الكون نفسه الى أبد تغمره الظلمات ايضاً انما تسير كالعاصف الكاسح على الجنسين فتلويهما لسلطانها معتلية بالنوع فوق رمم أفراده .

على أنه في حين ان هذه الحياة تختار سبيلها بالسائق الغرزي في النبات وفي الحيوان عاملة على تحسين مجالها بالقضاء على الضعف الطاريء والاستبقاء على القوة الصالحة لما يحيا بها من جسوم ، فانك لترى هذه الحياة فى المملكة الانسانية وهى أرق وأشرف مجالها تتلوى فى مسالك الشهوات المضللة والعقليات السخيفة منزلة بالتائهين أوجع الزواجر وأبلغ العبر وهولا التائهون لا يرجعون عن غيهم فلا يشفقون على أنفسهم ولا يبالون بأنسالهم .

إن الانسان لا يريد الانقياد للانتخاب الطبيعي فهو يطمح الى تحكيم اختياره فى حوافز لا يعلم منشأها ، فيعمد الرجل الى استيلاد المرأة أطفالا تتجلى فيهم كوامن علله وعلل المرأة التى يرغمها إرغاماً بدلا من أن ينقاد الى الانتخاب الطبيعي الذى تتذرع به الطبيعة للغلبة على العاهات والامراض وللقضاء على حوافز الخبل والاجرام .

إن الولد المختلّ العليل إنما هو الضحية البريئة تصفع الطبيعة به أوجه الرجال الفاحشين والنسوة الطامعات المضللات ، ولكنّ الحياة لا تعنو دائماً لتحكّم الانسان ولا تهيب زجرة وإرغامه فتضرب عن الظهور وتمتنع عن إيجاد الضحية ، وآخر ما اكتشفه منذ أشهر علماء جامعة كولومبيا بالاستقراء بعد ان كان الفكر يفترضه افتراضاً هو التنافر بين عناصر الذكر وأنسجة الانثى فى بعض الاحوال مما يقضي بالعقم التام مع أن كلاً من الزوج والزوجة غير عقيم .

إن ما تحقق علم وظائف الاحياء وجوده فى خلايا الجسم من الاستعداد المتقابل فى الجنسين لتلافي الخلل او لزيادة تغلّبه إنما هو البرهان الوضعي المحسوس على أن للحياة ناموساً مستقلا هو فوق اعتبارات النـــاس وما يضعونه من التنظيم للعاطفة الجنسية المولّدة .

وما كان الانسان ليحتاج الى الاستقراء العلمي خلال دقائقه وذرّاته ليعلم أن الطباق والايقاع يؤديان الى الارتباط المكين وأن الشذوذ والتنافر يؤديان حتماً الى التدافع والافتراق وليس الرجل والمرأة وترين على آلةٍ صماء يُشدُّ أحدهما جواباً على قرار الآخر لأنه إن لم يكن هنالك طباق فى الطبيعة نفسهاً فان المرأة او الرجل المختارة او المختار للشدّ على طبقة زوجه ليسمعك صوت انقصافه بدلا من الايقاع المنشود فان لم يكن هنالك ارادة بالطبع نفسه تجاري الارادة الاخرى دون تكلّف او إكراه ، فمن العبث أن نحاول إيجاد الطباق الممتنع أصلاً . . .

ليكن منشأ هذا الايقاع تناسباً بين ذرّات الخلايا والعوامل كما يقول العلماء المستقرون ، او فليكن ضعف هذه الذرّات وقوتها مسبباً عن عوامل الكهارب التى تسود الخلايا بتفاعل مجهول ، او فليكن هنالك ما يذهب اليه الروحيون من أن الخلايا والكهارب وكل ما يحتوي هذا الجسم من مادّة ليس الاّ خيالا لروح

كامنة هي الحقيقة المستترة وأن من العبث أن يستقري العلم منشأ التجاذب والتدافع بتشريح الخيال ، فاننا بجاه كل هذه الافتراضات نبقى دائماً أمام حقيقة لا ريب فيها وهي أن الانسان رجلاً أكان أم أمرأة مدفوع فطرة الى تسليم مشعل الحياة الذى يتوهج فيه مأخوذاً عن أبيه وأمه الى حياة تنبثق عنه لاستبقاء الجنس .

ومما لا ريب فيه ايضا ان الطبيعة فى حرصها على طابع الابوين فى الابناء تطمح دائماً الى الجمع بين رجل وامرأة يصلح أحدهما ما افسدت الحياة فى الآخر ، ولا يقف طموح الطبيعة عند حد إصلاح الاعضاء بل هو يتجه خاصة فى الانسان الى إصلاح ما تطرّق من عيوب الى صفاته الأدبية العليا ، ولعلّ فى هذا بعض التفسير لسيادة الايقاع بين رجل وامرأة تخالفت أشكالهما وأوضاع اعضائهما ومظاهر قواهما الادبية والعقلية ، فقد لا تجد مصارعاً قويّ العضلات يعشق مصارعة مثله ولا فيلسوفاً يتولّه بفيلسوفة ، ولكم وقف المفكّرون مندهشين أمام امرأة فاضلة تحسّ بانجذاب نحو رجل متلاعب محتال او بارعة فى الجمال تندفع الى الالتصاق برجل قبيح ، إنّ بعض العشق ينشأ من حنان خفيّ فى الطبيعة يشبه عطف الطبيب المداوي على العليل المستجدي الشفاء . . . .

أقول هذا ولا أريد أن أتخذ هذه النظرية قاعدة بالرغم عن تجلّيها لدينا فى عديد الحوادث ، لان النقائص التى تتجه فى الازدواج الى الزوال والعلل التى تطلب الشفاء أبعد مستقراً من أن ينالها استقراء او تحديد ، والضعف الكامن فى أحد الناس يبقى مستتراً فيه خفياً حتى عن شعوره ، فكيف نتمكن نحن من

كشفه وتحديده ، لذلك ورد فى الأمثال وهى حكمة الأمم « لا جدال فى الذوق » وما أرى المتنبي الا ّسابراً أقصى اسرار الحب إذ قال .

إلى مَ طماعيةُ العــاذلِ ولا رأيَ فى الحبِ للعاقلِ
يُراد من القلب نسيانكمُ وتأبى الطباعُ على الناقلِ

ليس للعلم اذاً ، بالرغم مما يكشف لنا من أسرار الخلايا وما فيها ومما يستجليه من عجائب الخلق ، أن يضع قاعدة يستفاد منها لتحسين الأنسال الأنسانية ، ولا يمكنه أن يعزل الحوافز السرية فى الحب ليقيم قاعدة مقامها ، وقد وقفت ملياً أمام قول أحد العلماء المنقطعين لدرس وظائف الحياة إذ قال — ليس من الممتنع أن يولد عبقريٌ من أبوين عاديين ، كما أنه يشاهد كثيراً ولادة مخبولٍ من عبقريين ..

هذا ما توصل اليه العلم فى مجاهل الانسال ،

اما واضعو قوانين الزواج المدنيــــة فانهم لم ينظروا اليه الا ّمن حيث هو عقد يؤمن الحق والواجب الماديين ، ولذلك اختلفت المبادىء التى أخذوا بها لتأثرها بالزمان والمكان على أن الشرائع الدينية على اختلافها فى هذا العصر لا تتجه بروحها الا الى تعزيز الأُسرة واصلاح الانسال ، وما نراه من الاختلال فى منابت الاطفال إنما نشأ من جهل الناس وجشعهم واطماعهم لا من الشرائع نفسها .

إنَّ هنالك ناموساً للصلاح هو بمعزل عن علم وظائف الحياة وعن القوانين فاين هو ذلك الناموس ؟

ليرجع كلٌّ منا الى نفسه وتذكراته وليبعث في خياله الفترة التي شعر فيها لاول مرة فى حياته بذلك السرّ الخفيّ الذى يسود الأكوان منذ الازل وسيسودها الى الأبد .

هنالك ، فى الماضى أو فى الحاضر لمن هم فى أوائل الشباب مشهد يستجلى المفكر سرَّ الله فيه .

إنَّ العيوب المتحفّزة للظهور والكمالات الطامحة الى الاصلاح انما تكمن في كل فتى وفتاة يشعر كل منهما بانجذاب نحو الآخر تبعاً لقوة مجهولة خفية لا غاية لها الاّ استنبات الحياة . لقد خُلق الحب خائفاً مرتعشاً والى جنبه ناموسه الجبّار ، ناموسه الصامت الهامس في الروحين كلمتين هما كل ما يفهم العاشقان : كلمة الغيرة من الماضى والحذر من المستقبل .

أحبكِ . تلك هى الكلمة الأبدية يدفع بها الرجل سر الكون من فمه ، أما جواب الفتـــاة عليها فلا يرد الاّ استفهاماً فهى تنظر الي المستقبل مرتجفة حذرة فتسأل

— وهل ستحبني دائماً أبداً . . ؟ .

إن الرجل لا يتوجه الى المستقبل بقلبه بل يتلفت الى الوراء ، الى الماضي وهو يقسم بالوفاء والثبات ، ماداً بابصاره الى أعماق عيني الفتاة سابراً أقصاها ليتحقق ما اذا كان هذا الهيكل الذى يتخذه مقاماً لروحه لم ترتفع فيه صلاة غير صلاته ولم يحرق عليه بخور غير بخوره .

هكذا تصطفي الطبيعة المحبين لاستنبات الطفل الصحيح ، وهكذا تقبض

الغريزة على القلبين لتسخرهما لبقاء النوع ورفعه على مدارج النشوء والارتقاء .

ولماذا خصت الطبيعة الرجل بالغيرة من الماضي والمرأة بالحذر من المستقبل ؟ لماذا وضعت الطبيعة دليل الطهر في عين العذراء ودليل العفاف في جسمها ؟ ولماذا غرست فيها هذا الخوف من تقلّب الرجل وانحرافه عنها ؟

لقد توصل العلماء بالاستقراء والتجارب العديدة في الحيوان وفي الانسان الى استجلاء حقيقة رائعة نستدلّ منها على صحة ما نشعر به من دوافع وحوافز ، وتلك الحقيقة هي أن الطبيعة تتجه دائماً الى الوحدة وتأنف من الشرك وتتمرد عليه ، وقد شوهدت حوادث كان فيها نتاج الزواج الثاني من المرأة أقرب الى مشابهة أطفال النتاج الأول ، وبتعبير أوضح إن امرأة يستنبت نتاجها الأول من رجل تبقى معرّضة للاستمرار على الانتاج طابعة على غرار ذلك الزوج . إن هذا الاكتشاف يبرر لدى المفكر هذه الغيرة المقدسة التي تتجلى في الرجل الطبيعي الغير المفسود بمبادىء الاطلاق وبضعف الحيوية فيه ، وهذه الحقيقة نفسها تفسّر لنا هذا الحذر الغريزيّ في المرأة من تخلّي المحب الأول عنها لأن الطبيعة تتمرد في نفسها فهي تربأ بشخصيتها أن تصبح مستقراً للشرك والكون بأسره يتجه الى التوحيد في ارتقائه .

إن ناموس الحب والزواج في الاصل إنما هو إندغام بين روحين وجسدين إندغاماً حراً تحت سيطرة التجاذب المطلق من كل تضليل ، واذا هو تمّ وفقاً لهذا الناموس فيندر أن تنفصم عراه مدى الحياة .

على أننا في هذا العصر الذي سبقته أدوار عديدة استنبت فيها النسل من التزاوج المكذوب ، لا يمكننا ان نحكم باستمرار الاتفاق بين عاشقين ما لم نثق اولا من أنهما كليهما قد ولدا من زواجين ساد الحب الحقيقي فيهما ، وكثيراً ما نرى

امرأة جنّ جنونها بمن أصبحت له زوجة حتى اذا انقضت فترة من الزمان تراها مضعضعة تحلم بالشرك والضلال ، وكثيراً ما نرى رجلا يهيم بفتاة حتى اذا أصبحت زوجة له عافتها نفسه فذهب تائهاً فى المواخير يحصد ماجناه أبوه عليه .

من الصعب إن لم اقل من الممتع أن يعرف حقيقة الحب ووحدته من ولد من زواج لا إيقاع فيه ، إنّ ابناء الكره لا يحبّون ، والطفل المولود من شهوة حيوانية حوّالة يمتزج كوثر حبه دائماً بغسلين الفحشاء . . . .

إنّ الامم التى تصلّبت في المحافظة على وثاق الزواج تجلّى الوفاء بكل قوّته فى انسالها ، لانّ غرائز الأبنـــاء لم تضلل بشرك الآباء والأمهات فى هيكل الحب الصحيح .

وإن ما نراه من تسيّب فى أوروبا والعالم الجديد فى احوال الزواج إنما نشأ من خروج عدد قليل اولا على قاعدة الثبات فدفع الانفصال الى المدنية بنساء تشوشت غريزة الوحدة فيهنّ فولدن هـذا العدد الغفير من ابناء اليوم الذين ينفصلون عن أزواجهم وازواجهن بسهولة انفصال المسافر عن رفيق طريق .

إنهـا لحالة مشوشة نشأت عن الاخذ بصرامة غير مشروعة وهل التعارف بحضور الاهل والأولياء لاستجلاء الاخلاق والشعور بما فى الشخصيتين من مهيئات التلاؤم مما ينافي حكمه الشرع ؟

قلت اولا إن الأمم تتكوّن من منابت الاطفال ؛ فهل نحن ندفع الى الحياة بأطفال يصلحون لتكوين الأمة القوية اجساماً والسليمة عقولا ؟ اذا ما نحن أردنا الجواب على هـذا السؤال وجب علينا ان ننظر الى كيفية وقوع الزواج فى بلادنا .

المشهد الاول . شاب يفتش على فتاة لتكون أما لبنيه ، قيل له إن فى احدى

الأسر الشريفة فتاة بيضاء اللون أو سمراء واسعة الأحداق طويلة القامه فاتنة ساحرة خلابة ، فسعى فى اثرها متوسلا الى أهلها بسرد مالديه من عقار ومال وباثبات الكفاءة فاصبح زوجاً للمجهولة نكرة ضمت الى نكرة لايجاد المعلوم . . .

وقد كان أساس هذا الارتباط وفقاً لحرفية القانون لا لروح الشرع مبلغاً تقرر بالاتفاق نصفه معجل ونصفه مؤجل ، وما يكون معنى هذا المؤجل فى هذه الحال ان لم يكن التحوط للفراق فى يوم الاجتماع ، أفما هو مبدأ الحل فى الربط ؟ أفما هو الكفن المهيأ الى جنب وشاح العرس أفما هو اللحد منتصباً امام المهد ؟

وتلك العروسة تشد على صوت الطبيعة المختنق فى صدرها ، فهي تجود بكل حياتها بصبائها ، بعفافها ، بالصفحة البيضاء التي تبسط امام طابع شخصية ستصبح طابعها الدائم حتى الموت ، ومع هذا لا يخطر لها أن تطالب بما منحها الشرع السامى من إيجاب الثبات والاخلاص كما تقبل بهما عليها وكل ما تطمح اليه هو ان تصبح زوجة للرجل دون أن يصبح هذا الرجل زوجاً لها .

اذا هي شعرت بنفور ، وأنذرتها الطبيعة بشذوذ هذا الوتر يشد على وترها إكراهاً فالويل لها وقد تخلت عن عصمتها إن هي أبدت إشارة يستدل منها على ما في أعماق روحها وأعماق خلاياها من ألم .

إن بقيت هذه المرأة حيث لا تربطها عاطفة ولا غريزة ، فان العقم يتهددها وهو أهون مما يحوط بها من شرور ، وإن ولدت فانها لا تدفع الى الحياة الا بالطفل المريض جسماً العليل روحاً تتجلى فى حوافزه الخفية سلطة الأب الجائر وعبودية الأم الضعيفة ، وقد يخطر للرجل فى ساعة غضب يسطو عليه أو وساوس تخامره أن يطرد هذه المرأة من بيته ، فيطرد معها ابناءه منها ، فتذهب ، حامله طفلاً أو اطفالا لها أن تستبقيهم تحت جناحي حنوها سنوات معدودة على شرط

أن تنقطع الى الحياة بتذكار طاردها ممنوعة عن التزوج برجل آخر ، وأن فعلت سُلخ أطفالها عنها وسُلموا الى قريباتها إن كان لها قريبات والا فالى قريبات زوجها ، وهكذا تدفع الأسر الشرقية الى المجتمع بايتام آباؤهم وأمهاتهم لا يزالون فى الحياة .

وأشد إيلاماً من هذا ان يأوي الرجل بيتين أو ثلاثة أو اربعة بيوت له في كل منها امراءة واطفال .

وما تلك الاسر المتعددة على غير العدل المشترط ودون أن يكون هنالك سبب اجتماعي أو شخصي يبرر هذا التعدد الاً منشاء الخصومات والكره والعداء ينتقل النفور فيها من الأمهات الى الأبناء فيقوم فى كل منها جيش محارب ، وهكذا تهدي الأسر الشرقية الى المجتمع الأخوة الاعداء ، وما يبرّ بابيه ووطنه من كان لأخيه عدوا .

لنتحول الآن الى مشاهد أخرى ،

هى بين الرابعة عشرة والعشرين ، مقصوصة الشعر غلامية ، تصادر وتباطن أيّ رجل كان ، مهتوكة الستر ، محولة هيكل الانسانية الى مهبط غواية وطيش . إن لم يتجاوز مراقصوها الميئات فهي مقصرّة فى ميدان الثقافة ، متأخرة فى حلبة الحضارة والارتقاء ، لا يصل قلبها الى من تقف عنده وتختاره زوجاً لماله أو لجاهه الاّ بعد أن يكون هذا القلب قد تقطعت اعشاره خفوقاً ، فهى كالنعجة التائهه الراجعة الى حظيرتها تترك قطعاً من صوفها على أشواك الطريق وقد تترك عليها قطرات من دمها .

هى فى بيت الزوج لنفسها أولاً ، وكل غيرة تبدو منه تعدّها كفراً بالتمدن وتقهقراً معيباً ، تعودت أوتار قلبها أن تُشدّ جواباً لكل قرار فهى تدفع

بالايقاع الموقت مرافقة رنين أيّ وتر تستعذب نغماته . ، روحها شاردة مضللة ، فهي منبتٌ للأطفال يأتون الحيـــاة مروّعين ، فى أعصابهم تشوش وفى ادمغتهم إختلال .

هذه خطوط كبرى لرسوم تمرّ مشاهدها أمامنا كل يوم فى هـذه البلاد الشرقية وهى مركز العلة فينا ومصدر كل ما نشكو من تأخر وانحطاط .

نريد أمة حية ، ولكننا نعرض عن مكافحة أسباب انحطاطها ، والعدد الغفير من أبناء الشرق فى إفراطهم وتفريطهم يدافعون عما استحكم فيهم من أهواء تقضي عليهم مدّعين انطباقها على ما أنزلت السماء على الناس لتنظيم الحياة ، فى حين ان الالهام الأعلى لم ينزل على الانبياء الا للقضاء على ما يفسد الحياة ولاقامة العدل فى الأسرة وإنصاف الأنسال الآتية من ضلال الاباء والأمهات .

من واجب المفكّر فى علل الاجتماع أن يسبر العـلة الى اقصى مكامنهـا ، وما تستوقف الاطباء مظاهر المرضى عن السير باستقرائهم الى احشائه ،

إن العلل تتجلى فى المجتمع الشرقى العربيّ بين الطوائف المسيحية كما تتجلى بين طائفته الاسلامية الكبرى ، واذا كنت أعلم من مكامن العلل فى الفيئتين ما لا يقلُّ عما يعرفه مفكّرو كل منهما ، فانى الجأ الى اقتباس بعض ما قاله مفكّر ان من أفاضل المسلمين فى هـــذا العصر تعزيزاً لعقيدتي فى سموّ الشرع الاسلامى واتفاقه مع مبادئ عيسى فى إقامة الانصاف وتحكيم العدل فى منابت الاطفال .

قال السيد قدور بن غبريط .

« لقد كانت الشعوب القديمة العريقة فى المعـرفة والحكمة تجيز اتخاذ عشرات النساء ، حتى جاء الاسلام فحدّد ذلك وجعل له ميزاناً وحصره فى أربع مع شروط مرهقة كالعـــدل والمساواة بين النساء فى الهناء ، مما يجعل هذا التعدد

اذا تمسكنا بروح القرآن ضرباً من التحريم لصعوبة تنفيذ تلك الشروط ، وان الجدل بين المسلمين انفسهم قائم فى هذا الصدد ، وبعض العائلات تشترط تحريم التعدّد فى العقد والا ّ كانت المرأة طالقاً والزم الرجل بكذا وكذا . . .

« وحالة القبول هـذه التبرعـيّة الصريحة هي على كل حال خير مما يعمل عند غيرهم من تعدد الخليلات ، وكان تعـدد الزوجات عند البدو ثروة للأسرة وزيادة للنسل وتعاوناً فى البيت وهو ما كانو فى حاجـــــة اليه ولا غنى لهم عنه ، ولكن الأحوال الاجتماعية تغيّرت والتطوّر جعل هذا عسيراً غير يسير لما يتبعه من التكاليف للمعيشة أيضاً ، فنحن متجهون فى الواقع الى اتخاذ زوجة واحـدة وهو خير وأولى . »

وقال الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، فى درس له تحت عنوان القضايا الاجتماعية

« حدث ان سيدة تزوجت برجـل طاعن فى السن فاقام معهـا على أتم وفاق عشرين سنة كاملة كانت له فى خلالها حارساً اميناً صادقاً الى ان أقعدته الشيخوخة وأضعفت مداركه الايام ، فطمع أهله فى إقصائها عنه ليستقـلّوا بثروته دونها ، فما كان من بناته من زوجته السابقة واولادهن ّ لا ان تألبوا عليه فعقدوا حوله مجلساً مصطنعاً من موظفين شرعيين وعلى رأسهم مفتي الديار الشامية ، وهنالك بشيء من الاستفزاز والاغواء حملوه على طلاقها ، فلا الزوج المقعد المسكين كان راضياً بهذا الفراق وهو فى شيخوخته ولا الزوجة التى كانت فى زيارة أهلها حيث فوجئت فى مساء العيد بهذا النبأ المجرم . وغني عن البيان انه لولا سهولة الطلاق لما حدث مثل هذا الفعل المنكر .

« وأعرف رجلا من بيت مشهور فى مدينة سورية كبيرة وهو الآن فى نحو العقد السادس من العمر قد تزوّج باكثر من خمسين امرأة ثيّبات وابكاراً

فكانت عادته ان يبث العيون والأرصاد لاستكشاف زوجة من البيوت المتوسطة الفقيرة ليصرف معها ردحاً من الزمن ، فاذا قضى منها لبانته طلّقها ونقد متأخرها بعد ما نقدّها الصداق المقدم المتفق عليه ، وقد قص عليّ كيف كان يحصل على التقارير التى تهمّه فى هذا الشأن فانه كان يستأجر نساء اخصائيات في فحص الابدان كما يفحص القصاب الغنم السمينة فينتشرن فى الاحياء ويدخلن البيوت خاطبات حتى اذا رأين من أعجبتهن بهيئتها وطولها وعرضها قمن اليها فكشفن عن عنقها وصدرها وساقها الى أخمص قدميها ثم رفعن التقرير عنها شفهيا ، فاذا صادفت هذه الصورة هوى فى نفسه عقد وبنى ثم طلّق ليعقد من جديد من غير توانٍ كأنه آلة ميكانيكية .

« ومما هو جدير بالالتفات ان تلك المدينة وقد أظهرت عناية كبيرة بالشؤون الدينية وأقامت الارض وأقعدتها لكل حادثة لم تطمئن اليها نفسها لم نسمع لها صوتاً واحداً بالاحتجاج على هذا الانحراف مما يدلّ على ان الذين يعنون بالشؤون الشرعية في تلك الاصقاع لم يجدوا شيئاً من الشذوذ في عمل هذا الرجل المطلاق المزواج الذى سخر بنات الناس لأرادته واستثمر ماله فيهن برباً فاحش جداً . . . »

على ان هذا المفكّر الاجتماعي لم يضنّ برائيه الصائب ايضا فيما يقع من المساوىء في جهة مقابلة فقال أما الحوادث التي تكون فيها المرأة هي المزخرفة والمزوّقة الى أن يتمّ العرس وينتهي شهر العسل قبل أن تكشّر عن نابها فاكثر من أن تحصى ، واحصاء سطحي في الحي وبين الاهل والعشيرة فيه المقنع الكافى ، ولا شك فى أن مثل هذا الزواج المتنافر حمل طائفة كبيرة من الدول المسيحية حتى

العريقة فى البروستانتينية منها كالدولة الامريكية على إباحة الطلاق والخروج عن قاعدة « فالذى يجمعه الله لا يفرّقه انسان »

* * *

تلك هي العقدة الكبرى التى تدور حولها افكار المصلحين وتكمن فيها علل الأمم كافة وقد منينا فى بلادنا منها بأوفى نصيب ، فان الغرب فى نظمه الأجتماعية اليوم تحمل شعوبه مسؤولية ما ينشأ عنها من مفاسد ، واكثر الامم فيه تسير على مذاهب وآراء اجتماعية تختلف باختلاف البلدان والاوساط والثقافة ، فى حين أننا نحن نتّبع ما التوى فينا من أهواء ونسير بأنسالنا الى الانحطاط مدّعين أنّ ما نفعله إنما هو خير ما يفعل لأنه ارادة الله المعلنة لنا فى وحي انبيائه المطهرين . . .

على ذمّة عيسى روح الله ، نكشف الصدور والظهور حتى الخصور ، وتقوم المفاخذة والمباطنة على ملأ الاشهاد ، بعد احتساء الكؤوس وتدويخ الرؤوس ، وباسمه تتخذ المرأة من دون زوجها العشير والرفيق ، وتحت لواء شريعته يذهب الرجل في حدائق الأسر هاصراً الغصون مستنشقاً الورود . .

وعلى ذمّة المسيح ايضاً يُستفزّ الرجل الى حمل العار او تلطيخ يديه بالدماء .

عرفت فى سوريا رجلا من أعرق الأسر غزير العلم عزيز النفس بلاه الله بفتاة كاللواتي أوردتُ عنهنّ مثلَ النعجة التائهة وقد تركت صوفها عالقاً على اشواك الطريق ، تعوّدت التنقل فى اهوائها مشركة بروحها وبقلبها ، تزوجت من هذا الرجل الكريم فما انقضى شهر العسل حتى كشّرت عن نابها ، كما قال الدكتور شهبندر ، وجعلت بيتها حلقة لاجتماع عشاقها الأولين ، ولم تجدِ مقاومة الزوج شيأ ، بل تمادت الزوجة فى غيّها فوقف الزوج المسكين متردداً بين الترصد والقتل وبين

طرد هـذه المرأة فآثر الطريقة الثانيـة ولكنّ الزوجة ذهبت وشكته الى المراجع الروحية واستصدرت حكماً عليه بنفقة طائلة يلزم بتأديتها ما زال قيد الحياة، ذهبت المرأة حرّة طليقة تعيش بمال الزوج على هواها وتحمل اسمه، وقد كان عليه ان يثبت زناها ليتخلص من النفقة، ولكن مَنْ يمكنه إثبات هذا الأمر، وليس الظهور مع الشبان ومراقصتهم والسفر معهم مما يصح مستنداً للقضاء الروحي ليحكم بالخيانة الزوجية . . .

ولو شئت إيراد ما رأيت من حوادث وعبر لطال المقال أياماً دون استنفاد جزء مما رأيت، ويكفي كلّ مفكر أن ينظر الى ما حوله ليعلم ما جنت على المجتمع كلمة « ما جمعه الله لا يفرّقه انسان » مبتورة من قول المسيح هادمة لمبداه المعلن بكل صراحة اذ وضع القاعدة العليا للزواج الصحيح بهذا النص الرائع . « من طلّق امرأة لغير علة الزنا فقد جعلها تزني ومن تزوج مطلّقة فقد زنى » .

لن أذهب فى بحثي، الى التوغل فى مجاهل اللاهوت وأقوال المفسرين، فان كل اجتهاد ضد هـذه الصراحة ردّها العقل وأعوذ بعيسى نفسه أن يكون قد أراد إلزام أحـد المتعاقدين بعهده فى حين إخلال الطرف الآخر إخلالا يقضي على صحة العقد .

أمن الانصاف ان تلزم تاجراً بالاستمرار على شركة شريك سرق حصته من رأس المال وبددّها على شهواته ؟، وهـل أغرب من ان ينضمّ جسدان فيصبحان جسداً واحداً ثم يخطر لشق واحد من هذ الجسد ان يتمرّغ بالاقذار وان يفترش الدناءة ويلتحف العار فيصبح جثة يضطر الشق الحيّ الآخر الى حملها والمسير بها قسماً منتنا لذاته تحت الشمس ؟ . . .

إنّ بعض الطوائف المسيحية تقضي بالطلاق ، فهي تأخذ بالشقّ الأول من قاعدة عيسى ولكنها لا تعمل بالشقّ الثاني فتزوج المرأة المطلّقة ، فترتكب تناقضاً بيّناً في التطبيق ، لان القضاء بالطلاق على شريعة عيسى لا يجوز إسناده الاّ الى الزنا فهو ممتنع فى غير وقوعه ، فاذا كان الطلاق يقع لعلّة غير هذه العلة فقد خالف المطلّق الشق الأول من القاعدة واذا سار وفقاً لهذا الشق الأول فانه بتزويجه الزانية قد أنشأ أسرة من زانية ، وفتح باباً لكل امرأة أن ترتكب الجناية الكبرى ثم تعود مستظلّة بالشريعة التي داست عليها .

أما الطوائف التي لا تقضي بالطلاق حتى ولو لجأت الزوجة الى مواخير الفحشاء العلنيّة ، فلا يمكننا الآن نعتبر إغراقها هذا سبباً لما يتجلّى فى أوروبا وامريكا اليوم من الضلال البيّن في مسائل الطلاق المستحدث على قواعد هي أقرب الى المهازل منها الى القوانين الاجتماعية .

أليس من الغريب ان نرى أوروبا وأمريكا بالرغم من تخوفها من المبادىء البولشيفيكية فى وسائل المال والعمال تنقاد ان لهذه المبادىء في نظام الأسر على ما فيها من خطر على الانسانية وارتقاء النوع البشري .

أمّا هذا التسيّب المتطرف بين العدد الاوفر من الأسر المسيحية فلا اراه ينطبق في شيء على قول المسيح « من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه »

أعوذ بالهادي الممتلىء من روح الله أن يكون قد أراد وضع أساس الأسرة على ما نرى من ضلال ، كما أعوذ بالرسول العربي الكريم أن يكون أراد ما نشاهده من خروج على حق الله بارهاق عبيد الله .

إنّ ما أوردته من أقوال فاضلين من فضلاء المسلمين يغنيني عن المسير

الى أبعد ما ذهبت ، ولكن لا بدّ لي من أن أورد شيأ عن غرائب سوء فهم الشريعة الغراء وسوء استعمالها .

حكمت محكمة الجنايات فى بيروت فى شتاء سنة ١٩٣٢ على رجل بالسجن مع الأشغال الشاقّة ثلاث سنوات لاغتصابه كنّته زوجة إبنه .

وكان أبن هذا الرجل فتى فى مقتبل العمر زوّجه أبوه بفتاة جميلة اتخذها له على الطريقة التى لم تزل متبعة بين عدد وفير من أبناء الشرق وهى استحسان الاقرباء والاتفاق على المهر ، وما كان الأبن بالراغب فى الزواج ولكنه نزل عند إرادة أبيه ، ومضت أيام على عقد الزواج فاتضح ان العريس الفتى محروم من الرجولة . صعب الأمر على أهل الفتاة وأدركت هى نفسها أنها تجاه مستقبل مظلم لا معنى فيه فتقرر بينها وبين أهلها أن يطالبوا بالطلاق ، وأدرك الأب المحترم أن ما دفعه من مهر سيذهب جزافاً فترصّد لكنته حتى دخلت الحمّام في بيته وأسرع اليها يتقاضاها قيمة المهر الذى دفعه من كيسه ، وعلا الصراخ يملأ جوانب البيت الخالي حتى بلغ مسامع الجيران فهرعوا يستطلعون الخبر مذعورين فاذا الشيخ قد أتم جريمته والفتاة المسكينة على بلاط الحمام باكية نائحة . . . وانحنى الجيران باللائمة على الشيخ مقبّحين عمله الهمجي فاستغرب هو هذا اللوم ووقف مدافعاً عن نفسه قائلا — اذا كان ولدي ليس بامكانه ان يتصرّف بما دفعت ثمنه ذهباً من كيسي ، أفلا يحق لي أنا ان أستلم ما اشتريت

ولكنّ القضاء لم يأخذ بدفاع المجرم فقاده الجند الى السجن ثم الى المحاكمة وهو الآن يؤدي ما رآه القضاة متبقّياً عليه من ثمن العرض المهتوك . . .

إنّ مثل هذه الفظائع غير مختصّة بشعب دون آخر فى العالم المتمدن يرتكب الجناة أفظع من هذه الفعلة ، ولكن في دفاع هذا الأب عن نفسه ما يستوقف

الفكر ويطرح أمام الانصاف سؤالا قد يصعب الجواب عليه .

إنّ المغتصب رجل أميّ من الطبقة المستغرقة في الجهل وقد لا يعرف من دينه الاّ ما يقوده واستنتاجه الخاص اليه ، فهو يرى المهر اساساً للعقد فى الزواج بين من حوله ، فلا يقدر أن يفهم ان المال يدفع للعروسة مهراً لا ثمناً للعرض وانه عبارة عن هدية لا يجوز ان تحلّ محل الرضى بمُقدّم الهدية نفسه ، إن هذا الرجل المسكين بعقليته قد رأى أنه تمكن من أن يتخذ لأبنه عروسة ما رآته ولا هو رآها ، بعد أن وقع الاتفاق على مبلغ من المال ، فقال فى نفسه — إن أمامي الآن فتاة دفعت ثمنها ، وبما أنّ ولدي لا قبل له بالتصرّف بالمشترى وبما ان الطلاق سيخرجها من هذا البيت الذى أخذت منه مالا ، فمن العدل أن أتقاضى بنفسي ما حقّ لهذا البيت . .

إن هذا القرويّ الجاهل لم يكن له فى فعلته الشنعاء من حيلة يلجأ اليها تملصاً من العقاب ، ولكنني أعرف رجلاً من أكبر مدن سوريا ، غنياً يشبه الرجل الذي عرفه الدكتور شهبندر وقد يكون هو هو بعينه ، بدأ حياته الزوجية بأن اختارت له نساء الحي فتاة من أسرة بينها وبين أسرته نسب ، فدفع مقدّمها خمسين ذهبا وتعيّن المؤجل خمسين ذهباً أخرى ، ولما خلا بها لم ترق فى عينه فتركها ثلاثة أيام في بيته وهو يهم بتطليقها ، ولكن الفكرة التى جالت بدماغ غاصب كنّته بدأت تراود دماغه ، فلم يلبث حتى نفّذها وهو مصمم على الطلاق ، بعد أن أكدّ له أحد أقاربه المتقدمين فى السن أنّ لا حرج عليه بما يفعل ، وأن ليلة أولى لا يمكن ان ينتج عنها ما قد يجرّ الى نفقة يطول زمانها ، وهكذا خرجت الفتاة المسكينة ثيّباً بعد إمرار أسبوع فى بيت الغاوي الميكانيكى ، ولعلّ هذا التجرؤ الأول على امتهان كرامة العرض والتجاوز الفظيع على حق الله فى الضعيفة البائسة قد كان الباعث الأقوى

في هذه النفس الشريرة الى التمادي فى ارتكاب هذه الجرائم التي لا عقاب عليها الا يوم الحساب .

إن غاصب كنّته يفترش بلاط السجن اليوم ، اما هذا الوجيه الغني فهو بين جدران بيته يستعرض الأشباح الباكية التي مرت على فراشه فلأته بالأزاهر الحمراء ولعلّ هذا الشيخ ينحر الآن ذبيحة جديدة على هيكل شهواته ! !

إن انفتاح باب الوقائع فى معرض البحث عن العلل والمعلولات يوقف التذكار تجاه ممرّ طويل حافل بحوادث قد تكون أبلغ من التحليل لتشخيص الداء المريع الفاتك بمنابت اطفالنا فتكاً .

وبعض هذه المشاهد يستهويني لأعرضها بالرغم من أنني لا اجد للقصص محلا فى كلام المفكّر الباحث ، ولكنّ ما أوردته من حوادث التسيّب فى مواقف المحافظة على منبت الطفل يجبرني الى إيراد أمثلة من حوادث التعصّب للعرض والدفاع عنه ، وسوف يتضح أننا نحتاج الى كثير من الاصلاح فى العقلية السائدة على شعوبنا .

فى مصر كما فى سوريا ولبنان وسائر الاقطار العربية ، لا يمرّ شهر الأ وهنالك زوج يطلق النار أو يغمد السكين قاتلا لزوجته ، ولا تنحصر هذه الحوادث فى الازواج ، فهنالك أخوة وابناء عمّ حتى وأقارب أبعدون يقدمون على القتل وحمل وزره فى سبيل العرض .

حسنٌ أن يكون في الأمة غضب للصيانة وحميّة للمحافظة على الشرف ، وأحسن من هذا ان يكون فى هولاء الابطال الشرفاء شيء من الشعور بالواجب نحو المرأة التى يريدون منها ان تكون ملاكاً وهم أنفسهم أوضع جداً من أن يرفعوا بذاتهم الى مرتبة الانسان .

فى قرية من لبنان كانت فتاة لها أخ في العشرين من عمره وهي فى السابعه عشرة ، عشقت هذه الفتاة شاباً فردها اخوها عنه ، فبكت وأعلنت له أنها تحب عاشقها وقد ارتبط معها بعهد الزواج . تصلّب الاخ فى إرادته فاضطرّت الفتاة الى الهرب مع العاشق طلباً لملجأ أمين يتمكنان فيه من كتابة العقد بسنّة الله ورسوله ، وكلاهما مسلم ، ولكن الاخ طارد الهاربين ، وأطلق عليهما النار فوقعت الفتاة تختبط بدمها . وتولّت النيابة التحقيق فأسفر الكشف الطبي عن بقاء الفتاة نقيه طاهرة عذراء . . .

وفى قرية اخرى ، كانت الفتاة . . . في العاشرة من عمرها عندما طُلقت أمها فتزوج أبوها ثم طلق ثم تزوج مراراً فأسلم إبنته من الأولى الى ثلاث زوجات كن جلاّدات عملن على نكايتها واذلالها فهربت الفتاة فى الثامنة عشرة الى بيروت واشتغلت بالخدمة في بيت أو بيوت ثم استعادها بعض اقربائها الى قريتها فأخذها أخوها الي مغارة فى ضواحي القرية وهنالك ذبحها وواراها تحت الصخور الصماء ، ومرّت على الجناية عشر سنوات ، فاكتشفها القضاء صدفة ، فألقي القبض على الأخ فلم ينكر ما فعل بل أعلن افتخاره بالدفاع عن عرضه وذهب مع المحققين يدلّ بنفسه على مدفن أخته فأخرجت من تحت الصخور عظاماً باليه .

وفى بلد اخر ، كانت امرأة فى العشرين من عمرها زوّجها أبوها صغيرة ومات زوجها فبقيت ثيّباً من بعده ، وعشق هذه المرأة أبن عم لابيها وكانت تقطن فى إحدى غرف داره . وشاعت الشائعات عن هذه العلاقة فجاء اخوها فأخذها الى بيته وما مضت ايام حتى وجدت قتيلة في غرفة من بيت هذا الأخ وفي صدرها سكين مغمد الى نصابه .

إن فى هذه الحوادث الثلاث ما يكفي للتفكير .

فتىً غرّ يقتل أخته العذراء لانها اختارت لها من أحبّها زوجاً . ورجل أحمق يقتل اخته لأنها لم تجد في بيت أبيها المطلاق المزواج الا الاضطهاد والشقاء ، وهل كانت تلك الفتاة مسؤولة عن عفاف طُرد من الحصن الذى وجب عليه أن يقيه ؟ . .

واخيراً ، رجلٌ أنانيّ جاهل يوجب العفاف الزجريّ على أرملة هي أخته وكان عليه أن يأويها الى بيتـه اولاً لا أن يتركها تسكن بيت الغريب ثم يقاضيها ويحكم عليها بالموت .

جميل أن تكون في القلوب نخوة ، ولـكن هل في هذه الحوادث وامثالها اكثر من أن يحصى ، ما يبرر استبداد الرجل المستقوي بالمرأة الضعيفة ؟ .

يربّونها بلا أم ، ويحكموّن بها النساء الغريبات السليطات ، فان هي هوت على مزالق اعدوّها لها اتهموها وحكموا عليها وقتلوها ! ، تحب وتريد أن تتزوج مجيبة هاتف الطبيعة باختيار أب لابنائها فيخضبونّ الارض بدمها ، تبقى وحيدة شريدة لا سند لها وهي في شرخ الشباب فان هي هوت ظهر سندها المتواري عن العيان عند الواجب ليدّعي بحقه ويغمد السكين باسم الشرف الى اقصاه في قلبها ! ! !

ويلٌ للأسرة منبت الطفل من هذه المباديء والعقليات المضلّلة ، إن المرأة التي لا تستند الى ذراع أب أو أخ أو زوج يقيها تحكّم الناس فيها ومراودتهم للانوثة منها لمظلومة كالمرأة التي يدّعي الرجل أنه قيمّ عليها وما هو الا قيمٌ على شهوته تجاهها . . .

هنـالك في الغرب ، وفيئـه كبيرة في الشرق بدأت تسير في إثره ، تهجر المرأة حصنها الحصين الى ميدان الاعمال لـكسب رزقها بعرق الجبين متجهة الى الاستقلال بالعمل والخروج على سلطـة الرجل كما تقول الـكاتبات المترّجلات ، وهكـذا نشأ على وجـه الارض ذلك الجنس الجـديد الذى لم يظهر في مراحل

تاريخ الاحياء الأ مؤخرا وهو جنس الـغلاميّات اللواتى هربن من سلطة رجل واحد فوقعن تحت سلطات متعددات، لقد تتحرر المرأة الغلامية من سلطة رجل ولكن أنى لها أن تتحرر من سلطة الرجل ؟ . . . وهب أنها توصلت الى إقصاء قوة الـكون من ذاتها ، فان الرجل لا يفتاء يرى فيها صفات جنسها ، فان هي نسيت انوثتها ذكّرها الرجل بها في كل موقف وفي كل زمان .

إنَّ ما تندفع لاستحسانه واتباعه من نظم الغرب الاجتماعية قد اتضح زيفه لعلماء الغرب أنفسهم لخروجه عن المحور الطبيعى للحياة ، وهذا الذى يراه أنصار الطفرة خليقاً بالاعجاب من حرية متطرّفة للمرأة ليس في نظرى الأ عنوان عبوديتها وذل الرجل المتساهل فيها .

إن آدم وحواء أخرجا من الجنـة وكل منهما حامل ناموس حياته ، (عليه أن يستنبت الارض خبزه بعرق جبينه ، وعليها أن تؤمّن استبقاء النوع البشرى)

وسواء أكان ما جاء فى التوراة عن آدم وحواء وخروجهما من الجنة تاريخاً حقيقياً للمؤمنين أم اسطورة خيالية لغيرهم ، فإنّ المفكّر ليجد فيه النظام الطبيعى الذى لا مستقرّ للانسانية الأ باتباعه .

لقد تمرّدت المرأة في العالم الحديث على وظيفتها الطبيعية وصاحت كثيرات من الكاتبات يوجه الدنيا قائلات . — لا نريد ان يحسبنا الرجل آلة للاستيلاد ، نحن مساويات له فى مجال التفكير والعمل .

وكهربت هـذه الـكلمات أعصاب العدد الأوفر من النساء ، فتمرّدن على الأمومة واندفعن مطالبات بالعمل الحر استناداً الى مبداء الشخصية قبل النوع وهكذا نشأ العراك بين الرجل والمرأة فى ميدان الاعمال وفى مجال الحقوق والواجبات إننى ، وقـد شاهدت عن كثب حياة المرأة المترجلة فى أوروبا والعالم الجديد ،

لأنظر اليها والأسى ملء القلب ، تحاول أن تكون قيّمة على نفسها ، فلا تصل الا الى ارهاق قواها بواجبات ليست عليها دون ان تتملص مما أوجبه الحق الأعلى منها وجعل حوافزه كامنة في غريزتها .

ولكنني اذا نظرت آسفاً على مظاهر هذا الضلال فى العالم المتمدن ، فلا يسعني الا أن أضحك ضحكا كالبكاء على عدد غفير من قادة الافكار في هذا الشرق العربيّ يتخذون هذا الضلال مثالا أعلى لرقيّ المرأة فينادون أمتهم للاخذ به والعمل على نشره .

إن الطبيعة نفسها قد قسمت العمل للحياة بين الرجل والمرأة فالصقت كفّه بالمحراث وألصقت صدرها بالسرير ، فحسبت المرأة أن في موضعها كل العبودية وخيل لها أن فى مركض جهوده كل الحرية ، فسلخت صدرها عن مستقرّ الطفل واندفعت الى المحراث فتعطّل الحرث العميق في الارض ، منابت القوت ، وساد الظلام على البيت ، منابت الأطفال .

أسمع المعترضات يصرخن قائلات . إننا لا ننازع الفلاّح محراثه بل ننازع الرجل حقنا فى الاشتراك بالاعمال التى تقوم المدنيّة عليها ، نريد التغلغل في دوائر الحكم والادارات والمصالح فان الله لم يحرمنا القوة الفكرية التي جاد بها على الرجل ،

وانا أجيب سيداتي بحقيقة إن أنكرتها العاملات منهن كنّ كاذبات مكابرات فاقول — وهل كل هذه الاعمال كلها على اختلاف مظاهرها سوى محراث يحتكّ بالارض القاسية وينسكب فوقه عرق العبودية والشقاء ؟

أليس رجل الحكم والادارة والصناعات والمتاجر — كلهم مرتبطون بمحراث العبودية لهذا التراب يعالجونه لاستخراج هذا الخبز بعرق الجبين ؟ وهل الأم تملأ البيت نوراً وحكمة وشعراً مستندة الى ذراع زوجها أو منحنية فوق سرير

طفلها أقل مجداً أمام الحياة من أكبر رئيس لأعظم مصلحة من مصالح الشعوب ؟..

ليس فى العالم رجل عمل ، أيّاً كان عمله ، لا يخضع إرادته لمن فوقه ولمن حوله بل ولمن دونه فى مراتب الهيآت العامة ، فليس ما تتوهمه المرأة حرية في أعمال الرجال الا عبودية لهم على أنه إذا تسنى للرجل أن يحتفظ بشيء من الكرامة لشخصيته فى هذه العبودية نفسها فانه ليمتنع على المرأة الا تصطدم فى مواقفة باهانات أخف منها أثقل ما يمكن أن يلحقها من القيّمين عليها آباءً او اخوةً او أزواجاً ...

وليُسمح لى أن أورد كلمة أعربهّا من كتاب اعتراف فتى العصر للشاعر العالميّ الخالد الفرد دى موّسه الفرنساوى ، وما أجد أفضل منه مرجعاً يدّلنا على منشاء قضية الرجل والمراءة في طورها الحالي وقد بدأ عند نهاية حروب نابوليون بونابارت فى أوئل القرن التاسع عشر .

قال الفرد دى موّسه

أثناء الحروب الامبراطورية ، بينما كان الآباء والاخوة فى بلاد الالمان ، قذفت الأمهات المضطربات بسلالة شاحبه جاءت الوجود عنيفة مستعرة الأحشاء

تلك سلالة تمخّضت بها الحياة بين حربين ، وربيت فى المدارس على قرع الطبول فكان اذ ذاك الوف من الاولاد يحدج بعضهم البعض الأخر شذراً وهم يمرّنون للقوة عضلاتهم الضعيفه . وكان الآباء الملطخون بالدم يلوحون لأولادهم من حين الى حين فيرفعونهم لحظة الي صدورهم المحلاّة بالذهب ثم يتركونهم الى الارض ويعودون ممتطين صهوات الجياد .

وما كان فى فرنسا حينذاك الاّ رجلٌ واحد يتمتّع بالحياة، اما الباقون فكانوا يجتهدون لاملاء صدورهم من الهواء الذى كان ينشقه ذلك الرجل ثم يدفع به من

رئتيه للناس . وكانت البلاد تقدّم له كل سنة ثلاثمئة ألف رجل في شرخ الشباب ، تلك كانت الجزية الواجبة الاداء لقيصر لأن تضحية هذ القطيع كانت لازمة لأمجاده ... بل تلك كانت المواكب التى حشدها ذلك الرجل لاجتياز الدنيا والسقوط اخيراً فى وادٍ حقير على جزيرة قفراء تحت أغصان الصفصاف الباكي .

الي ان يقول .

«وكان الامبراطور واقفاً يوماً على قمّة ينظر الى سبعة شعوب تقتتل ، وما كان يعلم اذ ذاك أيتملك نصف العالم أم يمتدّ حكمه الى العالم بأسره ، فمرّ به ملاك القضاء والقدر وصدمه بجناحه فهوى الى أغوار الأوقيانس البعيد .

حينئذ وقف رجال الامبراطورية الذين جابوا الاقطار ولطّخوها بالدم الى نسائهم الشاحبات وقبلوهّن متكلمين عن الغرام القديم . وتحولوا الى أمواه الغدير ينظرون فيها وجوههم وقد خددها الهرم فتذكروا أبناءهم وهم ماثلون الى الساعة التى يتلمّس الانسان فيها من يغمض له جفنيه .

وخرج الابناء من المدارس فما وجدوا سيوفاً ولا دروعاً ولا فرساناً سألوا عن آبائهم فقيل لهم إنّ الحرب ألقت أوزارها لأنّ القيصر قد مات . وقيل لهم ان رسميّ ولينكتون وبلوخر معلّقان على جدران السفارات وقد كُتب عليهما « مخلصا العالم »

فى ذلك الحين جلست على أطلال عالم قديم شبيبة تتنازعها الهموم . »

الى ان يقول .

« وجرت فى مجتمعات باريس أمور مدهشة اذ انشقّ الرجال عن النساء ، فلبست النساء البياض كالعرائس واتّشح الرجال السواد كالأيتام . ووقفت الفيئتان تحدج احداهما الأخرى بلفتات العداء

« ان هذا الثوب الأسود الذي يلبسه رجال عصرنا لهو دليل انقلاب هائل لانهم ما اتشحوه الا بعد أن تساقطت شارات الشرف ، وتمزقت الأزياء وتناثرت أزهار الاثواب المزركشة على الحضيض ، وما كان ذلك الا انتصاراً للتعقل على الآمال المائرة ، ولكن التعقل فى انتصاره تجلبب بالسواد حزناً كأنه ينشد العزاء والسلوان »

« وسادت مجتمعات طالبي العلم ورجال الفنون انقلابات عامة بعد ان كانت مجلى الحرية الحقة ومبعث المسرات البريئة النقية ، انفصل الرجال عن النساء فتولد عن هذا الانفصال شيء أشبه بالنصل القاطع الذي لاشفاء لجرحه ، وما ذلك الشيء الا عاطفة الاحتقار . . . .

« فقد الرجل حب المرأة فاندفع الى الخمرة والى الكؤوس ليستعيض عما فقد ، ونظر الناس الى الحب نظرهم الى الدين كأن كليهما توهم واغترار .

« وغصت المواخير بالرجال فاصبحت الفتاة مهملة بعد ان كانت تغذي الشبيبة بحبها الطاهر السامي ، وإذ احتاجت هذه الفتاة الى غذاء ورداء باعت نفسها وبذلت عرضها لتعيش . ياللعار . . . إنَّ ذلك الشاب الذى ترك تلك الفتاة وكان يمكنه أن يبادلها الحب فيستنيران كلاهما بانوار شمس الله ، ذلك الشاب الذى كان فى وسعه أن يقتسم مع حبيبته لقمة الخبز مغموسة بعرق جبينه ويتمتع بحبها المجيد فى فقره ، كان ينطرح على دِمن الانسانية فى مواخير الفسق فيلتقي هنالك الفتاة نفسها مثقلة بالأوصاب ، شاحبة مضيعة ، يجول على فمها الجوع ويرعى قلبها التبذل والفساد . . »

* * *

هذه هي الحلقة الأول لسلسلة المدنية الحديثة وما نجد لها أروع من هذه

الصورة يرسمها للتاريخ رجل مازال يغمس قلمه فى قلبه حتي استنزف دماءه سطوراً تشعّ من قطراتها الأنوار .

هذا رجلٌ من أعقل ما انبتت تربة الغرب من رجال وما أنجبت من قلوب ، يكشف لنا عن تطوّر الحياة الانسانيـة فى أوربا كلّها فى الربع الأول من القرن التاسع عشر وقد كان معاصراً لهذا التطوّر يقيس مداه بمقلتيه الدامعتين ويزن أثقاله بما ألقاه على قلبه الكبير من الآلام . وهذا الشاعر الخالد هو القائل ، « وسمعت الدنيا فى ذلك الحين ضجيجاً هائلا هو صوت صخرة القديسة هيلانة تسقط على العالم القديم . »

إنّ مدنية أوربا القديمة التى كانت مؤسسة على ما اقتبسته من الوحي المنزل على الشرق كان قد دبّ الهرم فيها فهبّت عليها زعازع الحروب ، وما كان بونابرت الاّ مجسّم القضاء متشحاً الاثرة والعنف مصلطاً سيف عزته قاطعاً به كل استبداد سوى استبداده ، وما هوى الى القبر المفتوح فى جزيرة القديسة هيلانة الاّ بعد ان زعزع العقائد والتقاليد التى كان ارسلها عيسى روحاً محيية من الشرق فمسخها الغرب آلهة وأصناما .

ومنذ ذلك الحين ، منذ قرن كامل اجتاحت العقليـة المادّية الغرب بأسره فمشى العقل الانساني حاملا مشعل دماغه الماديّ غير مؤمن بشيء الا بنفسه .

كتب موسّه صفحات طويلة عن حالة عصره الأدبية فرفعته هذه الصفحات الطافحة بالشعور الصادق والاخلاص للأنسانية الى مصاف العباقرة الخالدين وانني لا أملك نفسى وان طال البحث من أن أورد شيئاً من خطوط هذا الرسم الكبير الذي يوضح لنا بكل جلاء اتجاه المدينة الحديثة فى أوائل خطواتها .

قال موسّه .

« ولم يكن حينذاك من سيادة لغير الجحود ونكران كل ما فى السماء وعلى الأرض ، فكانت شبيهـة بذلك الجندى الذى سُئل بماذا تؤمن ؟ فأجاب أؤمن بذاتى . ولكن هذه الشبيبة كان يجيب من يورد عليها هـذا السؤال — إننى لا أؤمن بشىء » .

« وانقسمت الأنسانية الى قسمين فلاحت من جهة نفوس مضطربة متوجعة تتوق الى الاعتلاء ، وتتحفز للوثوب يحنى رجالهـا الرؤوس ويبكون احلامهم الزائلة وأمانيهم العاثرة كأنهم فى الوجود مقصبة تتمايل على مستنقع من الشقاء . وكان من الجهة الأخرى رجال المادة والشهوة واقفين بلا مبالاة على ركام الملاذ المحسوسة ولا همّ لهم غير احصاء الاموال التى يمتلكونها ولم يرتفع من هذا المجتمع المكوّن من الفرقتين سوى زفرة وضحكة تلك من الروح وهـذه من الاجساد . وكانت الروح تقول فى زفرتها .

« ويلاه ، لقد تلاشى الدين ، وغيوم السماء تساقطت أمطارا ، لم يبق لنا أمل ولا رجاء حتى ولا قطعة خشب سوداء نرفعها هيكلا نركع امامه متوسلين ، لقـد تلفّعت نجمة الصبح بالغيوم الكثيفة على مطلع الفجر فهي ضئيلة مترجرجة على أفقها فكأنها شمس الشقاء ، وكأنها مبرقعة بدماء الثورات .

ليس ثمت من حب ولا مجد ، فما أحلك الظلام فى هذا الليل المترامى باطرافه على الارض ، سوف يدركنا الموت قبل أن ندرك الصباح .

أما الأجساد فكانت تقول فى ضحكها . - وجد الانسان على الارض للتمتّع بحواسه ، ولديه من المعدن الأصفر والأبيض قطع يستمدّ منها العظمة على قدر ما يملك منها ، من أكل وشرب ونام ، فذلك هو الحى . أما ما بين الناس من علاقات ، فالمودّة أساسها استقراض المال ، ولقد توجد مثل هذه الصداقة المندفعة الى هذا

الحد من التضحية أما علائق القربى ففائدتها نوال الأرث ، وما الحب الا رياضة جسدية ، وما من لذة عقلية فى غير الكبرياء والخيلاء .

« وملأت الاقطار نفثات أدب لا شكل له كأنه مسخ تعلقت غيلان العصر بأثدائه يرضعون منها الدماء . . . !

« لقد ساد الشك على الكهول أما الشبيبة فما سادها غير قطع الرجاء . وكان الشبان يخرجون من مدارسهم الى العالم بوجوه ناضره وجباه متألقة وعلى شفاههم لعنة الجحود .

« وكان الاغنياء يقولون . « لا حقيقة الا فى الثروة وما سواها فأحلام ، فلنتمتع بالثروة ولنمت » وكان متوسطو الحال يقولون — « لا حقيقة الا فى ، السلوان ، فلنسلُ ولنمت » أما أبناء الفقر فكانوا يقولون . « لا حقيقة الا في العذاب وما سواه فأوهام وأحلام فلندفعن باللعنات ولنمت »

* * *

من هذا الموقف دفعت الانسانية فى الغرب اوائل خطواتها على سبيل المدنية الحديثة ، فكان التمرد على النظم القديمة البالية وكانت الثورات التى خضبت الارض بدماء السيد والعبد ، بدماء الظالم والمظلوم ، بدماء البريء والمجرم بجمعا واحداً رقص الشعب فوقه صاخباً باكياً ضاحكا في سكرة الاماني المحطمة والالام المخدرة . . . .

من مثل موقف الرومان ومن مثل موقف العرب حين سادت الفظائع الأرض ، خرجت أوروبا الى عهدها الجديد ولكن عيسى لم يكن مُهديها ولا محمد ماشياً فى طليعتها . كان إنجيلها حقوق الانسان التى كتبها الثائرون بالدم المتمرد وكان قرآنها القوانين التي سنها نابوليون لاقامة الموازنة بين الحقوق ، ولكن

هذا الأنجيل الحديث الذي استمدَّ من إنجيل عيسى المساواة والانصاف لم يتناول سواهما من مبادىء الاحسان والعطف والمغفرة والرحمة وهذا القرآن الجديد، قوانين نابوليون المستمدَّة من مذاهب الأئمة في الشرع الاسلامي وقف عند حدِّ التنظيم الماديِّ المحض لحقوق الناس فقصرٌ عن الأخذ بما في قرآن النبي الهادي من الدعوة الى المعروف والبرِّ بالأدنين والأبعدين من بني الانسان.

رأت بلاد الغرب ان الدين أصبح سلطة تواطأت طويلا مع السلطان المطلق وما حوله من سادات الأقطاع وامتنع عليها أن تسلخ إنجيل عيسى عن هذه السلطة فأنكرتها وأنكرت عيسى وتعاليمه معها ...

وسارت المدنية الحديثة في طريقها مستنيرة بالعلم الوضعي منكرة كل ما لا تقع الحواس عليه، فاصبحت القوة وحدها المسيطر الأعلى تنبسط قاعدة رهيبة للعجل الذهبيِّ تمدُّه باعتلائها وعدَّها بلمعاته.

وبقيت المسيحيَّة دين الغرب، ولكنها حُصرت في كنائسه وانكمشت مبادئها عن الحياة نفسها، وبينما كانت تُتلى في المعابد كل يوم الآيات التي هبطت على جبل فلسطين فهزَّت الدنيا وقلبت المدنيات القديمه و تتلى بعدها رسالات الحواريين التي كتبت في السجون لتحرير الانسان، كانت مدنيَّة روما الوثنية تنبعث من كل جانب لتدور حول الكنائس متهقهة ساخرة.

كانت الفتيات العذارى يخرجن من الكنائس بعد سماعهن قول بولس الرسول بالتستر وحجب الشعور والاحتشام والطاعة للقيِّمين، ذاهبات الى المراقص نصف عاريات كأنهن الدُمى الرومانية نفخ إبليس فيهنَّ نسمة الحياة.

إن العالم المتمدن المسيحي قد خلع الصيانة الصارمه التي أوجبها المسيح على المؤمنين بالحق.

قال المسيح — كلّ من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، والنساء يكشفن الصدور والظهور وما دونها ويلتصقن بالغرباء فى رقصهنّ مدّعيات ، ويدّعي معهن الرجال أن ذلك إنّما هو للفنّ لا للشهوة . . .

قال المسيح . — من طلّق امرأته لغير علّة الزنا فقد جعلها تزني ومن تزوج مطلّقة فقد زنى ، وهناك فى أوربا وفى اميركا يطلّقون لأتفه الأسباب ، بل تلجاء المرأة الى إشهار علاقتها بعشيق لها لتنال الطلاق وتتزوج به .

إنهم يدّعون المسيحية ويعيشون كعبدة الأوثان فيلصقون بالمسيحية أوزارهم ، تعالى روح الله عما يرجفون وعما يفعلون .

ومَنْ ظنّ المرأة هى السبب الأول فى هذا الفساد الأجتماعي فقد ظنّ إثمًا وهذا الفرد دى موسّه وهو الذى شاهد بعينه أوائل أعراض هذا الداء الوبيل يقول . — وفقد الرجل حب المرأة فاندفع الى الكؤوس ليستعيض عما فقد ، ونظر الناس الى الحب نظرهم الى الدين كأنّ كليهما توهّم واغترار .

إن غريزة المرأة لا تطمح الا الى الطريق الذي اختطّه لها الناموس الطبيعي فى تكوينها ، فهى قد وجدت وفى أقصى غريزتها مكافحة الموت بثمرة الحب ، فما أحبت أمرأة رجلاً الا وكانت محبتها خيالاً متقدمًا لمحبّة الطفل الكامنة فيها .

إن شعور العذراء بتسليمها حياتها كلها عندما تستسلم للرجل ، إنما هو الدليل الطبيعيّ الذي لا يدحض على وحدة المركم فى هيكل الانسانية الفازعة الى البقاء

واذ كانت الفتاة قد لجأت الى المواخير كما يقول موسة لتأكل بثديها وتلتقي هنالك مَن منع على نفسه أن يكون قيّما عليها فاصبح مستغلا لشقائها ، فانها لم تلبث حتى تمرّدت على إذلاله لها فى عرضها فلجأت الى العمل لتأكل بعرق جبينها احتفاظًا على الأقل بحق اختيارها للرفيق الموقت او بالتمرّد على أنوثتها الكاسرة

من عزّة نفسها ، وهكذا بعد إن كان الفتى يلقى الفتاة التى تحـول عنها فى مواخير الفحشاء ليذلّها أصبحت تلاقيه هي فى ميادين الأعمال لتزاحمه على العمل متملّصة من إذلاله .

وعندما تغلغلت الايدي الناعمة فى مرافق الحياة العامّة ، نشاء فى المجتمع حقّ جديد غريب فى عناصره ، هو حقّ المرأة مفصولا عن حقّ الأسرة التى يرأسها الرجل ، وهكذا شاهدت الشمس ما لم يتجلّ تحتها فى أي عصر من العصور الغابرة ، شاهدت النوع البشرى منشقّا الي فريقين متناظرين يتطاحنان فى الميادين العامّة بعد أن كان هذا النوع البشرى انسانًا واحدًا من جسدين مندغمين ينبثق من اندغامهما فجر الحياة .....

ليتبعني سامعيّ قليلا فى هذا الاستقراء .

إن الحـالة المرَضية التي طرأت فى اوائل القرن الماضي على عاطفة الرجل نحو المرأة فحوّلت حبه وغيرته المقدسة الى شهوة وتسيّب قـد نشاء عنها تهرّب من المسؤليـة التي ترافق الارتباط والعهد فى الزواج ، وجاءت الحرّية المتطرّفة وليدة الثورة والضغط ونُصب تمثالها بشكل امرأة عارية فساد الاستهواء الدافع الى الانطلاق من كل قيد .

لقد علمّتنا عبر التـاريخ أن العدل يحلّ فى كل اشكال الحكومات كما أن الاستبداد يتطرّق اليهـا كلها وليست الجمهورية المضللة خـير مـن الملكية التى يسودها الهـدى وقد كانت نزعات الاثرة والاستبداد سـائدة فى القصور فتمرّد الشعب عليها وأرسل معاوله تهدم في أساسها ، وفى خلال هـذه الثورة وبعد انتهائها فسد قلب الرجل المتحرر فـكأن السيادة التى قضى عليهـا فى حكامه تقمصت فى قلبه فاحتقر المرأة وأرادها له كما كان هو لاسياده من قبل . هدم الرجل الباستيل

لأنه أصبح معقلا لمن اختلسوا حق الحرية والحياة ، وجاءت المرأة بدورها تهدم جدران بيته لأنه كأسياد الباستيل أساءَ استعمال سلطته .

إنَّ المرأة لم تتمرّد في اوروبا على سيادة الرجل ، كما ان الرجل لم يتمرّد على العروش والتيجان ، وما تمرّد كلا الرجل والمرأة الاّ على ما تجلّى من فساد وأثرة في السلطتين .

على هذه الركام المتهدّمة مشى العقل الانساني يفتش على القواعد التي يرفع عليها الحياة فلم يجد غير القوة يتلمّسها محوراً لكل اعماله ، فتجلّت هذه القوة في العلم والفن وفي الفيالق وآلات الدمار ، ولكن كل هذه القوات تحوّلت الى خدمة العجل الذهبي ، وهكذا قام كهنة باعال عند أقدامه يستثمرون جهود الانسان وبقي الانسان عبداً لما أوجد من نُظم بعد أن انعتق من عبودية النُظم القديمة المفسودة .

وما كان للحب أن يفلت من هذا التيار العام الذي جعل لكل شيء ثمناً يتحكّم في الجهود بين العرض والطلب وهكذا نشأ الزواج الذي يصفه رجال الأعمال في أوروبا بالزواج الحكيم للجمع بين ثروتين وللوصل بين قوتين ، أما الفتاة التي لم يكن لديها ما تشتري به زوجاً فقد نزلت الى ميدان العمل المرهق ، وكانت هذه فرصة لارباب رؤوس المال فانتهزوها ، إن المرأة تقنع بالاجر الأقل فاستبدلوها بالرجل فغصّت المتاجر والمعامل بالآنسات ونشأت المزاحمة فاستحكمت حلقات الضيق في الأعمال .

إنَّ أعضل المشاكل التي تواجهها المدنية في كل مرحلة إنما هي معضلة العمل ، ومَنْ من المفكرين لم يقرأ الفصول الطوال والدروس العميقة لايجاد العمل للعاملين ، تلك هي حوادث الاضراب وحوادث العطالة ومشاكل تصريف زائدات الانتاج

تصدم الاجتماع المتمدن فى كل فترة بما تعزّ معالجته ويمتنع صدّ تياره ، وقد وقفت ملياً أمام هذه الدروس يتعمق فيها رجال العلوم الاجتماعية والمالية فما رأيت لاحدهم نظرة صائبة فى تلافي هذا الداء العقام الذى يهدّد المدنية بالفناء .

لا أدّعي التفوق على هؤلاء الاخصائيين ، ولكنني أراهم متعامين عن مواطن العلة لأنهم يتلقّون الحالة المختلة كأنها حالة طبيعية لا مطمع لهم بازالتها ، فهم كالطبيب الذى يرى فى العليل أوراما يحسبها عرضاً لداء مجهول فى حين أنه لو تميّزها لرآها هى نفسها السرطان الذى يجب قطعه قبل أن يتصل سمّه بالجسم كله .

ليرافقنى المفكرون فى رحلة استقراء قصيرة ننظر فيها الى أبسط المظاهر بأبسط وسائل البحث .

نحن فى قرية عدد أهلها الف نسمة تساوى عدد ذكورها بأناثها ، تنبسط حولها الارض المخصبة وهى متمتعة بكل وسائل الرقي .

فى القرية ٤٠٠ ولد و ٣٠٠ رجل و ٣٠٠ امرأة ولهذه القرية سلطاتها المدنيّة والروحية وفيها المستغلّون برؤوس الأموال والعاملون فى الارض وفى المصانع .

الرجال يشتغلون فى الخارج والنساء يقمن بواجباتهن فى البيوت من إعداد الغذاء وتربية الأولاد ، وما يحصل من الانتاج يُستهلك نصفه فى القرية والنصف الباقي يباع فى الخارج ويستورد بقيمته ما ينقص القرية من مواد أخرى لا تصنع فيها ولا تنبتها أرضها .

وكان أرباب الأموال قانعين بربح معتدل والعمّال يشتغلون وقلبهم مشدود الى مراتع النساء والاطفال ، وقام بين هؤلاء الناس من فكّر بايجاد الآت تستخدم فيها القوات الطبيعية لتوفير الجهود على سواعد العمّال فأوجدوا من الماء والنار حركةً تُسخّر فى هذا السبيل فتوفقوا الى ما ارادوا ولكنّ أرباب الاموال ، بعد

أن جهّزوا معاملهم بما استحدث رجال الاختراع من قوّات وأرسلوا على الارض المحاريث الجديدة رأوا أن يستفيدوا هم أنفسهم من جهود المفكرين فابقوا العامل يعمل النهار بطوله بالأجرة نفسها، فزاد الانتاج وتضخّمت جيوب الذين لا يعملون وأرهق الاستعباد للآلة العاملين، وتذمر الرجال، وأخذ التطوّر يغير من عقليه أبناء القرية رجالا ونساء، وحدثت انقلابات اجتماعية واخلاقيـة أدّت بالرجال الى استثقال وقر الأسرة وبالنساء الى التطلع الى ما فوق اقتدار الازواج من بذخ وترف، فانحلّت الروابط المقدسة ونمت فى عواطف النشء الجديد أميال الانطلاق من العهود، وهكذا أخلت البنات منازل الاباء الى ميدان العمل طلبا للتعيّش من غير يد الرجل فسارعن للاستعباد خارج البيت لقاء أجر أدنى من أجر الرجل، وخلت البيوت تدريجاً من النساء فقامت المطاعم فى انحاء القرية وانشئت الملاهى العمومية وقام مقام النظم القديمة نظام جديد هدم الأسرة وبنى على أنقاضها مجتمعاً انطلقت فيه المرأة تنتزع اللقمة من الآلة ومن الارض مدعيّة أنها أصبحت حرّة وأنها نالت حق المساواة. ولكنّ المرأة التى قلبت النظام الطبيعي في المجتمع لم تتوفق الى التحرر من الطبيعة الكامنة فى فطرتها فبقيت امرأة خارج الأسرة يسودها الرجلُ بعبوديتين عبودية جهودها التى تطوعت لها وعبودية انوثتها وقد انقلبت ألعوبة الفاحشين.

وتحوّل النسل من الاسرّة الطاهرة الى أقنية المراحيض فأصبح سباخاً مع سباخ الأرض فكان من ذلك تحوّل الحب الهادىء العذب في قلب الرجل الى نوع من الكآب واستحال استسلام المرأة المطمئن الثابت جنوناً عصبياً، وهكذا لاحت الغريزة الجنسية بين القوم افتراساً فى الرجال وسكرات جنون تعقبها صحوات الندم فى النساء.

وخلت البيوت من لقمة الأم والزوجة تعدّها للأسرة مشبعة من روح عطفها واعتنائها فانقلب الغذاء فى الجسوم كالحب فى الأرواح سماً زعافاً ،

كان الرجل وهو العامل الطبيعي يجد فى كل ميدان متسعاً لجهوده فأصبح أصعب ما يقوم به السعي لوجود عمل ، فاذا ما توفق اليه ، أمضى نهاره بالأوصاب متذمراً لاعناً حتى إذا أمسى المساء هرع الى الكأس يراودها نشوتها الكاذبة ثم تحوّل الى مطعم أعدت ما كله التجارة مواداً مكذوبة هبّت فوقها أنفاس الاستغلال وأخيراً اندفع ناملا ملء روحه الأسى الى فراش ليلة وزوجة ساعات.

وان كان لهذا الرجل زوجة وأبناء فانه يلتقي أهله عائدين من العمل تدخل البيت زوجته وبناته المستخدمات مثله مسترجلات خالعات نير الأسرة ، وما تحمل الحياة نيرين فى وقت واحد .

وما هى بأسرة تلك الكتلة من الذكور والأناث يجتمعون للمبيت تحت سقف تكون السيدة فيه امرأة مأجورة ، وقد لا يلام الرجل في مثل هذه الأسرة إذا اشتهى أن يكون كزميله العازب ، فان هذا قد خرج من بيته تائهاً فى غربة العالم أما هو فانه قد أدخل العالم الغريب الي بيته والى فراشه .

وساد الخللُ النظمَ الاقتصادية ، زاد الانتاج عن الحاجة فسدت القرى المجاورة منافذ التصريف اليها ، فاحرق أرباب الأموال نصف المحصول استبقاء للتوازن فى الاسعار ، وساد الجوع والعري لوفرة ما انتجت السواعد وأنبتت الأرض .

إن لم تكن هذه الرؤى صورة منطبقة على شكل المدنية الحالية فليكذّبها أنصارها ، وما هم بمكذبين .

وإن أنا وقفت عند هذا الحد من الأخذ بالرسوم، فما ذلك إلاّ لأنني لم افتح حدقة التصوير إلاّ على قدر ما تتسع للمشاهد التي تقوم منابت الأطفال عليها.

إنّ مشكلة المشاكل في مدنية الغرب ناشئة كما رأينا من سوء استعمال الآلة ومن سوء استعمال المرأة لوظيفتها، والمفكرّون في أوروبا وأمريكا يكتبون المجلدات لاحياء هذه المدنية وإقالتها من عثارها باحثين في توازن الذهب والورق وفي الحواجز الجمركية وفي مواقف الدول بعضها تجاه البعض الآخر، إنّ هؤلاء المفكّرين يتلهّون بخلق علاج للاعراض مغضين عن معالجة العلة نفسها.

ولو قُدّر للمدنيّة المتداعية أن يقف على ذروة قواتها رجلٌ يضع الانجيل والقرآن على قلبه مركّزاً الآلة حيث ارادتها العبقرية المخترعة في جنب الجهود لا في جنب الاستغلال قابضاً بيده الحديدية على كلّ امرأة منطلقة في الحياه العامة نحو الشقاء والهوان مرجعها الى أحضان أبيها وأخيها وزوجها قاضياً باقصى عقاب على كلّ رجل يقاوم حكم الله فيه متمرّداً على تأدية واجبه المحفور بالغيرة المقدّسة والمروءة على صفحات قلبه، لو قدّر للمدنية أن تتجلّي مثل هذه الرسالة فيها لكانت تهتدي في هذا العصر أيضاً بالهدي الذي أخذت به من الشرق ثلاث مرّات من عهد موسى الى عهد محمد خاتم المرسلين.

عند ما قال نابوليون: فتشوا عن المرأة، أورد رائياً في منشأ المفاسد وفي ما يحفز بالرجل الى الخروج على النظم والاخلاق طلباً لارضاء حبيبة أو خضوعاً لفاسقة متسلطة؛ ولكنني أتخذ هذه الكلمة ميزاناً لقياس حالة الامم من الصحة والاعتلال، فاذا ما نحن شئنا معرفة العلل التي تقضي على أي مجتمع فلنفتش عن المرأة لأنها في النظام الاجتماعي بمقام المجموعة العصبية في الأحياء، فاذا هي انحرفت

عن مركزها أو سادها أي اضطراب كان تشنجت أعضاء الجسم كله ومني بحياة الموت خيرٌ منها.

إنّ المرأة في مدنيـة الغرب التي تعزي مباديها افتراء الى المسيح قـد جنحت بضغط الرجل عن مركزها ؛ فهي عالمة ، وكاتبة وفيلسوفة وزارعة وصانعة ومستخدمة وموظفة حكومة ، ويمكنها أن تستغني عن الأب والأخ والزوج فهي ليست عالة على أحـد كما تقول . أما أنا فأراها على ما هي عالةً على المجتمع ترهقـه وتهدّ من أركانه ، إنّ عضواً يتحوّل عن مركزه ليقوم مقام عضو موجود إنما يحول دون إتمـــام العضو الطبيعي لوظيفته ويفقد هو وظيفته الخاصة فيُدخل التشوش على الجسم ويجيء بالضرر الفادح .

أنا من أنصار تعليم المرأة وتهذيبها ، أريدها شاعرة كاتبـة بل وفيلسوفة اذا أمكن ، لأن العلم والشعر والرقيّ الأدبي الزم للناس في بيوتهم منه في المجتمع ولـكنني لا أريد المرأة عاملة خارج بيتها يتحكمُ فيها الغرباء عنها فان لم تنزل الاهانة بها كامرأة نزلت بها إهانات التقريع كمأمورة يجب عليهـــا أن تمحي شخصيتها وتكيّفها طبقاً لواجبات التنظيم .

إننا نحن أبناء الشرق نتخدع كثيراً في معنى حرية المرأة الغربية وكثيرات من بنات بلادنا يضعن نصب أعينهن الفتاة الغلاميّـة العاملة في أوربا كمثال أعلى للرقيّ الصحيح ، ولكنني لا أملك النفس من أن اصرخ بهن تكذيب هذا الوهم في خيالهن الجامح . فأقول لهنّ والحق ما اقول إنّ المرأة الشريدة في العالم التي تستند الى نفسها لتعيش بدون رجل إنما هي مساوية بالشقاء للرجل الذي يستند الى ذاته ليتمتع بالحياة بدون امرأة . فاذا ما وصل الرجل المنفرد الى وسط الحياة كارهاً لنفسه وللانسانيـة فان المـرأة لا تكاد تصل الى وسط الطريق حتى تشعر أنهـا

ضلّت السبيل السويّ وأن كل ما بلغته من مجد او ثروة لايساوي ابتسامة واحدة من إبن او إبنة تسند اليه اواليها ماتبقّى من قوى منحطة فى خطواتها الاخيرة المترجفة.

إن كل ما يمكن للمرأة ان تخدم به المجتمع من أعمال ليس الاّ فضولا وتبرعاً فى غير محلّه ، فالمرأة التي تنشىء أمة وتخلق وطناً لا تكون الاّ كالقابضة على الريح فى فضلها الموهوم على الانسانيـة لأن الرجل الذى يمكنـه أن يقوّم بهذه الاعمال خيراً منهـا لا يمكنه أن يقوم مقامها باعداد جنّة الأسرة وإيجاد الملائكة الباسمين عن سرّ الله فى الاكوان وعن سرّ الخلود فى الارواح .

اذا كان الرجل المضرب عن العمل لا يعدّه المجتمع رجلاً ، فالمرأة المضربة عن الأمومة ليست امرأة وأكره من هـذين فى عين الحق الأم التى تجنح عن تربية بنيها لتذهب ضاربة فى مجاهل واجبات لا تأتلف وما فطرت عليه ، كأن تربية الطفل ليست بالعمل الأقدس والمهمّة الأسمى بين كل ماتدور عليه الأكوان وما يقوم عليه المجتمع من جهود .

إنّ نواشيء الحياة فى ممالك الجماد والنبات والحيوان تكفلها العناية الكامنة فى الطبائع والغرائز نفسها ، فالمادّة المنسلخة عن أصل لها هي كالنبات المنفصل وكالحيوان المولود تتجه جميعها الى ما قدّر لهـا بسائق لا اختيار فيه ولا ضعف فى حوافزه ، أما الاطفال فيأتون الحياة وهم أشد احتياجاً الى ذراعيّ أمهم وفكرها بعـد انسلاخهم عنها من احتياجهم الى الرَحم الذي تكونوا فيه .

إن لحظة واحدة تتحوّل فيها عينا الأم عن الطفل هي لحظة خطر على حياته لأن الطفل محروم من كل غريزة للدفاع عن ذاته بل ايخيّل لى ان فيه من الميول ما يدفع به الى إيقاع الأذيه بنفسه . اترك الطفل على شفير فأنه يندفع للارتماء

عنه ، اتركه الى جنب نار او آلة قاطعـة فأنه ليذهب اليهما محترقاً مجروحاً كأن فى الألم قوة تستهويه .

أن لهذا الطفل عينين ويدين ورجلين . ولكنه لا يرى ولا يعمل ولا يسير ما لم تـكن له فى كل آونة عينـا أمه ويداها ورجلاها وتمرّ الشهور فاذا الشخص الادبيّ ينتبه فى الطفل واذا زمن تـكوين فطرته الثانية قـد حان ، فعواطفه وافكاره عواطف أمه وأفـكارها لأن دماغها فى رأسه وقلبها فى صـدره . وتمرّ السنون فاذا الطفـل يافع يصارع الحياة ، فان هو لم يهتد بفلسفة قلب أمه صرعته الحياة . الحب الحقيقى المستمدّ من نور الله هو حب الأم مصدر كل حكمـة وكل هداية فى قلوب الناس .

أفليس من الغريب أن لا تُرضي مثلُ هذه الواجبات روح المرأة ولا تشبع أطماعها ، وهي أشرف وأقوى وأسمى كل واجب فى الحياة ؟ . .

إن الأم مشاركة لله فى إبداعه ، إذ يدفع بالطفل اليها وديعة ضعيفة لا حول ولا قوّة له ويطالبها به إنساناً سوياً . . .

اذا كان استخدام الفتاة قبل زواجها تحت إمرة الغرباء يرهقها ويرهق المجتمع معها بكسر عزّة نفسها وبتخدير الأنفة الغريزية فى القيّمين عليها من الرجال ، فكيف يكون حالها وحال المجتمع منها إذا هي حشرت عبوديتها معها فى مملكة زوجيتها وأمومتها ؟

ما لنا وللزوج المستَخدمة ، إنه مخيرٌ فى هوانه ، وقد فضلّ على سكينة قلبه وتنظيم مرتعه دريهمات لا ثروة منها ولا خير فيها . أن فى الدرهم يربحه الرجل باسالة عرق جبينه بركة لا تقابلها غير اللعنة فى الدرهم تربحه المرأة باراقة ماء وجهها ما لنا ولمثل هذا الزوج ، إن من السخرية بالعواطف أن نشفق على من

لا يشفق على نفسه ، ولكنّ هنالك من أُنزل به الشقاء تعسفاً وإرغاما ، هناك الطفل تحرمه أمه أقدس حق بانكارها أقدس واجب . قال الفرد دي موسسه (إن الانسان تلميذ مؤدّبه الالم) وما يفتح المولود عينيه للنور حتى ينتصب هذا المؤدّب أمامه ليجرّعه كأس الأوجاع ، فتنحني الأم على هذا التلميذ الضعيف المروّع تسكب على كل قطرة ألم قطرة عطف وحنان فيمتزج الحب بالألم وينشاء من امتزاجها فى شعور الطفل ذلك الكوثر العذب المرير الذى وضع الله فيه سر الجهاد والاعتلاء .

لكم وقفت أمام المتألمين رضعاناً ورجالاً مستجلياً فى ألمهم سرّ الحوافز الجبّارة والنزعات الثائرة الضعيفة فى الناس ، فرأيت أن الأحياء الذين يجرعون كأس الاوجاع صرفاً لا تمازجها قطرات العطف والحنان إنما يجرعون سماً زعافاً يخلق فيهم الضعف الثائر واللجاجة الصاخبة ، وأدركت أن سمّ الآلام لا يستحيل اكسيراً للحياة الروحية إنْ لم ينسكب فيه بقدره ترياق الحب ، والحب جوهر واحد فى عديد عناصره ، وأول هذه العناصر واقواها إنما هو مذوب قلب الأم ينعصر حناناً على الطفل المتألم الباكي .

ويلٌ للشيخ المودّع الحياة فى آخر محنته اذا لم يجد فيمن حوله من الناس من يحوّل بالحب رعدته الى استسلام وقطوب وجهه الى انبساط ، ويل للرجل المجاهد تقرعه زواجر الحياة اذا لم يكن وراءه او الى جنبه او أمامه حنان أم او غرام زوجة او انعطاف ابناء . ! ! والويل كل الويل للطفل تلقّنه الحياة اوائل دروس الأوجاع اذا تلفّت من سريره فلم ير عينيّ أمه واذا مدّ يديه الصغيرتين فلم تقبض عليهما يداها

تمرّ امام عيني وأنا أبحث هذا السر المتغلل فى أعماق الحب والالم مشاهد طفولتي الحافلة بالعلل والادواء فلا يلوح لي مشهد منها فى مثاوي عقلي الباطن دون ان ارى ذاتي طفلاً متألماً منطرحاً على سريره الصغير والى جنبه

أمه . . دائماً أمه . . تسكب الكوثر على الغسلين وتخترق الظلمات بالاشعاع وتحوّل الأنين الى زفرات صبر وتسليم بما فى صوتها من أنغام السماء .

تلك رؤى لم تزل منطبعة فى أعماق نفسى تتبسط أمامى كلما اصطدمت بما يكمن فى ذاتي من أوصاب مختومة عليّ فيها وكلما صدمتني من الناس صدمات الجور أو طفر منهم الىّ رشاش الخيانة والعقوق ، فاذا ما أسمعني مؤدب الحياة صوته القاسي أسمعني التذكارُ ذلك الصوت العـــذب الذي ألهمني الصبر وعلّمني الاشفاق والغفران ،

لقد جلست كثيراً الى النساء اللواتي اضطرتهنّ أنانية الرجل الى الاندفاع للحياة العامّة فى بلاد الغرب فلمست فيهن كلهن مجسّم اليأس والشقاء ، ولم يزل يدوي فى أذنيّ الى الآن صوت امرأة تجاوزت الاربعين لها دماغ الرجل ولم تزل الأنوثة المكبوتة تعبق فى أنفاسها وتشعّ فى أحداقها ، وقد توسمت فيّ الاشفاق على حالها فى حين لم يكن يدور حولها غير الحسد لما بلغت من شهرة وعلو مقام ، لم يزل صوتها فى أذنيّ وهي تقول .

— إنّ ما تحسبه النساء حقاً لهن فتطالبن به من العمل فى المجتمع إن هو الاّ عبودية مستحدثة من أنانية الرجل ، فهو المستفيد منها ونحن ضحياتها . لقد كنت فى اوائل حياتى مندفعة بحرارة عقيدة الشباب مستهواة باقوال الزعيمات ومن يماثلونهن من الكتّاب أحسب ان السعاده للمرأة فى الانعتاق من سلطة الرجل وفى العمل الحرّ ، ولكنني ما لبثت ان أدركت أن العمل الحرّ ليس الاّ كلمة لا معنى لها فعرفت أن الهاربة من التقيد الطبيعي تقع فى أشراك عبودية غير طبيعية أقل ما أصفها به أنها إهانات متوالية لعاطفة المرأة الرقيقة وعزّتها الخفية فى أعماق روحها .

جميل ان تكون المرأة متعلمة مثقفة وأقبح ما أرى فيها الجهل والانحطاط ولكنني لا أعلم لماذ تعتقد النساء أن العلم والتهذيب يستلزم حتماً اندفاعهن الى العالم الخارجي فى حين أن علمهن وتهذيبهن أجزل فائدة لهن وللمجتمع فى عالم الأسرة وهو على ضيقه أفسح مجالاً للمواهب السامية من ميادين هذه المدنية المضللة على رحبها .

لقد كنت فى زمن اغتراري أيام الشباب أقف عند كل امرأة عالمة مهذبة تسعد زوجها وتنشيء العبقرية فى بنيها ، فاقول فى نفسي — أفما كان خيراً لهذه المرأة أن تفيد الانسانية جميعها بما أوتيت من مواهب ، ليتها كانت وزيراً او قاضياً او محامياً او طبيباً ، ولكنني اليوم ، عند ما أعثر على امرأة بلغت قمة الشهرة في ميادين الاعمال العامة أقف لديها دامعة العين أنظر نفسي فيها وأقول — يا للقوة المضللة ، ويا لضياع الجهود ، لقد أوات الطبيعة هذه المرأة كل ما يمكنها ان تنشيء به جنة زوج وأطفال فى جحيم هذا العالم ففضلت أن تندفع « الى نيران هذا الجحيم »

وأعجبني أن أسمع صوت تأملاتى الصامتة على أعالي لبنان حيث تهب نسمات الوحي القديم خارجاً أنيناً عالياً من فم الحياة الذاهبة فى العالم المتمدن على السبيل الذي أنكره عيسى وأهاب محمد بالعالم الى التنكب عن مزالقة ...

فقلت لهذه الحكيمة . — إن بنات بلادي فى الشرق يتخذن المتمردات منكن مثلا أعلى وهن على سبيل التمرد على الرجل وتقول بعضهن إن الانقياد لطاعة رجل إنما هو تضحية للحياة والرجل عقوق لا يقدر هذه التضحية قدرها .

فابتسمت الحكيمة بكل ما أودع الاختبار فيها من مرارة وقالت .

— متى كان الواجب الطبيعي تضحية ، بل أي مجتمع من مجتمعات الناس أوفر عدلاً من الفرد وأنصف فى منه فى تقديره . هب المرأة العاقلة وقعت صدفة

فى يد أحمق فان مصيبتها به لأهون بما لا يقاس من مصيبتها بالناس اذا وقفت جهودها على المجتمع بأسره لأن المجتمع لا يغتفر لها لمعانها وأقلّ ما يرميها به من عقوق إنكار صيانتها عليها واتهامها باستغلال أنوثتها وتعزيز عقلها بجمالها . . .

قل لبنات الشرق الا يفعلن كذلك الطفل الذى رأى أخاه الأكبر يجرع دواء اضطره الداء اليه فحسبه هو شراباً مستطاباً فكرع منه فأضره ، إنني أعهد برجال الشرق غيرةً ذهبت عندنا مثلاً فهل يقلّد رجالكم رجالنا ببرود العاطفة نحو المرأة والتملّص من واجبهم نحوها حتى اضطروها الى ترك مهمّتها العليا لمهمة لم تخلق لها ؟

فاطرقت ولم أجب ، ولن أجيب على هذا السؤال الآن ايضا ، فليقل كلمتهم فيه من عليهم ان يستنطقوا ضمائرهم وفطرتهم عنه . . .

* * *

لقد ذهبت ، الى أبعد ما ينفرج عنه المجال أمامي فى تشخيص ما فى مجتمعنا من علل تقضي على صحة أنسالنا ومستقبل شعوبنا ، وقد رأيتم أنى وقفت وقفة المنصف الذى لا يتهيّب ولا يحابي وسرت فى البحث سير من يعلم من نفسه أنه فوق كل لوم وانتقاد لأنه قد اتخذ الاخلاص رائداً في طلب الاصلاح مستمداً قوته من الآم امته ، اظهرت معايب الشرق فى مجتمع المسيحيين كما اظهرتها فى مجتمع المسلمين ، فان عاب عليّ المسيحيون صراحتي قلت لهم ان من حق المسلمين ان يتألموا لكل فساد فى الاسرة المسيحية لأنه يزعزع الوطن الواحد ويحول دون الرقيّ فيه وللمسلم أن يطالب الأسر المسيحية بهدى الشرق وصيانة اخلاقه لأنّ جنوحها عن شريعة عيسى لها صداها وتأثيرها المباشر على الأسر الاسلامية . وإن خطر لأحد إخواني المسلمين أن يرشقني بلوم ويراني دخيلاً في

ما بحثت وعالجت ، فانني أقول له إن الأسرة المسلمه أسرتي لأنها أساس مجد أوطاني ، والمرأة المسلمة أختي عبوديتها عبوديتي وحقها حقي واعتلاؤها بما شرع النبي إنما هو اعتلاء الشرق بأسره .

أنا ممن يعتقدون بوحدة مصدر الشريعة العيسوية والمحمدية لأن وحي الحق المطلق المنزل هداية للعالمين لا يمكنه ان يجيء متناقضاً فالمبدأ واحد وإن اختلفت المذاهب فيه .

إنَّ اتحاد الزوجين وعدم انفصالهما حتى الموت إنما هو ناموس خاص بالانسان لانماء الصفات الأدبية العليا في الأنسال وهو الدليل على انفراد الشخصية الانسانية وشعورها بذاتها لأنها على صورة الله ومثاله فبينما يتوالد الحيوان والنبات دون شعور بالشخصية ودون أن يكون هنالك سوى حنان الأم اثناء الحضانة نرى الأبوة والأمومة مشتركتين على مقياس واحد في الانسان في إنماء النسل والشعور به تكملة لحياة الآباء والأمهات . لذلك لا يتولد حبٌّ في قلب رجل وأمرأة الاّ ويخلق مع ذلك الحب الشعور العميق بمحافظة كل من القرينين على قرينه والاحتفاظ به مدى الحياة جزاءً حتماً لذاته .

أستعرض ما شاهدت من لؤم على الأرض فلا أرى أشد لؤما من متولّي طرف عقد يحلّ عقاله من جهته وهو مثبّت قدميه في موقفه ليرمي بالقابض على الطرف الآخر الى الحضيض .

الزوجان رفيقان وضع كل منهما روحه في صدر الآخر وسارا في الحياة يتلقيان ما تضمر من زواجر العبر ومطهرّات الالآم . ما علت شفتي أحدهما ابتسامة حتى ارتسمت على شفتي الآخر وما انحدرت دمعة من أجفان أحدهما حتى أستنزلت من أجفان الآخر مثلها . لكمْ سهر كل منهما على رفيقه منطرحاً فوق

سرير الأوجاع ولكم نظرا كلاهما نظرة واحـــدة الى زوائل الاحلام وبوارق الآمال . . . ولقد يكونا كلاهما شعرا بالالآم تدب فى أوصالهما من أوجاع طفل عليل . وشعرا بالموت نفسه يقبض على روحيهما المندغمة في روح طفل مدنف يجود بآخر أنفاسه وهو ينظر اليهما طابعاً شخصيهما شخصاً واحداً على أحداقه قبل أن ينسدل عليهما ستار الظلام .

الزوجان رفيقا أيام وليالٍ وأسابيع وأعوام ، سبرا أغوار الشهوة فوجب أن يعرفاها وسيلة لا نتيجة وعلمهما الألم المشترك أن التعاون فى الحياة إنما هو للوقوف بوجه المحن لا لكرع كؤوس الملذات التى يملأها الوهم ويفرغها الألم . .

لقديقف بوجهك الرجل ويقول لك إنني كنت أحب زوجتي ولكنها اليوم قبيحة في عينيّ لقد حفرت الأمومة فى جسمها أثلاماً وكشفت الايام من أخلاقها ما لا قبل لي باحتماله . وتقف بوجهك امرأة صارخة إن زوجي كان عنوان الحب ومجلى مكارم الأخلاق ولكنّ الايام قد بدّلته تبديلا فهو متغطرس مهمل قذر . .

يقف هذان الزوجان ويطالبان بالافتراق تجديداً للحياة ، فكلٌّ منهما يريد أن يرفع على أنقاض أحلامه أحلاماً جديدة وأن يبعث من رماد قلبه قلباً ثانيا .

فرّق بينهما ، دع الرجل يذهب من جهة والمرأة من جهة أخرى . وويلٌ للفتاة التى يوقعها مثل هذا الآبق فى أسره . . . وويل للرجل الذي يعلق باشراك مثل هذه الناشزة . إن الغادر لا يجد في غيره عناصر يخلق منها في نفسه الوفاء . والخائنة لا تنقلب أمينة بتغيير الذراع التى تستند اليها .

وفى الحقيقة أن ليس هنالك غدر ولا خيانة ، بل هنالك داء الضعف الموروث وعلّة التقلّب التى تأصلت في الأجنّة .

إنّ الحب فى آخر الطريق لا في أوائله لو يعلم العاشقون . . .

عرفت رجلاً يملك حقلا على سفح جبل وليس للحقل ماء . فبدأ الرجل يحفر نفقاً في سفح هـذا الجبل ، ولـكنه لم يسر فى قلب الأرض بضعة أمتار حتى اصطدم بصخر فوهنت عزيمته . تحوّل يمنة ثم يسرة يحفر النفق تلو الآخـر حتى بلغت حفائره العشرات وقد بقيت كلها مفتحة فوق الحقل كأنها عيون الشامتين والحقل لا يزال تحتها متجهّما يستقبل الشمس كرسـول الموت لا كرسول الحياة . ولو أن صاحب الحقل ثبت فى اختراقه النفق الأول وحصر فيه ما بدّد من جهود في عديد الأنفاق لبلغ قلب الجبل مستنزفا منه بدل الجدول نهراً من ماء الحياة .

تلك هي صورة الفـاشلين فى الزواج رجالا ونساء . وكم فى الأرض من قلب كان يمكنه كما كان يمكن لذلك الحقل القاحل أن يتحوّل الى جنة مخضلّة تنوّر فيها الأزهار . إن الحب الحقيقي الذى تتفجرّ السعادة منه على القلوب انما هو كالينابيع الكامنة وراء الصخور

لقد اوردت لـكم ، فى بدء حـديثي صورة عن ملتقى محبين يربطان يديهما على عهد فاصغينا الى الكلمة التي يتفوّه بها الرجل والمرأة كلا بالصيغة التى تمليها عليه فطرته فكان معناها واحداً وهو الخيار الموّحد والثبات حتّى الموت ، وقد وصل بنا الاستقراء العلميّ فى سياق بحثنا الى الوثوق من أن هذا الصوت المرتفع همساً بين شفاه المحبين الصـادقين ليس الاّ صوت الناموس الطبيعي نفسه ، وما تخـدع الطبيعة أبناءها ولـكنهم يخادعونها فيخدعون أنفسهم متطوّعين للاضرار بنفسهم وهم لا يعلمون .

واليـكم الان حديثاً بين فتىً من حكماء التمدن وفتاة لم تفسد فطرتها الأيام ، وليس ما اورده الاّ الرسم الأمين لعقـلية تجتاح الأدمغة اليوم من مهبّ المـادّية فى كل الأقطار .

هو — أحبك حباً مازج دمي وملك عليّ كل مشاعري .

هى — وأنا ايضا رأيت بك المثل الأعلى للرجولة فأصبحتُ لا أشعر بنفسي الاّ بافتكاري بك ، فكأن وجودي في الحياة خيال لوجودك .

هو — واخيراً جاد الزمان عليّ بما حصرت فيه الأماني فانت لي اليوم اذاً .

هى — إنني لك اليوم وغداً والى الأبد .

هو — ما لكِ وللغد والأبد ، يا حبيبة القلب ، لنا اليوم ولنا التمتع بالحب كل يوم ما دام هذا الحُب حياً فينا .

هى — وهل أنت تتوقع موت هذا الحب يوماً . ؟

هو — وأي شيء لا يموت فى هذا العالم ، وما نحن فى حياتنا الاّ اندثار وتجدّد مستمرّان على أنقاض أنفسنا . أنت اليوم ترتجفين كالقصبة أمام الريح لان عاطفتك السائدة تهبّ عليك من مكامن لا تعرفين مواضعها ، وما انا الاّعلى مثل ما انت عليه وكلانا العوبة فى يد المجهول الذى يسيّر عواطفنا فيأسرها ثم يطلقها ، فالحب كالأزاهر فى الحدائق تنوّر أياماً الى أن تضعف الحياة فيها فتلوي تويجها وتموت ، وعند ما تحين ساعة ذبولها الأخير تعود الى الأرض مرغمة فتعجز مياه الينابيع وأنداء السماء عن استعادة قوتّها ونضارتها . إننا نحن أبناء الحياة ندفع فى جهلنا بكلمة الثبات والبقاء تطاولاً وطيشاً فنطلب الوقوف ثابتين والأرض التي نقف عليها دائرة متقلّبة تحت أرجلنا .

دَعي الجهّال ينخدعون بالزوال فيحسبونه خلوداً ، إننا اليوم نشتعل بنار الحياة فلنصطلي بحرارتها واذا ما جاء يوم تتحوّل فيه هذه النار الى رماد ، فمن الجنون أن يخدع أحدنا الآخر برماد تنفخ فيه عبثاً لاستيقاده .

كلّ منا اليوم متمّم للآخر فنحن فى حبنا نتبادل السعادة فى الحرية فاذا

ما عاهدتك على أن أكون لك الى الموت فسيأتي زمن أصبح فيه عاجزاً عن القيام بعهد تفسده الطبيعة المتحوّلة نفسها ، أفتريدين أن تكوني فى ذلك الحين كالأصفاد الثقيلة يجرّها المحكوم على أرض سجنه منوّماً أوجاعه منها بخشيش حلقاتها ؟

إن العقول الراقية لا تؤخذ بالأوهام ، اليوم لنا أما الغد فللمجهول ، تعالي نقتطف ما أنبتت حرارة هذا الربيع من الأزهار فى حديقتنا حتى آخر برغم منها ، وحين تصوّح الادواح وتتناثر الأوراق فلنخرجن من هذه الحديقة لئلا تخنقنا الروائح الكريهة المنبعثة عمّا تحت جذوعها من أقذار . .

وبعد سكوت طويل رفعت الفتاة رأسها كمن يستفيق من حلم وقالت

— أنت تتكلم عن الحب كأنه شخصية مستقلّة عنا ، فأنت تراه قوة منسلخة عن إرادتك وإرادتي ، فهو في عرفكَ شخص ثالث بيننا إنْ غاب عنك غاب عني وإن غاب عن عياني غاب عن عيانك لقد تعلق فلسفتك بمن يؤخذون بالمذاهب الكلامية ، ولكنَّ المرأة التى تفتكر بقلبها لا يمكنها أن تُخدع لست سائرة الى مقارعتك بالحجّة ، ولن اجيئك بخطاب كخطابك بل أطلب منك الجواب على هذا السؤال .

— اذا ما أتيتك يوماً لاقول لك إن هذا الشخص الثالث الواقف بيننا وهو مجسّم الحب في عرفك قد توارى عن عياني ، وإنني أصبحت أراك ثقيلا قبيحاً ، لذلك فأنا أذهب عنك كيلا يضايقني قبحك وكيلا يضايقك نفوري ، فبماذا تجيب على هذا القول ؟

هو . — أقول لك إنك مأخوذة بعشق سواي وإنه خير لك ولي أن ننفصل.

هي . — وهل لا يؤلمك أن تراني بين يدي سواك بعد ان كنت قطعة من قلبك ؟

هو . — لقد أشعر ببعض الأسى ولكنني أعلم أن هـذا الشعور إنما هو من بقـايا الانحطـاط الموروث عن أجدادنا رجال الكهوف وليس للعقل المرتقي المستنير أن يقف أمام هذه الأوهام .

وقفت الفتاة وفى أحداقها لمعان وولت وجهها شطر الباب فصرخ الشاب قائلا

— الى أين ،

فقـالت — الى مجاهل الأرض «أفتش» فيهـا عن الـكهوف وعن رجال الكهوف . . . .

* * *

لا ريب ، فى أن هذا الشاب قد زُرع فى تربة الكره على زواج تجاري ، ونبت عـدواً للطبيعة لأنه أستُولد بالرغم منها . ولو ان الفتاة التى استغواها نشأت من مثل منشائه لكانت فهمت حكمته واستأنست بمباديه . ولـكنّها ولدت من أبوين ساد الطبـاق بين عواطفها فهي تفتش عن رفيق يعـاونها فى الاستبقاء على أنوار المشعل الموروث فكان من المحتوم عليها آن تنفر من رجل المدنية متشوّقة الى الغيرة المقدسة فى رجال الـكهوف

وكم من فتاة خرجت من منابت الكره مثل هذا الشاب تعدّ الغيرة في الرجل همجية وتوحشاً . إنها لأمراض مروّعة تجتاح المجتمع قاضية على الأنسال موقعة عليها جنايات أخف منها ويلاً بلاءُ الأمراض الزهرية .

إن المفكرين يثورون على الشبان الذين يقدمون على الزواج وفى دمائهم سموم وفى مجاري نطفة الحياة منهم صديد ، ومن الأمم من سـنّت القوانين الصارمة لمنع زواج المبتلي بالعلل الزهرية وبالجنون محـافظة على صحة النسل ، ولـكنني لم اقراء لمفكر رأياً فى الحيلولة دون الزواج الآليّ المجرد عن كل عاطفة ، ويتراآى لي أن

طفلاً يجني أبواه عليه بإيرائه دماً أفسدته الأمراض لهو أقل شقاء بنفسه وأقل أضراراً بالمجتمع من طفل يرث من أبويه عهر العاطفة وضلال الفطرة

لقد تشفي العقاقير أبناء العلل ولكن أيّ دواء يشفي الطفل الذى زرعه توحش الرجل المفترس فى أحشاء المرأة المنكسرة الذليلة ؟ إن مثل هذا الطفل لن يكون الا وحشاً كأبيه او عبداً ذليلا كأمه .

عرفتُ شاباً قوي الجسم بهيّ الطلعة يتنقل فى الحياة وحيداً شريداً ولا همّ له سوى إغواء العذارى حتى اذا افتضح أمره وأوصدت أبواب البيوت بوجهه، انقطع عنها الى المواخير لا يرجع الى احدها ثانية مالم يبلغه قدوم امرأة جديدة اليه

استوضحت هذا الشاب حياته فافضى اليّ بسرّ دائه الدفين ، قال .

« إن كأساً تقطر عسلا على شفتيّ انما أتذوّق منها مرارة الحنظل إذا أعدتها الى فمي ،أنا كالطير لا أستقرّ على غصن فأنشق عطر أزهاره حتى أشمر بالاندفاع الى سواه ، نصبت حبائلي لعذارى كثيرات فكنت كلما نشقت عبير الواحدة منهن يستحيل شذاؤها في أنفي رائحة كريهة ، وقد حاولت كثيراً أن أستقرّ على حال وغالبت فطرتي فغلبتني حتى قطعت الأمل فعرفت أخيراً أنني خلقت للمواخير فلجأت اليها واستقريّت فيها وقد ارتحت من معاركة ضميري لأنني أجد هنالك مجالاً لغريزة التجديد المتأصّلة في دمي »

وشعرت أمام كلمات هذا الشاب باخلاصه فى انحطاطه فما حاولت مجادلته ولكنني ذهبت مستقصياعن منشائه فعرفت أن أباه كان على شاكلته وقد تزوّج باحدى فتيات المراقص فسارت معه شوط سنوات قليلة في مجال الحياة الهادئة ولكنّه ثار على هذه الحياة ورجع الى شركه القديم فعادت زوجته من جهتها الى مراقصها ، وما كان يلتقي الزوج والزوجة فى البيت آخر الليل الاّ لاقلاق الحي بالصخب والعراك . . .

وأعرف رجلاً آخر تزوج بفتاة محصّنة اشتهرت بعفافها وطيب أحدوثتها وكنت من غابطيه لما أصاب من حظ ، ولكنني رأيته بعد سنوات فاذا هو ناحل مشتت الفكر يمشي فى الحياة كمن يسير فى حلم وقد ساءت حاله فجلس اليّ شاكياً والدمع يجول فى عينيه ، قال . — غبطني الناس لزواجي بهذه الفتاة الطيّبة فليتني تزوجت مؤمسا . . . لقد مرت عليّ الاشهر تلتها السنون وأنا أحاول عبثاً نفخ الحياة في هذه الدمية الرخامية ، فزوجتي يضايقها الحب وكل كلمة او حركة تمتّ الى الحب بصلة . وقد حاولت إثارة غيرتها توقعاً لاحياء الحب فيها ، فرأيتها غاضبة لكرامتها وكبريائها مما تقول صويحباتها وقد أوصتني أن أعني بكتم ما يثير سخرية مَن حولها بها وهذا كل ما ترجو .

وقد نقم الله عليّ بولد بلغ السنتين اليوم وهو جميل كأمه جامد مثلها فان أنت لم تدفعه دفعاً الى الحركة بقي ساعات جامداً ، وما كشف الاطباء علّة فيه ...

سكت أمام هذا الاعتراف المفجع وما كان يمكنني أن أقول فى مصاب ثوت أسبابه في ماض لن يعود . ولكنني جُذبت هذه المرة أيضاً بفضول المفكر الاجتماعي فسألت صديقي عما يعلم عن حياة حميه وحماته فقال .

« تزوجها مسنّاً غنيّاً وهي بنت بيت كريم فقضت حياتها فى التقوى والورع ولم ترزق من زوجها الا الفتاة الجميلة الرصينة التي أصبحتُ لها زوجاً . »

وهنالك ظاهرة أخرى هائلة تجلّت أمامي بين ما استقريته من مفاسد الزواج المكذوب ولعلّها أهم ما خفي عن الباحثين من قبل .

أفما رأيتم في هذا العالم الشقي نساء يبسمن لبناتهن المنزلقات على شفير الغواية والعار ، بل أفما رأيتم امرأة قوّادة لابنتها تأكل معها بثديها فلا تشعر بأقل اضطراب لبيعها فلذة كبدها فى أسواق نخاسة القرن العشرين . ؟ .

لقد رأيتُ ذلك ، فذهبت مستقصياً سبب هـذه الظاهرة فاتضح لى أن الأبنة التي تجرّها أمها إلى الفساد إنما هي الأبنة المولودة من زوج مكروه . .

إنّ شخصية الأب ماثلة بصورة أجلى فى الفتاة كما ان الأم ماثلة فى الفتى . وإذا ما نظرتم فى أحوال الأَسر التي بُنيت على المصلحة لا على الحوافز الطبيعية يتجلىّ لكم فيها فساد عاطفة الأمومة نحو الاناث من الأولاد وبرود عاطفة الأبوّة نحو الذكور منهم. فاذا ما راعى الأب ابنته فى مثل هذه الأسرة الفاسدة فما ذلك الاّ لتحكمّ ناموس التخالف فى عقله الباطن ولكنه يبقى شديد الشكيمة على ابنائه الذكور لأن الابن سرّ أمه . وإذا ما راعت الأم ابنها رضوخاً لهذا الناموس الخفي نفسه ، فأنها لتبدو مسيّرة بهذا الناموس أيضاً إلى الانتقام من ابنتها لأن الابنة سرّ أبيها . . .

وناموس التخالف هذا ، سلوا عنه علماء أحوال النفس ، فهم يعرّفونه بالتفاعل « الأوديبي » نسبة إلى أوديب الملك الذي قدّر عليه أن يقتل أباه ويتزوج بأُمه . . . . وليس لي فى هذه المحاضرة أن أتناول هذا الناموس بالتحليل ، فأكتفي بأن أشير اليه من الوجهة الاجتماعية ، تاركاً لكل مفكّر أن يستقري بنفسه عواطف الآباء والأمهات بخاصة فى الأسر المفككة العرى التي ربما عقدها على المصلحة وخلت من الحب الكافل الوحيد للارتقاء فوق المفاسد . إن الأم التي تلد إبنة من أب محبوب لتقف أمام هذه الابنة كسيف اللهيب المسلط حارساً على باب الجنان . لأن مثل هذه الأم تشعر بأن عفاف إبنتها إنما هو امتداد في روحها لحرمة زوجها ، فكل نظرة فاحشة توّجه إلى ابنتها من كواسر الضلال تذهب ذهاب السهم فى قلبها .

ولكنّ الأم المغتصبة في زواجها وقد لا تكون منحطة فطرة فأنها لتفقد

الغيرة الطبيعية على عفاف فتاتها لعلتين الأولى لأن هذه الأم نفسها قد ابتذلت وأُهينت من انتهاك حرمة قلبها فاصبحت على حد قول الشاعر

مَن يَهُن يَسهل الهوانُ عليه ما لجُرح بميّتٍ إيلامُ

والثانية لأن التفاعل المتخالف الذى اقرّ ناموسه علماء أحوال النفس يدفعها عن غيرروّية الى الاستخفاف بابنة الرجل الذى استولدها دون حب ولا إيقاع ، وهكذا تقتل الزوجة المُغتصبة ثمرة أحشائها .

ويلٌ لأبناء الأسر الفاسدة من آبائهم والف ويل لبنات هذه الأُسر من أمهاتهن .

قرأت فى أحد الكتب العربية القديمة قصة لا أتمالك النفس من إيرادها بحرفها كما قرأتها :

قال الراوي «خرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبّانات الشام فاذا امرأة جالسة على قبر تبكي ، قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها فحكت شمساً عن متون غمامة فوقفنا متحيّرين ننظر اليها فقال يزيد بن ملهب — يا آمة الله هل لك في أمير المؤمنين فنظرت الينا ثم انشأت تقول :

فان تسألاني عن هواي فانه يحولُ بهذا القبرِ يافتَيانِ
وإني لأَستحييه والتربُ بيننا كما كنتُ أستحييه وهويراني

* * *

ويقول العرب استحيا منه للانقباض والامتناع خشية وإجلالا . . .

أما والله ، ما نفذت هذه الكلمات إلى بصيرتي حتى رأيت البيتين يتراقصان خلال الدموع فى باصري .

إن هذه العظام البالية فى التراب يستحييها الحب المتمرد على الموت لخيرٌ من

حياة الفتوّة والقوّة والجمال تسير على الارض مرحة تواكبها الخيانة وتساورها الشهوة مدّاً فتغمرها وزجراً فتكشفها للوحشة والبلاء . . . .

إنَّ من الحب ما ينشأ عن الحياة الجسدية حاجة ملحّة متقلبّة كالحياة نفسها وفى النساء كما فى الرجال أناس حبهم أشبه بالجوع والظمأ يتهافتون على أية مائدة ويرتوون من أي ينبوع . وماذا عساه يفهم من الحب من يرى المحبوب مائدة وينبوعاً ، ؟ قلّ من الناس من يدرك أنه إن أنكر على المحبوب شخصيته التي لا تُستبدل فقد أنكر على ذاته هو شخصيته التى يحس بها .

إذا لم تكن المرأة التى تحبّ قد طوت شخصيتُها فى قلبك كلَّ نساء الدنيا فأنتَ مشركٌ بوحدتك ذاتها . واذا لم يكن الرجل الذى تحبين قد طوت شخصيته فى قلبك كلَّ رجال الدنيا ، فأنتِ والاباحية على موقف واحد من مدارج الحياة الداخلية ، غير أنها تبتذل كل يوم وأنتِ تبتذلين على مدى السنين دوراً فدوراً .

إنني لواثق من أنكم اذا نظرتم حولكم الى من يخلقون الشقاء فى المجتمع بتقلّبهم وأكاذيبهم ومخادعتهم للناس الأدنين منهم والأبعدين عنهم لوجدتم أنهم نبتوا فى الأسر المكوّنة تكويناً شاذّاً عن الفطرة ، المرقّعة ترقيعاً بالعنف والاكراه والخديعة والخيانة .

لا صلاح لأمّة فسدت منابت أطفالها ، وهذه عبر التاريخ ماثلة لعيان من يريد أن يرى .

أفما كانت كل الأمم التى اندثرت واستُعبدت تمرّ أولاً في مرحلة تدنّي الأخلاق وانطلاق الشهوات عابثة باشرف ما خلق الله في الانسان ؟

ان العربي المجاهد في صدر الاسلام ما كان يتحمّل عبء تعدد الزوجات الاّ

أخذاً بما تضمّنته حكمة الآية الكريمة ومارمى اليه الشرع المقيد بالشرط المرهق من صيانة المرأة واعطائها حقها بالحياة في زمن كان الاباء يدفنون فيه البنات وهن في الحياة لزيادة عددهن على الرجال ، وما كان الرجال فى تلك الأزمنة ، أزمنة الغزوات المتوالية والحروب الكاسحة الا حصيد الموت يقطع منجله كل سنة منهم اغماراً فتبقى النساء فى الحي مشتتات لا عائل لهن ولا قيّم عليهن ، وهل كان من غضاضة فى مثل هذه الحال على الرجل أن يفتح قلبه للحنان على ثلاث نساء وفي ذلك القلب عرش الحب الواحد تتسنمه واحدة هي الرابعة او الثالثة او الثانية او الأولى ؟ أفما هي الرحمة بعينها تلك الشريعة الانسانية السامية التى فتحت مجالا للتبرّع على المنقطعات في سلسلة المجتمع وقد انفرط عقده .

ليسمح لى اخواني على ما أعترف به من قصور تجاه العلماء الأعلام ان أردّ معهم الرأي القائل بأن محمداً عليه السلام قد أجاز تعدّد الزوجات مجارياً قساوة القلوب كما اجاز الرق فى النوع البشري ، فان النبي العربي الكريم لم يكن ليجاري الناس فى احوالهم المنكرة كما إن شريعه المسيح لم تكن لتجاريهم فيها ، وهذا الحواري بولس لا يقضي بالغاء الرق بل هو يوجه الأمر الى الرقيق باطاعة سيده ولكنه بالوقت نفسه يدعو السادات بكل شدة الى البرّ بالرقيق والعطف عليه ، وكلمات محمد في هذا الشأن جلية توجب الأصلاح فى قلب العلة لا فى أطرافها .

ومن نظر الى حكمة الوحي السامية مستنيرا بالشريعتين يتضح له أن الامر بعتق الرقيق إلزاما فى الاحوال الاجتماعية التى كانت سائدة بايام عيسى ومحمد ما كان ليدخل الاصلاح فى المجتمع بل كان يؤدي الى إيجاد طبقة من الناس متشرّدة تنزل الدواهي بالعاتق والمعتوق على السواء . وما كان الدين الصحيح لياخذ بالقشور من احوال البشر وهو الطامح الى تطهير اللباب من أدران الاخلاق حتى إذا

استقامت المبادىء فى النفوس امتنع الظلم وسادت المساواة الحقيقيـة لا المساواة الكاذبة حتى بين السيد ورقيقه .

إن الرقيق العامل فى بيت سيد يأمر بالمعروف الاسلامي والمسيحي قد كان ولا ريب أسعد حـالاً وأوفر حرية من رقيق الآلة فى مدنيـة اليوم تشدّه اليها النظم الأجتماعيـة والحاجة التي لا رحمة فيها ، إن هـذا الرقيق خـاضع لشخصيـة التنظيم المجهـــولة وهي لا تحيـد عن السبيل الذى اختطتـه لهـــا طبيعتهـا نفسهـا . فما كانت المسيحيه ولا كان الاسلام مسايرين للظلم في السكوت عن الرق كما أن الاسلام لم يكن مجارياً لشهوات الرجل فى إباحة تعدّد الزوجات ، بل كانت هنالك أحوال اجتماعيه تدعو الى هذه الاباحة رحمة بالناس لا مجاراة لحب السلطة وتساهلا مع الشهوات فيهم .

وجاء زمان تطوّرت الأحوال الاجتماعية فيه فاصبح الرق على ما تنفر الانسانية منه فاتفق العـالمان المسيحي والاسلامي على الغـائه واعتباره جرماً يقع تحت طائلة العقاب فلم يقم أحدمن رجال الشريعتين يعارض فى تحرير الرقيق مستنداً الى الاباحة الواردة ، بل أن رجال الدين أنفسهم وجدوا الرق فى تطوّر أحواله من المحرّمات التى لا تجيزها المسيحية ولا يتساهل الاسلام فيها .

وما تعددالزوجات فى الاصل الا اباحة للرجل تمكنـه من البرّ بالمجتمع ، لان قبيلة كان عدد نسائها اضعاف عدد رجالها كان من المحتوم فيها اذا اخذت بمبدأ الزوجـة الواحدة ان تصبح النساء السائبات مباحات لكل الرجال فيقع التعدد مزدوجا على شكل لا يبقى عنده فرق بين الانسان والحيوان .

ان تلك الحالة قد استلزمت هذه الاباحة فوردت في الشرع مقيدة بالعـدل ، فكانت الاية حاملة فى نص الاباحة تحريما عند امتناعه .

ويلوح لي ، ان كلمة العدل تمتد الى ابعد ما يراد منها للعدل بين الضرائر من حيث التساوي فى العطف والقيام بالحاجة من مأكل وملبس ، ولا اراني ذاهبا الى تأويل بعيد اذا قلت ان العدل الموجب أولا إنما هو تلافي الضرر الاجتماعي ، فاذا لم يكن هنالك ضرر يحول تعدد الزوجات دونه أصبح هذا التعدد كالعلاج لغير علّة .

ولا تحتاج هذه النظرية الى إيضاح مطوّل ، ولأكتفين بايراد مثال يجلو الحقيقة بحيث لا يبقى معها مجال للالتباس .

نحن فى قبيلة تعيش على البداوة وقد تساوت طبقات الناس فيها لوحدة موارد العيش وتساوي الثقافة بينهم ، قضت الغزوات على عدد وفير من الرجال فالقبيلة فيها عشرون رجلا وثمانون بكرا وثيبا ، فهي سائرة الى الانقراض ، فواجب العدل اذاً أن يكون لكل رجل اربع نساء ، ذلك واجب على ضمير الرجل لا حق لشهوته يقابله واجب التساهل من النساء ، اذ لا يمكن لامرأة أن تدّعي حق الاستقلال برجل من رجال القبيلة دون ان تظلم ثلاث نساء من أخواتها ، ففي مثل هذه الحال يصح أن يقال ما قالت العرب قديما «غيرة الرجل شرف وغيرة المرأة كفر» . ولكن اذا وقفت الغزوات وتطوّرت الحالة فى هذه القبيلة نفسها فتساوى فيها عدد الرجال بعدد النساء وهى النسبة الطبيعية تقريبا فى كل الأمم وادخلت الحضارة فى مجتمعهم التفاوت فى الغنى والفقر ، فهل يصح أن يباح للغني أن يتزوج أربع نساء لا لسبب من الاسباب الموجبة اجتماعياً كعقم زوجته ومرضها مثلاً بل استناداً الى ما لديه من وسائل الانفاق على نسائه فقط ؟ ، فنحصر معنى العدل

بين أربعة جدران من منزل هذا المقتدر وننكره على المجتمع ذاهبين الى تأويل حكمة الوحي تأويلا يقضى للفرد على المجموع ...

* * *

ألقيت محاضرتنا هذه في الاسكندرية في ربيع سنة ١٩٣١ ، وبعد مرور ثلاث سنوات اى فى ٦ مارس سنة ١٩٣٤ ، نشرت جريدة البلاغ الغراء التى تصدر فى القاهرة فى عددها ٣٤٠٤ مقالا مطولا بقلم الاستاذ عبد الله على الزائد من مفكري البحرين فى الخليج الفارسى بحث فيه احوال الاسرة ، فاقتطفنا من هذا المقال الفقرات الآتية .

* * *

« تعدّد الزوجات » إذا أنهكت الحروب أمة من الامم فذهبت بشطر كبير من الرجال وغدا بذلك عدد الأناث ضعفى عدد الذكور او اكثر ، الا يكون من العدل والانصاف ورعاية الشرف والأخلاق ان يباح التعدد بقيود . وبطبيعة الحال لن يقدم عليه الا من تتوفر لديه ثلاثة شروط هي الرغبة فى التعدد ، وعدم التحرج منه واليسار وحب النساء ، ومهما كانت الاحوال فان المعددين لن يزيدوا على عشرة فى المئة .

ذلك ام القذف بقسم كبير منهنّ فى الشارع يعرضن اعراضهنّ بدافع ضروري ودافع طبيعي .

تلكم الحال التى وصفناها انفا من انهاك الحروب وتضاعف عدد الاناث كانت هي حال الامة العربية قبل البعثة وبعدها ، فكان التعداد رائجا فلما جاء الاسلام وجده لا يزال ضروريا إذ كان نقص الرجال فى استمرار وازدياد بسبب الحروب والهجرة فأقرّه وخفف من ويلاته ومساوئه بتعيين الحد الاقصى للتعدد وتنظيم الحقوق الزوجية وانشاء المراجع القضائية ، ونص فى ايات القرآن الحكيم نصا لا يحتمل التأويل وأن فسّره جلّ المفسرين بما يخالف ظاهر اللفظ العربي . نص على أنه إن خيف أن لا يكون التعدد عدلا في الهيئة الاجتماعية وجب ان يقتصر على واحدة .. بذلك نطقت الاية الكريمة (وان خفتم ان لا تقسطوا فى

اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الاّ تعدلوا فواحدة)

ليس المقصود بالعدل هنا العدل بين النساء (الزوجات (المذكور فى آية (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) الخ . . .) لانه لو كان معنى العدل فى الآيتين واحداً لتناقضتا تناقضاً لا سبيل الى تأويله وجمعه .

يقول هناك أن العدل بين النساء خارج عن حيز الامكان ويؤكد ذلك تأكيدا باتا ويقول هنا إنه لمجرّد الخوف من عدم العدل بين النساء (لا التحقيق) اقتصروا على واحدة . . .

الله جلّت حكمته لما أراد ذكر العدل بين الزوجات ذكره صراحة (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) اما في الآية الثانية فذكر العدل مطلقا من دون قيد ولم يقل ، فان خفتم ان لا تعدلوا بين النساء ، فعليه يتعيّن ان المقصود من العدل في هذه الاية العدل فى الهيئة الاجتماعية للامة ولماذا نخصص العدل هنا وهو مطلق ، نخصصه بما يكون بين المرء وزوجته من معاملة وسلوك . الا يحتاج هذا التخصيص الى سبب ؟

يستخلص من ذلك انه يجوز بل يحتم على كل أمة من الأمم ترى أن التعدد ليس عدلا لأي سبب من الأسباب أن تمنعه وهي بما تفعل انما تنفذّ الشريعة الاسلامية وما بها من حكمة ونظام ، ولكل أمة حال ولكل حال مقتضى .

لامشاحة ان التعدد قبيح تنشأ عنه مفاسد ونكبات بين الاب وبنيه وبين الاخ وأخيه ، فهو في الحقيقة لا يكون مباحا الا اذا كان نفعه اكبر من أثمه وأوروبا اليوم تزاول التعدد في أقبح صوره وأشنع اشكاله ولعله اكثر أجراما وحيفاً من تعدد الجاهلية . اجل ان المعددين فى الأقطار الأوروبية كثيرون واولاد الزوجات

الغير الرسميات يملأون الشوارع ، تعدد لكنه ظلم فظيع فاحدى النساء من اللاتي يتصلن بالرجل ويستمتع بهنّ وأولادها تحظى بالحقوق الزوجية والبواقي وأولادهنّ محرومات . ياحسرة على أولئك الاطفال ماذا جنوا وماذا اقترفوا . . .

ولقد كان المفسرّون يجدون إشكالا فى تفسير الآية (وان خفتم ان لاتقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء) اذ ما هي علاقة اليتامى بعدم العدل بين الزوجات ؟ ولكن بهذا التفسير الذى سبق عليه القول ينسجم معنى الآية ، فان قضية اليتامى مشكلة اجتماعية ، وتعدد الزوجات مشكلة اجتماعية ، ان خفتم من عدم العدل فى ذاك تخافوا من عدم العدل في هذا وفيه تلميح الى ان هذا أجدر بعنايتكم والتفاتكم .

* * *

فى مثل هذه المواقف الحرجة في مراحل الانسانية تتجلّى حكمة الالهام السماويّ ولو أن الأنانية البشرية وقفت حكماً لتنظيم أحوال هذه القبيلة كما صورناها لكان الرجل يمتنع عن تحمّل وقر النساء العديدات مقيداً نفسه بالقسط والانصاف بينهن وبالتعهد بايفاء الحق كاملا لكل منهنّ ، ولكانت المرأة تتمرد على قبول الضرائر يساوينها فى مقامها ، ويعلم علماء النفس أن غيرة المرأة جلّها إن لم نقل كلّها معزة نفس وكبر أكثر منها غيرة مجردة كغيرة الرجل ، فما كان للمنظّم الانساني الآن يقرر لتذهب النساء الزائدات عن عدد الرجال الى الحقول ولتعملن كالرجال لتؤمن حياتهنّ . . . . .

إن هذا الحلّ المبني على مصلحة الفرد لا على مصلحة المجموع لا ينتج عنه الاّ ما شاهده الرسول العربى فى الجاهلية من تسيب مفجع ومن تسلط الأقوياء على أوفر عدد يمكن نواله من النساء ومن وأد البنات تخلصا من عارهنّ وهنّ

معرّضات لكل فجيعة ، وما تكون الفتاة فى مجتمع لا مقام مشروع لانوثتها فيه إن لم تكن مدفن الحيـــاة أو مبعث الأطفال اللقطاء لا تعرف الأم نفسها من أي استسلام نشأوا . . . .

وقد تجلّت مثل هـذه الحال فى أوروبا بعد الحرب العالميـة الكبرى التى حصدت ملايين الشبان وأبقت فى المجتمع ملايين من النساء أوصدت فى وجوههن أبواب الحياة الزوجيـة فقام كاتب جريء فى باريس ينشر كتابه المشهور بعنوان « الخليلة المشروعة » قائلا إن طبيعة الرجل لا تكتفي بزوجة واحدة وان من حقـه أن يشرع له الحق باقتناء الخليلات خارج بيته وقد تجدد طبع هذا الكتاب مئـه وخمسين مرة ومن تصفّحه يندهش من قـدرة هـذا الكاتب على تسخير العلم للسفسطة خدمة للشهوات الجامحة المريضة ، فقـد ادّعى أن بقاء الرجل مع امرأة واحدة يضعف من حيويته وقال إن المرأة إنمـا هي آلة للتوليد فهي فاقدة أنوثتها مدة الحبل ومدة الرضاع ، وأظهر الرجل فى مظهر الشيخ الذى صوّره لنا الدكتور شهبندر آلة ميكانيكية لا عمل لها الا الفلاحة والزراعة فى كل أرض .

ولكنّ هذا الكاتب لم يعدم مثيلة له بين النساء فبرزت له كاتبة قديرة تردّ مزاعمه فى كتاب عنوانه « الخليل المشروع » هدمت فيه نظرية خصمها بنظريات من نوعها تؤيد فيها حق المرأة بتعدّد الازواج احتفاظاً بجمالها وقوة أعصابها وجرياً مع فطرتها فقالت إن انحطاط قوى الرجل يقابله نشاط المرأة من الاتصال الجنسي وان ذلك دليل على وجوب إنالة المرأة حق تعـدد الأزواج وقالت فوق ذلك إن العقم المتفشي بين الرجال يستلزم حتما انطلاق المرأة للعثور على نطفة الحيـاة ايّان يدفعها الحس الباطن . . . .

تلك كانت حكمة الانسان فى العالم المتمدن ، فيا لضلال الانسان ويا لعظمة عيسى ويا لحكمة محمد مستمدتين من الأنوار الأزلية الخالدة .

إن الحرب العالمية قد اجتاحت الدنيا سنوات معدودات وانقضت فما كانت زيادة عدد الرجال على النساء الا زيادة حوّالة قام على اثرها التوازن فى مدى سنوات قليلة من النشء الجديد الذي لم تتناول ذكوره النار الآكلة ، فما كانت هنالك حالة مستقرّة تمتد بتوالي الغزوات والحروب وتستلزم التحوّط لها بنظام جديد ، وعلى كل فان الكاتب والكاتبة الذين وضعا مئات الصفحات لم يهتم كلٌّ منهما الا باشباع الشهوة فى الجنسين مغفلا القضية الكبرى وهي قضية النسل ، فان الكاتب قد تصوّر توهماً أن الرجل المتمدن سيكثر نسله من خليلاته المشروعات فى حين أن هذا الرجل نفسه يجف فرقاً من الواجبات التي تنزلها به ولادة طفل واحد من زوجته المشروعة ، فهو إذاً لا يتوصّل في فلسفته الا الى نتيجة واحدة وهي تسجيل العلاقات الجنسية للتمتع فقط فى سجلاّت الحكومة ، أما الكاتبة فانها في طلبها تعدد الأزواج او بالحري تعدد العشاق الى جنب الزوج غرب عن بالها أن الرجل يمكنه باربع نساء أن يدفع الى المجتمع باربعة أطفال في السنة فى حين أن المرأة لا تدفع الا بولد واحد فى سنين من خمسين رجلا . . . وعلى افتراض إمكان حملها فى مثل هذا الموقف فان الطفل المولود منها لا يأتي الحياة الا معتوهاً عليلا ...

تلك هي مسألة تعدد الزوجات فى منشأها وتلك هي الحكمة فى إباحتها مقيدة بما تقوم عليه من شروط فهل ينطبق التعدد الآن على حكمة الشرع ويؤمّن ما أراده من عدل . ؟

بعد ان انقضت أيام المحن الاولى بالجهاد والفتح ، استقرت المدنية الأسلامية فى العواصم ودخل المسلمون فى طور استغلال الجهود القديمة فتناسوا أحكام

الشرع ومالوا الى الترف ككل الامم التي تنقضي أيام محنتها وجهادها من أجل مبدإٍ كبير ، وبعد إن كانت النساء تؤخذ من الأمة للقيام بحق فُرض لهنّ على الرجال أصبحت دور الأغنياء تغصّ بالجواري مستوردة من كل أمة وبلاد تنويعاً للذة الفاسقين ، فكأنّ النبي المعظم قد جاء بحكمته السماوية ليسنّ للناس قانوناً يحتكر به الغني النساء عن الفقراء باحتكاره المال ويشهد التاريخ الحق أن هذا النبي ما جاء الاّ بآيات الرحمة للمرأة اذ رفعها الى مستوى الرجل فى حين كانت بعض المجامع فى أوروبا تبحث ما اذا كان يجوز أن يقال إن للمرأة نفساً حيّة كالرجال .

إن ما نراه في الشرق العربي اليوم من الاستمرار على تعدد الزوجات بلا مبرر اجتماعي او شخصي إنما هو ميراث تلك العصور التى جنت فيها الأمم الداخلة في الاسلام على مباديه .

لقد كان زمانٌ أيام العراك العنيف بعد بزوغ أنوار الهداية في بلاد العرب يقدّم الأب فيه ابنته والأخ أخته الى زوج اثنتين او ثلاثة شاكراً له برّه ورحمته لانّ بتحمّله وقرها فوق ما يحمل تبرعاً جيلا في سبيل الصيانة وتأمين الحياة ، اما فى هذه الايام فلا أرى من تقدم على الزواج بمتزوج ولا أرى أهلها الاّ طامعين بحياة أعلى من مقامهم المادي في المجتمع فهي وهم يفضلون استغلال الموقف على الأخذ بحكمة الدين وروح التشريع

قال عليّ كرّم الله وجهه (ما جاع فقير الاّ بما تمتع به غني) وهذه الحكمة تعني على القياس نفسه ، ما تمتع غني باكثر من امرأة الاّ بحرمان فقير من أسرة شريفة في فقرها .

اما مسألة الطلاق فيكفي ان نقف فيها عند هذا القول الجامع (أبغض الحلال على الله الطلاق) ، ولقد يندهش المفكر لاول وهلة من هذا التعبير لما فى ظاهره

من تناقض ، ولعله يتساءل عما دعا الى تحليل المبغوض ، فان كان الحق سبحانه يكره شيأ للناس فما هي الحكمة فى إباحة الأخذ بها لهم .

ولكن إنعام النظر فى ما تتضمن هذه الكلمة من حكمة يقود الى إدراك كنهها بالاخذ بروحها السامية لا بالوقوف عند اللفظ ومؤداه الحرفي . إن الاسلام لم يخالف النصرانية فى إخضاع المرأة للرجل ليكون هو القائد والمدبّر والآمر المطاع بالبر والانصاف ، فالمرأة المسيحية مجبرة بحكم دينها أن تعتبر الرجل رأساً لها كما ان المسلمة مأمورة باعتبار زوجها قيّماً عليها . ذلك هو الوضع الطبيعي الذى لا مفرّ منه مهما تقوّل المجددون وتشدقت الثائرات لذلك عند ما أباح عيسى الطلاق للرجل بقوله — من طلق امرأته لغير علّة الزنا فقد جعلها تزني . لم يقل أين يجب على الرجل أن يثبت زنا امرأته ليجوز له ان يطلقها ، فالنصرانية كالاسلام إذاً قد أقامت الرجل كاهناً فى هيكل أسرته كما أقامه الاسلام إماماً لهذه الاسرة .

غير أن هذا السلطان لم يُعطَ للرجل اطلاقاً دون تقييده بالتبعات تجاه ربه وضميره وهذه حرية الرجل يقيدها هذا الأمر الصريح

« واللاتي تخافون نشوزهنّ فعظوهنّ واهجروهنّ فى المضاجع واضربوهنّ فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا »

فاذا كان النبي العظيم يقضي بأمر الحق الأعلى على المسلم الاّ يبغي على المرأة سبيلا حتى فى حال تمردّها عليه ، واذا كان يأمره بمحاولة إصلاحها بالموعظة ثم بالهجر وأباح حتى تأديبها كتأديب الولد الجاهل ،ولم يبح له التخلّي عنها إلاّ لاصرارها على عنادها وحكمها بنفسها على نفسها ، فهل من مبرر بعد هذا للقول بان الاسلام أرحب للرجل المجال فيمكن للمسلم دون أن يأثم ، أن يطلّق امرأته حينما يريد وكيفما يريد ؟

إن اصرار المرأة على نشوزها والنشوز لغة البغض والكره والتمرد وضلال

العاطفة إنَّما هو الزنا المعنوي بعينه ومع ذلك أمر الحق الأعلى الرجل بالاّ يبغي على المرأة سبيلاً من أجله الاّ اذا أصرّت عليه ، فاذا كان الحال على هذا المنوال ، وهو لكذلك بحكم الآية نفسها ، فاي فرق جوهري يمكن ان يأخذ به المنصف بين مرامي النصرانيه ومرامي الاسلام من هذا القبيل ؟

إن الطلاق اذا مباح في النصرانية لعلة الزنا كما هو مباح فى الاسلام لعلة النشوز المتصلّب ومحرمٌ لغير هاتين العلتين . فاذا نحن وصلنا الى هذه النتيجة يتضح لنا الطباق التام بين جزءيّ قول النبي عن إباحة الطلاق وبغضه ، اذ يتضح ان الطلاق مكروه فى حالتي وقوعه من خيانة المرأة أو من استبداد الرجل بدون مبرر .

قلنا إن النصرانية والاسلام قد جعلا الرجل فى موقف الحَكَم تجاه المرأة ، غير أنهما أوقفا الرجل تجاه ربه مشددَين النكير على ضميره ، وما كان بالامكان أن يوردا زجراً عليه وإكراها لامتناع إكراهه طبعاً وهو المتبوع المتعدي لا التابع اللازم فى العلاقة الجنسية ، واذا ما أدركنا المسؤولية الروحية العظمى التي ألقاها الشرع على الرجل تجاه المرأة نفهم تماماً معنى كلمات الرسول العظيم التي أرسلها مع آخر أنفاسه ففاضت مع روحه .

اللهَ اللهَ فى النساء ، إنهنَّ عوانٍ بين أيديكم . . أخذتموهنّ بأمانة الله . . .

أجل إنهنَّ لوديعةالله ، ولا يكفل حقهن على الرجل الاّ سماعه لهاتف سريرته لا لنبرات شهواته ولايقيهنَّ شرّ المنكر الاّ الأخذ بما أمرالله من معروف

إنها لوضعية لا قبل بتغييرها وقد نشأت عنها المشاكل الاجتماعية الخطيرة ، وقد حاول رجال الشرائع الانسانية عبثاً أن يجدوا لها حلا قانونياً فما أمكنهم أن يضعوا المساواة بين الرجل والمرأة من حيث الالزام بالعهد .

واذا ما نحن نظرنا الى القوانين القديمة والحديثة فاننا نراها كلها تقضي على المرأة بالا تمنع نفسها عمن اولته قيادها وقد وردت النصوص على أن اغتصاب الرجل لزوجته مباح اذ لا يمكن أن يعد اغتصاباً ما ليس الا تناول حق مكتسب على أننا لا نجد بالامكان أن تغتصب المرأة زوجها فهي وإن كانت تملك على الرجل الحق نفسه الذي يملكه عليها من حيث المبدأ المطلق لا يمكنها بالطبع أن تتصرف فيه إكراهاً . لذلك نرى القوانين واقفة عند حد القضاء المرأة بالنفقات والتضمين وذلك جهد المستطاع .

من إجل هذا اتجهت قوة التشريع السماوي الى معالجة العله في جوهرها لا في أعراضها ، فقال عيسى ان الزوجين ليسا جسدين بل جسد واحد ، وأبى على الرجل ان يكون مؤمناً بالله وباليوم الآخر فيسيء الى زوجة هي منه وفيه ، وقال محمد إن الرجل يأخذ المرأة بأمانة الله ، وأبى عليه أن يكون مؤمناً عاملا بالمعروف منتهيا عن المنكر ويفرط بوديعة الله .

واذا كان النبي الكريم قد أباح للرجل أن يزجر المرأة ويذهب حتى الى ضربها فى ردعها عن النشوز فما كان ذلك الا احتفاظاً منه بوثاق الزواج وجعل الطلاق آخر ما يلجأ اليه قاطع الرجاء .

وما عاب على الاسلام هذه الاباحة وهى تشترط اللين فى شدتها الا من جهل الأوجاع المبرحة التى تقطع قلب الرجل رب المرؤة والنخوة من رؤيته شطر جسده يرتقص متمرداً على عقله وارادته طالباً الانعتاق ليرتمي فى أحضان الغرباء

إن محمداً قد استند الى هذه الفطرة الشريفة التى عززت الطبيعة بها الرجل ولم تحرم حتى الحيوان منها وهي فطرة الاستماتة فى سبيل المحافظة على المرأة والانثى

واستند من جهة أخرى الى ما نفخه فى أتباعه من روح عدل الله ليسلّم للرجل بان يكون الحَكَم في أمره والإمام فى معبد حبه .

ليس من التوهم ولا من قبيل التخيّيل الشعرىّ أن يقال إن الزوجة لحمٌ من لحم الزوج ودمٌ من دمه ، بل تلك حقيقة وردت منذ ألوف السنين فى الكتب المقدسة فجاء العلم الحديث يؤيدها فى استقرائه .

لقد أوردت لكم فى اول حديثي ما تبيّنه علماء وظائف الاحياء من مشابهة أبناء الزواج الثاني للزوج الأول ، والآن أشير إشارة ، إذ لا يسعني في هذا الموقف الايضاح المسهب باللغة الطبيّة ، الى أن الوظيفة الجنسية لا تقف عند حد التوليد فحسب بل تذهب ايضا الى ادخال المرأة بعد الزواج فى تطوّر جديد يتغلغل فى دمها وأدقّ خلاياها . . . .

ولقد يلاحظ الكثيرون إنعكاس سيماء الزوج على ملامح الزوجة ، ويتجلّى هذا الانعكاس بأشد وضوح على ملامح المتزوجات أبكاراً . . . . .

فاذا ما كان الناموس الطبيعي على ما نرى واذا ما كان الدين الموحى به من الحق ، وما تخفى على الحق خافية ، لا يبيح الانفصال الاّ عند الموت والنشوز وكلاهما اضمحلالٌ وفناءٌ عن الحياة ، فانني لأعجب لرجل يقتطع كبده ممتلئة حياة من دمه ليرمي بها طعمة لمن يشاء من الآكلين . . .

لا يُقتطع من الجسم الاّ ما مات منه بعد ان تعجز المعالجة عن استبقاء الحياة فيه ، فما قولكم فى من يقلع عينه لأنها رمدت ويقطع كبده لأنها احتقنت .

أكلُّ هذا القطيع من المطلّقات فى الشرق العربي يحمل وصمة الخيانة والنشوز

أكلّ هؤلاء البائسات يهرعن الى المحاكم ويملأن باحات المصالح للمطالبة بلقمة النفقة الى حين ، كنّ خائنات زانيات ؟

أما والحق ، إن المرأة السليطة المستقوية ليست هي مَن تُطلّق في الغالب فان أمثالها لا يستقوين الا من ضعف رجالهن ، واذا كان هنالك نساء ينشزن ويتمرّدن على الاقوياء من الرجال الصالحين فما هنّ الا فيما ندر سوى معتوهات مريضات وهنّ أحق بالمعالجة والرحمة من النقمة والعقاب .

يقول بعض أعداء الاسلام بل عدد من المسلمين أيضاً إن الشرع واسع الرحاب لا يقضي بالعسر بل يقضي باليسر للناس وإنه شرع الفطرة ويريدون بذلك أن الاسلام لا يقيّد الرجل بما لا قبل له به ، فكأنهم يقولون بهذا إن الفطرة فاسدة وإن الشرع يجاري هذا الفساد ، بلى أيها الناس إن الدين الحنيف هو كالمسيحية في جوهرها دين الفطرة ولكن أيةُ فطرة يجاريها عيسى ومحمد ، أهي الغرائز الحيوانيه الدخيلة على فطرة الانسان الروحية ، أم هي الأميال المستقرّة في أقصى النفوس التي أخذت بالحق وعرفت ربها ؟

إذا كان البعض يعتقدون أن الفطرة المقصودة هنا هي التي تسطو على الانسان من استهواء الشرّ بالتمتع اللذة بالعدد الأوفر من النساء وبأجملهن حتى يزول جمالها وبأغضهن شباباً حتى تذبل أزهارها . فيا لويل هذا البعض مما يعتقد كفراً وضلالا ...

إن الأسرة هيكل حب واخلاص وفاء متبادل ، إنّ الأسرة منفذ روح الله الحية الى مسالك هذه الدنيا لتقوم بما قدّر عليها استيفاء لما قدّر لها .

وقد مررنا في رحلتنا في هذا الحديث الطويل على مشاهد وعبر لا يمكن لمن يمعن فيها الا أن يقف رابطاً كفّه على قلبه مرتجفاً فرقاً على بلدان أناخ عليها الدهر بكلكله وهي تتلمس مكامن عللها للقضاء عليها مغضية عن علتها الكبرى ودائها القارض قاعدة حياتها في منابت أطفالها .

إن ذرّيةً لا تجيء الحياة من مصادر سليمة صالحة لا يمكن لها ان تنشيء الاوطان قوية متحدة تسودها روح التفوّق والعمران ، وإن طفلاً يأتي الحياة من منبت الطباق والحب ومكارم الاخلاق لخيرٌ من رجل جاء الحياة طفلاً نشاء من منابت الضلال والكره حتى ولو أوردته أصفى مناهل العلم والتهذيب

وُلد طفل ، من أبوين ارتبطت حلقتاهما شهوةً من الرجل ورهبةً من المرأة، وطُلّقت الأم فحملت الطفل الى حيث تحتضنه بعيدة عن الأب ، وهي مغلوبة على أمرها حزينة منكسرة تمزج لبن رضيعها بالدموع ، فتح الطفل عينيه للحياة ، فاذا هو يرى أمّه ترسل النور الى عينيه ، نوراً قاتماً كله أسى وآلام ، وقد يلوح فوق سريره وجه غريب من حين الى حين يأمره بأن يدعوه « أبي » ومن أرد انه تهبّ رائحة إمرأة غريبة هي غير رائحة أمه ، واضطرت الأم لتعيش ان تتزوج ثانية ، فاذا بالولد يُسلخ عنها ويسلّم لامرأة يجب عليه أن يدعوها « أمي » ، ثم انقضت سنو حضانته ، فاذا هو بين يديْ ابيه يعرّفه الى أولاد لم يرهم من قبل فيؤمر أن يدعوهم اخوته فينفرون منه لأن أمهاتهم قد علمنهم أن يكرهوه لأنهنّ يعتبرنه غريباً دخيلا . . . .

لقد أصبح هذا الولد المسكين أكرة تتلقفها النوائب على ذلك المدى الفسيح الفاصل بين علّتي وجوده ، فهو منذ فتح عينيه للنور لم يشاهد الا كما حلم مجتمعين من اجتمعا ليقذفا به عليلاً ضعيفاً وحيداً الى هذا الوجود الجائر . . .

واذا ما هو انتبه الى نفسه وتساءل عن هذه الحياة تخالف ما يشعر به من

حاجة استقرّت في أعماق نفسه قيل له ما قاله الزمخشري في تفسيره ،

وإنّما أُمّهات الناسِ أوعيةٌ مُستودَعاتٌ وللأبناء آباءُ

وتمرّ الأيام ، فاذا بهذا الولد ، ضحية هذه الحالة المفجعة ، يبلغ أشده وقد تغلّب الألم على حوافزه ، وانقلب ما تحمّله من الظلم قساوة فى نفسه ، فاذا هو رجل لا يعتقد بالمرأة الا ما لقنته الارزاء ، واذا هو مهيأ ليمثّل الدور الذى مثّله أبوه بتضحيةِ زوجته وطفله كما ضُحيت أمّه وكما ضُحّي هو . . .

ووُلد طفلٌ آخر فى بيئة أخرى ، فاذا هو بين أبوين لا يعرف أيّهما أمّه ، وما أمّه سوى رجل كأبيه ، فهي إن لم تكن عبدة لوظيفة تُحكِم فيها الغرباء فانها عبدة أهوائها وصويحباتها ومراقصها ومنتزهاتها ، وما تنتبه عواطف هذا الطفل فيه ويبدأ بالتمعن بما حوله ، حتى يرى موائد الميسر قائمة فى جوانب البيت لا تطوى الاّ ليطوى من تحتها البساط ويكشف بلاط الدار ميدانا يتعانق عليه الرجال والنساء أزواجاً متراقصين ، وقد يحسب الولد هذه الحركات لعباً كألعابه فيضحك ويمرح ، ولكنه لا يلبث أن يرى الثديين الذين أرضعاه يلوحان تحت النسيج الشفّاف يضغطهما رجلٌ غريب على صدره ، فيخرج صوت القبور الصاخبة أنيناً مختنقاً من فمه الصغير ، ويشعر بالغيرة تحرق صدره بعد إن استحالت رماداً فى قلب أبيه ، ويقوده أبواه الى أماكن الملاهي ، فيرى الغواني نصف عاريات يلقين السمّ الى الناس فنوناً وما كان الجنون الاّ مسخاً ولدته فى خشائها الفنون . . .

ويتعوّد الولد إنزال المرأة عن عرشها فى خياله بعد ان كانت فطرته توقفه أمامها وقفة العابد أمام معبود متعالٍ مصون ، وقد يسمع في ما بعد عراك أمه مع أبيه وتصل الى مسامعه كلمات الشتيمة والاتهام بالخيانة ، فيثبت لديه أن لا أمّه تثق بأبيه ولا أبوه يثق بأمه ، ولكنه يراهما قد عادا الى المجاملة الكاذبة بعد حين

ليرجعا الى المشادة بعد أيام ، فيتضح له أن الوفاء مصنّع حوله وأن ما يراه ثباتاً ليس الا استقرار على إكراه . وهكذا يشبّ الولد جاحداً للاخلاص منكراً للعاطفة الهادئة المستقرة معتقداً أن الأسرة قائمة على التضحية المؤلمة . . .

هذان الطفلان ، هما الأمّة في البلاد التي ندعوها موطن قوميّتنا . وما أنا بالمتحامل على الأسرتين الكبيرتين في بلادي بما أوردته عنهما من رسوم .

إن في هذه البلدان أسراً عرفت أنجيلها وقرآنها فهي مجلى الكرامة والصيانة والحرية الحقّة حيث تتجلى القيود الشريفة تاجاً على مفارقها لا أغلالاً في أرجلها ولكنّ عدد هذه الاسر أقل من أن يحجب الأغلبية التي تلد لهذه البلدان كتلة شعوبها . وهذا الاحصاء الرسمي في القطر الزعيم يثبت وقوع الطلاق بنسبة خمسين في المئة من عقود الزواج . .

ومن الغريب في أعراض هذا الانحطاط السائد على العدد الأوفر من الأسر أنها تتجلّى في الطبقة الجاهلة بين المسلمين في حين أنها تتجلّى بعكس الامر في الطبقة المتعلمة بين المسيحيين ، فالاسلام سائر بطبقاته المستنيرة نحو روح القرآن وحكمته ، أما النصرانية فانها في ارتقائها تسير مبتعدة عن إنجيلها لأنها استبدلت به إنجيل المدنية الحديثة في حياتها .

جلست يوما الى صديق لي من أذكى رجال المسلمين وأوفرهم علماً وأرفعهم مقاماً أسأله عن رضائه بانقطاع نسله في حين أنّ له اتخاذ زوجة أخرى تأميناً لحق يسهلّ الشرع له الوصول اليه ، فاجابني مبتسماً .

— لقد مرت سنوات على زواجي وأنا طبيب ولا ريب عندي في أن العقم في رفيقتي لا فيّ ، ولكنني لا أرى من مكارم الاخلاق أن اكسر قلب رفيقتي التي أحب وأحترم وهي لم تجنِ ذنباً ولم تقصّر يوماً في واجباتها تجاهي ، فان أنا اتخذت

عليها ضرّة أذلتها باغياً عليها ولقد لا تحمل هذه الاهانة فتلجأ الى الانطلاق بحق عصمتها ، وقد تلجأ مكرهةً للتزوّج من رجل آخر ، وتأبى عليَّ عزتي العربية وكرامتي الاسلامية أن أرى من تغذيّ جسمها من جسمي وقلبها من قلبي منطرحة على فراش غريب ..

والتقيت فى اليوم نفسه ، وكان ذلك من غرائب الصدف ، شاباً من شبّان العرب المتمدنين المرقّصين لأخواتهم والراقصين مع أخوات الغير ونسائهم ، فدار بيننا حديث وجهّ به جليسي اللوم اليّ لمجاهرتي بتقبيح اجتماعات الآخذين باذناب التمدن من أبناء البلاد ، وقد أنهى سلسلة براهينه المتوالية على فائدة الاختلاط والرقص بقوله .

— ما يضير الرجال المتزوجين من رقصنا مع نسائهم ؟ إننا معشر الشبان المهذبين نعرف أن نحترم المرأة التى نراقصها فلا نذهب الى أبعد ما يجيزه الفنّ لنا ، واذا ما أعاد الرقص النشاط الى المرأة بل واذا ما تنبهّت أعصابها وتولاّها المرح ، فمن يستفيد من هذه الحالة ؟ أليس المستفيد هو زوجها الذى يذهب بها مرحة نشيطة الى بيته ، ونحن الذين نهيء أسباب سروره ينتهي بنا الحال فى آخر الليل على فراش قذر فى غرفة من غرف المواخير . . .

ووجدت أنني إن جاوبت هذا الشاب على كلامه أحتقر نفسي فاكتفيت بأن قلت بصوت عال وأنا مدير ظهري لهذا الجليس كلمة موسوليني المأثورة .

« لخيرٌ من تعليم المرأة الرقص أن نعلّمها إطلاق الرصاص . »

* * *

سوف يأتي يوم ، وهو غير بعيد ، تنتبه المدنية فيه الى أن الرجل الكامل الذى ينشده العلماء فى الغرب لن يخلق لهم من التمرين لقوى العقل وقوى الجسد ولا من

فحص خلايا المتزوجين بالمهجر حتى ولا من تلقيحهم بالمواد الكيماوية أو تطعيمهم بغدد القرود ..

إن الرجل الكامل أو الاقرب الى الكمال إنما هو ابن الحب الكامل ، فالمحبة وحدها هى السبيل المؤدي إلى إدراك الحق والقوة والجمال .

لندع العالم المتمدن يفتش فى علومه ونهضة مفكريه على هذا الحب الذي تخيله ماركس متجلياً فى الحرية التامة للناس في أهوائهم فجآت البلشفة تثبت انخداع هذا الفيلسوف فى نظرياته ، ليفتشوا إنهم لن يتصلوا فى تجاربهم الآن الى العبر الزاجرة المؤلمة .

أما نحن ، ابناء هذا الشرق الذى انبثق الحق فيه انصباباً من الداخل بالالهام لا تلمساً من الخارج ، فلنا المسلك المفتوح منفرجاً أمامنا للاعتلاء والخروج الى النور بعد هذا الليل الطويل ، اذا نحن أخذنا بروح ما أوحاه الحق الينا .

لا بترقية الزراعة والصناعة ، ولا بنشر التعليم والتهذيب ولا بجعل البلاد جنة غنىً وتنظيماً ، تنشأ الأمة ويخلق الشعب الحر السعيد .

إن الجنين الذى يحمل أسباب شقائه وهو فى بطن أمه لا يمكنه أن يصير رجلاً حراً قوياً يفهم حقيقة الحياة ويتمتع بالعظمة الكامنة فيها .

إن الاهتمام بايجاد الطفل الصالح أولى من العمل لاعداد العلم والتهذيب لطفل نصقل مظاهره صقلاً وتنحطم كل محاولة للنفوذ الى علته المستقرة فيه منذ تكوينه .

لقد اتضح لنا مما استعرضنا من أنوار الوحي ومن الشعور الباطن وحتى من المشاهدات العلمية الحسية ، أن الأسرتين المسلمة والمسيحية فى هذا الشرق العربي ، لا تسيران في اتجاهها الجانح عن الاسلامية والمسيحية الى تأمين إيجاد الطفل الصحيح لانشاء الأمة الراقية الحية .

وقد اتضح لدينا فوق ذلك أن اتهام الدين بما يأتيه أبناء الضلال الاجتماعي من مخالفة لروح الدين نفسه إنما هو انخداع إن لم يكن تحاملا، او هو الجهل بما قصده عيسى ومحمد للناس من إصلاح وصلاح

ولقد يعارض الاصلاح المنشود من يقول لنا إن الدين قد جعل الرجل حراً واقامه حكماً في كيـــان أسرته وعقابه وإثابتـه في ما يقضي برجحان لله فاحص النوايا والخفايا.

ان لهذا الاعتراض مظهراً من الحق يجب الوقوف عنده. لا ينكر أن الرجل في أسرته والسيد في رقيقه مؤتمنان وعليهما أمام الله تبعة تفوق بالأمانة كل التبعات، ولكنّ ذلك لا يعني أن الانسان مطلق في الوديعة من كل مسؤولية اجتماعيـة اذا فـرّط بسلطانه لأن الأسرة لا تُبنى على حق الله فحسب كما تُبنى العقيـدة ايماناً وجحوداً، توحيداً وشركاً، بل هي تتناول حقوق العباد، وما جعل الله حقّ عباده على مرتبة أدنى من حقـه، فتنظيم الأسرة على ما يقتضي تبـدّل الأزمان إنما هو واجب على المجتمع يقوم به بالاحتفاظ بمبادىء التشريع العامة.

إن ما امر الدين به إلزاماً لا يجوز الاجتهاد فيه لتعديله أما ما اباحه إباحة فهو من أمور الدنيا التي تُطبـّق على الاحوال المتبدّلة بخاصة في الاباحات التي قيدت بشروط وامتنع على الناس القيام بها.

إن النصرانية والاسلام قد أبيح فيهما الرقّ في زمن كان الرقيق فيه اذا عومل بما أوجبه الدين من إنصـاف في حكم الحرّ المستخدم تكفل حياته لقاء عمله، ولكن عند ما تطوّرت نظمُ الاجتماع على أصولٍ أخرجت العمل والجزاء فيـه عن محوره الأول وعند ما حقّ لكل انسان أن يتقيـد بملء اختيـاره بجهوده، بل عنـد ما لم يأخذ النـاس بما أوجبته رحمـة الدين بالرقيق وتمادى الاقوياء في غيهم فاستمروا في

إرهاق الرقيق بل زادوا في قساوتهم عليه حتى انزلوه منزلة البهيمة ، تمردت روح الحق فى أنفس المصلحين ، فاعتبروا الرق جريمة يستحق المتاجر بها والمستفيد منها صارم العقاب. وقد أخذت الدول النصرانية والدول الاسلامية بهذا التشريع وعملت به ولم يقل أحد علماء النصرانية او أحد علماء الاسلام إن الاستمرار على تجارة الرقيق انما هو مباح دينا فلا يجوز للناس ان يمنعوا ما اباحته شريعة الله . . .

أما وقد أصبح تعدد الزوجات والطلاق المسلم لتقدير الرجل بلا قيد كما اصبح إطلاق المرأة في حريتها الشخصية وتسيب بعض الرجال فى مرؤتهم وواجباتهم مما يلحق بالمجتمع العربي الشرقي ضرراً أبلغ من أضرار تجارة الرقيق وينزل بالرجل والمرأة على السواء أدهى النكبات ، لانه يقرض كيان الشعوب من أصولها ويقذف للمجتمع باطفال تموت فيهم غرائز الشرق السامية ولا يمكن أن يقوم عليهم وبهم بنيان الأمم التي تريد الحياة ، فقد لزم على السلطات الدينية والمدنية ان تتعزز بالدين نفسه للقضاء علي الجنايات التى يرتكبها الناس باسم الدين على الاجيال الآتية فتتولى الفصل فى الحالات التى تبرر التعدد والطلاق على عدل لان ترك الامر لتقدير الفرد لا يؤدي فى الغالب إلا الى الجنوح مع الشهوة الى تقدير مغلوط يجر الوبل على المجتمع والانسان

إن في النطفة التى نشأنا منها عبرة يجدر بنا أن نستفيد منها و نتخذها مثالا نقتدى بما كمن فيها من حكمة إلهية .

وتلك العبرة كائنة فى أول ظاهرة من تكون الأجنة ، عند اتحاد النطفتين ، اذ تتولد فى الرحم حول الرشيم مادة صلبة تقف حاجزا دون أي حيوان آخر يحاول ولوجها ، وما هذا التفاعل الطبيعي الا القوة الموحدة للحياة تدراء الشرك فى الجنين بل تدراء الموت عنه ، فهل تكون نطفة الانسان خيراً منه ؟ . .

أفما رأينا كيف أن النطفتين تتحدان لتكوين الجسد الواحد إنساناً سوياً يصلح للحياة وكيف تقف الطبيعة مدافعة عن وحدته ، إن مَن ينفذ الى عظمة هذا السر يدرك بلا عناء معنى الروح الواحد فى جسدين والجسد الواحد جامعاً بين روحين .

أفليس الرجل والمرأة المتحدان بالحب جنيناً يتكوّن موحّداً فى رحم هـذا الكون الفسيح يلفظه الى عالم الخلود كما تلفظ الأرحام الوليد الى عالم الفناء ؟ . .

ليقبل تشبيهي هذا من يريد وليردّه من يشاء ، إنَّ تفسيره يقتضي الدخول فى مبحث طويل ليس الآن زمن تناوله ، ونحن نبحث منابت الاطفال لا لما تجرّه باختلالها على نفسها من الويلات بل لما تنزله من النوائب بهذه المخلوقات الضعيفة الواقفة على باب الوجود مرتجفة حائرة . . .

ليس الفقير المتسوّل ، ولا العليل المتألم ، ولا الشيخ الهرم يتمشّى بلا سند الى قبره ، ليست المرأة المستعبدة بلقمة ولا الفتاة المخدوعة المنطرحة على أقذار المواخير ، ليس كل هؤلاء الناس الأشقياء فى الحياة بأشقى من الاطفال يجور عليهم اباؤهم وامهاتهم قبل أن يقذفوا بهم الى الوجود ويرهقونهم بالقطيعة والاهمال بعد ان يدرجوا عليها باقدامهم الناحلة المتعثرة . . .

الرجل الذى يمسخ حبه الواحد شهوات متعددة والمرأة التى تتقصف متهتكة ماسخة هيكل نسمات الله مركعاً لنفايات البشر من عبّاد الخيانة والطيش ، انما هما آدم وحواء مطرودين من الجنان الى ارض الجهود المضيّعة والآلام المحتّمة ، ومن يدري ان حديث معصية الابوين ليس رمزاً لخيانة الحب ، تلك الخيانة التى تنزل اللعنة بمرتكبيها وبابنائهم من بعدهم . . .

ويل للرجل الذى يهدم بيديه سعادته وسعادة أبنائه وويل للمرأة التى تدنّس منبت أطفالها .

وانما أطفالُنا حولنَـــا　　اكبادُنا تمشي على الأرض

« ٦ »

المهود

فى الشرق والغرب

رؤيا صوفى عربى

كُتبت باللغة الفرنساوية وتُرجمت الى العربية

عقلية الانسان بعد الحرب الكبرى — أوفرُ اللذات بأقل الجهود — التمردُ على عاطفة الابوة والأمومة — قضية النسل بين الايمان والجحود — أفي التوليد تجديدُ حياة أم تجديدُ فناء — الحكوماتُ وتناقص النسل — المسيحية تجاه المهود فى الغرب — رؤيا فى السماء للاستاذ مصطفى صادق الرافعى — الأطفال فى الحياة وبعد الموت — الجهاد الحقيقي — التبتلُ والزواج — التحكمُ في النسل — بينَ عاقرٍ وثكلى — سرُّ الله فى قلب امرأة — الحياة ماوراء هذه الحياة.

إن اطّراد النقص فى الزواج الشرعيّ وفي المواليد ، وتعدّد حوادث الاجهاض وقتل الأطفال ، لمسائل تقلق المفكّرين ورجال الحكومات فى الغرب لأنهم يرونها منذرة بانحلال الأوطان ودمارها .

بعد ان مرّت عاصفة الحديد والنار على وجه أوروبا ملقية بالاكفان الحمراء على ركام القتلى وبالأوشحة السوداء على ما تأيّم من نساء ، وما تيتّم من أطفال ، تزحف اليوم الطامة الدسّاسة الخرساء ، طامة إبادة النسل لاكمال فجائع الحرب مستخدمة من الناس استكلابهم في الحياة للقضاء على الحياة .

لقد قامت فى العالم المتمدن مذابح دامت خمس سنوات أفلت الناس منها وقد انطبعت في أذهانهم كتلٌ من الاشلاء وكومٌ من الأطلال غطّت الأديم وملأت بابخرتها وعثيرها الفضاء ، فاصبحوا وكأنّ فى قرارة نفوسهم رعباً من الاطفال ووجلاً من المهود .

لقد كان يُلاحظ نشاطٌ فى الحيوية على إثر فجائع التاريخ الكبرى فكانت تزداد المواليد لاستعادة ما اختلّ من التوازن فى المجتمع ، غير أن الطامة الكبرى الأخيرة لم تسفر الاّ عن حيويّة سادتها أنانية الفرد فتمرّد عليها وتحكّم فيها . كانت الطبيعة المنجبة فى الأمومة يجللها الحب والعفاف ، فاذا هي الملاك الساقط الشارد من جنانه تحمل العقم فى أحشائها وقد تساقط عن مفرقها إكليل الأزاهر

البيضاء. مدت الشهوات يديها الى الأمومة فاسقطتها عن عرشها وحلّت هي عليه مختلسةً تستقبل الدنيا بوجه ملؤه القروح وثغر يلتمع بابتسامات الرياء والاكاذيب.

إنّ من ولد منذ ثلاثين او أربعين سنة فعُدّت ولادته نعمةً ثم دخل الحياة وهو يبارك أبويه الذين فتحا للنور عينيه، أصبح اليوم مذعوراً مما يحمل من حياة بين جنبيه محاذراً أن تفلت شرارةٌ من كوامنها الى العالم المشهود.

لقد صمد هذا الرجل للعاصفة الهوجاء، وسمع إرعاد جوانب الجحيم. لقد داعبته ألسنة النيران الفاتكة وزحف كديدان الأرض فى تراب الخنادق. لقد توسّد الثرى مع من توسّدها من الأموات وقام من بينهم وجيهاً مشوهاً. بُعث من بين الأشلاء فدعم قواه المتلاشية برؤى الاصلاح الاجتماعي، برؤى حق الحياة إن لم يمنّي بها نفسه فانما يمنّي بها من سيترك على الأرض بعده.

وكان ربُّ الحرب قد رفع عقيرته من جميع عواصم العالم يهزّ أجواء النفوس بالمواعيد الخلاّبة وهو يهيب بها الى التضحية فى سبيل حقوق الانسان، ولكنّ العائدين من جبهات الحرب بجراحهم وعاهاتهم تفرّسوا فى ربّ هذه الملحمة وحدّقوا به فاذا القناع يسقط عن وجهه واذا بهم أمام قوة أوثقت عهداً مع مبادىء الاستعباد لا مع مبادىء تحرير العباد.

وهكذا تجلّى روح الشرّ مرة أخرى مخادعاً للانسانية المسكينة. فكانت خدعته هذه أفظع ما أتى به من ضروب إرهاق العالم منذ توالت الأنسال.

عاد رجل العراك الى مسكنه فرأى من آثار الفاجعة فيه ما لا يقلّ عما أبقت فى جسده وفى روحه من علل وجراح. وكانت قد هبّت على المسكن نسمةٌ محمّلة بالجراثيم فاجتاحته روح التمرد وأصبح ينمّ عن غرائب من النشوذ وعجائب من الشذوذ، خلت الثقة من السرائر فتولّت الوحشة القلوب تقرض نياطها قرضا.

ضلّ الفكر من قبل في مجاهل المدنية وغاب عنه هدف التعاون من أجل الحياة فاذا بالعالم يساق كرهاً الى المعترك، واذا بالمعترك يقذف بالناس الى ركام العالم المتهدّم حيث لا يزالون منذ سنة ١٩١٨ يجيلون أنظارهم المروّعة على ما جنوا وما جنى عليهم القضاء . . .

إنّ ما انزلت الحرب من النوائب كان قد أفرغ العروق من الدماء وأفرغ معها كل ما جمعته الانسانية بجهد جيل كامل من الثروات، ولو أن هذا الافلاس تناول فقط ما بددّته وافنته الحرب من معدّات الدمار لكانت الفادحة وقفت عند حدّها، غير أن هذا الاسراف فى سبيل القضاء على الناس كان لا بد له من الحكم بالادخار المعوّض على الذراري المقبلة .

ليس لنا أن نتناول فى موضوعنا من المسائل الاقتصادية الا ما يقتضيه الالمام بأطرافه، فنكتفي بأن نقول إنّ ما تشعر به جميع الأمم التى حشرت في النار وجميع الأمم الأخرى التى تناولتها ألسنة اللهيب حتى من بعيد إنما هو الآن شعور أبناءٍ يكرههم قضاءٌ غريب على تأدية ما ابقاه آباؤهم المبدّدون من ديون لا من الميراث، ولا ميراث، بل من نتاج جهودهم ومن إذخار مرهق لا أمل يُعقد عليه .

إن ثروة الأفراد وبخاصّة قيمة جهود الطبقة العامله قد حُشرت فى مآزق تحـــوّل قيم النقد (القطع) التي وفقت الى فتحها أساليبُ الاقتصاد السياسي وقد كانت المدنيـة وصلت قبل الحرب بزمان بعيد الى موقف استحال عليها فيه أن تصمد أمام ما أثارته مسألة الطبقة العاملة من مشاكل فان الآلة التى اخترعتها العبقرية لتخفيف عناء العاملين كانت أصبحت فى يد أرباب الأموال معصرةً للجهود وأداة استغلال عنيف . وما وضعت الحرب أوزارها حتى أدىّ تطوّر

الحالة الفكرية فى الناس الى ظهور اختلال أدبي حديث وقف الى جنب الخلل الاقتصادي الناشيء فى أزمان قبل الحرب ، فرأينا جنون الحياة يستولي على الناس شأن كل سلالة قطرت فوق مهودها الدماء .

إن انسان اليوم لينفر من كل رابطة اجتماعية تقيده بأي واجب كان ، فكأن السوداء استحالت وباء يكتسح المجتمع الغربي حيث يتجلى النفور بالتفاعل المنعكس في كل عاطفة سواء أكانت صداقة أم غراماً

إن الرجال لا يجتمعون الا على أغراض سداها ولحمتها المال ، وقد أصبحت المرأة بعد أن كانت رفيقة الرجل في السراء والضراء تزاحمه فى الأعمال وتناصبه العداء . تلك حالة المدنية اليوم بعد ما طراء عليها من تطورات خطيرة وهي حالة أجمع الواصفون على وصفها فلا تستلزم من البيان حجة ومن الوقائع برهاناً .

إن الرجل والمرأة متساويان اليوم فى العالم المتمدن فى إعلان نفورهما من أي عبء او أي قيد يرضخهما اتحادهما له . وقد أصبح الطفل سواء في الزواج الشرعي او المرافقة الغير المشروعة مفزعةً للزوجين وعباءً يجدر بهما إقصاؤه .

إن الفرد من الجنسين وقد أتعبته الحياة يحاول الا يفتح لتجديدها سبيلا .

وقد تسنى لرب العصر وقد أصبح اوراقاً خرساء لا تسمعك الا حفيفاً حزيناً كأوراق الخريف المتناثرة أن يتحكم فى النفوس فيحولها عن الفضائل بأكثر مما تسنى من قبل الحرب للأصفر الرنان .

أفلا يكفي الانسان ظهوره على الارض أكرةً تتلقفها أيدٍ من قاسيات النوائب لتقذف به بعد لهوها الى أسرة الأوجاع فالنزع فالفناء . ؟ .. وماذا يقصد الحي من جعل ذاته علة لظهور أحياء آخرين يقطعون مراحل الدنيا بالشقاء والأوصاب ليصبحوا اخيراً مرعىً قذراً للدود في القبور . .

إن فتى العصر ليقف بوجهك ويقول لك . إن فراشاً يحط رحاله على زهرة لا يلبث أن يتحطم جناحاه عليها وقد ذوت وريقاتها . . . وويل لمن يجف على نفسه ويقضى بالجفاف على سواه . . . ومع ذلك فهل ترى أن ازهار هذه الايام هي الازهار نفسها التى كانت تنور فى حدائق الماضي ؟ وهل أصول أزاهر اليوم الا عروقاً متمردة رحالة نقالة ؟ . . إنه لمجنون ذلك الفراش الذي يولي قياده لزهرة تجره هي حيث تشاء بدلا من أن يطير بجناحيه سائراً نحو آفاق الحرية والنور . . . .

وهل تخاطبك الفتاة العصرية بغير هذه اللهجة أذ تقول لك — باي حق تجعلون علامة التأنيث فى الاسم الذى اخترتموه لنا قيداً علينا ، وما دامت الشابة تستطيع ان تؤمن عيشها من جهودها أفلا تكون ساذجة حمقاء أن هي أقامت عليها من الناس سيداً يتسلط على حريتها ؟

وهكذا يقف كل من الجنسين موقف الدفاع عن قضية استقلاله وحريته . واذا ما ثارت جراثيم الحب صدفة من بؤرة قلبين تأخر الردم فيها فأول ما يهتم له المصابان بهذا الداء الوبيل الجامع بين خصمين متنافسين هو استغلال الطبيعة ومخادعتها بالعمل بدستور الاسماك التى تلتهم الطعم مفلتة من صنارة الصائدين . . .

يرى الرجل ما تكلفه كسرة الخبز من جهود فيعز عليه اقتسامها مع أطفاله وتقف المرأة أمام ما يتجلى لها فى جسمها من رشاقة الشباب وتناسق الأعضاء وقفة التاجر تجاه رأس ماله فيعز عليها أن تسلم لحيوان غريب يتكون فى أحشائها بهذه الكنوز يشوهها وهي أداة عزتها وسلطانها . . . .

أفما يجدر بالانسان ، وهو الشبح الذى يبدو وشيكا على الارض ليتوارى ،

أن يتمتّع بمسرات الحياة متجنباً آلامها ما استطاع . إن من الخرق فى الرأي أن نخلق شعاباً لطريقنا وأن نضيف على ثقيل حملنا أحمالا .

إنها لسرائر الفرد المتدن وقد وصفناها إلماماً ، لقد فقد الانسان ثقته بنفسه واصبحت ملذاته نفسها نوعاً من الألم الهازيء الساخر . . .

أما العالم الثاني فمَن من غلاة المدنية يعتقد الاعتقاد المكين بوجوده ؟ ولا أعلم كيف يؤمن بهذا العالم جاحدٌ لا يؤمن بالعالم الآخر . ومن العبث أن نحاول إيقاظ عواطف الابوّة والأمومة في رجل وأمرأة لا يعتقد ان ببقاء الحياة وبعث النفوس .

حاول بعض الملحدين أن يثبتوا أن عاطفة الأبوّة فى قلب الجاحد إنما تنشاء من توقّع الزوال بنفسه فيلجأ الى التوليد لأنه يعلم ان لا شيء يبقى منه سوى ذريته يستبقي فيها على حياته .

إنه لتعليلٌ فاسد ناشيء عن تصوّر مكذوب لشعور الانسان تجاه العدم .

إن رجلا يتوقّع الفناء المطلق في الموت لا يمكنه أن يخدع نفسه بفكرة بقاء ذرّيته ، فهو يعلم ولا بد له من أن يعلم أن بين شعوره وشعور من يلد هاوية بعيدة الغور ، فان الذرّة الحية بمجرد انفصالها عن أصلها تصبح ذاتاً مستقلة بتفاعلها مع عناصر الحياة ، فمن التوهم أن نتصوّر أية علاقة بين إحساس الوالدين وأبنائهم اذا ماصرفنا النظر عن الاتصال الفكريّ والاشتراك الأدبي فى الشعور وقد يكون أحد الأبوين ملقىً على سرير الأوجاع يجود بأخر الأنفاس ويكون أحد الابناء بعيداً يتمرّغ فى حمأة الشهوات .

لا يمكن ان تنشأ عاطفة الأبوّة والأمومة من التسلسل الماديّ ، والاّ لجاز لنا ان نجمّل الحيوان بهذه العاطفة ، فى حين أننا نعلم ماهي هذه العاطفة الموقتة فيه

وهي عبارة عن غريزة لا يتجاوز الحنان فيها زمن العناية الضرورية لنشوء صغاره حتى اذا بلغت أشدها أنكرها .

إن الانسان ، عدا تجمّله بعاطفة الأبوة الخاصة به ، يشترك والحيوان ايضاً بالغريزة الدافعة الى التوليد ، ولكنّ الانسان يمكنه ، اذا ما خرج عن حالة رجل الكهف ، أن يتحكّم بهذه الغريزة ، وعندما يذهب الانسان فى ارتقائه مذهباً يقوده الى الشكّ فى حقيقـة نفسه والى انكار الخلود عليهـا يصبح ضلاله دستوراً لأعماله، وحينئذ لا بدَّ له ، وهو في حكم الفاني منذ الآن لأنه سيفنى ، من أن يقف موقف العداء تجاه حياة لم يعدلها فى سريرته معنى الحياة .

وهل لرجلٍ لا يتصور الخلود الاّ فى سلسلة الذرّية تمتد حلقاتها مجددة للفناء والاضحلال على ممر العصور أن يعتقد بتجدّد حياته فى أبنائه ؟ . .

قال لي ملحدٌ ذات يوم .

— لن يبقى مني بعد موتي سوى ابنـائي وستتجدّد حياتي فيهم .

فاضطررت أن اجاوب هذا الرجل على كلامه الذى ينقض مبناه معناه نقضـاً تاماً . وهو من المؤمنين بالعدم ، فقلت له . — إنّ ما سيتجدد منه في ابنائه ليس حياته بل فناؤه بموته .

واردفت قائلا : — هلاّ اكتفيتَ بأن تموت مرة واحـدة ، فتذهب من الدنيا الى العدم وأنت توصي ان يُكتب على قبرك بيت أبي العلا .

هذا جناه أبي عليّ وما جنيتُ على أحد

* * *

إننا نرى في هذا الايضاح الموجز لحالة العالم المتمدن ما لقضية المهود من أهمية وما هو المقام الذي تشغله بين مشاكل الاجتماع الكبرى .

لقد انكمش الفرد على نفسه فهو متطيّر من الزوال لا عقيدة له بالخلود لا جسماً ولا روحاً ، إن قوماً يحيط بهم العدم من كل جهة ليمتنع عليهم التصديق بولادة طفل لغير الفناء . وهكذا يتضح لنا السبب فى محاولة الأحياء استبعاد كل ما يقيم المصاعب على سبيلهم ويحول دون راحتهم بعد أن وقفوا فى الجهة السلبية من الحياة .

ولكنَّ هنالك رجالا قبضوا على زمام الأمم فاصبح من واجبهم ان يعالجوا تناقص النسل وفيه تكمن أخطار الاندحار فى ميادين الاقتصاد والحروب .

وتلك حوافز نرى آثارها جليّة فى كل نداء يوجهه الرجال المسؤولون الى الهيئات الاجتماعية وفي كل بحث يتولاه علماء السياسة والاقتصاد فان أهم ما يتجه اليه النظر فى ما يقفون الجهد عليه إنما هو تأمين الأنسال وزيادة عدد المواليد لايجاد فيالق الصناع والجنود تنتصب سداً في وجه المنافسة والاجتياح .

وما تذهب الحكومات الى أبعد من هذه المقاصد ، لأنه لو لم يكن عليها أن تزاحم مناوئيها فى ميادين الانتاج وأن تكون على قدم الاستعداد لصدّ كل غارة تهددها ، لما كانت تمدّ بسلطانها الى قلب حياة الفرد التابع لها . إن ما يهمّ الحكومات من الانسانية إنما هو الوطن لا الانسانية بعينها . وما واجبها الاّ واجب حفظ التوازن والاستبقاء على حرمة الدولة . وكل مسألة تتعدى هذه الحدود لتتصل بالمسائل الأدبية المجردة لا قِبَلَ للحكومات بمعالجتها ويمتنع على سلطانها أن يتناولها .

لذلك نرى أبحاث الدول فى ما يتعلّق بتناقص النسل تدور على محور حقوق المالكين وحالة العاملين واذا رأيت منها مَنْ تذهب باهتمامها للامر الى أبعد ما يمكن فانها لتكتفي إلزاماً بفرض الضرائب على العازبين ومنح الجوائز للأسر التى تتعدد

المواليد فيها.

ويلوح لنا أن مثل هذه الوسائل لأضعف من أن تقتلع الشر من أصوله.

إن تحسين حالة العاملين لفرض يقتضيه حق الحياة بتخفيف أعباء الجهود المرهقة عنهم. غير أن الفرد العامل لن يذهب الى ما تقصده الدولة من تأمين جزاءٍ أوفر لأتعابه، فهو بدلا من أن يتحول الى استيلاد الأطفال يتجه بما يغنمه من مال نحو زيادة راحته واشباع شهواته وهو إن يفعل فإنما يقتدي بأهل اليسار، اولائك الذين لا يبرر إضرابهم عن التوليد أيُّ مبرر وهم بالرغم من ذلك أقل الطبقات توليداً.

إنّ الأبوة عاطفة نفسية إن لم تنشأ بقوة النفس امتنع على أية مساومة توليدها. فمن المحال أن يتفاهم الفرد والدولة في هذا المطلب ما دامت الدولة تكلف الفرد توريد الصناع للمعامل والجنود للفيالق وما دام هو من جهته يذهب في سريرته المذهب الملائم لراحته في حياته.

إذا لم يكن الانسان مندفعاً إلى الأبوة إرضاءً لعاطفةٍ فيه فانه لن يخضع لأية قوة تريد تسخير عاطفته لاستغلالها.

ولرُبَّ معترضٍ يذكّرنا بما في الغرب سوى سلطان الحكومات من سلطان تعمل مختلف الكنائس به لمقاومة الرزائل في المجتمع والقضاء على وسائل التحكم بالنسل في الأسر، ونحن لا ننكر ما للمسيحية التي سادت الغرب والعالم الجديد من جهود في سبيل تعزيز الأسرة بالدعوة إلى التقيد بالأحكام الصارمة وبارسال اللعنة إلى مدنّسي فراش الزواج المتلاعبين بمقاصد العناية السرمدية ولكننا ملزمون مع هذا بأن نعترف آسفين بأن المسيحية التي قرر الغرب أحكامها وأوجد حواشيها قد أصبحت وهي تقدس الزواج ترى في كل حَبَلٍ دَنَساً رافعة بالعزوبة التي دعتها

عفةً الى مستوى أرفع من مستوى الاتحاد بين الجنسين معتبرة أن في التبتل نهاية الكمال .

وعلى هذا نرى المسيحية الغربية وهي راسية على تأويل بعيد عما يدركه مفكرو الشرق من الانجيل ، واقفةً عندما اتخذته من المبادىء في مجال الدعوة إلى الأنسال فاكتفت الكنائس بتهديد المرتبطين بالزواج بنار الجحيم إذا هم تخيّروا العقم ، غير مهتمة بتحريك العاطفة الكامنة فى القلوب لاحيائها فى سبيل تكثير النسل ، وكيف تفعل وهي لا ترى أن عاطفة الأبوة والأمومة هي أشرف وأقدس عاطفة تمثّل الخلود فى عالم الزوال .

* * *

نشرت مؤخراً مجلة الرسالة الراقية فى القاهرة مقالا تحت عنوان (رؤيا فى السماء) للاستاذ مصطفى الرافعي ، وقد نظر هذا الفيلسوف الشرقيّ فيه إلى مسألة النسل نظرة سبر بها أقصى الموضوع مسترشداً بالأحكام الاسلامية ، فجاء مقاله تحفة يجدر بمفكري الغرب الوقوف عندها والتبصر فيها ، وهذا ما اهاب بنا إلى ترجمتها .



رؤيا في السماء

للاستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أبو خالد الأحول الزاهد : لما ماتت امرأة شيخنا أبي ربيعة الفقيه الصوفيّ ، ذهبت مع جماعة من الناس فشهدنا أمرها ، فلما فرغوا من دفنها وسوّى عليها ، قام شيخنا على قبرها وقال : يرحمك الله يافلانة ! الآن قد شفيت أنت ومرضت أنا ، وعوفيتِ وابتُليت ، وتركتني ذكراً وذهبتِ ناسية ، وكان للدنيا بكِ معنىً ، فستكون بعدكِ بلا معنى ، وكانت حياتكِ لي نصف القوّة ؛ فعاد موتكِ لي نصفَ الضعف ، وكنت أرى الهموم بمواساتكِ هموماً في صُوَرها المخفّفة ، فستأتيني بعد اليوم في صُوَرها المضاعفة ؟ وكان وجودك معي حجاباً بيني وبين مشقّات كثيرة ، فستخلص كلُّ هذه المشاق إلى نفسي ، وكانت الأيام تمرُّ أكثر ما تمرُّ في رقّتك وحنانكِ ، فستأتيني أكثر ما تأتي متجرّدةً في قسوتها وغلظتها . أَمَا إني والله لم أُرْزَأْ منكِ في امرأةٍ كالنساء، ولكني رُزِئتُ في المخلوقة الكريمة التي أحسستُ معها أن الخليقة كانت تتلطّف بي من أجلها !

قال أبو خالد . ثم استندَ مع الشيخ ، فأخذت بيده ورجعنا إلى داره ، وهو كان أعلمَ بما يعزي الناس بعضُهم بعضاً ، وأحفظ لما ورد في ذلك ، غير أن للكلام ساعات تبطل فيها معانيه أو تضعف ، إذ تكون النفس مستغرقة في الهمّ في معنى واحد قد انحصرت فيه ، إما من هوْل الموت ، أو حبٍّ وقع فيه من الهوْل ظلُّ الموت ؛ أو رغبة وقع فيها ظل الحب أو لحاجةٍ وقع فيها ظلُّ الرغبة . فكنت أحدّثه وأعزّيه ، وهو

بعيدٌ من حديثي وتعزيتي ، حتى انتهينا إلى الدار فدخلنا وما فيها أحد ، فنظر يَمْنةً ويسرةً ، وقلّب عينيه ههنا وههنا ، وحَوْقل واسْترْجع ، ثم قال : الآن ماتت الدار أيضاً يا أبا خالد ! إن البناء كأنما يحيا بروح المرأة التي تتحرّك في داخله ، وما دام هو الذي يحفظها للرجل ؛ فهو في عين الرجل كالمطْرَف[1] تلبسه فوق ثيابها من فوق جسمها : وانظركم بين أن ترى عيناك ثوب امرأةٍ في يد دلاّل في السوق ، وبين أن تراه عيناك يلبسها وتلبسه ! ولكنك يا أبا خالد لا تفْقهُ من هذا شيئاً ، فأنت رجلٌ آليْت لا تقرب النساء ولا يقربْنك ، ونجوت بنفسك منهن وانقطعت بها لله وكأن كل نساء الأرض قد شاركن في ولادتك فحَرمن عليك ! وهذا مالا أفهمه أنا إلا ألفاظاً ، كما لا تفهم أنت ما أجده الساعة إلا ألفاظاً ، وشتان بين قائل يتكلم من الطبع ، وبين سامع يفهم بالتكلّف .

فقلت له يا أبا ربيعة ، وما يمنعك الآن وقد اطّرحت أثقالك وانبتّتْ أسبابُك من النساء ـ أن تعيش خفيف الظهر ، وتفرغ للنُّسْك والعبادة ، وتجعل قلبك كالسماء انقشع غيمها فسطعت فيها الشمس ، فانه يقال : إن المرأة ولو كانت صالحة قانتة ـ فهي في منزل الرجل العابد مدخل الشيطان إليه ، ولو أن هذا العابد كان يسكن في حسناته لا في دارٍ من الطوب والحجارة لكانت امرأته كوّةً يقتحم الشيطان منها . ولقد كان آدم في الجنة ، وبينها وبين الأرض سمواتٌ وأفلاك ، فما منع ذلك أن تتعلّق روح الأرض بالشيطان ، فيتعلق الشيطان بحوّاء ، وتتعلّق هي بآدم ، ومكر الشيطان فصوّرها لهما في صيغة مسألة علمية ، ومكرت حوّاء فوضعت فيها جاذبيّة اللحم والدم ؛ فلم تعد مسألة علمٍ ومعرفة ، بل مسألة طبعٍ وحاجة فأكلا منها فبدت لهما سَوْءاتُهما . وهل اجتمع الرجل والمرأة من بعدها

(١) المطرف رداء من خز فيه نقوش تلبسه المرأة في دارها ، وهو المسمى (الروب)

على الأرض إلا كانا من نصب الحياة وهمومها، وشهواتها ومطامعها، ومضارها ومعايبها — في معنى « بدت لهما سوآتُهُما » . . . ؟

كلانا يا أبا ربيعة ممن لهم سيرٌ بالباطن في هذا الوجود غير السير بالظاهر، وممن لهم حركةٌ بالفكر غير الحركة بالجسم ؛ فقبيحٌ بنا أن نتعلّق أدنى متعلَّقٍ بنواميس هذا الكون اللّحميّ الذى يسمّى المرأة ؛ فهو تدلٍ وإسفافٌ منا . ولعلك تقول : « النسل وتكثير الآدميّة . » فهذا إنما كُتِب على إنسان الجوارح والأعضاء ، أما إنسان القلب فله معناه وحكم معناه ؛ إذ يعيش بباطنه ، فيعيش ظاهره فى قوانين هذا الباطن ، لا فى قوانينِ ظاهرِ الناس . وإنه لشرٌ كلٌ ما نقلك الى طبع أهل الجوارح وشهواتهم ، فزيّن لك ما زيّن لهم ، وشغلك بما يشغلهم ، فهـذا عندنا — يرحمك الله — بابٌ كأنه من أبواب المجون الذى ينقل الرجل إلى طبع الصبيّ .

فاطمس يا أخى على موضعها من قلبك ، والق النور على ظلها ؛ فالنور فى قلب العابد نور التحويل ان شاء ، ونور الرؤية ان شاء ، يرى به المادة كما يريد ان تكون لا كما تكون . وانت قد كانت فيك امرأة ، فحوّلها صلاة واعمل بنورك عكس ما يعمل أهل الجوارح بظلامهم ، فقد تكون في احدهم الصلاة فيحولها امرأة .

قال أبو ربيعة : تالله إنه لرأيٌ ؛ والوحدة بعد الآن أرْوَحُ لقلبي ، وأجمعُ لهمّي ، وقد خلعني اللهُ مما كنت فيه ، وأخذ القبر امرأتى وشهواتى معاً ، فسأعيش ما بقي لى فيما بقى منى . وزوال شيء فى النفس هو وجود شيء آخر . ولقد انتهيت بالمرأة ومعانيها وأيامها الى القبر ، فالبدءُ الآن من القبر ومعانيه وأيامه .

***

وتواثقا على أن يسيرا معاً في (باطن) الوجود . . . ! وأن يعيشا فى عمر هـو

ساعةٌ معدودةُ اللحظات، وحياة هي فكرة مرسومة مصوّرة. قال أبو خالد: ورأيت ان أبيت عنده وفاء بحقّ خدمته ودفعاً للوحشة أن تعاوده فتدخل على نفسه بأفكارها ووساوسها. وقد غمرنا تعب يومنا، وأعيا أبو ربيعة وخذلته القوة، فلما صلّينا العشاء، قلت: يا أبا ربيعة، أحبّ لك ان تنعس فتريح نفسك ليذهب ما بك، فاذا استَجمَمْتَ أيقظتك فقمنا سائر الليل.

فما هو إلا أن اضطجع حتى غلبه النعاس. وجلست أفكّر في حاله وما كان عليه وما اجتهدت له من الرأى، وقلت في نفسي: لعلي أغريته بما لا قبل له به، واشرْت عليه بغير ماكان يحسن بمثله، فأكونَ قد غششته. وخامرنى الشكّ في حالى أنا أيضاً، وجعلت أقابل بين الرجل متزوّجاً عابداً، وبين الرجل عابداً لم يتزوج؛ وأنظر فى ارتياض أحدهما بنفسه وأهله وعياله، وارتياض الآخر بنفسه وحدها، وأخذت أذهب وأجيء من فكر إلى فكر، وقد هدأ كل شيء حولى كأن المكان قد نام، فلم ألبثْ حتى أخذتني عيني فنمت واستثقلْتُ، كأنما شُدِدْتُ شدّاً بحبال من النوم لم يجيءْ من يقطعها.

ورأيت فى يومي كأنها القيامةُ وقد بُعِثَ الناس وضاق بهم المحشر، وأنا من جملة الخلائق، وكأنّنا من الضغطة حبٌّ مبثوثٌ بين حجرَىْ الرّحى. هذا والموقفُ يَغْلِى بنا غليانَ القدر بما فيها، وقد اشتدّ الكربُ وجَهَدَنا العطش، حتى مامنا ذو كبدٍ إلا وكأنَ الجحيم تتنفس على كبده، فما هو العطش بل هو السُّعار واللهبُ يحتدمُ بها الجوف ويتأجّج.

فنحن كذلك إذا وِلدانٌ يتخلّلونَ الجمعَ الحاشد، عليهم مناديلُ من نور وبأيديهم أباريقُ من فضةٍ وأكوابٌ من ذهب، يملئون هذه من هذه

بسلسال برود عذب ، رؤيته عطش مع العطش ، حتى ليتلوى من رآه من الألم ، ويتلمع كأنما كوى به على أحشائه .

وجعل الولدان يسقون الواحد بعد الواحد ويتجاوزون من بينهما وهم كثرة من الناس ، وكانما يتخللون الجمع فى البحث عن أناس بأعيانهم ينضحون غليل أكبادهم بما فى تلك الأباريق من روح الجنة ومائها ونسيمها .

ومر بي أحدهم ، فمددت اليه يدى وقلت : « اسقنى فقد يبست واحترقت من العطش : »

قال : « ومن أنت ؟ »

قلت : « أبو خالد الأحول الزاهد . »

قال : « ألك فى أطفال المسلمين ولد افترطته صغيراً فاحتسبته عند الله ؟ »

قلت : « لا . . .

قال : « ألك ولد كبر فى طاعة الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولد نالتك منه دعوة صالحة جزاء حقك عليه في إخراجه الى الدنيا ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : ألك ولد من غير هؤلاء ولكنك تعبت فى تقويمه ، وقمت بحق الله فيه ؟ »

قلت : « يرحمك الله ، إنى كلما قلت « لا » أحسست « لا » هذه تمر على لسانى كالمكواة الحامية . . . »

قال : « فنحن لا نسقي إلا آباءنا ، تعبوا لنا في الدنيا ، فاليوم نتعب لهم في الآخرة ، وقدموا بين يديهم الطفولة ، وإنما قدموا السنة طاهرة للدفاع عنهم فى

هذا الموقف الذي قامت فيه محكمة الحسنة والسيئة . وليس هنا بعد ألسنة الانبياء أشدُّ طلاقةً من ألسنة الاطفال ، فما للطفل معنى من معاني آثامكم يحتبس فيه لسانه أو يلجلجُ به »

قال أبو خالد : فجُنَّ جنوني ، وجعلتُ ابحث في نفسي عن لفظة « ابن » فكأنما مُسحت الكلمةُ من حفظي كما مسحت من وجودي ؛ وذكرت صلاتي وصيامي وعبادتي ، فما خطرت في قلبي حتى ضحك الوليدُ ضحكاً وجدتُ في معناه بكائي وندمي وخيبتي

وقال : ياويلك ! أما سمعت : « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفّرها الصلاة ولا الصيام ، ويكفرها الغمُّ بالعيال . » أتعرف من أنا يا أبا خالد ؟

قلت : من أنت يرحمنا الله بك ؟

قال : انا ابن ذاك الرجل الفقير المعيل ، الذي قال لشيخك ابراهيم بن ادهم العابد الزاهد : « طوبى لك ! فقد تفرّغت للعبادة بالعزوبة . » فقال ابراهيم : « لروعةٌ تنالك بسبب العيال أفضلُ من جميع ما أنا فيه . . . » . وقد جاهد أبي جهادَ قلبه وعقله وبدنه وحَمَلَ على نفسه من مقاساة الاهل والولد حَملها الانسانيّ المظيم ، وفكّر لغير نفسه ، واغتمّ لغير نفسه ، وعمل لغير نفسه ، وآمن وصبر ووثق بولاية الله حين تزوج فقيراً ، وبضمان الله حين أعقب فقيراً ، فهو مجاهد في سبل كثيرة لا في سبيل واحدة كما يجاهد الغزاة ، هؤلاء يستشهدون مرة واحدة ، أمّا هو فيستشهد كل يوم مرة في همومه بنا ، واليوم يرحمه الله بفضل رحمته إيانا في الدنيا

أما بَلَغَكَ قولُ ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو : « أتعلمون عملا أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلمُ ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا : فما هو ؟ قال : رجل

متعفف على فقره ذو عائلة قد قام من الليـل ، فنظر الى صبيانه نياماً منكشفين ، فسترهم وغطاهم بثوبه ؛ فعمله أفضل مما نحن فيه . . . »

يخلع الأب المسكين ثوبه على صبيته ليـدفئهم به ويتلقى بجلده البرد فى الليل . إن هذا البرد — يا أبا خالد — تحفظه له الجنة هنا في حر هذا الموقف ، كأنها مؤتمنة عليه الى أن تؤديه . وإن ذلك الدفء الذى شمل أولاده يا أبا خالد — هو هنا يقاتل جهنم ويدفعها عن هذا الأب المسكين

قال أبو خالد : ويهم الوليـد أن يمضى ويدعني ، فما أملك نفسى ، فأمد يدى الى الابريق فأنشطه من يده ، فاذا هو يتحول الى عظم ضخم قد نشب في كفى وما يليها من أسلة الذراع (١) فغابت فيه أصابعى ، فلا أصابع لى ولا كف . وأبى الابريق أن يسقيني وصار مُثلةً بى ، وتجسدت هذه الجريمة لتشهد على فأخذنى الهول والفزع ، وجاء ابريق من الهواء ، فوقع فى يد الوليد ، فتركني ومضى

وقلت لنفسى : ويحك يا أبا خالد : ما أراك الا محاسباً على حسناتك كما يحاسب المذنبون على سيئاتهم ، فلا حول ولا قوة الا بالله !

وبلغتني الصيحة الرهيبة : أين أبو خالد الأحول الزاهد العابد ؟

قلت : ها أنذا :

قيل : طاووس من طواويس الجنة قـد حُص (٢) ذَيْـلُه فضاع أحسن ما فيه : أين ذَيـلُك من أولادك وأين محاسـنُك فيهم ، أَخُلِقَتْ لك المرأة لتتجنبها وجُعلت نسل أبويك لتتبرأ أأنت من النسل ؟

---

(١) الأسلة : ما يلى الكف من الذراع الى القسم المستغلظ منها . فالأسلة هى العظمة التي تشد عليها ساعة اليد

(٢) حص ذيله : قطع وجذ

جئت من الحياة بأشياء ليس فيها حياة ؛ فما صنعت للحياة نفسها إلا ان هربت منها وانهزمت عن ملاقاتها ، ثم تأمل جائزة النصر على هزيمة . . .

عملت الفضيلة فى نفسك ونشأتك ، ولكنها عقمت فلم تعمل بك . لك ألفُ ألفِ ركعة ومثلها سجداتٌ من النوافل ، والخيرُ منها كلها أن تكون قد خرجت من صلبك أعضاء تركع وتسجد

قتلت رجولتك : ووأدت فيها النسل ، ولبثت طوال عمرك ولداً كبيراً لم تبلغ رتبة الأب ! فلئن أقمت الشريعة ، عطّلت الحقيقة ، ولئنْ . . .

قال أبو خالد : ووقعت غُنَّةُ النون الثانية في مسمعي من هول ما خفتُ مما بعدها كالنفخ فى الصُّور ، فطار نومي وقمتُ فزعاً مشتت القلب ، كمن فتح عينيه بعد غشية فرأى نفسه فى كفن قبر سُدَّ عليه . . . !

وما كدت أعى وأنظر حولى وقد برق الصبح فى الدار حتي رأيت أبا ربيعة يتقلّب كأنما دحرجتهُ يد ، ثم نهض مستطار القلب من فزعه وقال : أهلكتنى يا أبا خالد ، أهلكتَنى والله .

* * *

قلت : ما بالك يرحمك الله ؛

قال : انى نمت على تلك النيّة التي عرفتَ : ان أجمع قلبي للعبادة ، وأخلصُ من المرأة والولد ، ومن المعاناة لهما فى مرمّة المعاش والتلفيق بين رغيفٍ ورغيف ، وأن أعفى نفسي من لأوائهم وضرّائهم وبلائهم لأفرغ الى الله وأقبل عليه وحده . وسألت الله أن يخير لي فى نومي ، فرأيت كأن أبواب السماء قد فتحتْ ؛ وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً ، أجنحةً وراء أجنحة ، فكلما نزل واحد نظر إلىّ وقال لمن وراءه : هذا هو المشئوم !

فيقول الآخر : هو نعم المشئوم !

وينظر هذا الآخرُ الى ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له هذا هو المشئوم !

فيقول الآخر نعم هو المشئوم !

وما زالت « المشئوم المشئوم » حتى مرُّوا ، لا يقولون غيرها ولا أسمع غيرها ، وأنا فى ذلك أخاف أن أسألهم ، هيبةً من الشؤم ، ورجاء أن يكون المشئوم إنساناً ورائي يبصرونه ولا أبصره . ثم مرّ بي آخرهم ، وكان غلاماً . فقلت له : ياهذا ، من هو المشئوم الذى تومئون إليه ؟

قال : أنت !

فقلت : ولم ذاك ؟

قال : كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين فى سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك ، وتحزّنت على ما فاتك من القيام بحقها ، فرفعنا عملك درجة أخرى ، ثم أُمِرْنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فرّوا وجَبُنوا ! . . . . . .

* * *

إن سُمُوَّ الرَّجُلِ بنَفْسِهِ عن الزَّوْجَةِ والوَلَدِ طَيَرَانٌ الى الأَعْلى . . . ولكنه طَيَرانٌ على أَجْنحةِ الشَّياطِين !

طَيَرانٌ بالرَّجُلِ الى فُوَّهةِ البِئْرِ كان الّذِى فى الأَعْلى . . . !

طنطا مصطفى صادق الرافعى

بمثل هذا البيان الساحر يتناول الرافعي أدق مسألة اجتماعية تشغل العصر الحاضر فيسبر أعماقها ، إن هذا الفيلسوف الشرقي يأتي بفصل الخطاب فى صفحة من الرموز برؤيا صادقة يراها الجاحدون أضغاث أحلام ، ليقل هؤلاء الجاحدون

ما يشؤن فأن المفكر المنصف من أية طائفة كان من الطوائف المسلمة بخلود الروح لا يسعه الاّ الانحناء اجلالاً وفى نفسه هزّة الخشوع أمام هذه الرؤى الرائعة تتجلي فيها الأبوة والأمومة لا ركناً للمجتمع الانساني على الارض فحسب بل قوةً سرّية خالدة تتعالى فوق الفناء لتتصل بالدوائر الخفيّة وراء القبور.

إن الرافعي لم يتحف الأدب العربى بتمثل هذه الرسالة الخالدة ، الاّ وهو منحنٍ على ما فى عقله الباطن من ثقافة عربية موروثة يستنير بحكمة الكتاب الهادي متوغلا في المجاهل الفكريّة التى رادها من تقدموه فى العصور الاسلامية الأولى فكانت عبادتهم فلسفة وكانت صلواتهم استغراقاً وتفكيراً .

بينما كنا نرى فيئة كبيرة من كتاب الشرق تنسلخ عن الثقافة العربية متناسية ميراثها ذاهبة من البيان مذاهب تتعارض بما في دمها من حوافز وفي سلالاتها من عقائد ، شهد القرن الماضي بداية نهضة التجدد الحقيقي منذ أيام الافغانى ومحمد عبده فمهدت معارج الاعتلاء برقاها فى هذه الايام أمثال رشيد رضا وطه حسين ومحمد هيكل ووجدي وأضرابهم من الأعلام وبينهم الرافعي ينفخ فى البيان العصري روح الشرق فى وحيه وإلهامه .

وقفت أمام (رؤيا في السماء) وقفة المعجب الخاشع فما ملكت نفسي من اقتحام ترجمتها الى اللغة الافرنسية ترجمة اجتهدت ان استبقي فيها على الاصل في مبناه العربي الصميم لاثبت لمقتبسي المبنى الافرنجي فى بيانهم العربي أنهم يضلّون بتعاميهم من استعارات بياننا وبلاغته ليحلوا محلها صوراً ليست على شيّ من الجمال في انشائهم المصنع .

لقد أورد الرافعي فى تحفته الأدبية هذه أجلّ دفاع عن قضيه الحياة برجوعه فيه الى الحقائق الازلية التي أنزلها الوحي على عيسى ومحمد تحت سماء الشرق الصافيه

ولكن هذه الحقائق التى جعلها الانجيل كما جعلها القرآن أساساً لعبادة الله لم تنفذ الى عقلية الغرب لتأثرها بما أورده الحواري بولس من المبادىء بشأن التبتل ، فأن هذا الحواري وقد سادته الثقافة الرومانية وربط عليه ضيق الازمان التى عاش فيها لم يتردد فى دعوته المسيحيين الاولين الى الاضراب عن الزواج اذ جاهر بفضل التبتل عليه وتكريس النفس لخدمة الله والتملص من قيود الأسرة وأعبائها وهي فى نظره من تكاليف الحياة الفانية . . .

أما المدافعون عن قضية النسل فى المدنية الحديثة فما يهمهم من ايجاد الطفل الا إيجاد العمال للانتاج وحشد الفيالق للحرب والنزال ، وغايتهم القصوى إنما هي إعداد أكوام الجسوم لمعصرة الاقتصاد تسيل الخمرة المسمومة على ولائم الانسانيه المضللة . فالمسألة فى نظر هؤلاء الداعين الى تكثير النسل لا علاقة لها بالحقائق الروحية التي يجهلونها وليس فى جميع ما كتبوه بشأنها ما يمت بصلة ولو بعيدة الى هـــذه الحجة التي يتقدم بها الرافعي ليصف الابوة عاطفة روحية تخترق حجاب الموت لتتجلى أسرارها عند هدفها الأسمى فى عالم الخلود فلا عجب اذا رأى المؤمنون بالبقاء بعد الموت في ما قاله الرافعي خير دعوة الى إجلال الخالق والرضوخ لحقه فى تناسل عباده .

إن الرجل والمرأة الذين لا يشكان فى بقاء أولادهما بعد الموت يحسان بالأبوة متغلغلة فى أعماق روحيهما لا فى مكان الكبرياء والغرور ولا يسعهما التغلب على هـذا الشعور للرجوع معه بذلة المنكسر امام أية بلية من بلايا الحياه وأي ارهاق من تكاليفها

إن محمداً قد أقام الرجل كما أقامه المسيح رأساً للأسرة تلقى على عاتقه أثقالها وتبعاتها ، فاذا ما وقف الرجل يستقبل الحياة منفرداً وحده فانما هو إذ ذاك الحلقة المكسورة فى سلسلة استمرار الحياة ، بل هو السراط المنعرج والقوس الخائنة تدفع

بسهم القضاء الى غير مرماها . كما أن المرأة المنفردة المتمردة على الرجل تجلى فى الهيئة الاجتماعية دليلا على انحطاط هذه الهيئة بفقد المروءة فى الرجال واستيلاء الفحشاء على قلوبهم .

ان المسيحيين الأولين لم يحجموا عن اقتحام تكاليف العيال بالرغم مما كان يساورهم من ضيق واضطهاد ، ودليلنا على ذلك اضطرار الحواري بولس ، بعد أن فشلت توصياته بالتبتل ، الى اصدار أمره في رسالته (تيموتاوس اصحاح ٣) بأن يكون الاسقف زوج امرأة واحدة . . . ، وليس هنا مجال النظر فى مسألة تعدد الزوجات في صدر المسيحية .

وهكذا كان المسلمون الاولون سواء إبان هجرتهم او طوال جهادهم وأغارتهم على عديد الشعوب لا يتقاعسون فى القيام باعباء الأسر المعددة .

إن التخوف من فقد الرغيف لم يكن فى أي زمن سبباً فى وأد جرثومة النسل قبل مثولها الى النور . فمسألة تناقص النسل لا يتوقف حلها اذاً على حل المسائل الاقتصادية ولن ينتج عن اكتشاف الطريقة المثلى لتوزيع الانتاج على الاحياء ما يضع حداً لهذه الجرائم التى ترتكبها الانسانية اليوم تحت ستار العلل الاقتصادية من إباحة الأعراض واسقاط الأجنة وقتل الاطفال .

لقد كان الرجل القديم يستغني عن أية عاطفة دينية فى خضوعه لغريزة التوليد اما الرجل الحديث الراقي فقد أصبح عدواً للنسل بالغريزة المرتدة الى الأنانية الصرفة فهو إن تعرى عن الايمان بالله وبالخلود يتطير من قيود الزواج وأعباء البنين .

غير أن الشرق المؤمن لا يزال ، وقد تكسرت على شواطئه أمواج الالحاد ، مستسلماً لعناية الله يعتبر الاتصال الجنسي لبقاء النوع عقيدة دينية ، في حين أن

الغرب ، وقد جهل تعاليم المسيح وعدلها بنظرياته الخاصة ، لا يرى فى هذه القضية الا مسألة اقتصادية تنشأ بين حدّي الأسرّة والقبور.

ان الشرق يواجه الأبوة والامومة كواجب يرسو على التضحية ، ذلك هو تعليم المسيح وتعليم محمد فى رسالتيهما الى العالم ، ولكنّ الغرب الذى كان يستنير قدما بأنوار المسيحية أوجد بدعة لنفسه تتوافق ومايراه ارتقاء وتكاملا للمجتمع. فالعقلية الغربية اليوم بعيدة جد البعد عن الاحكام القائلة بالتناسل والتكاثر وإملاء الارض فهي متّجهة الى رفع السدود بوجه أنهار الحياة المتدفقة ، وقدأصبح همها أن تضع قواعد لاختيار الأنسب وترقية النوع البشري طلباً لايجاد الانسان الكامل ، أو بتعبير أدقّ الانسان المتفوّق ، وما نرى هذا المثل الأعلى المنشود الاّ مسخاً تحلم بخلقه التصورات المعتلّة جامعاً بين القوة المريعة والأنانية المتغطرسة العمياء.

إنّ ما ينظر اليه مفكرو العالم المتمدن فى الطفل ليس تلك الروح الخالدة التى تستنبت جناحها للاعتلاء الى الكائن الحق ، بل الجسم نفسه الذى يريدونه متفوّقاً كامل القوى يتنعم بجميع اللذات فتتنعم به وبخيال ملذاته ديدان القبور.

هذا ما يريده مفكرو عصر المدنية الحديثة ، لذلك نرى من العلماء من يهتّم جدياً باخضاع التوليد للخيار ، وتعليم الزوجين الوسائل التى تحكّمهما فى النسل ، فلا يقدمان على إنتاج الطفل الاّ بعد وثوقهما من إمكان تزويده بالشهادات العلمية العالية وتأمين حياته بثروة تقيه الاحتياج بل تقيه بذل الجهود للكفاح فى معترك هذه الحياة . . .

لقد هبّت على مجتمعات العصر زعازع من الخبل ، فاصبحت ولا همّ لها غير مسألة المال يحشده المرء تفادياً من بذل الجهد فى سبيل الحياة ، فالعالم مأخوذ بالرعب يرتجف فرقاً من الحياة ومن إيجاد الحياة ، إن جميع ما يبذله الانسان

من جهد إنما يتجه الى توفير الجهد والتهرّب من العمل والانسان الانسان اليوم هو من ألقي اعباء الحياة على دماغه واقفاً ما في عضلاته وأعصابه من قوة على الملذات والفحشاء.

إنّ المرأة تتمرد على طبيعتها نفسها فهي تُضرب عن الأمومة وتجاهر بعدم رضائها بأن تصبح آلة للولادة وللرضاع. وقد سخرّ العلم نفسه لتمردها فقام احد العلماء يخترع وسيلة تغني الجنين عن أحشاء الأم باجراء العلوق ضمن وعاء من زجاج. وقد ورد فى الاخبار أن فتاة مستخدمة لا متسع لديها من الوقت لمعاناة الحمل ولا رغبة عندها في تشويه تناسب جسمها البض تقدمت الى هـــذا العالم العلاّمة طالبةً استخراج ما يحتاج من مبيضها لأتحافها بالولد الذى ترجوه، وقد تكون هذه الفتاة من رجعيات بنات العصر ولم يزل فى قلبها بقيةٌ من خلجان الأمومة القديمة ولديها من المال المقتصد ما يسمح لها بالتطوّع لأمومة مصطنعة لا تقضي على هيف قامتها ونضارة شبابها فيضطرها التشويه الى الخروج من فيالق الغلاميّات المجاهدات من اجل حريتهنّ في القرن العشرين...

إنه لحادث أشبه بالمهازل المضحكه، ولكن المفكر الواقف على مساويء هذه المدنية لا يسعه الاّ التفجّع على حال هذه الفتاة المستعبدة، هذه الفتاة المضطرة الى العمل فى ما لم تخلق لأجله، فأنه ليتلمّس في أعماق روحها بقية عاطفة إنسانية لم تقوَ على استئصالها عوادي المبادىء وضلالات التنظيم الحديث. إنّ هذه الفتاة لمّا تزل واقفةً على الشفير فهي لم تنزلق بعد الى المهاوي حيث يسود ظلام الفحشاء وحيث تقبض الألوف من مكذوبات العذارئ بأناملهن على أعناق الأطفال كاتمات عن صدورهم المتهدّجة أوائل الانفاس.

تلك هي قرحة البشرية فى هذا العصر يتدفق منها الصديد ، فلنرجع بصبرنا عنها إنَّ التهاب حوافيها لا يختلف عن التهاب أعماقها .

إنَّ فى آوروبا من المصلحين من لا ينون يرفعون عقيرتهم منادين بالثبور أمام هذه المآسي المروّعة ، غير أن هنالك أيضاً من لا يتورّع فى الدفاع عن حق الحياة فى قتل الحياة ، وهنالك من لا يتردد في اتهام المصلحين بالخبل والضلال .

واليكم مثالا من هذه الحجج يدلى بها أنصار التحكّم بالانسال .

قال الدكتور هودان فى كتابه (الحب والغريزة الجنسية) المطبوع فى برلين (صفحة ١٣٤ — ١٣٥ .) ما يأتي

(ويقولون لكم أيضاً ، إنَّ التحكّم فى الأنسال إنما هـــو خطيئة ومعارضة لمقدرات الألوهية الخفية . إنه لمسكينٌ هذا الاله الذي ينال من كرامته جهاز الوقاية الصفيق . ولكنكم لاتجهلون أنَّ الدين ضرورة تقتضيها حالة العامة ، ولا يخال لكم انني مبالغ فى ما اقول ، فان هذه الضرورة يقول بها ويردد ذكرها فى كل مناسبة بعض رجال الـــعلم أنفسهم وما هم الا أعلاء أزمنت عليهم بالجهل فهم يخدمون بهذه الاقوال أصحاب رؤوس المال دون أن يشعروا . وما عليكم الآن تقرأوا الرسالة التى نشرت مؤخرا بعنوان (البؤس فى الزواج)

وهذا بعض ما فيها

(إن السبب الاول في هذا الشقاء وفي هذا الضلال والفساد إنما هو استغناء أبناء الحياة عن ربهم ولا دواء لهـذا الداء الآ بتقويم الضمائر ولا تستقيم الضمائر مالم ترجع الى الله . يجب أن تعود روح الأسرة الى المجتمع حتى تخفت أصوات الشكاية

من وفرة النسل وحتى يرى الأبوان في تكاثر البنين بركة ونعمة)

هذا ما كتبه الدكتور سيهير في رسالته ، وانا اقول لكم إنه مادام في المانيا مثل هذا المعتوه يهتف جدّياً بمثل هذه الخزعبلات ، فاننا لن نتقدم)

وبعد ذلك ينتفخ الدكتور هودان بروح التفلسف والحكمة فيقول

(إنّ من واجبنا نحن الاشتراكيين أن نجاهر على الأقل بهذه الحقيقةوهي إن للأنسان ملء الحق اذا ما طالب بتحريره من القيود الاقتصادية أن يطالب أيضاً بانعتاقه من شقاء الغريزة الجنسية و تبعاتها .)

ما أراني جاهلاً مبادىء الاشتراكية ويلوح لي أن تأويلها على ما يؤدي الى الاضراب عن التوليد إنما هو تأويل غريب لا يصل بطبقة العمال الى الفوز في المعترك ، فأن الدكتور هودان يريد التغلّب على أصحاب رؤوس المال بافناء العاملين والقضاء عليهم . . .

لا أريد الآن السير بالبحث الى المشاكل الاقتصادية التي ضلّ في شعابها العدد الوفير من مفكري اوروبا ، ولكنني استميح علماء الاجتماع أن أبدي اندهاشي من مبدأ غريب يعلّق النصر لفئة محاربة على تقليل عددها وإضعاف قوّتها في المعترك . . .

يتضح للمفكر مما تقدم كيف تعالج المسائل المعقّدة في أوربا في ما يتعلق بأحوال الحياة ، فأن الافكار مشبعة هنالك بعداء الأمم وبكيد الطبقات المختلفة فاذا دعي الشعب هنالك الى التوليد فانما يُدعى باسم الوطن لاعداد جنود المعارك هجوماً او دفاعاً ، واذا ما دُعي الى مقاطعة الغريزة المولّدة فانما يُدعى بعاطفة الكيد للامتناع عن إيجاد السواعد العاملة يستعبدها أرباب الاموال ، واذا ما

وقف مفكر يأخذ بالمبادئ الروحية رافعاً عقيرته على هذه النظريات قامت قيامة الفلاسفة الماديين عليه واتهموه بالعته والجهل الفاضح .

ولعاني أسيء الى صديقي الاستاذ الرافعي بترجمة مقاله ، فكم من (هودان) هنالك ، اذا ما اطلع عليه ، لن يتردد فى نعت الاستاذ بالخبل طالباً ارساله وانا معه بالطبع الي مستشفى المجانين . . .

أن الانوار لتؤذي العيون اذا ألفت التحديق بالظلام . ولكن شعاع الحقائق الروحية يستغني عن اجتياز الاحداق للنفوذ الى اقصى الضمائر وما (رؤيا فى السماء) الا شرارة من هذا الشعاع الذى بذغ ثلاث مرات من سماء الشرق . لينير الدنيا من مشارقها الي مغاربها .

إن مقال (رؤيا فى السماء) لأيضاح رائع لمبادئ الاسلام التى بنيت على قواعد اساسية تُستنبط منها الاحكامُ لتعززها لا لتشوه مراميها . ونحن لا نرى هذه المبادىء الأساسية الا متوافقة وما اورده عيسى فى تعاليمه ، بصرف النظر عن كل ما تبع هذه التعاليم من تأويل و شروح .

فاذا ما نُظر الى قضية النسل بالاستنارة بهذه المبادىء الروحية ، فأن هذه القضية تُحل لذاتها بمعزلٍ عن أية مسألة اقتصادية او اجتماعية . بل اننا نؤكد بأن مشكلة النسل ، اذا هي حُلت فى ضمير الفرد ، ستخرج حتماً من بين العقد التي تتولد من اختلاف الأمم ومن تصادم أرباب الاموال وفيئة العمال .

ليس للفكر الانساني بل ليس بوسعه أن يتناول بالتحليل قضية التناسل ، اذا هو جحد الخلود ولم يعتقد الا بالحياة الدنيا يحدها العدم فى الازل والزوال في الأبد ، ذلك لأن عاطفة الأبوة فى قلب الجاحد إنما هي نقض صريح لصورة الحياة فى ذهنه . ليس لمن لا يعتقد الا بالموت أن يهتم لمسألة التناسل وفيها تجديد

الحياة وما يكون معنى الزواج يا ترى لمن لا تجول ابصاره الا في آفاق المادة المتحوّلة حول شخصيات وهمية فانية ؟ ، اي معنى يتجلى أمام الملحدين فى الزواج وليس الزواج فى الحقيقة الا اعباء وواجبات ، فاذا ما طلب الكافر لذة فيها فانما يرتكب حماقة ما بعدها حماقة وهو الكائن الذى يرى الواجب ضرباً من العته لأنه يعيش لنفسه لا لغيره .

ليس بين جدران مسكن الأسرة غير الجهد المستمر يرهق الزوجين للسير بهما الى التفاهم والاندغام بتضحية النزعات المختلفة ولا يبلغ مثل هذه الوحدة ما فى الاجسام من شهوة ، لأنها الوحدة القائمة باندغام الصفات الادبية المعنوية . وهنالك أيضاً وخاصة السر الأكبر فى تجلي الذات فى حياة أخرى ، فيرى الرجل والمرأة ذاتهما ماثلة فى اولادهما ، شخصية واحدة تتحمل بالرغم مما تحمل من عبر الحياة جميع ما فى الطفولة من ضعف وصبر والالام ، إنه لسر عميق أن تزج روح الزوجين ثانيةً فى سجون هذه الأجسام الضعيفة الواهية التى خرجت من جسمهما

إنّ للغيرية معنىً لا يدركه الا من أحسّ فى صميمه بضعف الطفل ، وما الطفل من الابوين الا ذلك الكائن القريب حتى ليحسّان به كأنه ذاتهما والبعيد البعيد حتى ليشعران أنّ بينهما وبينه مجالات الآباد والآزال .

اذا كنتَ لم تقف الى جنب أسرّة هولاء الصغار تتأكلهم الحمّى وتقطع أوصالهم الأوجاع وهم يتمسكون بالعابهم وينتحبون للتافهات التى تأسر لبهم فى سذاجتهم فى حين تقطع أحشاء الأب والأم لوعة وارتياعاً ، واذا كنتَ لم تشهد هولاء الضعفاء الصغار يصارعون الفناء كأنهم الجبابرة فى غمرات الاحتضار . أو انتَ لم ترَ النعوش الصغيرة تجتاز على مهلٍ عتبة المسكن المروّع حاملة بقية مهجة ثوت فيها مهجتان داميتان ، فانك لم تدرك من الموت الا قليلا ولم تدرك من الحياة شيئاً .

إذا أمعن الفكر في أصول الاشياء فلا بدّ له من الوقوف تجاه برهان ذي حدّين لا مخرج له من بينهما . إنْ نحن اعتقدنا بأننا أتينا الحياة لنقوم عليها بدور نهايته الفناء والاضمحلال وذهبنا الى أن كل ما يتجلى فينا من قوى إنما هدفه الوحيد الابتلاع والهضم والى أن مهمّتنا في هذه الحياة إنما هي عبارة عن إمناء أنفسنا بلذّات وهمية حقيقتها أوصاب والآم ، واذا لم يكن هذا الرقيّ الانسانيّ الذي كلّف البشر كل هذه الجهود الاّ تراكضاً أشبه بتراكض القافلة الضالة في الصحراء وراء خادعات السراب واذا ما رأينا المبادىء الادبية خبلا والصلاح جنوناً والاخلاص ضعفاً والأمانة هوساً وانخداعاً ، واذا ما نحن اعتقدنا اخيراً بأن الحياة الادبية قبل الموت والحياة الروحية بعده إنما هما توهمٌ مبني على الأباطيل والترّهات ، فان التناسل ليصبح في نظرنا مهزلة يحتقرها العقل بأكثر من احتقاره لمهزلة الخليقة الاولى . وللزم والحالة هذه أن يتحوّل أولُ بكاء الطفل حين يخرج من سواد الظلمة الى سواد النور لعنةً يوجّهها لمن كانا علة وجوده . واذا ما أتيح لهذا الطفل أن يبلغ أشده فأول واجب عليه إنما هو الامتناع عن ارتكاب الجناية التي جناها ابواه عليه . وخيرٌ له وللعالم أن يحطمّ على سندان الفحشاء حلقة الحياة التي اتصلت اليه كيلا تتصل بها حلقات أخرى من الاوصاب والاوجاع .

اما اذا نحن اعتقدنا بأن الحياة المادية المنظورة ليست سوى مظهر لواجب الوجود الذى لا يتغير ، واذا نحن قلنا إنّ مجرّد تفكرّنا يدل على وجودنا) وأضفنا الى ذلك قولنا (إننا موجودن فلا يمكننا ونحن الوجود أن نتصوّر العدم) واذا ما تمكنا اخيراً من إنارة الفكر المنطيقي بأنوار العقل الباطن الذي ينمرّد على أن يتصوّر العدم ولا يمكنه ان يسلّم بالا وجود ، فاننا لنبلغ اذ ذاك أول سبيل الايمان وهذا السبيل يقودنا الى موقف العقيدة المكينة حيث يمتنع على المعتقد أن

يتصوّر إمكان اضمحلال وجوده وحيث يشعر شعوراً كلياً بانه خالدٌ لا بالصورة الخارجية المقضي عليها بالتحوّل بل بالسر الخفي الذى لا يتحوّل ولا يفنى وهو الجوهر الدائم الحالّ حلولا في ما يلبس من صورة زائلة يرافقها ويشهد ولادتها ونموها واندثارها .

ليس للانسان من غير هذا الموقف أن يدرك سرّ التناسل المقدس ، لأن للمؤمن وحده أن يرى الوجود باسره كقوة تتجه الى هدف يبرر كونه ومسيره فيرى نفسه جزءا لا ينفصل عن هذه القوة ويقف عقله عن الاستنتاجات العقيمة مستسلما للعقل الازليّ ، للعلة الاولى ، فلا يتجه بعد هذا الاستسلام الاّ الى تمهيد العقبات التى تعترض سيره في حياته .

لقد كتب على الانسان أن يجاهد فى السبيل الذى اختطته العناية له ، فاذا ما أقدم على الشرود عن هذا السبيل مختطاً لنفسه مناهج جديدة فانما يأتي بدعة ويرتكب ضلالاً ، بل يجحد نفسه بنفسه ويتمرد على المبداء الذي صدر عنه .

ليس للعقل السليم ان يأخذ الا باحدى مقدمتين ، فاما ان ينكر نفسه وخالقه وعليه حينئذ أن يختار المقاومة السلبية للتمرد على التناسل ، وإما أن يعتقد بنفسه وبربّه ، فلا بدّ له حينئذ من الأخذ بمبدأ الرافعي اذ قال .

إن سمو الرجل بنفسه عن الزوجة والولد طيرانٌ الى الأعلى ... ولكنه طيرانٌ على أجنحة الشياطين ، طيرانٌ بالرجل الى فوهة البركان الذي في الأعلى .

***

قبل الانتهاء من البحث في هذه التحفة الادبية العالمية ، أرى أن أوجه الفكر الى نقطة بقيت فيها غامضة وقد ينطوي هذا الغموض على شيء من التناقض وهذه النقطة هي ما ألفتّ اليها الاستاذ الرافعي بكتاب ارسلته اليه فقلت له .

إنّ في ختام مقالك ما يفسح للفكر مجالا للذهاب مذاهب تختلف اختلافاً بيّناً عند النتيجة التي ترمي اليها .

قلت إنّ أبا ربيعه وقف في آخر حلمه تمرّ به طغمة الخالدين وتلقي اليه بكلمة المشئوم حتي مرّ غلامٌ هو آخرهم فقال له .

(كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، ثمّ ماتت امرأتك فتحزّنت على ما فاتك من القيام بحقها ، فرفعنا عملك درجة أخرى ، ثم أمرنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فرّوا وجبنوا .)

فهل لك أيها الاستاذ الكبير ، أن تأتينا بايضاح عمّا رأه الحق تخلفاً وجبناً في أبي ربيعه ؟ هل استحق هذا الشيخ نعته بالمشئوم لأنه ، وقد استهوته عظة رفيقه ، آلى على نفسه أن (يحوّل المرأة التي في قلبه الى صلاة) فاراد قتل تذكارها بالوفاء لله دون الوفاء لها في قبرها ، أم كان ذلك لأنه قرر التبتّل بعدها فلا يأخذ من بنات حواء من تقوم مقامها ؟

إن من ينظر الى حديث الشيخين ويأخذ بما وردَ في القصة وفي ختامها ليقف مخيراً محتاراً بين السببين ، وليس غير الأستاذ الكبير من يزيل هذا الابهام فيأتي بمقال عن مسألة لها مكانها بين العقد الاجتماعية ، فيقول لنا ما اذا كان المثل الأعلى في العلاقة الزوجية محبة الشخصية في الأنوثة أم محبة الأنوثة في الشخصية ؟ »

وقد بادر الاستاذ ، أعزّه الله ، الى أرسال الجواب الآتي

قرأت كلمتكم البليغة في الرسالة وأني أشكركم كل الشكر وأحمل هذا الثناء على محمله من نفسكم الطيبة الكريمة ، بارك الله فيها وبارك للشرق في أدبها العالي

أما ما سألتم عنه ، فأن القصة يجب أن تنتهي نهاية فنيّة يترك فيها موضع يتممّه القارىء ، فالكلام يحتمل ما ذكرتم من الوجهين كليهما ، غير أن الحالة الاسلامية

تخصص احد المعنيين فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ومن أخذ بسنّتهم من العلماء يكره أحدهم أن يبيت عزبًا حتى ان ابن عمر لما كان فى الموت قال « زوجوني فأني أكره أن القى الله عزبا » ولا يخفى أن واجب الرجولة هو حمل نصيبها من الأنوثة والتكفل بها وحمايتها ، فلما انطوت نية الشيخ أن يتعزّب ووافق على ذلك محت نيتّه حسناته ونقلته من حال الى حال وبطل معنى وفائه لزوجته الميتة لأن حقيقة الوفاء أن يثيبها ببرّ واحدة من جنسها والأسلام لا يعرف الشخصية الفردة الاّ فى حدود ضيقة وانما يعني بالشخصية الاجتماعية الكبرى كما هو معروف هذا وإنني أختم بطيب التحيات وحفظكم الله للمخلص .

مصطفى صادق الرافعى

ذلك هو التحديد الذى جاد به المؤلف فلا حاجة بعد لتأويل ما احتمل القولين في رسالته . لقد رأينا الاستيضاح فورد التفسير جليًا ، غير أن هذا الجلاء يوقفنا تجاه مسألة لها خطورتها وقد تكون مثاراً للبحث في ما اذا كان العلماء الذين يشير الرافعيّ اليهم ذهبوا بشيء من الاغراق نحو الوجهة المخالفة للوجهة التي سار الحواري بولس نحوها .

إن مثل هذا البحث لا يتسع مجاله فى حاشية من الموضوع الذى نتناوله الآن ، وحسبنا أن نكون أتينا بتعليق أوردنا فيه من الحياة نفسها ما يؤيّد الالهام الحق الذي سيّر قلم الرافعي لكتابة (رؤيا فى السماء) ، وحسبنا أن نكون وفّقنا الى تعبير رؤيا شرقية ببيان غربي ونحن نعتقد أن هذا الشرق المفكّر الملهم قد جاء العالم فى كل زمان بعلاج الادواء التى تقذف بالانسان الى المهاوي لتقصيه عن علّته الأولى .

والآن وقد فرغنا من تعبير هذه الرؤيا ، يجدر بنا أن نورد من مشاهد الحياة ما كنا كتبناه منذ سنوات وفيه من الارض رؤى كأنها مقدمات لرؤيا السماء .

سرّ الله فى قلب امرأة

لا اذكر اين رأيتُ هذا المشهد —

(وكان القطار يتهيأ للمسير من أحد مواقفه ، واذا بسيدة تقفز الى احدى مركباته ، سيدة رائعة الجمال يفوح منها عبير الربيع . جلست فاذا أمامها على المقعد المقابل امرأة تتساقط دموعها وأنفاسها تتعثر بالزفرات وعلى ركبتيها طفلٌ هامد النَفَس مغمض الأجفان على عيون أطفأت لهيبها عاصفةُ الموت .

وجمت السيدة لهذا المشهد ، فتقلّصت شفتاها ولاح نذير البكاء فى أحداقها ، ولكنّها ما لبثت إن ابتسمت ابتسامة مرّة مروعة وحدّقت بالأم الثاكل كأنها تريد أن ترمي اليها بكلمة عصت مخرج النطق فاستقرّت متلاشية فيه . فقالت الثاكل —

— حملتُه الى الطبيب ، فمات على الطريق .

فضحكت ابنة الجمال ضحكة لن ترسمها ريشة ولن يعرّفها قلم وقالت

— هنيئا لك ، أيتها المرأة ، ليتني كنت أنت ..... إن البكاء على الطفل الميت لأقل روعة وأخف حرقة من البكاء على الطفل الذى لم يولد ..... لقد درّ قلبك حنانا ودرّ نهداك ماء حياة ، فلتسل الدموع من عينيك ، إنها ندى السماء

على زهرة ذابلة ، أما أنا ، فأن بكيت ، فأنما اطرح بالعبرات على صحراء قاحلة وأرض تحترق فيها بذور الحياة .

* * *

ومنذ يومين أممت دار الولادة في الثغر فاستوقفني مشهد أم جالسة على فراشها ترضع طفلة بنت عشرين يوماً ، وقد حدّقت بعينيها كأنهما فما طفلين يتوقان الى نهد .. فما عرفت أكانت الطفلة أوفر رضاعاً لنهد أمها أم عينا الأم لطلعة ابنتها .

لست بالغريب عن حنان العيون ، وما للشعراء من منهلٍ غيرها في الحياة ، رأيت لفتات حنان كثيرة من عيون وعيون ، ولكنني لا أذكر أن رأيت مرة مثل هذا العطف الجائع ومثل هذه الروح تذوب في الآماق . . .

— سلمت طفلتك أيتها السيدة

— ليسمع الله دعاءك ، فأنني اشتريتها من الفناء وجدت بحياتي من أجلها .

وأذ لمحت حركة الاستفهام في سكوني قالت

— تزوّجت منذ ست سنوات فحملت مرتين ، وكان الطبيب في كل مرة يضطر الى تقطيع الطفل في أحشائي احتفاظا بحياتي ، وقد حضرت هذه المرة الى المستشفى وانا واثقة من انني سادفع بجثة من قبر احشائي الى قبر التراب .

عاينني الطبيب الجرّاح فقال بتقطيع الجنين ، بكيت مسترحمة لاعنة حظي العاثر فاستغرق لحظة وقال

— انا بين حياتين لا تسلم احداهما الاّ بتضحية الأخرى ، وقد استعين بالمبضع للاستبقاء على الحياتين ولكنني لست مخيّراً في الأمر فالعملية خطيرة قد تودي بحياتك أيتها المسكينة .

قلت — بحياتك ، أفعل ولا تتردد . . .

وكانت منذ عشرين يوماً ليلةٌ ماطرة عاصفة الريح ، وكانت مضت ساعتان على منتصف الليل ، فاذا بالحياة الكامنة فى احشائي تتحفز للخروج ولا منفذ لها من غير ثلمة يفتحها المبضع .

وما مرت نصف ساعة حتى كان الجرّاح أمامي وقد قطع المسافة الشاسعة من منزله تحت قصف الرعود وأعاصير الأمطار .

— الاّ تزالين مصرّة على اقتحام الخطر ؟

— أريد الولد حياً ولو متّ

— كوني ساكنة ، ولا تخافي فان العناية التى تشدّد قلبك تسدد يدي .

وخيّل لي أن بين أجفان الاستاذ الجرّاح شيئاً يشبه الدموع .

نشقت المخدّر وعاطفة الأمومة متغلّبة في على حب الحياة .

غبت عن الوجود وانا واثقة من أنني اذا أطبقت عيني الى الأبد فأنهما ستنفتحان بعينّي طفلي الى نور الحياة .

ها هي الآن حية تستند الى صدري ، إنني أراها ، أنا أمها فى الحياة ، ولو أنني بقيت فى عالم الموت لكنت أبقى أمها ايضاً ، لكنت أراها بعينيّ روحي اللتين لا تنطفئان .

شخصت بالابنة وأمهـــا ، فاستغرقت لحظة عاينت فيها أصول الاشياء وتجلّت لي فيها الحياة ، الحياة الدائمة التي ينبعث عنها كل شيء ويرجع اليها كل شي .

وشعرت أنّ فيّ كما فى جميع المخلوقات حياةً هي غير الحياة التي نمرّ فيها على المدى القصير بين المهد واللحد ، وأنّ هذه الحياة تجول فى آفاق أوسع وأسمى من هذه الآفاق المحدودة بين المهود والقبور .

كلمة الاستاذ حبيب مسعود

مدير ورئيس تحرير مجلة العصبة فى سان باولو

عن نظرتنا فى كتاب الاستاذ نعيمه

ننقل عن عدد العصبة بتاريخ ٢ يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٣٦ ما دبجته فى هذا الموضوع يراعة الكاتب الألمعى الفذّ الاستاذ حبيب مسعود غير متهيبين ان نورد فى كتاب ننشره كلمات ثناء موجهة الينا لاننا ملزمون بالاقرار بالجميل لهذا الصديق الذى دعانا الى القيام نحو جبران والحقيقة ونعيمه بهذا الواجب .

فليكس فارس علمٌ من اعلام البيان وجبار من جبابرة المنابر ، عرفه الأدب العربي فارسا مجلياً فى حلبته ومرقاً تقطر البلاغة والحجة من شقه . وانه ليغبطنا ان يجرى قلمه اليوم على صفحات « العصبة » فيستمع قراؤها لروائعه وضروب بدائعه . هجر الصحافة منذ عقدين فحرم عشاق أدبه منهلا صافياً عذباً قلما يظفرون بمثله ولكنه كان يروي غلتهم بين حين وآخر بأوشال خواطره فيستزيدونه فتحول شواغل الحياة دون أمنيته . وهو الان مقيم فى الاسكندرية بمصر يشغل منصب كبير مترجمي بلديتها . ولما كنا نعرف صلاته الوثيقة بجبران بعد ان تعرّف اليه في اثناء رحلته الى الولايات المتحدة سنة ١٩٢١ سألناه كلمة فى كتاب الاديب ميخائيل نعيمه بجبران لاعتقادنا ان كلمة يرسلها فليكس هى الحجة التى يركن اليها والمنطق الذى يؤتم به . وقد قال لنا فى الكتاب الذى أصحبه مقاله القيم :

« . . . استفدت من عطلة العيد اربعه أيام لاكتب المقال عن كتاب

نعيمه فى جبران فاذا بالقلم يجنح كاتباً ٣٥ صفحة كبيرة استوجبها التحليل للوقائع التى أوردها المؤلف عن جبران . وقد وقفت عند هذه النتيجة الغير المقصودة حائراً ، لان مجلتكم لن تتسع لهذا المقال برمته ، ولن يرضيكم ، كما لن يرضيني ان ينشر تباعاً . لذلك رأيت أن ارسل اليكم المقدمة وشيئاً من صلب الحديث باثنى عشرة صفحة يكون منها مقال مستقل تقريباً يرضى القراء . اما الباقي فسأسلمه لمطبعة هنا مع محاضرتى التى ألقيتها عن جبران منذ سنتين وهى محاضرة تناولت فيها البحث عن فلسفة فقيدنا وشرحت فيها كتاب « النبي » شرحاً غير موجز وغير مطول . وانى أؤمل ان يتم طبع الكتاب الذى سيقع بحسب تقديرى فى ٢٥٠ صفحة بوقت قريب فتكون هذه المحاضرة مكملة لنظراتى في كتاب نعيمه »

تنشر الان مقال اديبنا الكبير والشوق يلجُّ بنا الى مطالعة كتابه الذى سيكون ولا مراء تحفة من تحف الادب الغالية وطرفة من طرائف المنطق البائنة



كلمة الاستاذ الياس أبي شبكة عن محاضرة

منابت الاطفال

كان الاستاذ الياس أبي شبكة ، وهو مفخرة من مفاخر الأدب العربي بشعره العميق ونثره البليغ ، تفضل وكتب لرسالة المنبر مقدمة مطولة ، تناول فيها مباحث لها شأنها ببيانه الشعري الرصين ، غير ان مرور أربع سنوات على تأخير ظهور الرسالة واضطرارنا إلى ادخال تعديل كبير على صفحاتها الأولى أوجدنا تجاه أمر واقع فحرمنا من ضم ابحاث صديقنا أبي شبكة إلى ابحاث محاضرتنا ، ولعلّنا نوفق إلى نشرها في مجلة أدبية كبرى . مكتفين بأن نقتطف منها الفقرة الآتية عن منابت الأطفال .

* * *

لقد جمعت فى هذه المحاضرة البليغة أو فى هذه العظة الاجتماعية الخالدة عصارة ماتلفظ به الانبياء فلاسفة التوراة وشعراؤها وخير ما فكر به المصلحون فى المجتمع البشري منذ ما باعدت الأهواء والشهوات بين الانسان ونفسه ، على انك عرفت أن تطبع هـذه العصارة بطابع من نفسك ما كنت لأشك يوماً فى أنك أجدر النـاس بأدائه ببيان بليغ وحكمة صادقة .

ولقد استهواني وصفك الرائع لطبقات المجتمع الشرقي المستعير فساده من الغرب فقد أتيت عليه بمنطق في الندر مايجاريك فيه أديب عربي مليء قرائح العباقرة العالميين في الأدب والاجتماع وأتيح له أن يصطبغ بذاتية علمية يفرضها على المفكرين والحكماء .

وانني لأقول بكل ما أوتيت من الصراحة فى القول أن على كل إمرأة وزوج من أي مذهب كانا أن يقرآ محاضرتك هـذه كما يقرآن أي سفر جليل من أسفار الاجتماع ، ففي كل فقرة منها عظة مهذبة رادعة بل وفي كل سطر وكل كلمة .

وإنني لأسأل نفسي ألا يحق لهذه المحاضرة أن تدرج في عداد الكتب الملهمة ، وأن تكون سفراً من الأسفار في توراة القرن العشرين .



تصحيح

صفحة	سطر	خطـــــأ	صـــــواب
٤٣	١٤	الغربيـــة	العربيّـــة
٤٨	٥	تشوس	تشوّش
٩٣	١٣	الخمس السنوات	السنوات الخمس
٩٧	٧	الجنوب	الجبوب
١١٠	١	بدأوا به صلاة	بدأوا به من صلاة
١١٩	٧	ومكتبة	ومكتبه
١١٩	٢١	مالقى	ما أصاب
١٤٧	٣	لنكر	لنكره
١٤٧	١٣ و ١٦	الضمات في البيتين	تنوين
١٤٨	٨ و ٩	القافية بالفتح فى البيتين	بالضم
١٤٨	١٩	خمس كلمات بالضم	بالتنوين
١٤٩	٦	يباغت منهـا الفـكرَ	يباغت منهـا الفـكرُ
		مَنا يتصيد	ما يتصيدُ
١٤٩	١٧	يضحّي	يُضحّى
١٥٢	٢ و	النهيّ	النُهى
١٨٦	١٧	خليلة	حليلة
١٩٤	١٩	وصله	أوصله
١٩٨	٢	تتحضروا	تتحسروا

صفحة	سطر	خطـــــأ	صـــــواب
١٩٨	٢	الظلمعة	الظلمة
٢٠٢	٩	العربي	الغربيّ
٢١٠	١١	أفائدة	الفائدة
٢١٤	٦	العطام	العظام
٢١٨	١٨	على السير	فى السير
٢٤٦	٣	واستنتاجه	استنتاجه
٢٤٨	٤	للملجأ	لملجأ
٢٥٢	٦	مواقفة	مواقفه
٢٥٦	١	فكانت شبيهة	فكانت الشبيبة شبيهة
٣٠٨	٢٠	النشوذ	النشوز
٣١٨	٢٠	ولحاجة	ولجاجة
٣٢٠	١٤	يومى	نومى
٣٣٤	١٣	مغنى	معنى

